



عثمان أحمد محمد نور

ذكريات طياد

نصف قرن من الزمان بين الغابات والأحراش
والجبال بجنوب السودان وجبال النوبة

كتب الحواشي وعلق عليه

د. قاسم عثمان نور

مركز قاسم للمعلومات وخدمات المكتبات

ناشر روني

وزارة الثقافة - الخرطوم



٤٨٢

■ عن المؤلف

الشيخ عثمان احمد محمد نور

- من مواليد الكوه ١٩٠٦
- درس الأولية بمدرس الكوه الأولية
- تخرج من كلية غردون التذكارية
- القسم الابتدائي (الأوسط)
- رفض العمل موظفاً بالبوستة و التلغراف
- انضم الى والده ليعمل بالتجارة و الأعمال الحرة
- بالمديريات الجنوبية و جبال النوبة
- عمل بالتجارة و الصيد و الزراعة
- كانت هوايته الصيد و التي مارسها منذ كان عمره اثني عشر عاماً
- وظل وفيها لها حتى بلوغه سن الشيخوخة.

هذا الكتاب

الكتاب عبارة عن ذكريات و أحداث و مشاهدات سجلها
يراع المؤلف طوال فترة تواجده بالمديريات الجنوبية الثلاث
(أعلى النيل و بحر الغزال و الاستوائية) بالإضافة الى عمله
بمناطق الجبال الشرقية (الليرى)
قرظ الكتاب البروفسور عبد الغفار محمد احمد - استاذ
كرسي علم الأجناس بجامعة الخرطوم - واصفاً الكتاب
كأول كتاب يسطره احد الشماليين ممن يطلق عليهم
مصطلح (الجالابة)

عن المركز

مركز قاسم للمعلومات و خدمات المكتبات

تأسس هذا المركز من أجل المساهمة في تنمية و تطوير المكتبات بالسودان
بكل أنواعها و مسمياتها و تقديم الخبرة و الارشاد و التوجيه في مجال المكتبات و المعلومات





عثمان أحمد محمد نور

ذكريات طيبات

نصف قرن من الزمان بين الفجبات والأحراش

والجبال بجنوب السودان وجبال النوبة

كتب الحواشي وعلق عليه

د. قاسم عثمان نور

مركز قاسم للمعلومات وخدمات المكتبات

ناشر

وزارة الثقافة - الخرطوم

الناشر : وزارة الثقافة بالخرطوم
الخرطوم 2004م
(ح) حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

بالإشتراك مع : مركز قاسم للمعلومات وخدمات المكتبات
الخرطوم (2) شارع إبراهيم المفتي
جنوب وزارة الثقافة
ص . ب 835 الخرطوم — السودان
هاتف : 463380(83)

بريد إلكتروني : Email qasimnur@yahoo..com

رقم الإيداع : 162/2004

يطلب من : مركز قاسم للمعلومات وخدمات المكتبات

المقدمة

يا من ذرأت وبرأت و بسطت الأرض ودحيثها وخلقت الإنسان ليعمرها
وينتشر فيها ويأكل من مناكبها وجعلت من الحيوان زينة لها، نسألك راجين
وندعوك مخلصين ومؤملين أن تأخذ بيدنا نحو الفلاح وتقودنا برحمتك نحو النجاح
،لكل ما يرضيك وتصرفنا عن كل ما لا يرضيك ،وان نصلي ونسلم على سيدنا
محمد النبي الأمي الذي أتيت به جوامع الكلم وخصصته بالبلاغة وأعلى مراتب البيان
وعلى آله وعشيرته الطاهرة وأصحابه الغر الميامين وبعد .

مما يجدر الإشارة إليه قبل الدخول في موضوع الكتاب: وهو تعريف كلمتي
مذكرات وذكريات؛ من حيث التباين في المعني رغم تجانس الحروف، وأنا إذ أفعل
ذلك للضرورة التي تفرضها طبيعة الكتاب ومحتوياته المتنوعة، مما يجذب إليه
طبقة الشباب من الجنسين والذين لم يسعدهم الحظ لزيارة الجنوب ، قد يجدوا فيه
الكثير من المتعة ويزودهم بمعلومات قيمة عن هذا الوطن على سعته وترامي
أطرافه .

أقول وبالله التوفيق :إن كلمة مذكرات لها مدلولها الخاص ومعناها الخاص
من حيث التوقيت، وان يكون الحادث له ساعته وتاريخه اليومي وسنته، كما يجب
مراعاة تتابع الحوادث وأي اختلال في هذا الشأن يفقده الكثير من معنوياته، ومثل
هذا العمل لا يتأتى لكل شخص لأنه يحتاج إلى مؤهلات خاصة وتكوين الشخصية
من بادئ أمرها له أثره .

فكلمة مذكرات أدق وأشمل من كلمة ذكريات ،التي تحمل معني الرجوع
بالذاكرة نحو الأمس البعيد، وتصور الحوادث كما وقعت وتعطيها الحياة من جديد
،وقد يصيب بعضها تقديم وتأخير بعضها عن بعض، بغير اختلال في المعني ولا
تتناقض في المحتوى، ولذلك اخترت لهذا الكتاب كلمة ذكريات، لأتحرر من قيود
المذكرات وادخل ميدان الذكريات بما له رحابه وسعه حتى أعطى نفسي حرية
أوسع في التنقل من حدث لآخر.

تمهيد :

عند منتصف الثمانينات من القرن الماضي ،كنت ما تقدمت خطوة إلا رجعت أخرى أعيش في دوامة مفرغة الحلقات ،تبدأ من حيث تنتهي وهكذا كان التردد هو السمة الغالبة بين أن أسجل ذكرياتي عن الجنوب التي ينوء بحملها كاهلي ، وأن أجمعها في كتاب تنتفع به الأجيال القادمة أو اتركها رغم علمي أن تركها سيخلف في الحلق غصة ومرارة.،وقد انهالت علي التوسلات أولاً وتحولت إلى ضغوط عندما رأوا أن التوسلات لم تجدي ، كان الضغط يشتد علي بالأخص من جانب أبنائي: قاسم والحسين اللذان كانا تبدو علي وجهيهما الحسرة والكآبة كلما شعروا بإحجامي وعزوفي، وقد وجدت نفس الاهتمام من السادة اسحق احمد صديق والرشيد عوض الكريم ومالك عمر بلال حيث كان أشوقهم لمعرفة الكثير منها ، كلما سمعوا جانب منها جاءت بمناسبة إلا وطلبوا المزيد وأخذ علي شاكلتهم الكثير من الأصدقاء "يعيبون علي " هذا التراخي ويلمونني بعدم الاهتمام وبلغ بي الضغط شدته عندما قدم لي الابن قاسم الكثير من التسهيلات ووضع بين يدي الورق والأقلام حائاً إياي بالبده فوراً وأترك له بقية المتطلبات الأخرى ورغم ذلك لم أعط الأمر أهمية كافية ولم أكن جاداً للرضوخ لمطلبهم ولكن في صحوه من ضمير وإشراقة نور من ربي هبطت علي من علٍ في حالة صفاء تبددت علي إثرها تلك السحب القاتمة التي كانت تحجب عن ناظري هذه الرؤى وتبين لي من خلالها خطأ ما كنت عليه كما أوحى لي وعلى سبيل الذكرى إنني أسير سيراً حثيثاً نحو غايتين لأبد من إحداهما أما الأجل المحتوم وهو مصير كل حي أو أن تهاجمني الشيخوخة وأول درجاتها فقدان الذاكرة وإرتعاش الأيدي أو عمي العينين أياً منها تقف حائلاً دون الكتابة وفي كلا الحالتين سأكون قد أورثت أبنائي الحسرة والندامة نتيجة عناد لا طائل من ورائه وهم لا يملكون أكثر مما قدموا من إلحاح وضغط وتشجيع فحز ذلك في نفسي مما جعلني أتخلى عن عنادي هذا من ناحية .

أما الناحية الأخرى التي كان لها الأثر البالغ في هذا التغيير المفاجئ حالة

الفوضى التي عمت الجنوب وحالة الخراب والدمار الذي أصاب المدن والقرى والأرياف بسبب الحرب الدائرة هناك ولم تخب أوارها ولم يجد أهلها أمناً ولا استقراراً . وقد شمل الخراب كل مرافق الحياة وأصبح الجنوب أتون يغلي وجمر يستعر حتى ضاق به أهله ذرعاً فهجره من هجر ونزح عنه من نزح وأصبح لا تـري إلا مساكنهم فحدث و لا غرابه عن تلك الغابات التي كانت روضة من رياض الجنة وهي عامرة بحيواناتها المختلفة تسرح حرة طليقة تغني طيورها وتغرد بلابلها فسكنت تلك الأصوات تحت هدير المدافع وفرقت الطلقات التي جاء بها الخوارج ليقـتل بها أخيه الجنوبي دون هوادة ولا رحمة فعاثوا في الأرض فساداً ودخلوا الغابات وأخذوا يفتكون بكل من فيها من إنسان أو حيوان وأخلوها إلى درجة الإبادة بالنسبة للحيوان بنوعيه الأليف والمتوحش استعرضت كل ذلك وشعرت وفي النفس قبضة وفي القلب حسرة فجنوب اليوم يختلف اختلافاً جذرياً عن جنوب الأمس الذي كان قبلة أنظار العالم . أما جنوب الغد فسيكون أسوأ حالاً إن لم تدركه يد العناية الربانية تثير حفيظة طائفة من أبنائه المخلصين فينقذوا ما يمكن إنقاذه وفي أسرع فرصة ممكنة وإلا سيجيء اليوم الذي نجد فيه الجنوب الحبيب أرض خالية من إنسان أو حيوان فهل في ذلك ما يرضي جون قرن ورفاقه ويصبحوا (بوم السودان الذي يعجبه الخراب).

لهذه الأسباب مجتمعه جمعت شجاعتي وطردت هواجس الأمس ولم ألق بالاً للسلبيات تاركاً كل ذلك إلى ما سيأتي به الغد من قبول أو رفض لهذه الذكريات من الأجيال القادمة التي لم تولد بعد لأنهم هم أصحاب الكلمة الأخيرة بعد أن وضعت بين أيديهم صورة لجنوب الأمس الذي لم يروونه بأعينهم فلينظروا إليه من خلال ذكرياتي هذه فهي إن لم تعط الصورة الشاملة والكاملة بكل ما يحويه جنوبهم الحبيب من نعم وخيرات كانت ملأ العين والبصر لكنه سيجد جهد المقل وأنا إذ أقدم هذا المجهود الذي لا حق لي أن اسميه عظيماً من ناحية القيمة والنفعية لكنه عظيماً من ناحية الجمع والتبويب وما استغرق من وقت ولا هدف لي من وراء ذلك العمل

شهرة أجري وراءها ولا طمعاً في مال اقتنيه لكن كان الغرض أسمى وأنبل أولاً
لأنال رضا الأبناء والأصدقاء وتنقيساً مما كنت أحمله من هذه الذكريات التي أثقلت
كاهلي وخشيت أن ارحل بها إلى دار الفناء فتفني ويغيبها القبر فتحرم الأجيال
القادمة من أي معلومات أو إشارة إلى تلك الحقبة من الزمن ولقد فات الأوان لمن
يريد أن يأتي بمثلها أو ينسج على منوالها حيث طويت الصحف وجفت الأقلام ولن
ترجع عقارب الساعة إلى الوراء .

الفصل الأول

البداية

في أواخر الحكم التركي كان السودان نعمة موجه من الفوضى من حيث سوء الإدارة لا يحكم بقانون ولا يتقيد بدستور ولا كلمة لضعيف بسبب الفساد المستشري الذي عم كل مرافق الدولة لا عدل ولا إنصاف وأشدت الضغط على الشعب خصوصاً في الجزء الشمالي ولو أضفنا إلى ذلك قسوة الحياة وخسونة العيش التي تنتج عادة عن عوامل طبيعية كعدم وفاء النيل وهو عمدتهم في الحياة أما أن ينخفض ولا يفيض إلا بالقدر اليسير فلا يغمر أراضي الجزر أو يغطي أرض الجروف وأما أن يرتفع ارتفاعاً جنونياً فيسبب الهدام وهو أكبر أعداء سكان الشمالية فيقتلع شجيرات النخيل ويجرف الأرض أو يجرف الجزر وترحل من هنا لتستقر في مكان آخر فالنيل والأرض هما الحياة لأن لا حياة غيرهما وفي حالة التوسط ما بين حالتي النيل يرتفع دخل الفرد ويأتي بمحصول وفير مما يعود عليه بالرفاهية ولهذا بدأ سكان الشمالية نحو الهجرة إلى الجنوب حيث الطبيعة أرحم وإن أخلفهم النيل فالأمطار كفيلة بسد النقص.

وفي يوم من الأيام اجتمع ثلاث أخوة هم محمد صالح وهو أكبرهم ومحمد يليه في المولد واحمد وكان أصغرهم أبناء محمد نور وفي مسقط رأسهم ارتموقه (1) وقال أكبرهم مخاطباً أخويه وكان غير متزوج وقال لا شك إنكم تشعرون بهذه الضائقة التي ألمت بالناس مما جعل الكثيرين منهم يهاجرون نحو الجنوب بحثاً عن حياة أفضل ونحن سنلحق بهم عاجلاً أم آجلاً أما ترون من الأفضل أن نفكر أن نلحق ببقية الأهل والعشيرة قبل أن تأخذ الضائقة بتلابيبنا فنضطر إضراراً وما دام أبوانا قد أختارهما الله لجواره عليهما رضوان الله . فوجد منهما تجاوباً وأجمعوا على رأي واحد هو ترك هذه الديار . وفي يوم من الأيام ودعوا أهلهم وأختين لهما تحت زوجين من أبناء عموماتهم . حملوا معهم جراباً من التمر ليكفيهم غائلة الجوع أثناء سفرهم إن لم يجدوا قرى فكان الحل والترحال حتى وصلوا مدينة أمد رمان وانضموا إلى من سبقهم من الأهل وطاب لهم العيش

حيث وجدوا في التجارة ضآلتهم يدخلون السوق سحابة نهارهم ليعودوا في المساء إلى منازلهم بما غنموا من ربح والمخللة مليئة بأنصاف الطعام من لحم وخضر وأشياء أخرى . أما الشقيق الأكبر محمد صالح لم ترق له هذه الحياة الجديدة ربما وجد من أصدقائه ما أغراه بمزاولة تجارته خارج المدينة وجاءهم يوماً وشرح لهم ما عقد عليه العزم فلم يفلحوا في إقناعه عن العدول عن هذه الفكرة فأصر وودعهم وهما غير راضين إنقطعت أخباره وبعد فترة جاء نعيه فقد وافته منيته في دارفور وكان لا زال الحكم التركي فيه بقية من رمق والفوضى والفساد وانعدام الأمن هي السمة الغالبة على الوضع في تلك الحقبة وبالتشاور مع بعض الأهل استقر الرأي على ترك أمد رمان(2) إلى جهة تكون أكثر أمناً وأحسن عيشاً فكان التنقل على ظهور الدواب . وساروا بمحاذاة النيل الأبيض متقلبين ما بين القطينة والقراصة ثم إلى شات(3) وكان لها سوق كبير تتقاطر عليه وفود من نواحي عديدة من بينها قرى كردفان يحملون بضائعهم على ظهور الجمال كالسمسم والفول السوداني وريش النعام والصمغ العربي وبقية المحاصيل الأخرى وكان لابد من ميناء على شاطئ النيل الأبيض لترحيل هذه المحاصيل بواسطة المراكب الشراعية فكان موقع الدويم الحالي هو أنسب مكان . كان ذلك قبل أن يخلق الدويم بل كان يطلق عليه (دويم شات) أي مصيف أهالي شات يتخذونه مصيفاً بسبب شح الماء بالنسبة إلى الإنسان والحيوان مما يضطرهم إلى مجاورة الماء وقد تخلوا من السكان في أوائل فصل الخريف وبعد فترة من الزمن كانت تشاركهم السكني في هذا الموقع قبيلة الجعافرة الذين هاجروا من صعيد مصر ودخلوا السودان وهم مزودون بخبرة عظيمة في شأن الزراعة وتنوع المحاصيل ووجدوا في هذا المكان كل ما يحتاجون إليه من أرض وماء فطاب لهم المقام واتخذوه موطناً لهم تحت إسم الدويم بعد أن عرفوه بالألف واللام وحذفوا كلمة شات وكان الأخوان محمد واحمد يعملون بالتجارة وعلى ظهور الدواب يطوفون القرى والحلال يحملون الدمور(4) والزراق(5) سلاحهم السيف والتركاش وهو عبارة عن حراب صغيرة خفيفة

يجمعها بيت من الجلد يشبه الكنانة بالنسبة للسهم ولا تزيد عدد الحراب عن سبعة وربما أقل ثم تربط على سرج الدابة عن يسار الراكب لتكون في متناول يد الراكب عند اللزوم وكان لا يثنيهم عن عزمهم كثرة المخاطر التي يتعرضون لها أثناء تجولهم من اللصوص وقطاع الطرق (بعدها خطر ببالهم زيارة أهلهم الذين سبقوهم نحو الكوة في تلك الأيام بدأت حركة الإمام المهدي على جبل قدير حيث بدأ بجمع جيشه للزحف نحو الأبيض لم تشغلهم هذه الحركة عن تجارتهم لكنهم يراقبونها باهتمام وكان خط سيرهم التجاري يقف عند المناطق المجاورة لهم من جنوب كردفان. وفي مرة يتخلف محمد بسبب وعكة أصابته وسافر أحمد في تجارته وفتحت له الرحلة آفاق جديدة وتوغل في أرض جنوب كردفان وأطراف جبال النوبة حتى وصل إلى جبل الليري وجعل من قرية أم شطة مركزاً لتجارته وكانت ولا تزال تسكنها بطون من عرب الكواهلة مع سكانها الأصليين من النوبة واتخذ من مشاهير رجالها أصدقاء ومن خيرة الرجال وكان لهم عوناً في كل مدلهمة وسنداً عند كل ملمة ولا زال أحفادهم يذكرون له أفضاله على آبائهم وأجدادهم حتى يومنا هذا . وعندما زرت قرية أم شطة في أول زيارة لها عام 1929م وجدت بعض الرجال المسنين الذين شاهدوه لا زالوا على قيد الحياة وما أن علموا أنني ابن ذلك الرجل وشاع الخبر تجمعوا حولي وأكرموا وفادتي وقابلوني بالود والترحاب ولقيت منهم من التقدير ما أثلج صدري.

عاد والدي بعد هذه الرحلات إلى وطنه الجديد بنفس الطريق وهو يحمل معه ما غنمه من تجارته وقضي فترة من الزمن للراحة والاستجمام وهو يتهيأ لرحلة أخرى لكنه رأى أن التجارة على ظهر الدواب محدودة ولا ترضي طموحه ولا تفي بالغرض الذي يهدف له من وراء هذه المهمة وأراد أن ينقلها إلى رحاب أوسع ووجد في المراكب الشراعية خير معين له وفي نهر النيل متسع لتحقيق طموحاته وكان في القرى المجاورة لمدينة الكوة رجالاً ذو خبرة في صنع المراكب وبنائها فصنعوا له أول مركب . ولما كانت خبرته في علم البحار قليلة اتخذوا لها ريساً

ونوتيّه يقوموا بأمر المركب ويتفرغ هو للعمل التجاري ، وكانت رحلات موسمية تبدأ في شهر أكتوبر حيث يبدأ فصل الشتاء ويعود بعدها في أوائل يونيو عند بداية فصل الخريف من كل عام.

ولما كان سكان ضفاف النيل الأبيض خليط من عرب سليم وبعض بيوتات الشلك ومن هذا الاختلاط تغير نوع التجارة وتعددت وجوها لكل قبيلة بضاعتها الخاصة وكان في المراكب متسعاً لكل ذلك فكان ملح الطعام يشغل الحيز الأكبر من المركب حيث الطلب والإقبال عليه عظيماً لحاجتهم إليه في حياتهم اليومية والاحتفاظ بكميات منه تكفي لمدة الخريف ولما كانت العملة غير متوفرة لديهم بسبب ضعف الحكم التركي فكانت المعاملة عن طريق المقايضة ذهباً كان أم فضة أم محصول أو حيوان .

تغير الوضع قليلاً بعد أن كتب النصر لثورة المهدي وسقوط الخرطوم وقد اضطرب حبل الأمن وعمت الفوضى بعد وفاة المهدي عليه السلام وآل الحكم على خليفته عبد الله التعايشي اقتصرت رحلاته النيلية على القرى القريبة من الكوة بعدها ليتفقد أحوال الأهل والعشيرة ويزور أخيه حتى وقعت الفتنة (6) التي كادت أن تؤدي بحياة الكثيرين من سكان الكوة بالأخص الدناقلة كما كان يسمونهم أما الفتنة باختصار عدم رضا الخليفة شريف عن بعض تصرفات الخليفة عبد الله بسبب وضع كل السلطة في أيدي التعايشة والبقارة وقربهم إليه ليكونوا سنداً له ولخلافته وأخذ يبعد عن السلطة كل من له صلة قربي بالإمام المهدي (ع س) وخشي الخليفة شريف على حياة الكثيرين من أبناء وأقارب المهدي (ع س) أن يفتك بهم الخليفة عبد الله التعايشي للتخلص منهم حتى يأمن مكرهم وعزم على مقاومة الخليفة عبد الله وإعلان الحرب عليه وطلب من أهالي الكوة ومن الدناقلة خاصة أن يبايعوه بالخلافة ويحاربوا معه حتى ترجع المهديّة كما كانت نظيفة خالصة لله ولرسوله . وما أن وصل الرسول واجتمع برؤساء القبيلة وأعيانهم فوجد منهم تجاوباً ووعدوه بنصرته عندما يطلب منهم ذلك وكانوا غير راضين عن سلوك الأنصار الذين

عملوا سلباً ونهباً في الأموال وهم لا يملكون عمل شيء فكانت هذه البادرة ربما تكون بادرة خير تزيج عنهم. هذا الكابوس والعدو المتسلط وقبل أن تقع المبايعة إنكشفت المؤامرة ووصلت إلى الخليفة عبد الله فأرسل كوكبة من فرسانه وجند من المرتزقة تحت إمرة أحد أعوانه وطلب منه بأن يأتيه بكل دناقلة الكوة مشعبين حتى ينظر في أمرهم وكلمة مشعبين تأتي من كلمة (شعبة) هي خشبة ذات قرنين توضع القرنين على رقبة الرجل وتربط قرنيها بجلد البقر النئى حتى لا يستطيع التخلص منها يوضع طرفها الآخر على كتف رجل آخر يسير أمامه وذلك مبالغة في إذلالهم لما إرتكبوه من جرم .

وكان الوالد من بينهم وصلوا أمدرمان وهم على هذه الحالة وكان عبد الكريم الدفاري (7) أمير للرأية الزرقاء (8) وملازماً للخليفة وكان مشهوراً له بالشجاعة وقوة البأس وكان مخلصاً في حبه للمهدية ولما علم مقدم أهله وعلى هذه الحالة المشينة تملكه الغضب وزهد الحياة وإعتبر ذلك تجاهلاً متعمداً للدور الذي قام به في نصرة المهدية وتقليلاً من شأنه أمام إخوانه الأمراء فانتهاز فرصة فراغ الخليفة من صلاته وبين علمائه وخواصه إذ تقدم ممسكاً برأس السيف وأرسل مقبضه نحو الخليفة وطلب منه أن يأخذ برأسه فتعجب الخليفة والحاضرون من هذا التصرف وما الذي حمله على ذلك فاتجه الخليفة نحو جلسائه وخاطبهم قائلاً (هاي الأمير عبد الكريم شوطن) أي هل مسه الشيطان ولم كل ذلك فبادره الأمير عبد الكريم قائلاً أنت وليتني على قومي وأنا ملازماً لك وطوع إرادتك أفديك بروحي ودمي فان حصل من قومي ما رأيته خروجاً أو إستكرت أمراً فكان الأجدر أن تستشيرني في أمرهم وهنا تدخل بعض الخيرين طيبوا خاطر الخليفة وطلبوا منه التسامح فيما إرتكبه من حماقة سببها الغضب فتنفس الصعداء وطلب منه أن يستغفر عن ذنبه وعفا عنه . أما قضية المتشعبين فلم تحل بعد ولا يمكن التكهن بما يضره الغيب ولا بد من المثول أمام الخليفة وقد أودعوا السجن مع تشديد الحراسة . فقال الحكماء والعقلاء من خارج السجن لابد من كبش فداء يضحي بحياته فداء للقبيلة وأجمعوا

على شخص واحد ونقلوا هذا الإجماع إلى السجناء ليقولوها بلسان واحد وفي الغد جلس الخليفة بين قضاته وأمر بمثلهم بين يديه فوقفوا صفاً واحداً طويلاً تحرسهم الجهادية وأخذ يخاطبهم وهو في أشد حالات الغضب فتقدم الأمير عبد الكريم للمرة الثانية وخاطبه وفي رباطة جأش قائلاً هم أهلي وعشيرتي وأنا أعرف مقدار حبهم للخليفة ولو علمت منهم غير ذلك كنت أول من يتصدى لهم وهم جنودك وأعوانك ولا تسمع فيهم كلام الدسائس والمغرضين فخف غضب الخليفة وانطلقت أسارير وجهه قليلاً وقال مخاطباً المعتقلين من الذي جاءكم بهذا الخبر وأراد أن يزوج بكم في هذه المؤامرة فقالوا بصوت واحد (مرسال بحر أبيض) قال أين هو المكنوس فلم يره أحد بعد ذلك القول ولم يودع في السائر ربما قتل قبل وصوله للسائر (9) .

انتهت دولة المهديّة وجاء الحكم الثنائي واستتب الأمن وفتحت المراكز والمدارس ونشطت التجارة وفتحت الحكومة زراعيها لكل تاجر وصانع وعامل من أبناء الشمال وأسسوا أول مديرية في أعالي النيل وجعلوا كدوك عاصمة لها والتي لا تبعد كثيراً عن فشودة المدينة المقدسة لدى قبيلة الشلك التي باركها الإله عندما استقر بهم المقام في هذه البقعة وجعلوا منها مقراً للمكوك ويعتبر أي شئ في هذه المدينة مقدساً وسنوفيتها حقها إن شاء الله في وقت لاحق أما مدينة كدوك أسست على أن تكون مركزاً إدارياً ومقراً للمدير البريطاني وكانت المراكب الشراعية تخرج عباب النهر متجهة نحو المركز الجديد وما أن وصلت ألقت مراسيها على الميناء حتى قبلوا بالترحاب وبالحفاوة البالغة من الأهالي ونشروا بضاعتهم تحت ظلال الأشجار وبدأت المعاملة بالعمليتين المصرية والبريطانية بعد أن كانت عن طريق المقايضة في سابق رحلاتهم ولما آن أوان الرحيل بعد إنتهاء الموسم بدعوا يستعدون للعودة كعادتهم وبرجاء من مفتش المركز تخلف بعضهم ليقيموا سوقاً ثابتاً لمساعدة الأهالي ليجنوا حاجتهم فكان له ما أراد واختار الوالد أحد أقاربه ليأسس متجرّاً بعد أن مده بالمال ووعدّه بأن يمده بأنواع البضائع كلما وجد فرصة لذلك ومكثوا معه أياماً أخر ليساعده في بناء المتجر حتى اكتمل . وودعوه وفي الرحلة

التي تلت ذلك جاء أبي بمركبه وهي محملة بشتى أنواع البضائع وزاد من كمية الحديد المصنع كحراب(10) وكواكيب وملاييد وبديقات علاوة على الخرز وأشياء أخرى وعند وصوله لكدوك ترك جزءاً منها لوكيله وإتجه نحو التوفيقية التي كانت مقراً لرئاسة الجيش الفاتح وكانت منطقة عسكرية ثم توسعت بعد ذلك وألّفت حولها الملكية وبعض الشلك واستوطنها أفراد الجيش الذين تم تسريحهم وفي وقت قصير إتسعت رقعتها ومن هنا بدأت رغبة الوالد أن يستقر هو بنفسه لما رأى ما تصرف من أموال كمرتبات للجيش وما يتطلبه الجيش من مبانٍ وخدمات أخرى فلم يتردد بعد أن لقي من السلطات الموافقة ولم يكن هو وحده الذي منح حق الإقامة بل كان هناك بعض الوافدين بمراكبهم الشراعية كان من نصيبهم حق الإقامة .

ومن هنا لابد من وقفة أمام اسم التوفيقية(11) ومن أين جاء هذا الاسم وهل هو إسم أصيل في المنطقة وأين هو الآن لا وجود له على خارطة السودان أقول للسائل الكريم إنها سميت بهذا الإسم نسبة للخديوي توفيق باشا تخليداً لذكراه ولم يجد البريطانيون بدءاً من الرضوخ لهذه التسمية لأن مشاركة الجيش المصري في فتح السودان لا غبار عليه ولكن بعد إتساع رقعة المدينة وأصبحت مركزاً تجارياً يشار إليه بالبنان أفزعهم ذلك وهم ينظرون إلى المستقبل البعيد بدأوا يفكرون في حيلة يمحوا بها أثر هذه المدينة فكان لهم ما أرادوا تحت حجة وجودها في أرض غير صالحة وتقع بين التيجان(12) التي يكثر فيها توالد الناموس وتلوث الماء علاوة على ضيق مساحة الأرض التي لا تواكب العمران الذي سيصيب المدينة في مستقبلها فصدر أمراً بإخلائها والرحيل إلى ملكال الموقع الجديد في عام 1916م إنتقلت المدينة بمؤسساتها المختلفة التجارية والحكومية وتبعثها بقية السكان وأصبحت خراباً ومرتعاً للبوم* إلا من بناية واحدة جعلوا منها مكتباً يتبع مصلحة الغابات حيث بدأوا في زراعة أشجار السنط وخلافه . وبذلك مات إسم التوفيقية وأمثالها كثير في السودان من حيث ما أصابه التغيير من أسماء مصرية تم إستبدالها بأسماء سودانية إمعاناً في التكرار .

عود على بدء

وبعد عودة الوالد من إحدى رحلاته أقترن بالوالدة (13) في عام 1904م ليست بالغريبة عنه بل تربطهم صلة القرابة وتقديراً للدور الذي كان يقوم به جدي لأمي من مساعدات له في عمله التجاري وكان ينوب عنه في بناء المراكب والإشراف عليها أثناء عملية البناء ثم تجهيزها وسفرها نحو الجنوب وفي عام 1906م كنت الثمرة الأولى لهذا الزواج نشأت بين أبوين توفرت لديهم كل أسباب السعادة من رغد في العيش وسعة في المال ولا أريد أن أزيد لأن الموقف ليس مكان تفاخر ولا تباهي يغنيني عن ذلك الشهود الذين لا زالوا على قيد الحياة .

بدأت حياتي التعليمية في السادسة من عمري حيث التحقت بإحدى خلوي المدينة وكان على رأسها الفكي وقيع الله من حفظة القرآن ومن أبناء رفاة وكان جاداً في عمله إلى درجة القسوة هدفه أن يحفظ الطالب لا يتهاون لا في كبيرة ولا في صغيرة كنت مواظباً مجتهداً حتى تمكنت من حفظ الأربعة أجزاء الأخيرة وشرفت في اللوح سورة الذاريات وأنا سعيد بهذا التقدم وفي ضحى يوم من الأيام فوجئت كغيري من الحيران بمأمور المركز مصري الجنسية فوجئنا به وهو يدخل فناء الخلوة مسترجلاً عن صهوة جواده ويفتح الفكي بالمهمة التي جاء من أجلها وهي إختيار بعض الحيران للمدرسة فأذعن الفكي لأمره ونادى في الطلبة فاجتمعنا في شكل دائري يتوسطنا المأمور والفكي فأختار منهم من إختار (14) وأنا من بينهم وطلب من كل منا أن يحضر لوحه فجئت بلوحي وعليه الشرافة وفي وسطها أول سورة الذاريات وكان الخط جميلاً وبعد أن قيد الأسماء قال الفكي أن هؤلاء الأولاد أمانة عنده ولا يحق له القبول أو الرفض ولكنه سيرفع الأمر إلى أولياء أمورهم وكنت أول من وافق حيث كان الأمر بيد جدي لأمي لسبب غياب الوالد في الجنوب وكنت بلغت السابعة وكنت كبقية زملائي نعمة الفرحة لهذا الانقلاب المفاجئ من حيث النظام والدراسة وقد تخلصنا من الجلوس على الحصباء داخل الخلوة وعلى الرمضاء خارجها عند أول الزوال وهنا لا بد من نبذة يسيره وبإختصار عن مدرسة

الكوة ومتى نشأت وما هو دورها في المجالين السياسي والاجتماعي وهذا الحديث
يجرنا إلى ذكر نبذة عن تاريخ الكوة نفسها فمن أين جاء هذا الإسم العربي . معناه
الأشجار اليابسة بين الغابة فهو إسم دخل المنطقة بدخول العرب الذين طاب لهم
المقام مع قبيلة الشلك وهم السكان الأصليين وقد تلاشي إسمها الحقيقي الذي كان
يسمونها به أهلها من الشلك وفي عهده ما بعد ذلك تسمي دومة أليس وكل هذه
الأسماء شملها النسيان وصمد اسم الكوة(15) وكان مركزاً هاماً منذ أقدم العصور
وعندما قامت ثورة المهدي (ع س) قال شاعر هم :

المهدي أب نوراً ضوه الكمل ترك الكوة

مما يدل على إنها كانت مجعاً للأتراك كجيوش وسكان وبعد الفتح الثنائي
أسس أول مركز بعد مركز القطينة وكان مركزاً إستراتيجياً لمراقبة ومتابعة فلول
جيش الخليفة بعد إستشهاده في أم دبيكرات وكعين ساهرة لمعرفة ما يجري داخل
الجزيرة أبا معقل الأنصار خوفاً من تجمع فلولهم وتوحيد صفوفهم ولذلك أنشأ
المركز وتأسست المدرسة في وقت واحد ولا زالت البنائيتين بحالة جيدة تؤدي
وظيفتها كدواوين للحكومة أو كمدرسة أما إسهامها في المجالات الأخرى فما عليك
ألا أن ترجع بذاكرتك إلى الورااء قليلاً فتجد في كل مؤسسات الدولة إلا وبها أحد
أبناء الكوة فكان منهم الوزير والمدير والعالم والمهندس والطبيب هذا على سبيل
المثال وأما قواتها المسلحة فقد إنتظم في عقدها الكثيرون واحتلوا أكبر الرتب
وكانوا جميعاً محل إعجاب الرؤساء لما لمسوه من حب وإخلاص لوطنهم وأمانة لا
تشوبها شائبة فدورها مشهود وإسهامها في كل المجالات غير منكور .

إنتظمت في سلك الدراسة وكانت صباحية ومسائية إكتفوا بعدها بالصباحية
وتبعاً لذلك فقد نتج فراغ كبير فكنا نقضي بقية النهار في صيد العصافير والقمري
وتدرجنا حتى وصلنا درجة صيد الأرناب في أيام العطلات بواسطة الكلاب وكنا
أربعة زملاء نسير بالكلاب بين أشجار الكثر(16) واللوت(17) وفي يد كل منا
أكثر من عصا خاصة تسمي بالمجداع(18) لترمي به الأرناب أثناء مرورها

بالقرب منك وكنا نعود وبأيدينا ما غنمناه .

وهنا لابد من أن أقف بك قليلاً لأعطيك فكرة عن السلم التعليمي وبإختصار كان المنهج التعليمي على عهدنا كان منهجاً علمياً راقياً يختلف عما عليه اليوم إن لم يختلف في المادة لكنه يختلف من حيث المقرر فالطالب في السنة الثالثة وهي آخر مراحل التعليم الأولى كانت مقرراته من اللغة العربية عالية المستوى وفي مادة الحساب مثل ذلك وفي جميع أوجه التعليم كانت كافية بأن تعين الطالب على شق طريقه في الحياة ويكون مؤهلاً تأهيلاً علمياً لا بأس به وعنده ما فيه الكفاية وهو خريج السنة الثالثة الأولية إن لم يجد فرصة الالتحاق بالإبتدائية حيث كانت فرصها محدودة ولكن ما عنده من معلومات إكتسبها في السنوات الثلاث من حساب أو لغة عربية ومشتقاتها تؤهله للخوض في أمهات الكتب العلمية منها والأدبية مهما كانت نوع اللغة المستعملة فلسفية أو فنية لا تحتاج إلى الرجوع للقواميس لتبحث معني كلمة إلا في حالات نادرة ولو قارنا بين طالب تخرج من السنة الثالثة وآخر تخرج من السنة السادسة في وقتنا الحاضر تبين لنا الفارق العظيم بين الحقتين خذ مثلاً : دخل علينا ونحن في السنة الثالثة ناظر المدرسة جاعنا منقولاً من الأبيض طويل القائمة قوي البنية تدل ملامحه على الجدية والصرامة إسمه عبد الرحمن الشايعي وكان ذو إلمام باللغة العربية وتوابعها إقتحم علينا الفصل في حصة النحو وأراد أن يسبر غورنا ومدي ما إستوعبناه عن سابقه من مقررات هذه المادة نريد وعلى عجل أن نصرف كان وأخواتها وعلى كل طالب إبتداء من أول الصف أن يبدأ بكان ثم الذي يليه بالفعل الذي بعده وكل يجيب إجابة صحيحة ويجلس حتى وصل إلى أحد الطلبة وكان من نصيبه (ليس) وكان يكفيه أن يقول جامد ممنوع من الصرف ويجلس آمناً ولكن رهبة الناظر وخوف الطالب من العقاب شل تفكيره وصرفها كفعل من كيس فقال كيس ليس كيس فضج الطلبة من الضحك مما أغضب حضرة الناظر وكان جزاؤه بعض الجلادات من سوط كان يحمله علاوة على حبسه ساعتين بعد خروج الطلبة ليقرأ خلالها الموضوع حتى يستوعبه .

كان نشاط الطالب لا يقف عند فناء المدرسة بل تعداها إلى الشارع وفي نياالي السمر وأينما وجد طالباً أو طالبين يتفاخر ويتباهى بما حفظه من أشعار العرب الجاهلية منهم أو ممن أدرك الإسلام . كانوا يقيمون الندوات ويطارحون الشعر بأن يأتي الأول بيت من شعر تنتهي قافيته بلام مثلاً فيجيبه الآخر ببيت له أوله لام ويجعلوا حكماً ثالثاً ليرقب الموقف فإذا ما لحن في كلمة مرفوعة فنصبها أو العكس إستوقفه الحكم وطلب منه إعراب الكلمة الملحونة فإن رجع أحتسبت عليه غلطه وإن أصر رفع الأمر في الغد إلى مدرس اللغة العربية حتى يقول كلمته وقوله الفصل هكذا كان إقبال الطلبة على العلم مع التوسع في المقررات ولا يخرج الطالب في آخر النهار وإلا في جيبه ورقة تسمى الواجبات يدرسها ليلاً ويجئ بها في الغد وهي مستوفية الغرض هذا ما كان عليه التعليم الأولى وكيف بدأ بداية طيبة تبشر بنهضة علمية توسع من مدارك الطالب وتعويضه عما فاتته في تلك السنوات المظلمة أيام الحكم التركي والمهدية .

وفي عام 1917م جاء المستر يودال وكان يشغل مفتش أول للمعارف ودخل الفصل وكانت الحصة حساب يقوم بتدريسه السيد إبراهيم عمر النحاس وكان شاباً في مقتبل العمر متفوق في علم الرياضيات يرجع له الفضل في كل ما وصلنا إليه من هذه المادة وما أن جلس على المقعد خلف المنضدة المعدة للمعلم الذي كان يقف بجواره نادى المعلم أخرجوا كراسات الحساب إفتح صفحة جديدة وهنا أخرج المفتش ورقة من بين لفافة كان يحملها وقال ألمي عليهم هذه المسألة فبدأ يملئها علينا ونحن نكتب حتى فرغ ثم قرأها مرة أخرى وأردفها بثالثة ونحن نتابعه بإهتمام ثم أمرنا بحلها وانكفأ كل منا على كراسته وساد الفصل صمت رهيب وكأن الطير على رؤوسهم إلا من صرير أقلام أو فرقة الورق الذي تسببه الريح المنبعثة من النوافذ وكان المفتش والمعلم يقومان بمهمة المراقبة وكانت مسألة حسابية ليست بالصعبة لكنها طويلة الحل متداخلة إستغرقت من الوقت ما يزيد عن نصف الساعة ثم بدأ تسليم الكراسات وكانت عملية التصحيح فورية يقوم بها المعلم ثم يرفع

الكراس إلى المفتش للمراجعة وكان السيد إبراهيم قد عودنا بأنه عندما يجي أول طالب بكراسة وكان حله للمسألة صحيحاً يكتب له في كراسه بالحبر الأحمر (فتح الله عليك) وللثاني (فائق) والثالث (أحسن) والرابع (حسن) تشجيعاً للطالب وفي هذه المرة لم يبخل بذلك ولما جاء دوري كنت الخامس وقد أصبت الحل الصحيح خاطئاً أن الذين جاءوا من قبلك إستأثروا بالجوائز الأربعة ولم يبق لدينا ما نعطيك فضحك المفتش عندما شرح له معني قولته وقال إنه أسلوب طيب ويقرب بين الطالب ومعلمه وأكبر منه هذه الروح وأعطى الكراسة إلى جناب المفتش ووضع العلامة المعهودة ولم يكتب بذلك وأخذ يقلب الكراسة ورقة ورقة ووجدها كلها عبارة عن حديقة من الزهور يمثل حبرها الأحمر زهرة الورد وبياض الورق زهرة الفل والياسمين المداد الأسود يمثل أوراق هذه الزهور وما بين السطور يمثل جداول الماء الذي يمد الحديقة بالحياة مع جمال الخط وحسن التنسيق ما بين الحروف والكلمات والأرقام وكأنها نسقت بيد فنان مبدع ورسام ماهر يضع اللمسات الأخيرة للوحة فنية لكليوباترا أو لماري أنطوانيت فاعجب أيما إعجاب وكتب على الكراسة بخط يده (جدع) ثم كتب إسمي مع الذين سبقوني في مذكرته ثم تتابع تسليم الكراسات إلى أن انتهى من آخر طالب وخرج ليمر على بقية الفصول وانتهى من مهمته في وقت وجيز بعدها ضرب الجرس وخرجنا من الفصول ووقف الطلبة في طابور يتوسطهم المفتش والقائمين بأمر التعليم وقام المفتش خطيباً وأعلن عن اختيار سبعة من الطلبة ليكونوا بالخرطوم في أول العام القادم ليجلسوا للإمتحان وكنت أنا من بينهم ولما جاء الموعد تخلف أربعة بسبب رفض أولياء أمورهم وأقلتنا الباخرة (كايرو) إلى الخرطوم وجلسنا للإمتحان مع بقية الوافدين من أنحاء السودان الأخرى وجاءت النتيجة بالقبول بعد أن كان ترتيبى الحادي عشر حيث كان محمد عباس أبو الريش (19) يفوز بالمرتبة الأولى ومالك الجزولي من أبناء الشمالية نال المرتبة الثانية أما الثالثة فكانت من نصيب الدرديري أحمد إسماعيل (20) وإنظمتنا في سلك الدراسة . هذا مجمل القول وسنعود للتفاصيل

في فرصة قادمة إن شاء الله .

وكننت أقرأ الكتب والمجلات والصحف حتى أثناء الدراسة وكانت كتب ومجلات لها قيمتها ولها وزنها من حيث الأدب الراقي الرفيع الذي تصدره الهيئات وبيوتات العلم علاوة على المجلات العلمية وفي مختلف النواحي وكانت تمدنا بها الشقيقة مصر و لا تنسي دواوين الشعر الجاهلي والمخضرم وبعد أن تخلّيت عن المدرسة واتخذت من التجارة مهنة رغم مشاغلها كنت أقرأ كلما سنحت الفرصة وفي أوقات الفراغ وكان في الليل متسعا من الوقت لأشفي غليلي من القراءة والإطلاع ولكن ضعف النور وخفوت الإضاءة تحول بيني وبين إشباع هذه الرغبة وتقف حائلاً دون ما أريد وكان النور الكهربائي لم يصل مدينة ملكال وكانت القراءة قاصرة على النهار أو تحت ضوء خافت مصدره مصباح غازي الذي هو الآخر مصدر إزعاج لما يلتف حول ضوئه من حشرات قارصة يفسد على القارئ تأملاته واستيعابه زد على ذلك عدم الاستقرار في مكان واحد والتنقل من مكان إلى مكان حسب مقتضيات المهنة التي من طبعها التجول رغم ذلك لم أتوقف عن القراءة ولهذه الأسباب مجتمعه فانتا ركب الثقافة ولا يحق لي أن أقول إنني نلت من الثقافة ما يؤهلني عن التعبير عما يدور بخدي باللغة التي يريدها القارئ الكريم أو بالطريقة التي ترضي ذوق المتقف من إستعارات فلسفية أو بلاغة عربية عالية المستوي تروق في نظره وتشوقه للاستمرارية وتحمله على متابعة القراءة دون أن يعتريه سأم أو ملل فيلقي بالكتاب جانبا والعزوف عنه . هذه بعض التوقعات التي أفسدت علي بعد أن كنت نشطاً لتدوين هذه الذكريات التي هي مادة الكتاب المنتظر وخوفاً من قول قائل ما دمت لا تملك المؤهلات ولم ترق إلى مصاف الأدباء ومبدعي القصة فلم هذا التطاول وكيف تزج بنفسك في ميدان أنت ليس من فرسانه وقد يعذرني القارئ الكريم لو علم أن عندما تجمعت لدي هذه المادة الغزيرة من ذكريات مدة من الزمن وفي مجال لم يتطرق إليه أحد ورجعت بالذاكرة قليلاً إلى الوراء وتلفت يمنة ويسرة بحثاً عن كتاب جمع بين صفحاته مثل هذه الذكريات فلم

أجد إلا كتابين أحدهما باللغة الإنجليزية لكاتب بريطاني (21) نسيت عنوانه ولم يجد من يقوم بترجمته إلى اللغة العربية . أما الآخر فهو للأستاذ جاد الله وكان موظفاً بمصلحة البريد والبرق وقع هذا الكتاب في يدي في العشرينات من هذا القرن وباللغة العربية غير أنه إقتصر على رحلات قليلة لا يعطي القارئ صورة حية تمثل الحيوان وهو حر طليق في غاباته وبين أحرشه وكيف كان يقف أمامها ولم تكن عنده مواقف ومغامرات ذات شأن أو مواقف تستحق الذكر وليس معني هذا إنني أريد أن أقلل من قيمة هذا الكتاب بل العكس غرضي الإشادة بهذا المجهود الذي قام به هذا الرجل ووضع اللبنة الأولى وفتح الطريق أمام كل من يريد أن ينحى هذا المنحى وهو أول سوداني يكتب في هذا المجال أعطي أبناء جيله صورة مشرفة ومشوقة عن الصيد والغابات ومالها من متعة نفسية ورياضة روحية وبدنية رغم قيد الوظيفة التي لم تعطه الفرصة الكافية لممارسة هوايته فمنذ ذلك العهد لم يتطرق أحد للكتابة في هذا المجال وتعاقت الأجيال تلو الأجيال ومرت فترة زمنية تقدر بأكثر من ستين عاماً تغيرت خلالها أشياء وأشياء وتقدم العهد ومن هنا بدأت الرغبة لملء هذا الفراغ وسد الثغرة الناتجة عن عدم الاهتمام من أجيال شغلتهم المدينة وقتلت في نفوسهم حب الاستطلاع والبحث عما يجري من حولهم في السودان وفي غابات الجنوب التي يسكنها إخوة لهم ينتظرون منهم الكثير من تقدم ورقي ولكن المدينة المستوردة شغلتهم ببريقها الذي حسبوه ذهباً وما هو بذهب ولما وجدت أن الروح المعنوية عندهم قد تدهورت وخشيت أن تضيع تلك المعالم فنعض أصابع الندم كان حافزاً يحثني على الإقدام بتدوين هذه الذكريات وجمعها في كتاب وأنسي إذ أقدم هذا الكتاب المتواضع لغة وموضوعاً للأجيال التي تلت العشرينات عامة وإلى أجيال ما بعد الاستقلال وإلى من يجيئ من بعدهم ليكون لهم نبزاً يضيئ لهم الطريق وليتعرفوا على جنوبهم الحبيب وما كان يدور فيه من صراعات قبيلة وحروب أهلية .

بعد أن إلتحقت بكلية غرودن في قسمها الابتدائي وعدت في أول عطلة من عام 1918م عاودني الحنين إلى مزاوله هوايتي المفضلة هي الصيد ولكن أراجع إلى صيد الأرانب عن طريق الكلاب وقد شبيت عن الطوق أو أحاول ذلك عن طريق السلاح الناري الذي إقتناه الوالد منذ عام 1912م وهو عبارة عن بندقية خرطوش من أجود ما صنعته المصانع البريطانية كان يمتلكها أحد المفتشين البريطانيين توفي بالناصر بمديرية أعالي النيل على نهر سوبات جنوب شرق مدينة ملكال ثم بيعت بالمزاد العلني فكانت من نصيب الوالد وهذا السلاح لازال موجوداً وبحالة جيدة مدرجة تحت إسمي ولما كانت نشأت الوالد وتربيته دينية زاهداً عن متع الحياة لم يستعمل هذا السلاح أبداً وكانت الذخيرة تملأ حيزاً كبيراً من شنطة حديدية لا قفل لها ففي مرة إستشرت الوالدة في أن أستعملها ولو مرة واحدة فرفضت وكنت أستعطفها من وقت لآخر حتى رضيت تحت إلحاح شديد فكنت أنتهز فرصة غياب أبي عن البيت وأخذها خلسة وأبتعد بها عن المدينة وأصطاد الطيور المائية بعد أن أجلس على الأرض حيث كنت لا أقوي على أستعمالها(22) وأنا قائماً لثقل السلاح وقوة إنفجار الذخيرة دون أن ترتجف يداي فتفسد على ضبط التصويب وكانت الوالدة عليها رحمة الله تقدم لحم الطيور تحت إسم الفراخ خوفاً من أنال غضب أبي أو أتعرض إلى عقاب وتقع هي الأخرى في لوم وتنتهم بالإهمال وعدم مراقبتها لبيتها وما يجري فيه وفي إحدى الأيام ولما قضت الإرادة كشف الأمر كان فيضان النهر عالياً وصلت مياهه إلى السور المحيط بالبيوت وكانت البيوت نفسها مهددة بالانهيار مما جعلها تحتاط بعمل ردميات خارج السور درءاً للأخطار وإحتمال إرتفاع الفيضان بغتة ليلاً أو نهاراً فإذا بي أسمع أصوات الطيور (أم سي سي) (23) يصل إلى مسامعي فأخذت البندقية وذهبت إلى مكان تجمعها وأطلقت عليها النار فإذا بعدد كبير منها يتخبط في دمانه وقمت بجمعها وجئت بها إلى البيت وهذا النوع من الطيور يمتاز بجودة اللحم ولذة الطعم لا رائحة له كأمثال الطيور الأخرى أو حتى الفراخ وقد إنتابني شئ من الخوف إذا

علم أبي إني استعمل هذا السلاح دون علمه وإن كثرة اللحم التي ستقدم ملفتة للنظر ولا يمكن أن تمر عليه دون أن ينتبه لها إذن كيف الخروج من هذا المأزق وكنت أفكر في نوع العقاب الذي سيحل بي أهي علقه ساخنة يتبعها حرمانني من إستعمالها والأولى أحب إلي إن اقتصررت على ذلك وكانت حالتي النفسية سيئة للغاية فكنت بين عاملين أما أن أتغيب عن موعد الغداء أو أواجه العقاب بشجاعة ويحسم الأمر وبينما أنا في حيرتي وترددي دخل أبي بصحبة رجل من خيرة الرجال صديق حميم له وعالماً عاملاً له مؤلفات كثيرة في مدح الرسول ﷺ وهو الأستاذ يحيى محمد زكريا (24) وله مكانته الاجتماعية وذو اطلاع واسع في كتب السادة الصوفية وكانت له مجالس يحكي عنها لإخوانه شارحاً لهم معانيها وتأويلها كان حلو اللسان لذيق المنطق ذو أخلاق عالية ومهما قلت فيه فإني لا أوفيه حقه أو أدانيه جاء موعد الغداء وأحضرت المائدة وهي عامرة بأصناف امتازت بكثرة اللحم منها ما هو مطبوخ ومنها ما هو محمر بشكل يلفت النظر وجلسنا إلى المائدة تناول كل منا قطعة من اللحم فقال الضيف الكريم أي أنواع اللحم هذه قال أبي ربما يكون لحم دجاج إعترض الأستاذ وقال مبدئياً ملاحظاته هذا أذكى وألذ فالتفت أبي نحوي يطلب الإجابة وأحال لي السؤال بنظرة منه وانتظر الجميع رداً للسؤال وشعرت بان لا مناص إلا الصدق وقلت هذا لحم (أم سيّ سيّ) فقال أبي في لهفة شديدة تتسم بالغضب من قام بصيدها قلت أنا فبدت على وجهه علامات الغضب والدهشة وقبل أن يفوه بكلمه فإذا بيد الصديق يحيى تربت على كتفي ويقول نعم الغلام ردها ثلاثاً فشعرت بشيء من الارتياح وهدوء في الأعصاب وقال أبي مخاطباً الأستاذ أنشجعه على مثل هذه الأفعال وهو في مثل هذه الحادثة رد عليه قائلاً قل لي بالله يا أحمد كم مره إستعملت هذه البندقية منذ أن وقعت تحت يدك قال لا أظن إني إستعملتها ولا مره واحدة فقال له إشتريتها بغرض الزينة أم تحفه في البيت قال لا هذه ولا تلك ولكن له هو عندما يكبر وإني لأخشى وهو في هذه السن إلا يقدر المواقف فيصيب إنساناً أو حيواناً كان حواراً إعتبرته بناء ويكون النتيجة في صالح مرت

هذه الحادثة بسلام وإعترتها بمثابة تصريح ولكن في تحفظ .

ولما وجدت الإذن لان أستعمل هذا السلاح كنت أتخشى الاقتراب من منطقة المركز واختيار الجزء الجنوبي من الجزيرة لبعده المسافة وكنت أخشى أن أقع في قبضة المفتش البريطاني أو المأمور لكن الحذر لا يمنع القدر وفي ذات يوم لم أجد طيراً في الناحية الجنوبية فسرت محاذياً النهر نحو الشمال فاعترض طريقي زوج من الوزين (25) فقلت في نفسي شئ خير من لا شئ ورميته فأصبت الذكر وتقدمت نحوه وحملته فتتاهى صوت الذخيرة إلى سمع المأمور فأرسل يطلبني فإذا بعسكري يجري ورائي ويناديني فوقفت حتى وقف أمامي وقال حضرة المأمور يطلب حضورك وكان مصري الجنسية وقفت أمام حضرة المأمور وأنا أحمل السلاح والصيد فأمرني أن أضع السلاح والصيد في ركن المكتب فامتثلت وسألني عن اسمي فأجبت وما عملك قلت طالب بكلية غردون والعمر ومن صاحب هذا السلاح قلت هي ملكاً لأبى وأين هو قلت موجود بالسوق وأمرني بأن أدعوه ولما دخل المكتب أمره بالجلوس على مقعد جانب المكتب وسأله عن الصلة بيني وبينه فأجاب انه إبني وكيف سمحت له باستعمال هذا السلاح وهو في هذه السن فأجابه بلهجة اقرب من لهجة أهالي دنقلا التي تقرب إلى الرطانة وقال له (عندك دا زول صغير والكبير كيف عندكم دا عندنا راجل يا حضرة المأمور وأنا البندقية ما اشتريتها إلا من اجله وثقتي فيه كاملة) ولما سمع المأمور قوله وصدقه وصراحته بعيداً عن اللف والدوران قال هذه المرة الأولى وأنا سأتسامح معك ولا تدعه يعود لمثل عمله هذا اذهب وخذ البندقية ، مشيت نحو الركن وأمسكت بالبندقية وهممت بأخذ الصيد فانتهرني أبى قائلاً اتركها وانصرف فلم أبتعد قليلاً عن منطقة المركز حتى رأيت العسكري يحملها ويدخل بها منزل المأمور فقلت في نفسي وأنا اشعر بالارتياح هذه فاتحة خير للتعارف وسيغض الطرف عن ملاحقتي وكنت أمده الفينه بعد الفينه بعدد من الطيور ولكن بطريق غير مباشر أي بواسطة الطباخ الذي كان من أبناء البلد وكان ينقل لي على لسانه دا ولد كويس كلما وجد لحماً من الطيور يعمر مائدته

وبذلك كفاني الله شره ومكره .

التماسيح :

من المعروف أن شواطئ النيل الأبيض ومياهه مليئة بالتماسيح وهي مصدر خطر للإنسان والحيوان وكان الدخول في الماء أكثر من عمق خمسين أو ستين سنتمتر يعتبر بمثابة مجازفة بالحياة لكثرة التماسيح وتعدد حوادثها وكما أن الطير لا يتواجد إلا على شاطئ الأنهار فكان علينا أن نكون حذرين بكل معنى الكلمة خصوصاً عندما يبدأ الفيضان وفي مره وأنا أبحث عن الطير على الشاطئ الغربي من الجزيرة صادف وجود جوزين من الوزين الأحمر رغم أنني لم أكن متحمساً لصيده وآثرت أن أكتفي بواحد منه خير من الرجوع بخفي حنين فأصبحت الجوز وأدركت الذكر وأمسكت به غير أن الأنثى ببقية من رمق طارت وسقطت في عرض النهر ميتة وكان موج النهر يدفعها نحو الشاطئ رويداً رويداً وأنا أسير بمحاذاتها على اليابسة إلى أن بقي بيننا نحو أربعة أو خمسة أمتار وضعت البندقية والطير على الأرض وشمرت ملابسها وخضت نحوها ومددت يدي لأنها وإذا بالتمساح يخطفها ويلف في سرعة البرق وتبينت جسمه الأسود وذيله الطويل يمر بجانب صدري بغرض إصابتي وقذف جسمي أمامه حيث الإصابة ستفقدني وعيي وأرتمي أمامه ويعدو علي بأسنانه لكنه أخطأ التقدير فابتلت ثيابي مما أصابها من الماء فهرعت نحو اليابسة وأنا فزع من هول المفاجأة وأنا أكاد لا أصدق ما حدث كنت أتخيل الموقف وكيف نجوت من موت محقق وأتصور أنه لو وجد فرصته وأمسك بي وكنت بين فكيه وأنا أغالب الموت في سبيل طير لا حوجة لي فيه هذا أول حادث بالنسبة للتماسيح.

أما الحادث الثاني للمرة الثانية وفي نفس الجزيرة وقبل أن أدخل في تفاصيل الحادث وجب على أن أعرف هذه الجزيرة التي ورد ذكرها وسيرد ذكر اسم جزيرة كبيرة تقع على طول مدينة الكوة اسمها (اللكدأوية) لا أري من أين جاء هذا الإسم وما معناه سألت عنه الأجداد الذين كانوا على قيد الحياة قبل سبعين عاماً عن

مصدر هذا الإسم فلم أجد عندهم جواب سألت هل في لهجة الدناقلة التي يجيدونها كلمة قريبة من هذا اللفظ فأجابوا بالنفي وسألت عنه في بقية اللهجات كالمحس ولغة الفونج فلم أجد لها معني هذه الجزيرة ذات نفع وخير ففي ما قبل قيام خزان جبل أولياء كانت مصدر رزق لجميع سكان المدينة وهم مزارعون بطبعهم بعد انتهاء موسم الأمطار في شهر أكتوبر من كل عام يبدأ إنحسار ماء فيضان النيل تدريجياً فكانوا يراقبون ذلك ويزرعون الأماكن الأمامية كجروف وبعد أن يصل النهر إلى حوضه الصيفي وقد تخلي عن كل الأرض التي غمرتها مياهه في وقت الفيضان تنصب السواقي والشواذيف متراسة حتى تعم كل مساحتها وهم يزرعون القمح والذرة الشامية وأنواع من الذرة وفي أوائل فصل الصيف يكون الجزء الأمامي الذي كان مزروع كجروف قد تم حصاده ترفع له الماء ويزرع بالخضر من جميع أنواعها أما وسطها فغابة كثيفة من السنط يجنون منه القرص (26) بمئات الجوانات علاوة على حطب الحريق من الأغصان اليابسة ونسبة لهذه المحاصيل التي يتساقط منها بعض الحب يجد الطير مرعاه وتتكاثر أعداده وتتزاخم هذا من ناحية نفعها أما أضرارها تأتي من تكاثر القواقع والقرقور والمحار الذي يعيش فيها مكروب البلهارسيا التي وجدت لها مزعاً خصباً لارتباط الناس رجالاً ونساءً بالنهر والأرض فهم لا غني لهم عنه فحياتهم اليومية تحتم عليهم خوض النهر وإستحمامهم فيه هذا بالنسبة للرجال أما النساء فهن يخضن النهر لملى جرارهن لماء الشرب فتقش البلهارسيا بشكل وبائي مما أدى بحياة كثير من الشباب وطبقاً لذلك فقد ظهر بين الشباب مرض الاستسقاء وإزدادت وطأته وقد نادت الحكومة بعدم التعرض لمياه النهر وحفرت الآبار وقد فاتها دور المزارع المرتبط بالنهر ولم نتخلص من هذا الوباء إلا بعد أن اكتشف ألانت مون (27) كعلاج .

وكانت الجزيرة تطفئ على المدينة جمالاً خصوصاً عند الأصيل عندما ترسل الشمس أشعتها الذهبية وتتخلل خضرة الغابات الكثيفة القائمة وسط الجزيرة وتغطي الجزء الأكبر منها فتلبسها ثوباً ساحراً ومنظراً شعرياً تهناً به نفس الناظر

وعندما تتجمع على أغصانها الأعداد الهائلة من الطيور على مختلف أجناسها وكل يغني لليلاه وبنغمات أشبه بالموسيقى ويزيد الموقف جمالاً عندما يختلط نقاء الشاه وخوار البقر عندما تلتقي بصغارها عند غروب الشمس كل ذلك كان نعمة حرمتنا منها قيام الخزان وليس هذا وحده إنما أشياء كثيرة لا مجال لذكرها هنا.

في منتصف نهار شديد الحر تهب سمومه كأنها زفرة من زفير جهنم جاعني أحد الأصدقاء ليقول أن عنده دعوة غداء في يوم غد يحتاج إلى لحم طير يعمر به المائدة فقلت لا بأس أخذت بندقيتي وخرجت وكنت أسير على الشاطئ الشرقي للجزيرة فلم أصب شيئاً وعندما ما اقتربت من نهايتها جاء سرب من الطير وحط على الشاطئ فجلست على الأرض وبدأت ازحف على الأرض حتى اقتربت منه ثم رميته وكانت موفقة فأصبت سبعة منها واثنين سقطاً في عرض النهر فقلت لابد من ضمها إلى السبعة تكون هدية مقبولة وعلى الأقل أن يكون نصيبه ستة ولنا الثلاثة وكان كلا الشاطئين قد خلتا عن الناس فخلعت ملابسني وتركت الصيد والبندقية ونزلت النهر أصبح نحوها وعندما توسطت النهر شعرت بأن الماء تحت صدري يأتي بتيار مضاد الفنية بعد الفنية فقلت هذا شيء غير طبيعي فأنزلت رجلي ألي تحت سطح الماء فإذا هي ترتطم بجسم تماسح شديد الخشونة مما يدل على كبره وهنا جن جنوني وأدركت أن التماسح من عاداته لا يتمكن من صيد فريسته إلا بعد أن تثبت أقدامه على الشاطئ أما أثناء عومه فلا . وخطر ببالي أن الموت ينتظرني بالقرب من الشاطئ ولم يبق لي من العمر إلا دقائق أسرع العوم وعندما اقتربت من الشاطئ قفزت وجريت بسرعة البرق وإذا هو يطفو على وجه الماء وبعد ثوان من خروجي إذ هو يتبعني ولكن ما سبب تأخيره فوجدتها أحد أمرين إما أن يكون أجفل بسبب الخوف عندما اصطدمت رجلي بظهره وابتعد عن مكاني تحاشياً للخطر من هذا الذي مس ظهره وعاد بعد أن اطمأن قليلاً أو انه كان متشابك الأسنان وهناك ملاحظة يجب أن يعرفها كل إنسان وهي خاصة بالتماسيح أولاً التماسح يختلف عن أي حيوان آخر فهو يحرك فكه الأعلى خلافاً عن كل الحيوانات لأنها

تحرك فكها الأسفل أما الثانية فهي طبيعية أنيابه فكل ما بين النابين السفلين يدخل بينهما ناب من أعلي وهكذا وكلما تقدمت به السنين ونما جسمه نمت أنيابه تبعاً لذلك وكلما نمت الأنبياب وتضخمت ضاقت المسافة بينهما حتى تصل إلى عدم الاستطاعة في فكها بسهولة وفي ذلك فهو يحتاج إلى الارتطام بجسم صاب كعود أو حجر ليساعده على فك التشابك وليس معني ذلك أنه اثناء التشابك هذا يقف مكتوف الأيدي أمام فريسته لا بل له طريقة أخرى يمك بها على فريسته . وهو عندما يقترب من فريسته يلف نفسه لفة سريعة فيصيبها بذيله في أي مكان من جسمها فيشل حركتها أو يفقدها وعيها إن أصاب الصدر فيرميها بشدة الضربة أمامه ويتأبطها حتى يصل إلى مكان يخبئها فيه ويذهب يبحث عن العود أو الحجر ثم يعود إليها وله طريقة في الأكل لا تجدها عند غيره من الحيوانات واعلم أن التمساح(28) لا لسان له إلا عند نتوء قريب من الحلقوم يشبه اللسان وما هو بلسان يقطع العضو من صيده ثم يهرسها بأنيابه حتى تنكسر العظام ثم يمسكها من أطرافها ويعض عليها ثم يهزها هزاً عنيفاً حتى تتطاير كل العظام المهروسة ثم يرفعها إلى أعلى ويفتح فاه ويزرددها وان بقي منها باق دسها ليرجع إليها عند الحاجة .

فما أن خرجت من الماء أصبحت أنا في مكان وملابسي وغيرها في مكان آخر ولابد من قطع النهر سباحة فأثرت الابتعاد جنوباً والابتعاد عن هذه المنطقة واخترت أضيق أماكن من النهر وسبحت نحو الشاطئ الآخر .

جبل الإنسان على النسيان ولولا النسيان ما سعد أمرؤ بمال ولا هنئ بعيش ولولا النسيان لسيطر عليه وعلى مشاعره الكآبة والحزن التي تنقص عليه عيشه وتفسد عليه ملذات حياته ناهيك عن الهم الذي يلزمه كل ما ذكر فجبعة أو فقد شيئاً وكنت أنا أرى في تلك الصعاب التي واجهتني ما فيه الكفاية بأن أقلع عن وأن أتخلي عن هذه الممارسات تجنباً للأخطار كما أنها كافية لأن اخذ منها العظة والعبر ولكن القدر يلعب دوره كما قال الشاعر:

مشيناها خطي كتبت علينا ومن كتبت عليه خطي مشاها

فالخطوة التي مشيتها واعتدت عليها كان النهر تبدو عليه آثار زيادة مبكرة بسبب سقوط الأمطار الغزيرة نمت الحشائش على إثر ذلك وتكاثر الطيور تتلاعب وتتواشب تعوم على مياه النهر تارة وتستقر أخرى لتقتلع من جذور الأعشاب ما تأكله وكانت المنطقة مكشوفة لا وجود لساتر اخفي وراءه حتى اقترب منها فلا بد أن من الزحف على بطني شيئاً فشيئاً لأصل إلى بقعة صغيرة حشائشها أطول من مما حولها وما أن وصلتها ورقدت بين عشبها كنت أشعر بأنفاسي تعلو وتهبط بسبب التعب وآثرت أن ارتاح قليلاً حتى استعيد أنفاسي والطيور أمامي وأنا في هذه الحالة شعرت بجسمي تعثره قشعريرة ورأسي قد كبر عن حجمه الطبيعي واعتدنتي حالة ليست طبيعية وكانت نقطة العقل الباطن وبهدي روعي منه التفت ورائي فإذا بتمساح كبير الجسم أصفر اللون رافعاً ذيله إلى أعلى لئلا يحدث صوتاً فأنتبه وهو يزحف ورائي ولم تكن بيني وبينه إلا خطوات وهو يتحفز للانقضاض عليّ فما كان مني إلا أن أطلقت النار في الهواء لأن المفاجأة قد شلت تفكيري وأحدث صوت الذخيرة له نفس المفاجأة فأخذ يجري نحو الغابة بدل أن يجري نحو النهر وبعد أن عاد إلى وعيه إنتهى نحو النهر وأخذ يغوص تحت الماء وبعد فوات الأوان وهدوء الأعصاب عدت ألوم نفسي على هذا التصرف الذي بدر مني أما كان الأجدر بي أن أوجه الضربة لأحد الهدفين الطير أو التمساح فاكون غير خاسر وكانت الطلقة كفيلة بقتله لقرب المسافة بيننا فالخوف أو التسرع أو الاثنين معا جعلاني أتصرف هذا التصرف الصبياني حيث كنت حقيقة صبياً لا يزيد عمري عن العشر سنوات .

كانت لي مع التماسيح مواقف تستحق التسجيل والتأمل وكيف كانت النجاة منها كمعجزة أو شبه معجزة ولم تقف عند هذا الحد الذي ذكرته فيما مضى بل له معي موقف آخر وكان آخر حادث تعرضت له من ناحية التماسيح مع اختلاف في الزمان والغرض لأنه مكان لا علاقة له بالصيد ولكن علاقته من ناحية المخاطر

التي تعرضت لها من هذا الحيوان توجب ذكره .

كنا شلة من الأصدقاء أخوة متحابين وأبناء جيل مؤتلفين نجتمع كل مساء في دار لنا على شاطئ خور (29) يتفرع من النهر في أيام فيضانه ترسو على شاطئه كل المراكب العائدة من الجنوب المحملة بالذرة وأصناف المحاصيل الأخرى ووجهتها أمد رمان وكان رؤساء المراكب يرون في هذا المكان مأمنهم وأشبه بميناء يحميهم ويمنع عنهم عواصف الخريف ورياحه وكان للدار باباً يطل على هذا الخور والأمواج تتكسر على عتبته مما يضطرننا لردم أكثر أجزائه المطلة عليه وقاية من الانهيار وعلى ربوة عالية نطل عليها نوافذ الديوان القائم على الجزء الغربي من السور وكان هذا الموقع جميلاً يزيد من جماله الماء الذي حوله والنسمات الباردة التي تهب عليه وهي تحمل بين طياتها رائحة نوار أشجار السنط وأشجار ايوقوى وهو شجر ناعم الخشب أقرب شبيهاً من خشب البقس وله زهرة بيضاء ذات رائحة طيبة تشبه الفل كل هذه الروائح الطيبة الأخاذة تنبعث من هذه الجزيرة مصحوبة بزقزقة العصافير وتغريد القمري ونغمات الطيور الأخرى وكان في ذلك ما يغري الأصدقاء لقضاء بعضاً من الليل في هذا المكان وكنت أعد لهذا المجلس عدته فنصف الكراسي والترابيز على تلك الربوة وما أن يكتمل العقد نأتي بمشروب الشاي والكاكاو أو الحلبة ولكل منها يومه مصنوعة من لبن البقر الصافي غير ممزوج بماء لأن حظيرة البقر التي نملكها تدر لبناً كثيراً . نقضي هذه الفترة في سمر بعيداً كل البعد عن نزوات الشباب إلا في حالات مدارسة الحفاظ على أمن المدينة أو مراقبة الأجانب ومنعهم من التمشي في شوارعها ليلاً حيث المراقبة الشديدة تمنعهم من دخول بعض البيوت بغرض تعاطي الخمر هذا هو ديدننا وبرنامجنا الذي نسير عليه . وفي ذات ليلة بعد أن آن أوان انفضاض المجلس وقد فرغنا من إدخال المقاعد وغيرها داخل الدار وأخذ كل فرد طريقه نحو داره أربدت السماء وتكاثفت السحب وإشتد وميض البرق المنبعث من أكثر من جهة بما يوحي بأن المطر آت لا محالة وتذكرت إنني لم أصلي العشاء فجلست على حافة الخور

وعلى أرض رملية وشرعت في الوضوء وإذا بسواد أمامي حسبته بادئ الأمر قطعة من خشب السنط حملته الريح وأخذ مكانه . أو كومة من عشب من أعشاب الماء حملة الموج ولكن داخلني شك فأردت للاطمئنان على نوعيته فاقتلعت بيدي قطعة من الطين رميت به ذلك السواد فإذا به تمساحاً كبيراً يتربص بي ولما وقع الطين على رأسه سبب له انزعاجاً مما جعله يلف لفة سريعة ويقذف بذيله كمية من الماء إبتلت منها كل ثيابي ففتمت مسرعاً وابتعدت عن المنطقة .

وليس غريباً أن تحدث هذه الأحداث لكن الغريب في الأمر كنت أكتّم كل هذه الحوادث حتى عن أهلي وعن أقرب الأقربين كل ذلك خوفاً أن يصل ذلك إلى سمع أبي أو أمي فاحرم من هذه الهواية التي أصبحت جزءاً من حياتي(30) .

كلية غردون

بعد أن انتظمت في سلك الدراسة في كلية غردون وفي قسمها الابتدائي ووجدت ممن سبقوني من أبناء الكوة كل احترام وتقدير ورحبوا بمقدمي حيث كنت الوحيد الذي تم قبوله في هذا العام وكان الحاج موسى أكبر الجميع سناً وكان قد التحق بالمدرسة الحربية وفي رتبة جاويش يليه محمد معروف الذي أخذ طريقه للمدرسة الحربية أيضاً بعدهم الأستاذ النصري حمزة وكان في السنة الأولى من قسمها التجهيزي وأما محمد عثمان محمد ومحمد صالح نمر لا زالا في القسم الابتدائي وكان من سياسة سلطات المدرسة إن تجمع من أبناء البلد الواحد أو أبناء المنطقة في حجرة واحدة أو حجرات متقاربة في الداخلية وفي غرف الأكل ونجعل الرئاسة في يد أحد أبناء المنطقة الذين هم في الفصول المتقدمة ولا انسي أن كان رئيس غرفة النوم من أبناء القطينة وهو شايب احمد رحمة الله كان طبيب القلب حسن الأخلاق متمسكاً بدينه تدل ملامحه على الصلاح والتقوى وكان محبوباً بيننا وبين زملائه .

وكان جدول الدراسة على النحو التالي الشيخ احمد عثمان القاضي اللغة العربية وما يتبعها والأستاذ محمد الحسن دياب اللغة الإنجليزية الأستاذ القرضاوي

الرياضيات وهو مصري الجنسية البدوي عمر الدين علم الجغرافيا.
وكننت لا أجد فارقاً كبيراً بين مقررات السنة الثالثة الأولية وبين مقررات
السنة الأولى الابتدائية إلا بالنذر اليسير إذا استثنينا اللغة الإنجليزية هي الوحيدة
التي أدخلت حديثاً على البرنامج ولم تواجهنا أي صعوبات في التحصيل طيلة سني
الابتدائية الأربع .

أما من ناحية الأكل فكان رديئاً وكانت الكسرة التي تصنع بأيدي نساء سودانيات ومن
الفترية كانت سوداء اللون كأنها الخيش وتفتت بمجرد أن تمسها يد أما أدامها الذي
كان يقوم بصنعه العم عبد الحميد ليس أحسن حالاً من الكسرة لا طعم له ولا معني
له ولديه من الجفان عدداً وفي جوانبها مواسير المياه التي يملأ منها الجرادل ليملاً
ذلك الفراغ دون اعتبار للون أو طعم رغم توفر الخضر بأنواعها وكان خيار أم
خير هو الفول المصري(31) الذي يقدم في وجبة الإفطار بالتناوب مع العدس
ويخلل بقية الوجبات اليومية ولكن هناك حالات يقررها الطبيب المختص في حالة
اعتلال صحة بعض الطلبة فيمنح غذاء خاص من لبن وعسل نحل عقب وجبتي
الإفطار والعشاء كما دأبت سلطات المدرسة اثناء الدراسة وبعد الحصة الثانية
إعطاء الطالب الداخلي ستة بلحات وعشرة للطالب الخارجي وكنا رغم شعورنا
برداءة الطعام لم يؤثر على سلوكنا الدراسي لأن كلمة إضراب لم توجد في قاموس
الطلبة آنذاك ولكن كنا نستعين بالعمة أم الحسن بائعة السلطة والطعمية التي جعلت
ظل الأشجار الواقعة على شاطئ النيل الأزرق أمام البوابة الشمالية محلاً لتجاريتها
علاوة على ما يمدنا به الأهليون من مقاطف الآبري وصفائح الكعك وزجاجات
السمن ما نسد به النقص وكان شعارنا في تلك الأيام (جنناً لنتعلم لا لنأكل) وفي
خروجنا أيام العطلات إلى زوينا في أمد رمان وخلافها خير متنفس لنا لتقضيتهما
بينهم و لا أنسي فضلهم وإحسانهم علينا طيلة سني الدراسة وأسأل لهم الأجر
والثواب عند الله جل وعلا. ورغم تقادم العهد ومرور السنين لا أنسي حادث رجل
يتبعنا عندما ركبنا الترماي من إحدى محطاته بأمد رمان وكان وقوده الفحم

الحجري في آخر دور وكان يجر خلفه مركبتين إحداهما الأولى وهي مخصصة لكبار الموظفين والأغنياء وذوى الجاه والسلطات أما الأخرى وهي الدرجة الثالثة فلعمامة الشعب والطلبة طبعاً من بينهم بعد أن تركنا المعديّة البخارية التي كانت تربط طرفي العاصمة وأخذنا الترمي الذي كان ينتظرنا على الشاطئ في الخرطوم وألقي مراسيه في المحطة الوسطي فوجدناها خالية من المواصلات التي كانت ذات شقين أما الدوكار الذي تجره الخيل أو الحمار الذي يتبعه صاحبه جرياً على الأقدام وهو يرتدي قميصاً وسروالاً من الزراق وهو اللبس المميز له فلم نجد لا هذا ولا ذاك مما اضطرنا على السير بالأقدام وقد قاربت الساعة العاشرة ليلاً وكانت الخرطوم في تلك الأيام متفرقة المباني كثيرة الرمال كلما اتجهت شرقاً نحو موقع الكلية وكنت وصاحبي نحمل مقطفاً فيها شئ من الكعك وشئ من الآبري ترقد بينها ثلاث زجاجات من سمن كنا نمشي وكل منا ممسك بعروة وهي تتأرجح بيننا وبينما نحن نسير لفت نظري رجل يمشي خلفنا يدنو منا تارة ويتخلف تارة أخرى شعرت بهذه الحركة منه غير اعتيادية فهمست في أذن صاحبي وأسررت إن هذا الرجل يضمّر لنا شراً ومن حركاته وتتبعه لنا يدل أنه ذا مطمع في هذا المقطف وأخشى أن يهاجمنا عند تلك الأماكن الخالية قبل وصولنا لمدخل الكلية ظناً منه إنها تحوى على أشياء ثمينة فلا بد أن نلجأ إلى الحيلة ونوهمه إننا نقصد بُري لأن المنطقة بعد الجيش الإنجليزي وتكناته منطقة خالية تماماً ومن أخطر مناطق العاصمة وسيؤجل ما يدور بخلده ويؤجل من تنفيذ رغبته حتى نصل إلى تلك البقعة الخالية وما أن شعرت بقربه منا مما يمكنه من سماع ما أقول قلت مخاطباً زميلي يبدو إنك قد تعبت فشد حيلك بُري لا زالت بعيدة رد على لن يصيبني شئ من التعب وسنصل بُري إن شاء الله . سمع هذا الحوار الذي دار وارتاحت نفسه قليلاً فأصبحت الفرصة أمامه مواتية وما أن تخطينا منطقة الخطر وإقترنا من باب الداخلية الذي يقوم بحراسته خفير يسهر طول الليل وهو يجلس على مقعد كنا نميل شيئاً فشيئاً نحو طرف الشارع حتى وصلنا الباب نادينا بصوت واحد مع السلامة يا عم فوقف

مبهوتاً وهو يضرب أخماس بأعشار ورد علينا قائلاً (عرفتوها يا أولاد ...) .
شعرت السلطات بعدم إقبال الطلبة على تناول الكسرة مما جعل بعض الطلبة
الذين لم تسمح حالتهم المالية بزيارة العمدة أم الحسن يومياً يشكون من سوء التغذية
حتى ظهر جلياً في صحتهم فاستبدلتها بالجراية (32) التي كانت تصنع في ثكنات
الجيش المصري بالخرطوم فجاءت كقول الشاعر :

المستجير بعمره عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار
فكانت أسوأ حالاً من سابقتها فتفتحها فتجد في باطنها خيوط من الخيش تجد
أنواع من الحصى وقد تعبت سلطات الكلية لإيجاد حل لهذه المشكلة تقدم الأستاذ
سيحة الذي كان أحد المدرسين بالكلية الذين استوطنوا الخرطوم يملك طابونة في
قلب الخرطوم وتقدم بطلب للسماح له بمد الطلبة برغيف أبيض مصنوع من الدقيق
الأسترالي النظيف فوجدت السلطات الحل ووافقت وبدأ يمدّها بأحسن رغيف وبذلك
انفجرت الأزمة وتحسنت الأحوال .

كان التعصب الإقليمي بين الطلبة ظاهرة مميزة لا تعصب قبلي خصوصاً
بين طلبة النيل الأبيض القطينة الدويم والكوة لما تربطهم من صلة القرابة بعدت أم
قربت وكنا نتعامل كأ أسرة واحدة سواء كان منهم من هو في قسم العرفاء كما
يسمونه في ذلك الحين أو من هم في الابتدائية وكان عندما يحين السفر في إحدى
العطلتين تجتمع كل بلد ونذهب إلى السوق ونشتري بعض ما نحتاج إليه من زاد
وبعض الهدايا للأخوة الصغار وفي أحد الأيام وأمام دكان أخوان ليمنيوس في
طرف ميدان المحطة الوسطي بالخرطوم خرجنا من الدكان وكل ممسك بيده ما
اشترناه من معلبات ما يكفي لهذه الرحلة التي تستغرق يومين ونصف اليوم على
ظهر الباخرة (كايرو) التي كان خط سيرها على النيل الأبيض ينتهي عند مدينة
كوستي بعدها تعود إلى الخرطوم وقد عرفتنا وعرفناها وربطنا صداقات بالريس
والبحارة لتعدد السفريات التي تقلنا وقد ناهز الوقت الثامنة مساء فإذا برجل بوليس
يعترض طريقنا وفي فضول بدأ يسأل عن سبب تجمهرنا وتواجدنا في مثل هذه

الساعة في الأسواق أجبنا طلبية مسافرون فلم يقنعه هذا الرد وبدأ يفوه بكلمات شعرنا منها نوع من الاستفزاز فتصدى له أحد الطلبة الكبار وانتزع صفارته وقذف بها إلى رأس البناية وهي سلاحه الوحيد يستجد به إذا اعتراه خطب بعد ذلك إلتف الطلبة حوله أشبعوه ضرباً ولكماً وهو يستغيث مما جعل أصحاب المتجر وهم من أصل يوناني وطلبوا النجدة وتجمعت قوة من البوليس وأحاطوا بنا وقادونا نحو نقطة البوليس وجاء الحكماء وأخذ يتحري في الأمر فأصدر حكمه بستة جلدات على كل طالب وكنا أمام أحد خيارين إما أن نتأخر عن السفر لنستأنف الحكم أو نرضي فاتفق الرأي بقبول مبدأ الحكم إما التنفيذ يجب أن يكون بواسطة سلطات المدرسة . أخذت هذه النقطة زمناً طويلاً فهو يصر على التنفيذ فوراً ونحن نرفض . وكان البوليس قد أعد رزمة من جريد النخل لتنفيذ العقاب وهم يحملون في أنفسهم حب الإنتقام وأخيراً اتصل الحكماء تلفونياً فوجد فيها مستر وليامز واتفق الاثنان على إرسال الطلبة للداخلية فخرجنا بعد أن تركنا المرارة في حلق البوليس الذي كان يبيت الإنتقام . أما البوليس سبب المشاجرة ظهر وهو ممزق الثياب وقد فقد صفارته وعمامته وقد حكم عليه بالأشغال الشاقة لمدة ثلاثة أيام لسوء التصرف مع طلبية صغار السن أخذنا طريقنا نحو الداخلية من غير حراسة وما وصلنا باب الداخلية حتى وجدنا من ينتظرننا على الباب يدعوننا للمثول أمام المستر وليامز فوجدناه في مكتبه والصول يقف بجانبه ممسكاً بيده (التيلة) ذات الأفرع الستة المعقدة الوسط والأطراف فقابلنا الصعاب بفرحة الانتصار على سلطات البوليس وإيدنا في تصرفنا هذا مستر وليامز نفسه وأثنى على رفضنا هذا وتمسكنا بحق سلطات المدرسة في كل ما يتعلق بشئون الطالب فوقع التنفيذ ولكن أقول وبكل صراحة بأن الجروح التي سببتها عقد التيلة كانت تقطر دماً وكان الصول قاسياً ودون ما شفقة أو رحمة .

بعد ذلك تتابعت الدفعات المقبولة أمثال عوض الله عبد الله عليه رحمة الله قسم العرفاء تلاه بعد ذلك الأستاذ بابكر علي وزكريا إبراهيم رحمهم الله ثم إبراهيم

مصطفى الذي لم يستمر في الدراسة كثيراً ثم الأستاذ ميرغني حمزة أطل الله عمره فهو آخر من جمعتنا بهم تلك الأم الرؤوم .

الأستاذ احمد عثمان القاضي

مرت سنوات الدراسة الخمسة التي قضيتها في كلية غردون وتلقيت العلوم في أثنائها على يد كثيراً من المعلمين مع إختلاف أجناسهم أجنبياً وسودانيين لم أعجب بواحد منهم كإعجابي بهذا الرجل ومعلماً آخرأ هو الأستاذ القرضاوي الذي سأفرد له بعض السطور عليّ أعطيه حقه .

كان الأستاذ أحمد من الرعيل الأول من السودانيين الذين نالوا ثقافة عالية أهلّتهم ليختاروا للتدريس في كلية غردون منذ افتتاحها أمثال الأستاذ عبد الرحيم حامد وعمر اسحق وغيرهم وكان الأستاذ أحمد نسيج وحده أديباً عالماً رزيناً عاقلاً مطلعاً شجاعاً لا يخشى بريطانياً مهما كانت مكانته ولا يهاب مصرياً . كان مدرساً للغة العربية وما رأيته يوماً إلا وفي يمينه عصاه وفي يسراه كتاباً وله طريقته في التدريس وأسلوبه المميز في تهيئة الطالب ليستوعب درسه وتتسع مداركه بطريقة ناجحة وسليمة بعيدة كل البعد عن الهزل الضار بالأخلاق كان يخصص جزءاً من زمن الحصة ليدخل مع الطلبة في دردشة أدبية بعد أن نفرغ من تسميع الدرس المقرر وكان الطلبة يبذلون قصارى جهدهم لحفظ وتسميع ما هو مناط بنا وفي أسرع فرصة لنتفرغ للدردشة وهذه الدردشة لا تخرج عن الدرس والتحصيل مما يزيد من معلومات الطالب في مجال اللغة العربية لكنها بطريقة فكاهية تتخللها النكتة وبعض النواذر المضحكة فيقول مثلاً من منكم يحفظ بيتاً أو بيتين من شعر الحارثي وفي وصف البطانة وكان من بين الطلبة أبناء رفاة موطن الحارثي ويحفظون له من الشعر الكثير أمثال محمد طه الفكي وعبد الله حمد رحمهما الله فيقدم أحدهم ليقول شيئاً من ذلك يطرحها للمناقشة وإظهار معانيها وما يقصده ويتناولون البطانة من حيث جمال الطبيعة ومسرح غزلانها وهو يستمع ثم يعقب على ذلك فيأتي بالعجب وفي الحصة التي تليها يقول من منكم يأتي ببيت أو بيتين

من شعر عمر بن أبي ربيعة مما ضمنه شعره من مواقف غزلية يصف واقعة من موافقه مع النساء وبعد الاستماع لآراء الطلبة يجئ دوره ليضيف الكثير وفي إسهاب غير ما القوا من معاني الكلمات ومدلولاتها التي لم تصل إليها مدارك طالب ناشئ وبهذا الأسلوب خلق نوع من التآلف بينه وبين طلبته وفي حدود غاية من الأدب والاحترام.

وكان رحب الصدر ما رأيته غضب غضبة أخرجته عن طوره إلا عندما يلفت نظره أحد الطلبة إلى وجود الناظر وكان مصرياً يسترق السمع خلف النافذة فصاح فيه قائلاً أي على الطالب مالي وللناظر أو المدير إن جاء متخفياً أو دخل علانية الفصل لن أغير ما أنا عليه وإنني سأبعدك من الحصة إذا عدت لمثل ذلك فانسحب الناظر وبعد الحصة أرسل إليه واعتذر لما بدر منه.

ومن شجاعته والاعتزاز بجعليته قوله يوم أن تمت ترقية بعض أقرانه عندما بدأ نظام العمل بالدرجات وتأخر دوره وكان على رأس لجنة الترقية نائب مدير المعارف المستر هيسي وبعد ظهور الكشف لم يجد اسمه ضمن المترقين وفي اليوم التالي قدم استقالته وما أن وقعت الاستقالة في يد المستر هيسي وهو المسئول عن شئون الموظفين طلب مقابله فجاء وأخذ يشير عليه عن العدول عن الاستقالة وأعطاه وعداً بأن تكون ترقيته في القريب العاجل وهو يأبى وأخيراً قال له المستر هيسي مؤكداً له صدق نيته (أعدك بشرف بريطانيا العظمى بعد ستة أشهر سألحقك بأقرانك) فكان جوابه (وشرف الجعليين لا أنتظر ولو ست ساعات والسلام عليكم) أخذ عصاه وتركه في حيرته (33) .

وبعد أيام التحق بالسلك القضائي الشرعي وعين قاضياً لمدينة الفاسر أو أحد مراكزها وكان كاتبه من مواطني حي المسالمة بأمد رمان وفي مرة وقع في خطأ في قضية ميراث معقدة وحكم فيها بما رآه مناسباً للشرعية ولكن عندما وصلت صورة الأوراق مكتب رئيس القضاة رأى غير ذلك ووجهه ولفت نظره فما كان من الأستاذ أحمد إلا أن أرسل برقية لرئيس القضاة يقول فيها معتذراً أما أنا فحديث

عهد بالقضاء والكاتب حديث عهد بالإسلام وكانت قوله تتأقلمتها الأفواه في جميع أوساط القضاء كأحسن عبارة جاءت في الاعتذار على مدي تاريخ القضاء.

وكان رحمه الله يمتاز بسرعة البديهة ويحب النكتة مع سلاطة في اللسان ومما يحكي عنه وهو جالس في معدية أمد رمان وهي تعبر النهر نحو الشاطئ الآخر جمعته الصدفة مع صديق له لم يره طويلاً فأخذ يعاتبه على عدم زيارته ويصف هذا التغيير الذي طرأ عليه مما أنساه حتى أصدقاءه وفي كلمات جارحة وكان من بين الجلوس شاباً أنيقاً يرتدى الزي الإفرنجي تبدو علي ملامحه التكبر يختال في مشيته وهو خريج كلية غردون وهذا الغرور والتكبر لم يرض الأستاذ وكان والد الشاب يتخذ من الحلاقة مهنة له وفي أثناء العتاب تدخل الشاب في فضول في أمر لا يعنيه فغاضب ذلك الأستاذ وقصد أن يعطيه درساً في الأخلاق عندما قال الشاب مخاطباً الأستاذ (ما هذه الكلمات الحادة يا أستاذ) فأجابه على الفور (أهي واحدة من أمواس أبوك) فضحك الجميع أما الشاب فقد ذاب خجلاً وتقلص في بدلته من هذه الإهانة التي لحقت به.

الأستاذ القرضاوي

كنت قد أعطيت وعداً بأن أكتب نبذة قصيرة عن الأستاذ القرضاوي فوفاء بما وعدت فالقرضاوي هو اسمه الثاني الذي اشتهر به منذ أن وطأت قدماه أرض السودان أما اسمه الأول فقد طغى عليه هذا الاسم فأودعه زوايا النسيان وهو مصري الجنسية مربوع القامة يميل إلى الطول ممثلي الجسم عريض الوجه والكتفين أبيض اللون كث الشعر أسوده يعقص شاربه ويقوسه على طريقة الملك فؤاد ، حازم لا يتكلم إلا إذا سئل لا يمزح ولا يقول النكتة وإذا جلس في الاستراحة المخصصة للمدرسين أخذ مقعداً جانبياً يسد فراغه بالقراءة من كتب ومجلات وجرائد مصرية لا يتكلم كثيراً إلا في الدرس وكان محبوباً بين الطلبة لعلمه الغزير وملكوته الغزيرة وكان يحب طلبته خصوصاً الطالب الذي يقول يا أفندي أنا موش فاهم فيقبل عليه بكلية حتى يقول فهمت وله موقفاً لا أنساه ففي إمتحان الفترة الذي

يسبق العطلة جاء الأستاذان رياض أفندي وناظر المدرسة الابتدائية وبأيديهما رزمة من الورق وزع على الطلبة وجئ بورقة الامتحان التي تحتوي على ستة مسائل على الطالب أن يحل خمسة منها وكان من بينها مسألة رغم قلة كلماتها لكنها معقدة الحل وكان الأستاذان يقومان بمهمة الرقابة فوقف أحد الطلبة وقال يريد شرحاً لهذه المسألة وتبعه آخرون فما استطاعوا أن يقنعوا الطلبة فقال الأستاذ رياض يبدو إن هذه المسألة بها غلط في أصل التركيب واقتنع الناظر بهذا الرأي وأرسل الساعي في طلب القرضاوي فجاء يمشي الهوينى دخل الفصل فبادره الناظر ليأخذ زمام المبادرة يا أستاذ المسألة نمرة كذا بها غلط في أصل تركيبها فقال له من قال ذلك قال أنا ، قال له في شيء من الاعتزاز (وأنت آيه) فغضب الناظر غضباً شديداً لهذه الإهانة التي لحقت به وعلى مسمع من الطلبة فناداه قائلاً الساعة عشرة أنا عايزك في المكتب فلم يرد عليه واتجه نحو الطلبة وبدأ يشرح المسألة المعنية وما أن أتم شرحها حتى انكب كل طالب على ورقته وخرج من الغرفة مرفوع الرأس موفور الكرامة وعاد إلى غرفة المدرسين المجاورة لمكتب الناظر وعندما حانت الساعة العاشرة توجه نحو مكتب الناظر وفتح الباب وأغلقه بشدة ووجدهما الاثنان ينتظرانه فما أن رآهما حتى ثارت حفيظته وأمسك بكرسي من الخيزران ورفعہ وأسرع نحو الناظر ولما تبين لهما سوء نيته قفز كل واحد منهما من النافذة وبسبب ثقل جسمه لم يستطع القفز وراءهما وبقي مكانه برهة يسيرة ثم خرج من المكتب وأخذ مجلسه في غرفة المدرسين لا يتكلم ولا يكلم ولا أدري بعد ذلك ما حصل لأننا بعد الفراغ من الامتحان بدأت العطلة وشغلتنا مسألة السفر ولكن بعد العودة من العطلة واستئناف الدراسة علمنا أن الأمر قد سوى بينهم عن طريق المصالحة .

الحراسة ليلاً :

لدى سلطات الداخلية جهازاً دقيقاً يكشف عن غياب الخفير أو نومه أثناء تأدية واجبه في الحراسة الليلية التي تفرض عليه المراقبة الشديدة وأي تهاون منه يظهر على هذا الجهاز ولو بقدر دقيقة واحدة وهذا الجهاز تحت ساعة الحائط التي

تدور بواسطة التيار الكهربائي وهذا النوع من الساعات موزع على جميع مناطق السكن والأماكن التي تحتاج إلى حراسة ويكون هذا الجهاز تحت الساعة ليكون في متناول يد الخفير وهو عبارة عن علبة من النحاس ولها قفل ومفتاح بيد الضابط النوبتجي وله ورقة مرقومة كأرقام الساعة تماماً متقوبة الوسط تثبت الورقة على عمود في وسط العلبة وعلى سطح قفل العلبة زمبرك بارز مركب على ياي ليضغط كل ربع ساعة فتخرم عليه الورقة الدائرة مع الساعة هكذا إلى الصباح ويجمعها الضابط ويعيد ملاحظته فيها بان يرى موقع كل نقب هل هو في مكان الربع الساعة تماماً أم لا ولو غفل دقيقة واحدة ظهر على سطح الورقة وكان هذا الجهاز يمثل المراقبة الدقيقة لنوم الحراس وغفلتهم أثناء تأدية واجبهم في الحراسة .

نائب المأمور المغرور

أول ما يشعر به الطالب وهو عائد من الكلية ليقضي فترة العطلة بين أهله وعشيرته أول ما يشعر به هو الاحترام والتقدير من كل الطبقات فكانت كلمة طالب بمثابة جواز سفر تدخل به كل قلب فتى أو فتاة كان محل النظر تجد ذلك في الحفلات التي تقام بمناسبة زواج أو ختان ولم يصيبنا شئ من الغرور يوماً على ما نجد بل كنا كأبناء عمومنا نسير بينهم ونساعد أهلنا في مزارعهم ونساعد الآخرين كلما طلب منا ذلك وما تعرضنا لإساءة من الحاكمين بريطانيين كانوا أم مصريين وبدأت سياسة الحكومة تتغير بإدخال عنصر جديد في الإدارة باختيار بعض السودانيين وإدخالهم مدرسة نواب المأمير وكلما وجدوا من الكفاءة السودانية استغنوا عن المصري وكان الاختيار قاصراً على بعض البيوتات من سادة ورؤساء القبائل وزعماء العشائر الموالين للحكومة البريطانية فكان من بين المتخرجين من هذه المدرسة شاباً مغروراً يمت بصلة القرابة إلى أحد السادة وزعيم لطائفة وكان هو الوسيط لنيل هذا الشرف وجاءنا منقولاً من أحد مراكز النيل الأبيض ليملاً وظيفة نائب مأمور فكان من أبرز سماته العنجهية والغرسة ومما ساعده على ذلك وجود طائفة من اتباع هذا السيد فأعطوه من الإحترام والتجله مما زاد في غروره

وفي أثناء غيبة المفتش في إجازته السنوية آلت إليه السلطة فأول ما قام به أعلن حظر التجول من الساعة العاشرة مساءً حتى الرابعة صباحاً دون مبرر في الوقت الذي أوصوا كل المفتشين السابقين وفي تقارير سنوية بالآلا يتعرض أي حاكم لمثل ذلك مشيدين بهوء الأحوال وطيبة نفوس الأهالي وزء على ذلك الأمن والاستقرار لكن إذا وقع القءر عمي البصر ففرض حظر التجول وضائق به نفوس الناس وهم أهل مزارع ومواشي يحتم عليهم هذا العمل بالتجول طول الليل إما بحثاً عن ضالة أو أن تتعرض مزارعهم للسوائم وكنا طلبة وشباب البلد لا نمثل لهذا الأمر الذي نراه غير قانوني وكنا نقضي معظم الليل ننتشر في الشوارع نقوم باللعب فغاضه ذلك وجاء يوماً تتبعه شلة من الخفر بصحبة شيخ المدينة وكان رجلاً كبير السن وهو الشيخ الأمين كابوس الذي لفت نظره وحذره من مغبة عمله هذا بعد أن أشار إليه بأن المستر أبوسن(34) قد منع مثل هذا الإجراء ونبه كل المفتشين الذين أتوا من بعده ولم يشذ منهم أحد وكان مستر أبوسن هذا رجلاً طيب القلب رحيماً حكم المنطقة منذ عام 1913 وكانت له مواقف كريمة عندما حلت المجاعة وعمت كل مراكز السودان في 1914 وكان شديدة الوطأة على السكان وكانت المعونات من الدول الأجنبية تصل تباعاً لتخفيف وطأة المجاعة وكان مستر أبوسن لا يهدأ له بال ولا تنام عينيه إلا إذا رأى البسمة على شفاه الناس وكان يتابع بنفسه وصول هذه المعونات ليأخذ للبلدة نصيبها ولكل القرى المجاورة وكانت مجاعة بحق فكان له بين سكان الكوه والقرى صفة الأب الرحيم يجوع ليأكل أبناءه وكان يبذل من جيبه الخاص ما يساعد به بعض الأسر الفقيرة حتى انقشعت تلك السحب السوداء عن سماء السودان بحلول العام الجديد جاء بوفرة في المحاصيل ونمو في الثروة الحيوانية فانفرجت الضائقة ولطول إقامة المستر أبوسن ودراسته للمنطقة كتب تقريره عمل به ممن خلفوه كأمثال المستر برجس رغم ما شاع بأنه صديقاً حميماً للبرنس أوف ويلز حيث درس معه في بعض الجامعات رغم ذلك مشي على أثر صاحبه بعد أن لمس بيده وعرف الكثير من أخلاق الأهالي وطبائعهم وكان شارع

المدينة لا ينام ولا يخلو من المارة مما لا يترك فرصة للصوص أن يدخل بيتاً ! ويسوق حيواناً إلى مطلع الفجر لم يستجب السيد نائب المأمور لنصيحة الشيخ وزين له غروره بقلب الأوضاع رأساً على عقب . جاء كما قلت بالخبراء ونحن في غفلة نلعب ونتجاري في الشارع فإذا بأحد الخبراء يلقي القبض على واحد منا وما أن شعرنا بوجود النائب بيننا حتى تفرق الجمع وخلت الساحة واقتيد المقبوض عليه وسئل عن من كان معه فبدأ بسرد الأسماء وهو يكتب على ورقة أمامه إلى أن أتى على آخرهم وكنا نذهب إلى المزارع عند طلوع الشمس ونقضي سحابة النهار هناك ولما عدت في المساء وجدت العسكري ينتظرنى واقتادني إلى ساحة المركز فوجدت جموع غفيرة من الرجال والنساء الذين جاءوا مع أولادهم ووجدت صفاً طويلاً من المطلوبين فوقفت بينهم وكان حضرة النائب يقف وفي يده سوطاً ولما أكتمل العقد ولم يتخلف أحد بدأ يسأل اسمك عمرك تشتغل إيه وبعد أن يجيب على تلك الأسئلة التقليدية يقول لك أما سمعت بأمر حظر التجول فمن يقول سمعت ومن يقول لم اسمع وفي كلتا الحالتين ينهال عليك السوط على ظهرك ويطلق سراحك وصل الدور إلى ابن أحد اتباع الطائفة التي كانت السبب لوصوله لهذه المرتبة وكان معروفاً لديه فأوقفه جانباً دون أن ينال عقاباً وهنا صاحت كل الجموع وأنكرت عليه هذا التمييز وكاد الجمع أن يأخذ بتلابيبه لولا أنه انسحب مسرعاً ودخل مكتبه وأغلقه عليه فانفض الجمع وهم في حالة هياج ولم يعتبر بما حدث ، وكان هذا القرار بمثابة صدمة في نفوسنا كطلبة وحد من نشاطنا وما نقوم به من إنكفاء روح الوطنية ونحثهم على حفظ الأمن والنظام ولا نترك مجالاً لغريب ولا دخيل بالتجول في المدينة ليلاً يثنيه عرفه عن التخلي عن قراره بل تمادي في غيه وأراد أن يظهر بمظهر الشجاعة والقوة التي خذلته في ليلة البارحة حيث نجا بجلده وفر واعتصم بمكتبه شعر بأنه تصرف تصرفاً مشيناً لا يليق به . أنا أخذت نصيبي من العقاب ثلاث ضربات من سوط غليظ .

وجاءت الطامة الكبرى عندما التقى أثناء مروره برجلين من تجار الجنوب

الذين جاءوا لقضاء فترة الإجازة بين ذويهم فاستوقفهم وسأل الأول عن اسمه فقال محي الدين حمد وسأل الثاني قال عبد الرحيم السيد وأعاد عليهم نفس الشريط بحظر التجول وهددهم قائلاً انه تسامح معهم هذه المرة فلن يتسامح معهم إذا وما وقعوا في مثل هذه المخالفة فأجاب محي الدين وكان نحيل الجسم أجاب في سخرية ظاهرة حين رفع يده وضرب برجله الأرض في حركة عسكرية وقال حاضر فلعب مركب النقص دوره وشعر بأنها إهانة لا تليق بمقامه الكبير فأخذته الحماقة وصفعه على وجهه ولما شعر عبد الرحيم بما حل بصاحبه أسرع في نجده ونصرته على الذي استخف بهما ووثب عليه وكان قوى البنية مفتول العضلات وصرعه على الأرض وأمسك بخنقه وتجمعت الناس وتقاطرت نحو مكان الحادث على أثر الضوضاء التي أثارها الذين كانوا بالقرب من المسرح وتدخل العقلاء من الناس لما وجدوه في حالة يرثي لها ففرقوا بينهم وقادوه حتى وصل مأمنه ودخل نقطة البوليس أمرهم بالقبض عليهم ولما وصلوا المكان وجدوه خالياً من أي إنسان ورجعوا وأخبروه الخبر وأرسل في الصباح الباكر وأودعهم الحراسة وبدأ التحقيق معهم وهو في حالة نفسية سيئة بما لحقته من إهانة وما أصابه من أذى وكنت أنا ممن شهدوا الحادث وكنت أجيئهم بالطعام والقهوة والشاي على طول اليوم فننادني وهو في مكتبه فلما وقفت أمامه فتح درج وأخرج مسدساً أخذ يعبث به بين أصابعه ويلوح به في الهواء وكان يريد بذلك تخويفي وقد فاته إنني قد مارست استعمال الأسلحة النارية أكثر مما مارسها هو وقال لي إذا لم تمتنع عن إحضار القهوة والشاي والسيجار فسترى ما يحل بك قلت تقتلني بهذا المسدس قال لا بل سيكون عقابك الجلد قلت ليس فيها ما يخيف لأن هذا النوع من العقاب قد لقينا الكثير منه ونحن طلبه ولم الق بالآ لقله وكنت أجيئ كالعادة . اكتملت إجراءات القضية وكان قد بلغ مفتش الدويم هاتفياً بالحادث ووعد الحضور للنظر فيها . جاء المفتش بأحد وابورات المديرية ودخل المكتب وخرجت المدينة عن بكرة أبيها وفي شكل مظاهرة تنادى بالعدل ومحاكمة الجاني فخرج المفتش لمقابلتهم وطيب خاطرهم وأمرهم

بالهدوء وتجنب الضوضاء حتى يجد الفرصة والجو الملائم للنظر في القضية فجلسوا على الأرض نساء ورجال فلم تستغرق المحكمة زمناً طويلاً وأصدر حكمه ببراءة المتهمين وإدانة النائب وجاء في حيثيات الحكم التي تلاها على رؤوس الأشهاد بأن حضرة النائب كان يعلم تمام العلم من التقارير التي كتبت بأيد مسئولة وهي بين يديه ومطلع عليها والذي جاء فيها إن مدينة الكوة لا يوجد بها ما يستحق عمل دوريات تجوب الشوارع أو أن تمنع الأهالي عن الطواف في الطرقات وفي ذلك الكفاية ما يقنع النائب عن فرض حظر التجول كما انه أضاع وقتاً طويلاً من زمن الحكومة في قضية لا تساوى قيمة الورق الذي استنفذته وعليه اكتفت المحكمة بنقله إلى مركز آخر فصفق الجمهور تصفيقاً حاداً وما مرت فترة قصيرة حتى جاءت الأخبار عن إقصائه عن السلك الإداري.

سبب عدم مواصليتي للدراسة والقيام لمكالم

بعد أن أكملت تعليمي الابتدائي وانتقلت إلى السنة الأولى تجهيزي كما يسمونها في ذلك الحين وبعد رجوعنا من العطلة فوجئت باختياري مع طلبة آخرين لأعمل بمصلحة البريد والبرق فاعتضت وتبعني آخر أبديت الرغبة في مواصلة الدراسة حتى النهاية ولكن سلطات المدرسة أصرت على موقفها وعدم الرجوع عن قرارها ومن هنا يجب أن نعرف السبب لهذا الاختيار وأنا أقول صادقاً كان ذلك نتيجة إهمال من جانبي وعدم تقدير وليس سببه رسوب في مادة أو سوء أخلاق وكان لسبب واحد لما كان عدد الطلبة الناجحين من المدارس الابتدائية الأخرى كبيراً اضطرت سلطات الكلية لفتح نهر إضافي ولأول مرة في تاريخها ليستوعب كل الناجحين من الطلبة مع تبين النية على أن يقتصر على نهر واحد في العام المقبل كل ذلك كان يجري في تكتم شديد لا يعلمه أحد أخفيت الفكرة حتى عن القائمين بأمر التدريس من السودانيين ، جاءت العطلة الصيفية وفي آخر يوم دخل علينا الفصل المستر وليامز مدرس اللغة الإنجليزية وهو يحمل رزمة من الكتب عبارة عن رواية لم تسعفي الذاكرة باسمها أعطي كل طالب كتاباً منها لكل من

الفصلين وقال يمكنكم قراءتها اثناء العطلة ولم يزد على ذلك وكانت حيلة لم نفطن إليها . وانقضت أيام العطلة ونحن لم نفتح الكتاب إلا نادراً وشغلنا اللعب والزراعة وممارسة الصيد عن القراءة حتى عن مراجعة الدروس التي تلقيناها في الفترة معتمدين على ثقتنا واجتياز الامتحان مهما كانت درجة صعوبته دون كبير عناء وبعد فتح المدرسة بيومين دخل علينا المستر وليامز وهو يحمل كمية من الورق وأعطى كل طالب ورقة وقال اكتب باختصار كل ما قرأته عن أحداث هذه الرواية واسقط في أيدينا ونحن لم نكمل قراءتها فكانت نتيجة لذلك أن وزع كل من لم يجتاز الامتحان مصلحتي البريد والبرق ومصلحة الأشغال قسم المياه والكهرباء كقراء عدادات أما نحن الذين تم اختيارنا إلى مصلحة البريد والبرق قسمونا إلى نصفين كبار في السن وصغار فالكبار اختيروا لدراسة قسم البوستة فقط أما الصغار وأنا منهم اختيروا للبوستة والتلغراف معاً وقد ساورني الندم على ما فرطت وأخيراً تقبلت النتيجة وقلت على نفسها جنت براقش ولسبب عدم رغبتني في العمل الحكومي أياً كان نوعه بعد أن حرمت من مواصلة الدراسة التي كانت هي هدفي الأول والأخير . أثرت الاستقالة(35) والانضمام لأبي كي أساعده في عمله التجاري في أماكن مختلفة من مديرتي أعالي النيل وجبال النوبة وكتبت إلى أبي في ذلك ووافق فبارحت الخرطوم مستقبلاً ومكثت بالكوة نحو شهرين حتى وصلتني برقية يطلب فيها حضوري لملكال وكان السفر بالبواخر النيلية سفريات منتظمة مرتين في الشهر ذهاباً ومثلها إياباً وعلى ظهر الوابور الظافر هي الباخرة التي أقلتنا من الكوة إلى ملكال . عندما ألفت الباخرة مراسيها في ميناء ملكال وجدت من ينتظرني على طرف الميناء والسوق لا يبعد عنها إلا قليلاً وكانت كل مبانيها بالخشب المغطاة بالطين بطريقة بدائية لحدائثة عهدها في هذا المكان منذ أن انتقلت من التوفيقية ولم يمض عليها إلا سبع سنوات أما دواوين الحكومة ومقر البريطانيين فهي مشيدة بالطوب الأحمر كما إن بها مستشفى كبير مشيد بالطوب الأحمر .

ملكال(36) مدينة كبيرة انتقلت لها رئاسة المديرية بعد أن كانت كدوك

مقسمة إلى عدة أجزاء منها المديرية التي شيدت على ضفاف نهر النيل يجاورها منزل المدير والمركز وبقية منازل الموظفين البريطانيين أما الجيش يحتل الجزء الجنوبي من المنطقة . أما السوق ومنازل التجار والمستشفى يعتبر في منتصف المدينة بعد ذلك تبتدئ منطقة الري المصري وهي من اجمل المناطق من حيث فخامة المباني وسعتها والميادين الخضراء والجناين ويمتد على محاذاة النيل حيث يقوم على شاطئه وابور لمد المنازل بمياه الشرب وضخ المياه للجناين والميادين ووابور يمد المنازل بالنور الكهربائي وشوارعه مسفلته ومضاءة بالنور الكهربائي طوال الليل . أما منازل من الداخل فهي مهياة بكل ما يحتاج الموظف من أعلى درجة إلى اقل ، مزودة بالسراير والفرش والأبسطه وأواني المطبخ كاملة إلى درجة الشوك والسكاكين وأطعم الشاي بأنواعها زد على ذلك فراش يقوم بخدمة الموظف وجنايني يقوم بالإشراف على الجنيانة وموظف الري المصري لا يحتاج أن يحمل معه فراش أو خلفه إلا شنطة ملابس فقط ولكل موظف الحق في ثمر هذه الجناين تقسم مجاناً أو باشتراك شهري إسمي ويصل نصيب كل فرد إلى منزله عازباً كان أم متأهلاً وهي غنية بأنواع الفاكهة كالمانجو والأناناس والجوافة والقشطة والباباي والرماني والتوت وفواكه كثيرة أخرى كما أن الثلج يوزع مجاناً في المكاتب والمنازل وفي حدائقها الكبيرة التي بمنزل مدير الري وهي جنة دانية القطوف يسير وسطها طائر الطاووس يمشي بينها متبخرأ مزهواً يكور ريش ذيله في شكل دائرة تبدو ألوانه الجميلة الزاهية وبعد فاصل قليل تبدأ الملكية وسكانها خليط من كل الأجناس وسميت بهذا الاسم لان أول من سكنوها كانوا من الجنود القدامى سواء كان خدمتهم في الجيش المصري أو الجيش السوداني بلغوا سن التقاعد أو الاستعناء عن خدماتهم وفي الاسم ما يوحي بتغير حياة الفرد منهم من حربي الى ملكي وهذا مصدر الاسم ثم جاورهم الكثير من الوافدين الذين طاب لهم العيش ومن مديريات أخرى بعد ذلك منطقة البيطري وهي تقع أقصى الشمال هذه هي ملكال في وصف مجمل .

كان تجار ملكال ينقسموا إلى قسمين من حيث التجارة التي يمارسونها طائفة منهم أثروا حصر تجارتهم على ما يطلبه الأهالي من أنواع الحديد المصنع والخرز أو الديمورية والزراق والملح والتمباك وكل متطلبات الأهالي . أما الطبقة الثانية تميل في تجارتها بالتعامل مع الشماليين من الجيش والبوليس أو الملكية وجل مطالبهم من الملونات من ثياب ولزوم الفساتين والعمود غير أن هناك صفة مشتركة هي تخزين الذرة لوقت الخريف ولأكثر هذه الدكاكين فروع بين قرى الأهالي فوجدت أبي يميل إلى المعاملة مع الأهالي فأردت أن أجاريه في رغبته وسرت على هذا المنوال نحو سنة كاملة وفي أثنائها تمكنت من استخراج رخصة كوكيل تعتبر تصريح إقامة في المناطق المقفولة كما لي الحق بأن أمارس عمل تجاري في المناطق المجاورة وقرى الأهالي شعرت في أحد الأيام أن هناك نقصاً في الذرة والمدينة مقبلة إن لم تكن مجاعة فالي نقص حاد وعجز في الذرة بالنسبة للاستهلاك اليومي وكنا نملك مركباً متوسط السعة ولها ريس ونوتي واحد وهي تتسع لنحو ستين جوالاً فافترحت على الوالد بأن يأذن لي بأن استعمل هذه المركب لتجارة متقلة وادخل بها الخيران . كخور فلوس(37) وهو خور يخترق اللاو(38) في بلد النوير وتمده بالمياه بعض الروافد الصغيرة في زمن الخريف ويجري في أراضي الدينكا إلى أن يصب في نهر سوباط بالقرب من الكنيسة (دوليب هل)(39) فوافق على الفكرة وبعد يومين اثنين بارحت المدينة متخفياً متجهاً نحو فلوس وما أن وصلت أول قرية عند ملتقى النهرين حتى سمعت الأهالي تنادى ويلوحون بأيديهم ويطلبوا الوقوف فوقنا وجاء شيخ القرية وكان رجلاً كبير السن يتوكأ على عصاه يرافقه بعضاً من أبنائه وسألنا عن نوع البضائع التي معنا وقال نحن في حاجة إلى كثير من هذه الأصناف وفي الصباح الباكر نفتح السوق قضينا الليلة ونحن في ضيافة الشيخ الذي قدم لنا خروفاً مكنتز اللحم والشحم وكنا ثلاثة فقط على ظهر المركب وكنت أنا أقوم بدور النوتي(40) المفقود في حالة الشحن والتفريغ وفي المدره والمجداف وكنت شاباً قوياً وما أن أشرقت شمس الغد حتى

رأينا الشيخ يمشي أمام قافلة من النساء والرجال وهم يحملون الذرة فهيأنا مكاناً وفرشنا بعض الجوانات على أرض صلبة ولم تمر ساعات أي قبل مجيء العصر شعرنا أن الموجود لدينا يكفي لحمولة المركب وأوقفنا البيع فوجدناهم بالعودة بعد يومين فقط وقدمنا للشيخ بعض الهدايا التي سر بها فشحننا نصف الكمية كعادة الريسين ليعرف مدي احتمال النصف قبل أن يفاجأ بوجود ثقب في القاع يتسرب منه الماء داخل المركب فيصعب تفريغها من حمولتها دون أن نتعرض إلى بلل أو تلف وفي الصباح أودعنا البقية داخلها فأبحرنا نحو ملكال وكنا نسير على مهل حتى لا نصل قبل غروب الشمس بغرض خرجنا منها خلصة ندخلها خلصة وأدركنا المغيب بالقرب من الميناء وصلنا الميناء وقد أرخي الليل سدوله فلم نجد صعوبة في تفريغ المركب وترحيل ما بها إلى المخازن في نفس الليل بواسطة الحمالين ومع فتح السوق ربطنا بضاعتنا وحزمنا أمتعتنا ولما دنت عقارب الساعة من الثامنة مساء حتى رفعنا شراعها وأخذت تعبر عباب النهر دون أن يشعر بنا أحد من التجار وجدنا الأهالي يترقبون حضورنا وبنفس الطريقة تم شحن المركب ورجعنا بعد أن استغرقت الرحلة ثلاثة أيام ونحن نتواري عن أعين التجار خوفاً أن يتكشف الأمر ولكن صدق من قال :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وان خالها تخفي على الناس تعلم
وفي لحظة الاستعداد لسفريّة أخرى إذ دخل على في الدكان أحد أصدقاء أبي وطلب مني أن اسمح لأحد أبنائه لمرافقتي ليوفر لهم قليل من بعض الذرة ولو لاستعمالهم الخاص فوافقت من حيث المبدأ لكن هذه المركب صغيرة الحجم ولا تتحمل أن تقسم حمولتها ولكن فلينتظر ليومين اثنين أعود من هناك وأستأجر له مركب لخاصته ويكون رفيقي في الرحلة المقبلة فوافق وكانت مياه الخور انخفضت أصبح لا يسمح بمرور المركب بحمولتها كاملة مع صغر حجمها وخفة وزنها وقد أوفيت بما وعدت حيث أجرت لرفيقي مركب من أحد التجار وبدأنا العمل سوياً نذهب ونعود سوياً حتى نهاية الموسم . كانت الأيام حلي حقيقة وستلد كل عجيبة

ولكننا ما كنا نتوقع بأن نجئ بها توائماً متتابعة وكلما ناء قيد جاء قيد حتى قلنا رب أين السفر . تواترت الأخبار التي مصدرها الري المصري التي تأتيه عن طريق الصحف والمجلات المصرية علاوة على الخطابات الخصوصية كل ذلك يصل تباعاً وتتسرب الأخبار وتناقلتها الألسن بأن جو العلاقات بين إنجلترا وبين الحكومة المصرية بعد أن أُلِف الوفد الحكومة برئاسة سعد باشا ودخلت الحكومتان في مفاوضات والتي لم تستمر طويلاً حتى منيت بالفشل وفي مسائل جوهرية كلا الحكومتين وقف موقف المتشدد وكانت النتيجة قفل باب المفاوضات ومسألة السودان كانت تسبب القصة الرئيسية بين المتفاوضين لما كانت قضية السودان المتنازع عليها لم يستشار عليها أحد من أبنائه وكان هذا الإهمال المتعمد حافزاً لبعض السودانيين للظهور في المسرح السياسي فانضموا إلى جمعية اللواء الأبيض وكان دورها معروفاً وشعرت حكومة السودان بالخطر المحدق بها من هذه الصحوه من أبناء السودان وخشيت أن تنتقل بدورها إلى السودان فتشعل الفتيل وتصل إلى برميل البارود فيتفجر وأسروا في أنفسهم أي البريطانيون على إنقاذ ما يمكن إنقاذه بأن بعضوا على الجنوب بالنواجذ وترك الجزء الشمالي وبدعوا يخططون لذلك وكان البكباشي صالح عبد الرحمن مصري الجنسية مأموراً لملكال خدم في السودان زمناً طويلاً وكانت علاقته بمدير المديرية المستر روفن علاقة صداقة حميمة وكان السيد الجابري رئيس حسابات المديرية وهو مصري أيضاً قد عاد من إجازته ودخل على المأمور في مكتبه وأخذ يقص عليه الحالة المتوترة التي عمت كل أنحاء مصر وأن سعد باشا يسيطر على الموقف بما له من شعبية وكيف قامت المظاهرات وكيف كانت الهتافات العدائية للإنجليز على أفواه الجماهير وهما في غفلتهم دخل عليهم المفتش وخاطبهم قائلاً بتقولوا إيه فقال له البكباشي لا ما فيش حاجة إنما السيد جاء البارحة من مصر وهو يقص على مواقف سعد وتصرفاته مع الإنجليز فانتفض الجابري واقفاً وقال والنبي ما قلت شئ من ذلك ولم أذكر سعد ولا غير سعد بس البكباشي صالح يريد المزاح فضحك المفتش وقال له البكباشي أنت خايف

ليه. جيعمل لك إيه وقال له يا حضرة المأمور بلاش هظار ولما خرج المفتش قال له يا حضرة المأمور أنت عايز تقطع عيشي أنت ما تعرف مكر الإنجليز ولو صح ذلك سيودوني في داهية هذه الواقعة حكاها البكباشي صالح بنفسه أمام الفكي عوض الله وسر تجار المدينة عمر عوض الله والوالد والتوم المتعارض في مجلس جمعهم بعد صلاة المغرب حيث إعتادوه يومياً ومن بينهم الجابري نفسه .

أطلقت علينا سنة 1924م وجاءت مناسبة يحتفل بها الجيش سنوياً أما عيد الجلوس جلالة الملك أو عيد ميلاده قدمت الدعوات ووزعت الرقاع بين مصالح الحكومة المختلفة وللري المصري وللتجار وجاء اليوم الموعود وذهبنا إلى المكان المعد وكان الحفل جامعاً وقد حضره كل المفتشين العاملين في مراكز المديرية علاوة على البريطانيين والمصريين العاملين بالري والمفتشين البيطريين وقمندان البوليس كان عدد البريطانيين كبيراً جداً وأخذوا مقاعدهم في الصف الأمامي أما نحن التجار وبقية المدعوين فيمكن أن نجلس في أي مكان بعد الصف الأول المخصص للبريطانيين .

دخل الحفل ضابط برتبة يوزباشي هو فوزي نصر الدين إن لم تخني الذاكرة وشق طريقه نحو المنصة ووقف أمامها فعلا التصفيق الحاد من جميع الطبقات ورحب بالحاضرين وشكرهم على تلبية الدعوة واسترسل. تغيرت بعد ذلك النغمة وبدأ يسب الاستعمار الذي يقف عقبة في سبيل تقدم الشعوب وأذلوا أبناءه واستضعفوا أهلها واستعبدوهم وسخروهم لمصلحة إمبراطوريتهم العجوز وأورثوهم الجوع والجهل والمرض فمتى يرحل هذا الكابوس عن أرض السودان ويتركوا السودان إلى أهله والتصفيق الحاد يقطع عليه حديثه وكانت الصدمة غير المتوقعة كان وقعها قوياً مؤلماً (41) على كل الإنجليز فبدعوا يتسللون الواحد تلو الآخر تاركين الحفل ورأوهم أول من بارح الحفل سعادة المدير المستر روفن ثم تبعه الآخرون ولم ينتظر نهاية الكلمة قمندان البوليس الذي وضع أعصابه في ثلاثة وظل يستمع وقد إحمر وجهه ويبست شفثاه ولم يمس كوب المرطبات الذي أمامه

والشعور بالغليظ باد على وجهه وهو يتململ في كرسيه ولم يستطيع عمل شئ بعد نهاية الخطبة والتي كانت هي البداية والنهاية حيث ألغيت كل الكلمات التي كانت ستقال في هذه المناسبة من السادة الإنجليز تقدم السيد قمدان البوليس وطلب منه الورقة التي تحوي هذا الكلام فرد عليه هل رأيت ورقة في يدي أقرأ منها ووضع سبابته في رأسه وقال له هي هنا وعلى إثرها إنفض الحفل قبل مواعده وألغى ما تبقى من البرامج حيث كان يتضمن ليلة ساهرة والدلائيك والنقاير التي جاء بها الأهالي على إختلاف أجناسهم حملوها ورجعوا بها وكان حديث الناس وشغلهم الشاغل شجاعة هذا الرجل وتضحيته بمستقبله .

منذ ذلك اليوم توترت الأحوال وإستقر رأيهم على تنفيذ مخططهم بفصل الجنوب وضمه إلى يوغندا التي تربطهما حدود مشتركة ولكن هناك عقبة تحول دون تنفيذ ذلك ألا وهي كثرة التجار المنبثين بين الأهالي في قراهم وغاباتهم ولكن لابد مما ليس منه بد فحدث حادث لا صله له بالسياسة حيث تعرض شيخ حلة ناكديار وتقع شرق ملكال على نهر السوبات تعرض لحادث إغتيال على يد ابن أخيه للاستيلاء على السلطة من بعده وكانا من العائلة المالكة وجدهم لأبيهم كان ملكاً على الشلك وهذه حالات كثيرة الوقوع خصوصاً ما بين الشلك ومن أفراد العائلة المالكة وقد يذهب ضحيتها المك المتوج نفسه ليتولى الحكم غيره ، كان القاتل يتربص بعمة المقتول منذ أمد بعيد فلم يجد فرصته إلا ذلك اليوم عندما كان أحد ثلاثة في مركب شروك عائداً من ملكال وكان القاتل يحمل سلاحاً نارياً وبينما تسير المركب على نهر السوبات الذي يسير في مجرى ضيق وما كان منه إلا وأن أطلق النار عليه ومن مسافة قريبة فأصابه إصابة مباشرة كانت القاضية وفر هارباً . فلما علمت الحكومة بالحادث أمرت مفتش الشلك بالقبض عليه وتقديمه للمحاكمة وبدأ البحث عنه وبذل من الجهد ما بذل بغرض إلقاء القبض عليه فلم يستطع الوصول إلى غايته سبيلاً وفي يوم من الأيام نما إلي علمه انه موجوداً بين نسائه وأولاده في قريته فجهز قوته من البوليس المسلح بغرض فرض الحصار على القرية .

قد تزامن هذا الحادث مع حادث آخر حيث كان لأحد من التجار قطيع من البقر تعرض لسرقة جزء منه ففتحو بلاغاً بمركز البوليس وطلبوا من السلطات إعطاؤهم إذنًا بالبحث عن الأبقار المسروقة بين قرى الأهالي وقد منحوا الإذن ولما كانت ناكديار هذه تقع بالقرب من ملكال فضلوا البدء بها وركبوا مطاياهم إلى أن وصلوها فلم يعثروا على شئ ورجعوا في صباح اليوم التالي جاء المفتش وفرض الحصار على القرية في الرابعة صباحاً وطوقوا القرية وفتشت بيتاً بيتاً وأشعل النار في بعض القطايطي فخاب أمله فلم يجده فغضب المفتش غضباً شديداً لفشله في مهمته وأخذ يبحث عن مبررات يتقي بها غضب سعادة المدير وسأل المفتش هل جاء إنسان غريب الى هذه القرية شلكاوي أو غير شلكاوي فأشاروا إلى الرجلين أصحاب الأبقار المسروقة فاتخذها ذريعة ورجع وابلغ الأمر إلى سعادة المدير وادخل في روعه أن التجار هم الذين قاموا بالتبليغ عن هذه التحركات مما جعل القاتل يخرج من القرية ووجد تجاوباً من سعادة المدير في التحقيق مع الرجلين فوضعا تحت الحراسة ومثلوا أمام قاضي بريطاني وبعد سماع أقوال المتهمين المدعم بالشهود لم يجد القاضي في القانون ما يدينهم فخطبهم بكل صراحة بأنكما غير مدانين وخرجوا وما أن وصل الخبر لسعادة المدير رفض الحكم وردهم للمحكمة حيث حكمت عليهم بستة شهور سجنًا والإبعاد عن الجنوب لم ينفع في ذلك استئناف ولا استرحام وطلبوا في عريضة الاسترحام استبدال السجن بالغرامة فرفضت السلطات .

كانت أول حادث لتضييق الخناق على الشماليين وتوالت الحوادث وما مرت إلا أيام قليلة حتى أصدر المدير أمراً بأن يجمعوا كل التجار الموجودين بالخارج داخل مدينة ملكال فأصبحت مدينة ملكال تعج بالوافدين وهم في عطالة لا يجدون عملاً فلجأ بعضهم إلى الري المصري وبعضهم عمل كعامل ناموس داخل مدينة ملكال لسبب بقائه حتى تتفرج الأزمة .

استمرت الحالة نحو شهرين وضاق الناس ذرعاً وإذا بأمر جديد من سعادة المدير

بترحيل كل من لا عمل له فمنهم من قابله بالرضا ومنهم من قابله بمضض وبدأ تنفيذ الأمر بواسطة سر تجار المدينة فكانت البواخر النيلية تمتلئ بالمبعدين وكان منطوق أمر الابتعاد ينطبق عليّ أنا شخصياً بما كنت أحمله من توكيل عن أبي لافتتاح فرع للعمل الرئيسي وقبل أن يجي دوري في الترحيل جاء سر التجار ليقول لأبي سعادة المدير يريد مقابلتك وكان المدير معروف بصرامته وسأله قائلاً وهل معي شخص آخر قال لا وقال لم فطمأنه قائلاً سألني المدير عن وجود ذرة في مخازن التجار فقلت له أن السوق كاشف ليس به ذرة إلا تاجراً واحداً وسميتك له وطلب مقابلتك فهيا بنا ، ذهب أبي معه واستأذن للدخول فإذن لهما وأجلسهما على أريكة بجانبه وأقبل على الوالد وقال قد علمت إن بيدك كمية من الذرة بما أن الكنيسة مالك التابعة لمركز بور أصابتها مجاعة وهي تعاني نقصاً حاداً في الذرة فبالنسبة للطلبة والعمال فعليك اتباع الآتي أن تجهز مائتي جوال على ألا يزيد عبوة الجوال عن خمسة كيلات وفي جوالات جيدة وتقديمها للشحن لأول وابور تحت اسم رئيس كنيسة مالك وتأتي بالبوليصة والفاتورة فوافق الوالد وقبل أن يقوم من مجلسه انتهز هذه الفرصة وقال يا سعادة المدير أنا عندي مطلب واحد أريد أن تساعدني فيه قال دع طلبك هذا حتى تأتيني بالبوليصة وكانت الباخرة قد غادرت الخرطوم ولأبد من عمل سريع فجنّدنا عدد من العتالة فأنجزنا الكمية كما أراد ووضعناها على الميناء وتم الشحن فأخذ البوليصة والفاتورة وذهب إلى مكتب سعادة المدير وقدمها فأحالها للحسابات لاستخراج إذن الصرف وقبل أن ينصرف من أمامه ذكره بما وعد وقال له قل حاجتك قال أبي إن لي ابناً أريد أن تسمحوا له بفتح محل تجاري في إحدى القرى التابعة لمركز أبوتج فطلب الباشكاتب وأمره بكتابة خطاب لمفتش أبوتج ليسمح له بذلك وبعد إعداد الخطاب مهره بإمضائه .

ثورة دوال ديو

أخذت خطاب سعادة المدير واتجهت شطر مركز أبوتج فلم أجد المفتش ورجعت نحو قرية أدونق كنت أعمل بها سابقاً ولي معرفة بالشيخ وهي في أرض

الدينكا وبعد يومين رأيت حملة المفتش في طريقها إلى داخل المنطقة كمرور شهري . فمشيت نحوها سيراً على الأقدام بغرض تقديم خطاب سعادة المدير وكانت المسافة بيننا بعيدة والشمس حارة محرقة فالتفت نحوي وأشار إلى أن ارجع فرجعت إلى ممارسة عملي التجاري ولما كانت المنطقة مشتركة بين الدينكا والنوير الذي يسكنون الجزء الشرقي في منطقة تسمى (اللاو) تجئ الأخبار بأن (دوال ديو) قد شق عصا الطاعة على الحكومة ورفض أن يدفع الجزية وحرض أهله على ألا يدفعوا وهو من النوير وكجور لنفس المنطقة فجمع أهله واستشارهم في الأمر وقال لهم إن مجيء الحكومة لا ريب فيه فهل انتم مستعدون للوقوف معي إذا ما نشبت الحرب وقالوا له نحن معك فقال لهم اتركوا لي أمر الطائرات فأنا لها فهل انتم قادرون على أهل الأرض قالوا نعم .

علمت الحكومة بنواياه وأمهله قليلاً حتى جاء يوم الزحف فعبّر الجيش نهر السوبات بالقرب من الكنيسة الدوليب هل بعرباته وعتاده الحربي وكانت الحملة تحت قيادة اليوزباشي محمد عثمان محمد وقائد بريطاني وشق طريقه وبعد الاقتراب من المنطقة ونقطة التجمع وقد أدركهم الليل فباتوا في الخلاء وعند الساعة الرابعة صباحاً التقى الجيشان في غير تكافؤ فجيش الحكومة بأسلحته النارية وجيش دوال بأسلحتهم التقليدية حراب ودرق وحاصرهم جيش الحكومة وضيق عليهم الخناق فلم تستمر الحرب أياماً معدودات قتل أثناءها دوال وكثير من أتباعه وبقيت الحملة نحو شهراً أو أكثر تحتل المنطقة تحسباً لما يستجد بعدها تولي مفتش مركز ابوتج الإشراف عليها بعد مغادرته .

عاد المفتش الى مقر عمله بمركز ابوتج بعد أن ساهم في إخماد نار الثورة بحكم أن المنطقة تقع تحت إدارته . أخذت جوابي واتجهت نحو المركز بعد أن علمت برجوعه فدخلت عليه مكتبه وكان يعرفني بحكم إننا كنا أربعة تجار ثلاثة داخل المركز يلتقي وإياهم يومياً أما أنا فكنت في قرية قريبة من المركز تسمى توبو وكان يلتقي بي كثيراً وكنت معرفتي المحدودة من اللغة الإنجليزية أعطتني مع

الكثير من المفتشين مكانة خاصة وسلمته الخطاب وخبرني في مواقع كثيرة اخترت من بينها قرية تقع في الجنوب الشرقي لابونج وعلى نهر السوياط وجاءت مركب كبيرة متجهة نحو الناصر فاتفقت مع الرئيس بأن ينقل هذه البضاعة على ظهر مركبه حتى تلك القرية فوافق وسارت بنا نحو يومين اثنين فلاحت لنا قرية كبيرة ولها مشرع واسع وجميل فوق اختيارى على هذا المكان فحملوا النوتيه البضائع ووضعوها على طرف المشرع وأقلعت المركب وواصلت سفرها والقرية بعيدة ولما اقبل الليل بت ليلتي في العراء ولم أذق طعاماً للنوم وما أن حان منتصف الليل حتى لجأت الحيوانات المختلفة من ذئب وأسود ونمور وأنواع الصيد الأخرى تتقاطر نحو هذا المشرع لترد الماء وما أن اشعر بقدم حيوان حتى انتصب قائماً فيهرب الحيوان وعندما انبلج صبح الغد جاءت نسوة من القرية يحملن الجرار فوجدوني وحيداً والتفغن حولي ثم ملأن جرارهن ورجعن إلى القرية وأخبرن شيخ الحلة وكان رجلاً كبير السن يمشي بين أربعة شبان وهو يتوكأ على عصاه فسلمت وكنت جالساً على عنقريب فأفسحت له المجال ليجلس بجانبى وكنت مشغولاً بإعداد الشاي جئت بالشاي وتناولناه معاً وأخذ يسألني متى وصلت وما هو نوع البضائع بعد ذلك تطرق إلى القول كيف كان نومك البارحة قلت لم أذق للنوم طعاماً لأن الحيوانات لم تترك لي مجالاً للنوم فضحك وقال أن هذا المشرع هو المكان الوحيد الذي تؤمه الحيوانات لترد النهر أما بقية المشارع فبعيدة عن بعضها وأنا عندما علمت الخبر خفت كثيراً من أن تكون أصيبت بأذى وأنت لا تحمل سلاحاً واقترح على أن ارحل إلى القرية فرفضت وأخيراً قال إذن استحسن أن ترحل إلى نقطة تبعد قليلاً عن المشرع فوافقت ورحلت وأمر الشبان الذين معه بعمل عريشة تقيني الشمس وأمر النساء بتسوية الأرض واستصلاحها لصب الذرة عليها كل ذلك في نهار اليوم الأول وفي المساء رجع إلى القرية أرسل مع أحد أبنائه بندقية ام جفرة ممّا كان يستعمل في زمن الحكومة التركية ومعها خمسة طلقات صنع محلي لكي أدافع بها عن نفسي فتقبلتها منه وكان يمدني باللبن طول مدة إقامتي وعندما يجن

الليل كانت أصوات الحيوانات تتناهى إلي سمعي من عواء لذئب أو زأرت من أسد وهممة من نمر و استمرت هذه الحالة لمدة شهر كامل وكان الشيخ عندما يزورني في الصباح يقول لي على سبيل الدعابة عندما أهم لزيارتك عند كل صباح يراودني الشك هل أجذك على قيد الحياة أم أجد جثتك وقد نهشتها الذئاب والنمور وكنت محتاراً ماذا أقول للمفتش الذي سيرمي المسؤولية على عاتقي ويتهمني بالإهمال ومن أهم الأشياء التي في القرية أن لا يسمح لأي فرد أن يرد الماء بعد حلول الظلام إلا في جماعات تحمل سلاحاً فشكرته . مضي الشهر وجاءت المركب من الناصر وأخذت ما عندي من نرة حتى ملكال .

الصيد بالأنوار الباهرة

كان لي صديق يفتح متجره إلى ما بعد الثامنة مساءً وكنت أقضي معه بعض الوقت وفي يوم حالك الظلمة ترائي لي نور بطاريات يتحول يمناً ويسره في فلاة تقع أمام منطقة السوق وحلة التجار وكانت ملكال كثيرة الذئاب تدخلها بأعداد هائلة قبل منتصف الليل بحثاً عن شاة ضالة أو حظيرة مفتوحة الباب فقلت في نفسي ما سر هذه البطاريات بنورها الكاشف تتحرك وتنتقل لأبد أذن أن هناك سر نجهله ولأبد من الكشف عنه فلفت نظر الذين كانوا يشاركوني المجلس ما هذه الأنوار الكاشفة وما الغرض منها قالوا لا علم لهم فوجهت لهم الدعوة إن كان لأحدكم الرغبة في مرافقتي لمعرفة الحقيقة فجاء الرد منهم مالنا وللأنوار في جو مظلم وكان قولهم هذا بمثابة حافز لي فأمسكت بعكازي وقلت أنا لها واتجهت نحو مصدر الأنوار كانت الفلاة بعضها ذا حشائش والبعض الآخر قد التهمته النيران وكنت أسلك أرض وعرة طينية ذات شقوق أختلط سوادها الذي خلفته النيران من رماد الحشائش اختلط بظلمة الليل فكانت ظلمات بعضها فوق بعض لا تعرف موقعاً لقدمك وأخذت أسير نحو أقرب الأنوار إلي ولما اقتربت منه سمع وقع إقدامي على الأرض وسلط علي نوره ووقف ينتظر القادم فلما وصلت عرفته وعرفني ووجدت بصحبته كلب مربوط بحبل على رقبتة وبادرني ما جاء بك إلى هنا قلت الفضول

ولم يفهم قلت معقباً الأنوار التي تتبعث من بطاريتم فما معني هذا قال نحن نصطاد الغزلان بأن نسلط الأنوار على وجه الغزال وتصاب بالجهر ولا تري شيئاً ونحن نسير نحوها حتى نقترّب منها ثم نطلق الكلب عليها فيمسك بها ويعطل سيرها ونحن نهجم عليها ونذبحها وكنت لأول مرة أعرف ما توصل إليه فكر الإنسان من حيل لخداع الحيوان وأمرني أن أرافقه دون أن تبدر مني حركة ومشينا قليلاً وهو يحول نوره من جهة لأخرى حتى اصطدم النور بعيون إحدى الغزلان فبدأت حمراء وكأنها جمرة فأخذنا نمشي خطوة خطوة حتى اقتربنا منها وأطلقت عنان الكلب فقبض عليها وتسايقنا نحوها فأمسكنا بها ونبحناها وعلى أثر صياحها ألقت حولنا شخصين وكلا ممسك بمراس كلبه وهم يحملون غزالاً فما حان لي أن أنصرف أعطوني نصف الغزال الخلفي فشكرتهم وفي غداة غد ضمنا نفس المجلس وحكيت لهم القصة فمنهم من صدق ومنهم من قال قصة من نسيج خيالك فلم يؤمنوا حتى جئتهم بصحن ملئ باللحم رغم ذلك لم أدخلوا من لومهم على هذا التهور وأن التعرض لمثل هذه الظواهر غير المألوفة لا شك إنها مخاطرة بالحياة .

الإصابة الأولى : كسر بالفخذ

الأيام تسير متباطئة كغير عاداتها أو هكذا كان شعوري وكنت أريد منها أن تسير أسرع من ذلك لتبدأ أول إجازة بعد طول غيبة عن الوطن حيث كان الشوق والحنين قد بلغ مداه وكانت مكاتبات الأصدقاء ترد تباعاً وهي تحتني على العودة وما كنت ولا كانوا يعلمون ما يخفيه القدر . وحل بنا عباس شمه (42) ضيفاً وعلى ظهر دواب حيث كان الوقت خريفاً وكان من بين الدواب حصاناً جموحاً في عصر يوم مطير أسرجته وعلوت صهوته سرت في الشارع الرئيسي وكان خالياً من المارة فانتهاز الحصان فرصة خلو الشارع واعتداله وتعبيده فاخذ يجري بكل ما عنده من السرعة وكانت الأشجار القائمة على شقيه أشجار كبيرة فمال بي على إحدى هذه الأشجار وأحتك بها فوق الضغط على فخذي الأيمن مما سبب كسراً في منتصف عظم الفخذ وسقطت على الأرض وشعرت بأن الكسر مركب واخترق

العظم اللحم وبرز ظاهراً وسال الدم غزيراً فأمسكت بالفخذ المكسور وسحبته إلى
الأمام حتى عاد العظم داخل اللحم وحضر بعض معارفي وهم يعملون في الري
المصري فجاءوا بعنقريب صغير جلست عليه ولم افقد وعيي وحملوني إلى
المستشفى حيث قابلنا الوالد ونحن في طريقنا نحو المستشفى وكان على رأس
المستشفى طبيب بريطاني وآخر ارمني وقد دخل الليل فقاموا بعمل الإسعافات
الأولية واعدوا لي سريراً في الدرجة الثانية المخصصة لكبار الموظفين غير
البريطانيين طبعاً وكانت أجرة السرير عشرون قرشاً وهذا مبلغ يعتبر كبيراً في تلك
الأيام وكانت عبارة عن حجرة ذات نملة تغطيها من ناحيتين ولها منافعها المنفصلة
بها نظيفة تحتوى على ثلاثة أو أربعة سراير دخلتها فوجدت أحد الموظفين
المنتسبين إلى السلك القضائي قد احتل أحد أسرتها أصبحت في اليوم التالي ولم
أدق للنوم طعماً وكنت جلدأ صبوراً حتى لا اسبب قلقاً لأبي وكنت ابتمس لكل زائر
حتى ادخل الطمأنينة في قلبه لينقل هذا الشعور عندما يقابل أبى وتورمت الرجل
وتقيح الجرح وفي كل يوم يسير من سيئ إلى أسوأ ولم تعمل للكسر جبيرة وفي
انتظار براء الجرح ولكن الجرح لم يبرأ ولا العظام تتماسك احتار الأطباء وجاء
ذات يوم الطبيب البريطاني ليقول غداً ستعمل عملية فرفضت وأصر كل منا على
موقفه وتدخل الطبيب الآخر ليقنعني ودار بيننا حوار هل أنت تضمن لي أن
الدكتور لا يقوم بعملية بتر للرجل قال لي أنا سأضمن لك البنج قلت معنى ذلك انك
ستضمن لي الحياة قال نعم قلت له إنني لا أريد حياة بغير رجلين لك أن تعطيني
وعداً بعدم بتر رجلي قال انك تعلم انه رئيسي ولا أستطيع أن أتدخل في عمله قلت
إذا اتركني وشأني وفي اليوم التالي جاء الدكتور البريطاني وقال أنت رفضت
إجراء العملية قلت نعم قال لأي سبب قلت أنا حر أتصرف بما أراه مناسباً ولما
وجد إصراري قال أرى لا فائدة من وجودك في المستشفى قلت اليوم سأبأرحها
وليس الغد وقد مكثت بها نحواً من الشهرين وإن أنسى فلا أنسى وقوف كل
المرضى بالمستشفى بجانبى ومدهم لي بالشاش والأربطة وكل ما يحتاج الجرح

من ضمامات وأوية وأيضاً سكان ملكال وزياراتهم المتواصلة شباباً وشيباً والاطمئنان على صحتي . خرجت من المستشفى ولزمت البيت وكان الاخوة والأصدقاء يسهرون الليالي بجانبني ويحكوا الحكايات ويتبادلون النكات كل ذلك ليدخلوا السرور إلى قلبي لم تطل إقامتي بالبيت حتى شعرت بان العظام بدأت في التلاحم وأستطيع تحريك الرجل حركات بسيطة حتى استطعت أن اقف على قدمي وان أسير على عصي طبية ولم يمر شهر حتى استطعت أن أسير دون عصا وتحسنت صحتي وفي هذه الأثناء حضر لزيارتي الحاج شمه قادماً من تونجه والذي تربطني به صلة القرابة وليست هي المرة الأولى ، ووجدني في طور النقاها فعرض علي الذهاب معه إلى تونجه لأسبوعين حيث الراحة ولتغيير الجو الذي أعيشه وحيداً أثناء النهار فقلت ليس الأمر بيدي وأنا أوافق لكن بعد موافقة الوالد فعرض الفكرة على الوالد فأجاب لا بأس وليعمل بتجديد بناء الدكاكين التي أصابها التلف بسبب الأمطار وصلت تونجه(43) وجدته مركزاً صغيراً يقوم على رأسه مأموراً برتبته يوزياشي لكن له أهميته الاستراتيجية بلغة الدبلوماسيين وهو آخر حدود الشلك من الناحية الجنوبية وبها كنيسة كبيرة ذات بناء فاخر تضم عدد ليس بالقليل من الإيطاليين رجالاً ونساء وتقع غرب السوق وقد وفر لي الأخ الحاج كل سبل الراحة من غذاء خاص وتحتوي المائدة دائماً على لحم الدجاج والحمام والسّمك ، كما كان اللبن بنوعيه في متناول يدي زد على ذلك كميات الفواكه التي تجيء بها البواخر النيلية العائدة من الجنوب من موز ومانجو وأناناس شعرت بتقديم سريع في صحتي ونشطت الأعضاء للعمل وبدأت في بناء الدكاكين ولا بد إذاً من عمل تجاري يغطي هذه المصروفات فطلبت كمية من البن وأرسلتها إلى الليري(44) وأرسلوا لي بقيمتها زيت سمسّم وشحنتها لملكال وكانت عملية رابحة غطت كل تكاليف البناء وكان العائد بعد ذلك كبيراً ، انقضت أيام تونجه رجعت بعدها إلى ملكال وشعرت باني قادر على مزاولة عملي التجاري وكان الموسم الجديد قد بدأ فحزمت بضائعي ويممت نحو توبو قرية من قرى ابونج وكنا خمسة

من التجار أربعة منا من الكوة إلا واحد من اهالي الجزيرة اقبلنا على شراء الذرة وجمعت كمية كبيرة منه وكنت أقوم بعملية الكيل والتخليص ثم بيع ما يحتاجه الأهالي من أقمشة وأنواع الحديد المصنوعة وكنت كثير الحركة مما جعلني أشعر بتورم في الجزء المصاب وزاد الورم وأصابتي حمى وشعرت أن داخلها قيحاً ولأبد من عملية فتح وليس هناك مستشفى قريباً ولا نقطة غيار فجنّت بموس حادة الشفرة وقلت لأحد رفاقي أن يقوم بعملية الفتح فأبى ولأبد من الفتح مهما كلف الأمر لأن العاقبة ربما يحصل تسمم في الجسم بسبب هذا التقيح فأمسكت بالموس ببساري ووضعتها على مكان من التورم وأمسكت بقطعة من الخشب غليظة وضربت بها رأس الموس فغاصت في اللحم وأخذت أغرسها واضغط عليها وأحركها يمناً ويسرة حتى خرج الدم والقبح سوياً وبماء ساخن غسلتها وبقطعة من القماش أحكمت ربطها فرأيت أن أترك العمل حتى النظر في أمر هذه المسببات وسلمت ما بقي لي من بضائع وغادرت المنطقة نحو ملكال على مركب شروك بعد أسبوعين شعرت بتحسن لكن الوالد ألح على بأن أغادر إلى الكوة للراحة فوافقت ووصلت الكوة وقضيت بها فترة فتحسنت صحتي غير أنني أشعر بالتعب كلما مشيت مشواراً طويلاً يسبب لي ورماً في موضع الكسر وكنت أخفي على الوالدة كل ذلك لئلا أشغل بالها .

بدأت التساؤلات من الوالدة والشقيقات متى الزواج فقلت قريباً إنشاء الله كثرت التساؤلات بدرجة أزعجتني وكان الجواب التقليدي قريباً إنشاء الله إلى أن فاجأتني الوالدة وهي تقف أمامي وعلى عينها دمة ما سقطت إلا وحلت مكانها أخرى فانزعجت وقلت في نفسي لأبد من أمر جلال وقلت لها ما يبكيك يا أماه فأخذت بيدي وجلست على مقعد جانبي وفي توسل فاهت بكلمات تقطر حناناً وشفقة نادرة من قلب ينن مما يحمل وفي كلمات جاء فيها هل لك يا بني أن ترحم أمأ مسها الكبر وأضناها الشوق لتحقيق غاية كل أملها في الحياة وتبخل عليها باستجابة طلب واحد وهي ترجوه من زمن طويل قبل أن توافيها منيتها فاغرورقت عيناها

بالدمع وسكت طويلاً لا أستطيع أن أقول كلمة لو فتحت فمي لانفجرت باكياً فشعرت هي الأخرى وأمهلتني حتى استعدت رباطة جأشي وبعد أن انقشعت هذه السحابة قليلاً قلت لها أظنك تعنين الزواج فأجابت بسرعة أتظن أن لي مطلباً غيره وقلت لك ما تشائين وسأقوم على التو وأرسل برقية للوالد أطلب حضوره . جاء الوالد وتم الزواج(45) وكانت لياليه فريدة الحسن لا زال يضرب بها المثل وهي عالقة بذاكرة كل من حضرها .

الهوامش والتعقيبات

- (1) أرتموقة : قرية من قرى الشمالية وسكانها من البديرية .
- (2) كان أهلهم يسكنون بخور شمبات شمال مدينة الثورة وجنوب وادي سيدنا ولم تكن مدينة أمد رمان المعروفة بحدودها الحالية قد تكونت بعد فالمعروف أن مدينة أمد رمان نشأت مع المهديّة وكانت هجرتهم تلك في فترة التركية .
- قالت حبوبتنا مسك اليمن بنت جربان : كانت القوافل التي تأتي من الشمال ويقودها الخبراء يبشرون الجمع بقولهم : وصلنا وادي سيدنا أبشروا فقد أوشكنا الوصول الى قدح جربان وجربان هذا خال أحمد محمد نور والد كاتب المذكرات .
- (3) دويم شات والتي صارت فيما بعد مدينة الدويم الحالية .
- (4) الدمور : ينسج من غزل القطن وكان في تلك الفترة يستخدم بمثابة العملة .
- (5) الزراق : وهو نسيج يصنع بالنيلة الزرقاء وكان ثوب النساء الشائع .
- (6) عرفت في تاريخ السودان بفتنة الأشراف . وتزعم الصراع الخليفة شريف ووقف أمام الخليفة وكان لكل فريق من يساندة من قواد المهديّة واستطاع الخليفة عبد الله أن يسيطر على الموقف وتعرض المشاركون والمخططون لها الى عقوبات صارمة طالبت الكثيرين بما فيهم أهلنا بالكوة من الدناقلة . وهناك أكثر من رسالة جامعية وبحث كتبت في هذا الموضوع لمن يرغب في المزيد .
- (7) عبد الكريم الدفاري : تعود أصولهم إلى مملكة الدفار التي كانت قائمة قبل دخول الجيوش التركية للسودان وهو حفيد الحاج عبد الله الكبير وقد استوطنوا الكوة مع أهلهم وكان من بينهم الفقيه الحاج عبد الله الدفاري تلميذ إبراهيم الرشيد أحد تلاميذ السيد أحمد بن إدريس الفاسي .
- (8) الراية الزرقاء : وهي راية الدناقلة وهي تعتبر من أولى الرايات التي تكونت في المهديّة وبجانب الدناقلة فهي تضم أولاد البحر وتعرض معظم قادتها للعزل والحبس بعد فتنة الأشراف .

(9) السائر : سجن المهديّة المشهور بأمد رمان وما زال موقعة كما كان في عهد المهديّة بالقرب من حي الملازمين مواجهاً لمبنى الإذاعة الحالي .

(10) - الحراب : ومفردها حربة وهي مصنوعة من الحديد المطروق وحادة الأطراف في أحجام مختلفة وتركب على قناة تطول وتقصّر وفقاً لاستخداماتها .

- الكواكيب : جمع ومفردها كوكاب وهي آلة من الآلات الحربية مشرشرة بالجنبات ومقدمتها في شكل مسمار حاد ولها قناة من العود أو خشب القنا .

-الملايد جمع ومفردها ملودة وهي أداة تستخدم في الزراعة (الحش) للتخلص من الحشائش الطفيلية وتأخذ أشكالاً مختلفة .

- البدينقات : جمع ومفردها بدينقة وهي آلة تستخدم لصيد أفراس البحر والأسماك الكبيرة ومقدمتها كالحربة وفي وسطها نتوء بارز يمنعها من الخروج عندما تتغرز في جسم الحيوان وفي نهايتها تجويف لتركيب العمود أو القنا التي تستخدم في الدفع والرمي وسيأتي الحديث عن كل هذه الأدوات فيما بعد .

(11) التوفيقيّة : تقع التوفيقيّة جنوب مدينة ملكال على مصب نهر السوبات عندما يلتقي بالنيل (بحر الجبل) على الضفة الشرقية وهي المنطقة التي وقعت فيها المواجهة الفرنسية البريطانية في مطلع القرن الماضي. وبها عدد من قبور الضباط المصريين الذين توفوا ودفنوا بتلك المدينة وقد رأيت قبورهم المغطاة بالرخام وكانت بحالة جيدة حتى منتصف الخمسينات .

التيجان من توج ويطلق هذا المصطلح على المناطق التي تغطيها الحشائش والنباتات التي تطفو فوق مياه النيل وتكثر هذه التيجان بالمنطقة الواقعة بين شامبي وملكال . وتتشابك تلك النباتات بصورة تعيق الملاحة النهرية في الكثير من الأوقات . وخاصة ان معظم نباتاتها من نبات البردي القوي المتماسك . وسيجد القارئ الإشارة إلى هذا المصطلح كثيراً فيما بعد0

(13) والدته الحاجة مسك اليمن بنت محمد عمر جربان . عمرت وتوفت بعد الثمانين كانت امرأة فارعة الطول بيضاء اللون ذات شخصية قوية كانت تعمل بالتجارة والغزل وكانت تشرف على أسرة كبيرة وكانت من الشخصيات المحبوبة في أسرة جربان ولها علاقات واسعة مع أهل الكوة .

(14) الاختيار لإلحاقهم بمدرسة الكوه الأولية والتي تم افتتاحها في عام 1905م فكانت واحدة من ثلاثة مدارس بمديرية النيل الأبيض (الكوه / القطينة / الدويم) وهي ذات المدرسة التي خرجت العديد من رجال الكوة الذين عملوا في خدمة السودان في مختلف المواقع وللمزيد عن هذه المدرسة ينظر في كتاب " الكوة التاريخ والرجال " تحت الطبع .

(15) الكوه : مدينة الكوه تقع جنوب الخرطوم على بعد حوالي 180 كيلو على الضفة الشرقية من النيل وكانت في البداية تجاور النهر تماماً ولكن بعد قيام خزان جبل أولياء تم ترحيل أحياء (القيقر) لتكون بعيدة عن النهر ويسكنها خليط من القبائل : الدناقلة والشايقية والركابية والجعليين والمواليد وغيرهم ولمن انصهرت تلك القبائل وكانت تمثل تمازجاً قَبلياً فريداً . وقد أفردنا لها كتاباً خاصاً لتسجيل وتوثيق تاريخها بكل تفاصيلها التاريخية والجغرافية وسكانها وشخصياتها بعنوان الكوه التاريخ والرجال.

(16) الكتر : نوع من الأشجار المتوسطة التي كانت تنمو بتلك المناطق وتستخدم فروعها في حطب الحريق والفحم ويعتبر فحمها من أجود الأنواع ولها صمغ لذيق الطعم ولها زهرة ذات أريج طيب وخاصة في الخريف الممطر .

(17) اللعوت : وهي شجرة أقل من أكثر وفروعها أرفع من الكتر ولها صمغ ولكنه رديء الطعم وزهرتها وللحائنها رائحة منفرة . ولأن كلا الشجرتين وقد قضي عليها القطع الجائر والزحف الصحراوي .

(18) المجداع : آلة من الخشب على شكل الرقم 6 يستخدم في الصيد وبعضها على شكل C الانجليزي ويطلق عليه أيضاً " السفروق " .

(19) المرحوم محمد عباس أبو الريش : هو مؤسس مجلة النهضة السودانية 1931-1932م وتعتبر أول مجلة سودانية صدرت بالخرطوم وصدر فيها حوالي أربعة وعشرون عدداً خلال العامين التي صدرت فيها المجلة وتوقفت عن الصدور بعد وفاة مؤسسها في مطلع عام 1933م وهو في ريعان شبابه . وهو مؤسس مكتبة أبو الريش والتي كان موقعها في مواجهة مسجد الخرطوم العتيق وظلت هذه المكتبة حتى منتصف السبعينات تديرها أسرة أبو الريش .

(20) الدريديري أحمد اسماعيل : من أبناء القطينة من أوائل الذين هاجروا إلى مصر لتكملة تعليمهم العالي ونال ليسانس الحقوق من جامعة فؤاد بالقاهرة فكان من أوائل السودانيين الذين نالوا هذه الشهادة القانونية ثم سافر إلى بريطانيا والتحق بجامعة ليدز وتخرج منها بدرجة الماجستير وعاد للسودان وعمل بالمحاماة وأسس فيما بعد حزب وحدة وأدي النيل الذي اندمج فيما بعد مع الحزب الوطني الاتحادي.

(21) كتب الرحلات باللغة الإنجليزية كثيرة وبخاصة الكتب التي تم تأليفها إبان الهجمة الاستعمارية على أفريقيا منذ مطلع القرن التاسع عشر وكان للسودان نصيب ذآخر من تلك المؤلفات التي تتحدث عن الجنوب ودول شرق أفريقيا . وفي المكتبة العربية نشير إلى كتاب حديث نسبياً عن الصيد في السودان أعده وكتبه السفير عبد الله السريع سفير دولة الكويت السابق

بالسودان الذي زار الجنوب واستقر بجوبا لفترة من الزمن خلال السبعينات حتى أطلق عليه عبد الله جوبا - رحمه الله رحمة واسعة

(22) كان الوالد عمره في ذلك الوقت اثني عشر عاماً حيث أنه من مواليد 1906 وكان هذا الحدث كما ذكر في عام 1918م أنظر بربك إلى طفولة ذلك الجيل الذي شب على مواجهة الصعاب وتحمل المسؤولية منذ الصغر .

(23) أم سيّ سيّ : مع تشديد الباء وهي من الطيور المائية وأطلق عليها هذا الاسم نسبة للاصوات التي تطلقها فهي مثل سوسوت الكتاكيت وتزن الواحدة منها حوالي نصف كيلو ولحمها طيب ويفضلها الكثيرون على كل أنواع لحوم الطيور الأخرى وتطير عادة في أسراب .

(24) الأستاذ يحيى زكريا : من ركابية الكوه وهو من تلاميذ الحاج عبد الله الدفاري وقد عمل كاتب في القضاء الشرعي في أوائل فترة الحكم البريطاني المصري للسودان وكانت له مجالس علم وأدب وله ديوان شعر ما زال مع أبنائه .

(25) الوزين : من الطيور المائية ولكنه كبير الحجم ويكون دائماً في زوجين ذكر وأنثى والذكر أكبر من الأنثى ويطلق عليه (فكنج) وبه ريش زاهي الألوان ولكن لحمه أقل جودة من لحم أم سيّ سيّ .

(26) القرص من ثمار شجر السنط ويستخدم القرص في دباغة الجلود بالإضافة إلى ذلك فهو من النباتات الطبية ويستخدم في السودان مع البخور لطرد الحشرات والناموس .

(27) الأنث مون : نوع من العلاج الذي يعطى كحقن لمرضى البلهارسيا .

(28) عن لسان التمساح تقول الرواية الشعبية أن الكلب أخذ لسان التمساح وإضافة إلى لسانه فاصبح لسانه طويلاً متديلاً وصار التمساح بلا لسان ولذلك عندما ينزل الكلب إلى النهر ليشرب يصاح فيه (سيد اللسان جاك) بمعنى (صاحب اللسان جاءك) فيجرى الكلب لتوه ويترك حافة النهر .

(29) تم ترحيلهم من هذه الدار بعد قيام خزان جبل الأولياء في عام 1932م بعد أن غمرت مياه البحيرة كل المناطق المتاخمة لضفتي النيل الأبيض جنوب الخزان حتى مدينة كوستي جنوباً.

(30) أنظر أيها القاري الكريم هذا التعلق بهذه الهواية الخطيرة التي تعرض صاحبها للهلاك والمواقف التي تعرض لها مع تلك التماسيح وهو ما زال صبيّاً يافعاً ، واستطاع أن يخفي تلك الأحداث عن والديه حتى لا يحرم من ممارسة هواية الصيد التي أخذت من نفسه كل تلك المساحة والتي سيطرت على عليه وهو ما سوف نتابعه في الصفحات القادمة .عندما انتقل من مواجهة لتماسيح إلى مواجهة وحوش الغابة.

(31) مازال الوالد لا يقبل على أكل الفول المصري أو العدس فربما كان ذلك من آثار تلك التجربة الأولى التي عاشها .

(32) الجراية نوع من الخبز يصنع من دقيق القمح المخلوط أحياناً بالذرة ولكنه خبز سيئ السمعة.

(33) السيد أحمد أبو سن : ينتمي إلى أسرة أبو سن المشهورة برفاعة وقد كان من أوائل الإداريين السودانيين وقد وصل في السلك الإداري إلى منصب مدير مديرية الخرطوم ، واشتهر بالنزاهة والعدل والشجاعة .

(34) استقال أيضا من سلك القضاء الشرعي وتولى رئاسة تحرير جريدة حضارة السودان التي أصدرها السادة الثلاثة السيد علي الميرغني والسيد عبد الرحمن المهدي والشريف يوسف الهندي وقد تولى في البداية رئاسة تحرير صحفي السودان الأول المرحوم حسين شريف وبعد وفاته لرحمة مولاه تولى رئاسة التحرير الأستاذ أحمد عثمان القاضي ملقباً نداء الوطن وكان له دورا كبيرا في إرساء أسس وقواعد اللغة الصحفية متأثرا في ذلك بالصحافة المصرية كالأهرام والمقطم ويعتبر بحق رائدا من رواد الصحافة السودانية العظام.

(35) بهذا تكون الفترة التي أمضاها الوالد في كلية غردون خلال الخمسة أعوام من عام 1918 وحتى عام 1922 ويكون بذلك التحاقه بأبيه في التجارة في نهاية العام 1922 وبداية عام 1923 م .

(36) ملكال MALAKAL الموقع 31-39 E
9-31 N

عاصمة مديرية أعالي النيل الكبرى .

(37) FULLUS - خور فلوس 31-36 E

9-19 N بولاية أعالي النيل الكبرى

(38) LAU لاو مستوطنة وقبيلة ويقصد هنا المستوطنة والتي تقع في 30-25 E

6-44 N بمديرية أعالي النيل الكبرى .

(39) DULAYB - HILL دوليب هل 30-54 E
8-21 N

وهل (HILL) هو اسم القسيس الذي أسس هذه الكنيسة فهناك أكثر من منطقة تحمل اسم دوليب.

(40) النوتي هو أحد عمال المركب والذي توكل له عدة أعمال من أهمها التجديف بالمجداف أو عن طريق (المدرة) وسحب اللبان (حبل طويل يربط في الوسط ويقوم النوتي بسحب المركب

وهو على البر) بجانب الأعمال الأخرى كإطلاق وطى الشراع وإنزال وربط المرسى وغير ذلك من الأعمال ، أما الرئيس فهو الموكل له إدارة الدفة والسيطرة على النوتية واحكام تحركاتهم .
(41) هذه الواقعة توضح بجلاء الدور الذي لعبه الضباط المصريين في تأجيج نار الحركة الوطنية السودانية . فالواضح أن هناك مجموعة من الضباط الوطنيين المصريين الذين كانوا يتعاطفون مع حركة سعد زغلول والتي كانت تنادي بخروج الاستعمار البريطاني من مصر والسودان . وقد شاب هذا الموضوع الكثير من الضباط فالكثير من المؤرخين يقيمون للمصريين دورهم في الحركة الوطنية السودانية .

(42) عباس يوسف شمه : من مواطني الكوة والده يوسف شمه من كبار تجار فشودة والجبال أسس عملاً تجارياً وإسعاداً بجبال النوبة وبمديرية أعالي النيل منطقة (تونجه) وسيرد الحديث عنه فيما بعد كثيراً . وابنه عباس دخل كلية غردون التذكارية ولكنه غادرها بعد اتمامه المرحلة الابتدائية حيث التحق بالعمل الحر مع والده بتلك المناطق .

(43) تعليق : من أغرب الصدف كاد ان يحدث لي ما حدث لوالدي رغم الفارق في السنوات ، فان كان ما حدث لوالدي في مطلع الثلاثينات فما حدث لي كان في منتصف الخمسينات . والتشابه كبير بين الحادثين . أذكر وانا طالب بالمرحلة الابتدائية بمدينة ملكال أن جاء جدنا المهدي محمد عبد الله وكان تاجراً يعمل بمدينة تونجة جاء بحصان وكنت أخذ الحصان لربطه خارج المنزل للمرعى وأقدم له الماء . وفي أحد الأيام رأيت أن امتطيه وليس لي سابق معرفة بركوب الخيل وما ان استقرت على ظهره حتى انطلق بي يسابق الريح متجهاً نحو الخلاء وكنت اعرف بعض أبجديات الركوب حسب مشاهداتي لسباق الخيول في المناسبات التي تعقد بمدينة ملكال فأملت الحصان ناحية المدينة فمال بي وقفز بي خور كبير ولكني كنت متشبهاً وممسكاً بعنقه وبالحبل وكان ركوبي له دون سرج أو لجام ، واتجه الحصان ينهب الارض بالشارع الرئيسي بالمدينة أظنه نفس الشارع الذي تحدث عنه الوالد ومن الطرائف أن المواطنين كانوا يفسحون لي الطريق ويصفقون ظناً منهم بأنني أقوم باستعراض . ولم يتوقف الحصان إلا عندما اعترض طريقه راكب دراجة فهدأ من سرعته وفي هذه اللحظة قفزت من ظهره نحو الأرض واقفاً وممسكاً بالحبل ولدهشتي وقف تماماً فجئت قائده راجلاً نحو المنزل ولم أخبر أحداً بالحادث . ولكن المفارقة الثانية إن رجلي كسرت عندما قفزت على الحصان الخشبي بالمدرسة .

(44) تونجه TONGA تقع 31-3 E

6 N - 7

من مراكز مديرية أعالي النيل على الضفة الغربية من النيل وسيأتي الحديث عنها فيما

بعد بتوسع .

(45) الليري LIRI الموقع E ٤٤ - ٣٠

N ١٧ - ١٠

إحدى مدن جنوب كردفان وسيعود لها المؤلف بتوسع فيما بعد .

(46) تزوج الوالد من والدتنا نور الشام بنت حمزة والدها حمزة علي تلب من ركابية الكوه وكانت تربط جدنا أحمد محمد نور وجدنا حمزة علي تلب شراكه في الأعمال التجارية بالجنوب. رغم إن هذا الموضوع لا يبدو سببا كافيا للزواج ، ولكن عندما سأله أحفاده فيما بعد عن السبب الحقيقي في اختيار والدتنا وهي لا تمت إليه بصله قرابة أو جيرة قال إنها البنت الوحيدة في الكوة التي لم استطع مقابلتها أو حتى رؤيتها وكنت اسمع عن أخلاقها وجمالها فصادف ذلك هوى في نفسي فعزمت الاقتران بها .

الفصل الثاني

الشلك (1): الأصول والمعتقدات

بالرغم من ان كدوك كانت عاصمة المديرية قبل أن تنتقل إلى ملكال وبها مباني قديمة بننتها فرقة المهندسين من الجيش المصري وهي لا تزال بحالة جديدة غير أن شهرتها لم تصل إلى ما وصلت إليه قرية فشودة التي تقع على مسافة أميال قليلة جنوب كدوك وهي مقر مكوك الشلك ولها تاريخاً موغل في القدم على حسب ما يرويه الرواة أن أصل قبيلة الشلك جاءت من بحر الغزال حيث محل سكنى الجور . والجور والشلك أبناء عمومة وعندما شب خلاف بينهم لسبب من الأسباب هاجر الأخوين نيكانق وداقي واتجها نحو الشمال الشرقي متتبعين نهر الجور حتى وصلوا إلى البقعة التي تسمى فشودة الآن وقد رأى أحدهما أن وجدوهما الاثني في منطقة واحدة ربما تسبب نفس الاختلاف الذي هاجرا من أجله واقترح أحدهم أن يقتربوا بينهما فوقعت القرعة على رحيل داقي فأذعن وخرج داقي إلا أن أخاه نيكانق صاحبه مودعاً حتى وصلا إلى خور يقع شمال كاكا التجارية حالياً وكان داقي يحمل في يده كوكاب (نوع من الحراب يصلح لصيد السمك) مصنوع من الفضة الخالصة وما أن توسط الخور حتى غرز داقي هذا الكوكاب وفي منتصف النهر وخاطب أخاه قائلاً من هنا نفترق فودع كل منهما الآخر في حرارة مع التمنيات الطيبة وأخذ طريقه نحو الجنوب الشرقي وتجاوز نهر سوبات واتجه جنوباً حتى كان من نسله الأشولي في شرق الاستوائية والأنواك في أعالي النيل ورجع نيكانق وأسس قرية فشودة وكان من نسله الشلك التي امتدت رقعتها حتى كاكا شمالاً ومركز تونجه جنوباً أصبحت فشودة مقر مكوك الشلك منذ القدم لم تنقل . وكلمة مك على ما أظن محرفه عن كلمة ملك لأن اللسان غير العربي يصعب عليه نطق حرف اللام قبل الكاف فيدغمه فصار المك بدل الملك ولكي أدلل بصحة ما ذهبت إليه هذه الكلمة المحرفة تطلق على رؤساء القبائل من النوبة حيث هو مك الجبل قبل أن يجئ الاستعمار بلفظة سلطان أو ناظر وكلمة مك ليس لها معني في لغة الشلك مما يدل على أنها دخيلة وفشودة هي الاسم الوحيد الذي يعني الجنوب

والمعروف لدى التجار الأوائل فإن سألت سائل من أين جاء يقول من فشودة وان اقتصرت عنها وإن جاء مسافراً نسأله إلى أين يجيبك إلى فشودة . وكان الابن الأكبر هو وارث العرش وتكاثر النسل وتفرعت البيوتات ورحل كل ابن نحو منطقة خاصة به حتى انحصرت في أربعة بيوتات ثم تقلصت الآن إلى ثلاث بيوتات والسبب حرمان البيت الرابع وعلى حسب عاداتهم الموروثة ودستورهم غير المكتوب ينص على حرمان أي بيت لم يكن على قيد الحياة من أبناء المك عندما يجئ دوره في تولي الحكم وبمعنى أوضح لا يحق للأحفاد تولي الحكم بدلاً عن الأب فالاستحقاق يكون للمك ابن المك ومراعاة لهذه الحالة تنتشط الاغتيالات كلما سنحت الفرصة حتى لو يجئ الاغتيال على يد غير من عليه الدور ولكن اختصاراً للزمين وللمك حق الدفاع عن نفسه وتحذير أي شخص يدخل المدينة ليلاً لأنه غير مصرح لأحد السكنى أو الدخول في المدينة فهي قاصرة على المك ونسائه وأولاده وبقية الخدم ومن عاداتهم عدم زواج بنت المك ولا شك إنها نظرة للمستقبل بعيدة المدى حتى لا يطمع ابن البنت كأحد أفراد الأسرة في أن يرث جده فيتطلع إلى تولي الرئاسة . فتتشب الحرب الأهلية بين الطائفتين هذا من ناحية .

أما الناحية الأخرى تقديس الشك لدستورهم المتوارث منذ آلاف السنين لم يشذ عن قاعدته أو يخرج عليه طائفة من طوائف الشك ولو ألقينا نظرة على تاريخ الأمم وعلى اختلاف أجناسهم ومللهم ودياناتهم تجد في كتب التاريخ كثيراً ما نشبت الحروب الأهلية بين أخوين بسبب الاستيلاء على السلطة واعتدى أحدهم على الآخر إلا بين الشك لم يثبت التاريخ حدوث مثل ذلك لولا ذلك لما اقتصرت المكوكية على أربعة بيوتات وفي السنين الأخيرة خرج أحد البيوتات وأصبحت ثلاثة فقط ولولا التمسك بوصايا الجد الأكبر واحترام قراراته لما تخلف أحد عن المطالبة بحقه في الميراث ولو كان حفيداً وكان من أوجب واجبات المك التقيد بما جاء في هذا الدستور غير المكتوب أما التغيرات التي حصلت أمام حكم المك فافيتي فإنها لم تمس جوهر الدستور إنما كانت تغيير في القوانين واللوائح الداخلية لتواكب

النهضة الحضارية والتقدم الذي طرأ على البشرية - حتى هذا التغيير الذي سمح بزواج بنت المك أشار إشارة صريحة بالا يكون الزواج من قبيلة الشلك ولو كان ابن مك سابق بل من أجنبي حيث لا مطمع لقريب في التدخل في شئون أخواله لأن الابن منسوب لأبيه .

أما السبب في خروج البيت الرابع من حقه في السلطة لأن الدستور ينص في أحد بنوده على أن المك يجب أن يكون ابن مك لا حفيده ولا أي شخص آخر فإذا خلا بيت بسبب وفاة ابن المك السابق عندما يجئ دوره خرج عن إرثه ومراعاة لهذه الحالة تنشط الاغتيالات كلما سنحت الفرصة حتى ولو لم يكن عليه الدور ولكن لاختصار الزمن وتقريب الدور .

وللمك وابناء المكوك سمتهم الخاصة لا يحق لأي شخص من أفراد الشلك العاديين من التخلق بها فمثلاً لا يحق لأي شلكاوي ان يهمل نزع ثنياه الأربعة من فكه الأسفل وكما لا يحق له التحلي بالفضة رجلاً كان أم امرأة سواراً كان أم خاتماً ولبس الخرز الأبيض من نوع رقيق على أحد رجليه ولبس فراء غزال النيل الغطاس فهو خاص بنساء المك وبناته أما لحمه فهو للمك القائم أن كان قريباً من المكان وإلا يسلم لشيخ الحلة ولذلك هو معروف عندهم تحت اسم (صيد المك)(1) يمنع صيده وللمك نصيب في لحم القرنتي وهي ما تسمى بالصرة ذات شحم لذيد الطعم تقع بمثابة السنكيت بالنسبة إلى لحم البقر .

كما يحظر على أي فرد من الشلك اتخاذ بنت المك كخليه فإذا ثبت عليه ذلك أو تقدمت هي بشكوى ضده فجزاؤه مصادرة أمواله مع عقوبة السجن .
بينما في هذه العجالة بعض ما حرم على أفراد الشلك بقي أن نذكر بعض العادات المتعلقة بحياة المك نفسه .

فمن أوجب واجبات المك أن يتخذ من فشودة مقراً له وله حق الإرث في نساء المك السابق شريطة أن يكون الزواج من مال نيكانق وهو بمثابة مال الدولة والمال عبارة عن البقر والغنم حيث لها حظائرها الخاصة ويقوم بخدمتها خدم

خاصين بها بعيداً عن ممتلكات المك الذي يكتسبها أبان حكمه ولها أماكن أخرى خاصة بها وبذلك تكون النساء المتزوجات من بقر نيكانق من حق المك يمسك منهن ما يشاء ويهدى بعضهن إلى بعض المشايخ المقربين أما النساء المتزوجات من المال الخاص فهن من حق أبناء ألمك المتوفى.

ذكرت أن لنيكانق بقر وأغنام خاصة به فمن هو نيكانق هذا هو الجد الأكبر كما أسلفنا للشاك وتخليداً لذكراه له منطقة خاصة داخل فشودة عبارة عن أربعة قطاطي متجاورة يضمها سور من القصب وهي قبر نيكانق . هذه القطاطي تبني من نوع خاص من القش يسمى (اتيقو) له بعض الشبه بما نسميه عندنا بالتمام تبني بطريقة هندسية بالغة في الدقة وفي وضع منسق وجميل تبني هذه القطاطي على رأس بناية طينية متينة وتطلّى بالجير الأبيض وترى القطية وقد تحسبها قبة وهذه القطاطي لها قدسيّتها واحترامها ولا يمكن أن يدخلها إلا سدنتها بغرض النظافة وبكل أدب واحترام ولا يحق لأي سادن أن يرفع صوته داخلها ولا يتكلم مع أحد خارجها وأبوابها مغلقة على الدوام وتقع على جوانب هذه البناية حظائر الغنم والبقر كما أن للبيوت قداستها فلروث البقر الخاصة بنكانق له حرمة وقداسه ويحلف عليه في الحالات الكبيرة كحادث قتل لم يعرف من الجاني أو سرقة أبقار أو إنكار الزنا أو ما شابهها ولا يحصل عليه شخص إلا إذا جاء بشاة أو دفع قيمتها . أما الذي يحلف وهو كاذب فمصيره الموت العاجل أما إذا حدث حادث في قرية ما وأنكروا جميعاً يجئ بالرماد هذا بعد أن ينذر أهلها فإن أصروا على إنكارهم أخذ هذا الرماد المربوط في خرقة من القماش بعد أن يربطه على رأس عصا طويلة ويسير في وسط الحلة وينادى استخلفكم بهذا الرماد بأن تقولوا الحقيقة فإن لم يجد استجابة لندائه وتركها وانصرف لم تمض مدة قصيرة حتى تخرب عن آخرها إما بمرض يعتري سكانها أو بحريق هائل يفتيها ويمحوها من الوجود وبيوت نيكانق ليس قاصرة على فشودة وحدها بل وجودها يكون في قرية المك الأصلية الذي كان يسكنها قبل أن يصل إلى رتبة مك ولها نفس القداسة والاحترام لروث أبقارها نفس

الفاعلية هذه وظيفته أما طريقته يجفف هذا الروث بنشره على الهواء وتحت حرارة الشمس ثم يجمع آخر النهار ويوضع في أماكن خاصة في حظائر البقر ثم توقد تحته النار بغرض وقاية البقر من لسعات الذباب والناموس ليلاً بسبب ما يحدثه من إنارة الدخان وبشكل مستديم طول الليل فالرماد المتخلف من هذا الروث هو الرماد المقدس ويسمونه بلغتهم (البر) أما الحلف في الحالات الصغيرة والتي لا تستوجب الحلف على الرماد المقدس يكون بواسطة لحس الحربة بمعنى أن تمسك بالحربة بيدك وتضع لسانك عليها مروراً بطرفها أو تقبض على التراب بين أصبعيك الإبهام والسبابة وتضعه على لسانك تلفظه بعد ذلك وهذا الحلف يقع في المرتبة الثانية بالنسبة للبر وقد يكون كاذباً في حلفه وقد أيده الاستعمار وصارت هي الطريقة المتبعة حتى الآن أما استعمال البر بالطريقة التي أشرنا إليها تحصل بطريقة فردية لا دخل للمحاكم فيها إلا في حالات نادرة .

الشلك (2) : المك فافيتي

عندما وطأت قدمي أرض ملكال وجدت الرث كما يسمونه الشلك بجانب كلمة مك اسمه فافيتي وموطنه الأصلي قرية اسمها واو(2) تقع على شاطئ نهر النيل لا تبعد كثيراً عن ملكال انتقل إلى فاشودة بعد أن اختير لوظيفة مك وكان رجلاً في مقتبل العمر مربع القامة يميل إلى الطول قوي البنية جميل الوجه تبدو عليه السמחה والطيبة وحسن الهذام يرتدي اللبس التقليدي لاوو(3) من القماش الأبيض ويلف وسطه بحزام من القماش اسود والأخضر يضع مسدساً تحت هذا الحزام يمسك بحربة في شماله وعصاً في يمينه يتبعه حرسه الخاص وهم يحملون أسلحة نارية وكان عاقلاً ورزينا جم الأدب يحبه كل من عرفه وكان تقديره للشماليين إحدى خصاله ينحاز إلى جانبهم عند كل ملمة عادل في أحكامه وقد ظهر جلياً عندما اصدر الاستعمار أمراً بالوقوف احتراماً للملك ومناداته بسعادة الرث وكان الشارع الرئيسي الذي يمر به المك وهو في طريقه نحو المركز أو المديرية يمر بوسط السوق وقد يصادف وقت مروره في أول الضحى وكل تاجر يجلس على

مقعد أو عنقريب صغير ليقراً في مصحف أو غيره من الكتب الدينية ويكون الأهالي لم يفدوا السوق لبعد أماكن سكنائهم في القرى المجاورة وقد لاحظ سعادة الرث بعض ما يلاقيه الرجال المسنين من تعب عند القيام والقعود وترك قراءتهم وكان أبي يلاقي نفس المعاناة وكان يفعل ذلك امتثالاً للأمر وفي يوم من الأيام وأثناء مروره وقف أبي وحياه فمال عليه وجلس في ذلك العنقريب الصغير حيث كان يجلس أبي وأمره بالجلوس بجانبه فجلس وخاطبه قائلاً من اليوم فصاعداً لا تقم من مقعدك نكتفي أن نتبادل التحية وأنت جالس لأنك أنت بمثابة أبي ولا أريد أن اشق عليك فودعه وتابع مسيرته .

سبق قبل قليل بعض التغيرات التي حدثت على يده إبان حكمه الذي استغرق أكثر من ربع قرن ووصفتها في صيغة مجمله ولا بد أن أخذها بشيء من التفصيل . كانت العادة السائدة ومن طبائعهم الموروثة إذا ما مات المك تدفن جنته داخل قطيه لا باب لها ولا فتحه في جدرانها ويدخلون فتاه من اجمل الفتيات ومعها أواني للأكل وشئ من التمباك وآلة التدخين التي كان يستعملها في حياته اعتقاداً منهم انه ستعاوده الروح فتقوم الفتاة بوظيفة الخادم لتقدم له بعض ما يحتاج إليه ثم تقفل القطيه عليها فتموت هي الأخرى جوعاً وعطشاً ، ولما تولى الحكم أمر بالإقلاع عن هذه العادة اللاإنسانية وكان قراراً حكيماً ولفته بارعة أن دلت على شيء إنما تدل على إنسانيته ورجاحة عقله وإيماناً منه بأنه لا عودة للروح بعد خروجها . ومن بين العادات التي شملها التغيير عندما كانت التجارة غير قاصرة على المدن ولها فروع بالقرى والحلال ويكون التاجر الشمالي دائماً معرضاً للتهم إذا غضب عليه أحد الأهالي أن منع أن يقرضه شيئاً من المال أو ثوباً يرتديه فيلجأ إلى الكيد به وفي أكثر الأحيان يلفق ضده جريمة الزنا إما بأحد نسائه أو إحدى بناته ويقدمه للمحكمة الأهلية وهو الغريب في المنطقة فلا يجد من ينصره أو يأخذ بيده فتحكم المحكمة عليه بالغرامة وهي التهمة الوحيدة التي يجد من ورائها الشاكي جزء من مال الغرامة .

كثرت الشكاوى وضج التجار ووصل الأمر إلى الملك وأخذ في دراستها فوجدها ادعاءات كاذبة الغرض منها ابتزاز أموال التجار على أثرها جمع كل العمد والمشايخ كمجلس شورى وقام فيهم خطيباً بما معناه إنكم تعلمون إن كل التجار الموجودين معنا سواء في المدن أو الأسواق الخارجية هم إخواننا وضيوفنا وهم غرباء ويحتاجون إلى الحماية ضد ذوي الأطماع بغرض الابتزاز وتلفيق التهم الكاذبة ضدهم ونحن يجب أن نكون صادقين ونلوم أنفسنا قبل أن نلوم التاجر إن صحت التهمة أم لم تصح فالمسئول الأول والأخير هو الرجل الذي أرسل زوجته أو ابنته للسوق وفي يدها دجاجة ربما معها حزمة من القصب تتبعها لتشتري حاجتها من السوق، جاعتك تحمل زجاجة بها زيت وملح وبصل وتمباك وبعض الخرز جاعتك بما يساوي عشرة قروش بينما ما حملته من بيتها لا تتعدى قيمته ثلاثة قروش فمن أين جاءت ببقية المبلغ لا شك إنها باعت جسمها لتشتري احتياجات البيت فما كان الأجدر بهذا الرجل أن يسألها من مصدر هذه الأشياء فتغاضيك عن هذه الظاهرة شجعته لممارسة ما تعودت عليه وأنت راض أما لو حاسبتها لأقلعت . هذا من ناحية أما من الناحية الأخرى يصعب على الغريب أن يطلب من امرأة غريبة إلا إذا ابتدرته هي أو أبدت ما يشبه الرغبة وإن وقع الاتفاق لا شك أنه سيعطيها حقها في يدها وهذا يقوم مقام الكور المعروف لدينا (كلمة كور معناه دفع تعويض للزوج أو الأب مبلغاً من المال لما لحقه من مساس بعرضه) سواء قلت هذه العطية أو كثرت قد رضيت بها فالحل الذي نراه هو أما أن نمنع بناتنا ونسائنا عن الذهاب إلى السوق وحدهن دون رقيب أو نرضى بالواقع وسكت قليلاً وطلب من الحاضرين على التعقيب على ما تقدم فكان الإجماع على صحة ما تقدم طلبوا منه رأيه في علاج هذه الظاهرة قال الرأي عندي كل امرأة دخلت على التاجر في بيته وهي طائعة مختارة وخلعت ملابسها بيدها لا جريمة ولا تهمة على التاجر أما إذا وجد التاجر في بيتها أو بيت زوجها فهو أثم ويستحق أن يقدم للمحكمة تثبت براءته أو إدانته فوافق الجمع على هذا الرأي وصار ساري المفعول

إلى يومنا هذا .

وبعد أن أقر مبدأ زواج بنت الملك من الأجانب أصبحت بفضل فافيتي ربة أسرة ولها أولاد وبنات وهي تعيش مع زوجها وبين أبنائها وخدمها في سعادة تامة بعد ما كانت لا تجد الاستقرار من كثرت تجوالها. الملك عند الشك ذو فراسة واحترام لا يجرؤ أحد بالنظر إليه ولا اعتراض طريقه ولا الوقوف بجانبه وإذا شاعت الظروف وجمعهم طريق واحد فعلى المارة أن تفارق الطريق ويجلسون على الأرض بعد أن يبتعدوا عن مكان الحراب التي كانت بأيديهم ثم يطأطئوا رؤوسهم ويمسحوا الأرض بأيديهم وهم يرددون (واه واه) أو (دوك دوك) بمعنى أبي أبي ولا يحق لأحد أن يرفع رأسه قبل أن يبتعد عنهم موكب الملك.

بقي علينا أن نذكر شيئاً على قدر ما حوته الذاكرة هو كيف يقع الاختيار

على الملك ،

فالشخص المرشح لمنصب الملك يجب أن تتوفر فيه الصفات الآتية(4) :

أن يكون متناسق الجسم جميل الوجه لا دميماً وليس به عاهة مستديمة كالعرج أو فقدان إحدى عينيه أو بياض أو حول العين ولا أعسر أي يستعمل يده اليسرى بدل اليمنى وألا يكون قصير القامة هذا من ناحية الوصف ولكن هناك عقبة أخرى يجب أن يتخطاها وهي قبول الآلهة وأين الآلهة وكيف الوصول إليهم .

سبق أن تطرقنا فيما سبق عن الأخوين نيكانق وداقي عندما رضيا بالفراق ووصلا إلى خور شمال كاكما التجارية وحانت ساعة الفراق وعرز دافي كوكاباً من الفضة في عرض نهر يجري مأوه وخاطب صاحبه من هنا نفترق وكل منهما أخذ طريقة وفي مكان هذا الكوكاب أصبح مقدساً تبدأ منه مراسيم التتويج لكل مك جديد وكيف ذلك فيجئ كل الكجور والرجال المسنين فجاءاً لهذه المنطقة يتوسطهم الرجل المرشح ويدخلون مركباً ومعهم خروفاً تسير المركب حتى تصل إلى مكان الكوكاب وبعد عمل بعض الطقوس والأدعية من الكجور ويطلب منهم قبول مرشحهم هذا ويرموا بالخروف في وسط النهر في مكان الكوكاب فان غاص في الماء فقد قبلت

الآلهة هذا الترشيح وان عام وخرج إلى البر فان الآلهة لم ترض ولا بد باستبداله بواحد من إخوانه.

بعد رجوعه من عملية الاختيار وقد رضيت الآلهة يعود بعدها لمقره بفشودة تقام الولائم والحفلات ويتقاطر العمد والمشايخ والأعيان مهنيين بعدها يتفرغ إلى مهامه الأخرى ومنذ تلك اللحظة أصبح شغله الشاغل هي حياته حيث أصبح عرضة للاغتيال ويجب عليه عمل كل الاحتياطات اللازمة.

ومن عادة المك أن يتخذ من اكبر نسائه كوصيفة لبقيّة النساء حيث تقوده إلى بيت كل منهن ليلاً وفي تكتم شديد وسرية بالغة ورغم الثقة التي وضعها في هذه الوصيفة لا يخلو قلبه من وسوسه بأن تجد ما يقربها ويمنيها بعود براءة فتدلهم على مكان مبيته فيتربص به ويقتله أثناء خروجه من البيت فهو لا يأمن مكر النساء وعليه تجده ينتقل من بيت إلى آخر بعد رجوع الوصيفة تحسباً لما جال بخاطره وقد يحدث ذلك كثيراً حيث يجد المتربص فرصته بواسطة نساء المك نفسه وكلا الشخصين المتربص والمتربص به يعلمان تمام العلم أن أحدهما ميت لا محالة .

ومن المواقف التي لا أنساها موقف المك فافيتي مع المفتش البريطاني عندما شعر المفتش بأن منطقة كدوك مهددة بمجاعة وأخذ الأهالي في اللجوء إلى المركز حيث ينادون بالذرة ونشط التجار وأبرقوا جهات السودان المختلفة يطلبون الذرة من مظأنها جاءت الصنادل وهي محملة بالذرة لكنها بأسعار عالية فالتقى المفتش بالمك فافيتي وقال له لا تشتروا الذرة من التجار لأن الحكومة ستسعف الأهالي بكميات كبيرة وبأسعار رخيصة وعليك أن تعلن الشك بالآ يتورطوا في شراء كميات كبيرة وينتظروا معونة الحكومة التي ستقدمها لهم وبأسعار مخفضة فرحب بالفكرة وشاع الخبر وتوقف الأهالي عن البيع إلا ما يكفي ليوم أو يومين طالت الأيام ومضت أسابيع ولم تظهر الإعانة أثر وكادوا يفقدون صبرهم في عصر أحد الأيام جاءت باخرة تجر عدداً من الصنادل وتركت أحد الصنادل وفي داخله كمية محدودة وفي الصباح جاءت قوة من البوليس تتنظم وقوف الناس في صفوف متراسة وجاء

المفتش والملك وجلس كل منهم على مقعد ليراقبوا عملية التوزيع فكان نصيب الأسرة نصف كيله وهي لا تكفي إلا ليوم أو يومين ونفذ الذرة فالتفت المفتش مخاطباً الملك أما ترى أن الحكومة أحسن من الجلالة ولم يقل التجار استصغاراً لشأنهم وهو لا يدري إن كلمة جلالة في العربية اسم فاعل من جلب وجلب معناها أتى بالشيء أي جلبه أو سامه للبيع حتى في اللغة العامية فليس فيها ما يشين ولكن حقه الدفين أبى عليه إلا أن يقلل من شأنهم وأردف قائلاً إنهم في مثل هذه الحالة يضطرونكم لبيع أولادكم بالذرة فأى الفريقين أحسن الحكومة أم الجلالة فرد عليه الملك قائلاً احسن الجلالة فحفظت عيناه وأحمر وجهه واستشاط غضباً قال وخيبة الأمل تملأ جوانحه كيف ذلك قال الملك إن كان لي من الأولاد أربعاً وبعث منهم واحداً أنقذت حياة الثلاثة الآخرين أما الذي ينتظر وعدكم سيفقد الأربعة، إضافة إلى ذلك أنت تعلم لم يعد هناك بيعاً للأولاد أو غيرهم . كلمة شجاعة صادرة من قلب مؤمن بدور أخيه الشمالي وما قدمه من مساعدات قبل أن تطأ قدم الإنجليز أرض السودان وكان وقع الرد عنيفاً وندم على ما بدر منه إذ كانت النتيجة عكس ما كان يتوقع فشرب المقلب وما بيده حيله حيث المك لو أراد نقله لفعل في أقل من أربعة وعشرين ساعة .

الشك (3) العادات : الخطوبة والزواج

إذا القينا نظرة عامة على العادات والطبائع بين القبائل الثلاثة المتجاورة التي تسكن إقليم أعالي النيل هم الشك والدينكا والنوير لا تجد فارقاً كبيراً يستحق الذكر ولذلك أثرت أن أتطرق للحديث عن القبائل الثلاثة تجنباً للتكرار وهم بحكم بدائيتهم لا دينيين ولا هم وثنيين تجد وجهات نظرهم متقاربة في ممارستهم وطريقة حياتهم تجمعهم ثلاث خصال الزراعة والعناية بالثروة الحيوانية وصيد الأسماك وهي عمدة الحياة ولنبدأ باختيار الفرد بشريكة حياته .

في العصور القديمة كانت الحروب بين هذه القبائل ليست هي الحروب بالمعنى المعروف لكن غارات تشنها بعض أفراد القبيلة على أفراد القبيلة المجاورة

بغرض السلب والنهب وكان الخوف من هذه الغارات التي تشن تحتاج إلى تضامن وتكاتف للسهر على حياتهم وعلى ممتلكاتهم ولذلك نجد كل إخوان أو أولاد عمومة يسكنون قرية واحدة حيث تجمعهم العصبية ويتقنوا في الدفاع عن أنفسهم وعلى هذا الأساس يعتبرون أنهم إخوة ولا يجوز التزاوج بينهم وهو محرم تحريماً باتاً مما يضطر الفتى بأن يبحث عن فتاته في أماكن بعيدة لا تربطه بأهلها صلة قرابة وقد تجمعهم الأسواق أو الليالي الساهرة بمناسبة الزواج الذي يكون عادة بعد الفراغ من الحصاد ويكون الشباب في شكل عطالة فيسيرون زرافات ووحداناً لحضور ليالي العرس وتبدأ السهرات والاتصالات الفردية بين الفتى والفتاة ويستمر التلاقي في المصايف على شاطئ النيل أو أحد روافده حيث التجمعات السنوية مع ثروتهم الحيوانية وعندما يحصل التقارب بين وجهات النظر وتأخذ المسألة شكلاً جدياً تبدأ الخطوة التالية وهي أن يصحب الخاطب صديقه ويقود كل منهما ثوره الذي يعتز به ويسيرا نحو مصيف الخطيبة وعندما يكونا على مسمع من المصطافين يغنون بصوت عال غناء الشجاعة وعندما يتناهى إلى أذن الخطيبة تبادر باصطحاب صديقتها لمقابلته خارج دائرة المصيف فتمس كل منهن بمقود الثور الذي يكون على رقبته جرساً يرن أثناء تحركه ثم يسرن على أطراف المصيف ومن خلفهن الخطيب ورفيقه وهم يرددون الغناء وأصوات الأجراس ورنينها الهادئ وفي ليل ساكن يأتيك وكأنها موسيقى حالمة. أما شباب المصيف فلا دخل لهم لا يعترضون طريقهم وبموقفهم هذا يقومون بتهيئة الجو الصالح لقيس وليلاه يستمر الطواف والغناء إلى أن يحين الفجر فيودعوا بعضهم ويعودوا من حيث أتوا تتكرر هذه المقابلات وعندما رأوا أنهم على اتفاق تام تعلن الخطبة ويسعى أهل الفتى لمقابلة أهلها لأخذ رأيهم وتبدأ المشاورات فيما بينهم أي أهل الفتاة وبعد الموافقة تصبح مخطوبة رسمية وعليه بعد ذلك تقديم الهدايا لها ولأسرتها التي تقتصر على الأم والأب يمدهم بشيء من التمباك والسّمك وأشياء صغيرة إن كان ذو عسرة أما إن كان ذو ميسره فيقدم لهم بقرة حلوب وعندما يستعد العريس ويريد إتمام الزواج

يتقدم وفد من أهله ويلتقي بأهل الفتاة لتحديد المهر وهو من البقر ولا وجود للنقد في هذه المرحلة والمهر عادة تحديده يتوقف أولاً على جمال الفتاة ومكانة أبوها الاجتماعية من حيث هو من الأعيان أو من المشايخ أو هو صاحب ثروة وعدد أولاده وبناته فكلما كان له صفة من هذه الصفات أو أكثر كان المهر غالباً وكلما كثرت بناته يعتبر من أصحاب الثروة التي ستهبط عليه إن لم تكن عاجلاً فأجلاً وهناك ثمة ملاحظة لابد من إبدائها يختلف مهر الفتاة بين القبائل الثلاثة تجد عند الشلك بعض التسامح ولا يميلون إلى المغالاة في المهور ففي سبع أو عشرة من البقر كفاية وأن لم تكن حاضرة كلها تكن ديناً عليك توفيه مستقبلاً وهذا المستقبل غير محدود ربما يصل إلى أن تلد بنتاً وتزوج هي الأخرى فيؤخذ من مهرها ما يسد عن أبيها من دين ولا شك أنها طريقة جميلة ولذلك قل أن تجد في قبيلة الشلك عانساً إلا أن تكون ذات خلق سيئ أو بها عاهة مستديمة . أما بين قبيلتي الديكا والنوير ومراعاة كل الاعتبارات التي مر ذكرها تبدأ المساومة وقد تصل إلى مائة بقرة في بعض الحالات ولكن التساهل الذي يحدث هو أن البقرة وتابعها تعتبر اثنتين والبقرة أو في بطنها تعتبر اثنتين والعجلة الصغيرة بقرة والعجل الصغير ثوراً هذا إذا لم يجد العريس مزاحماً أما إذا ظهر في الميدان عريساً آخر متولهاً في حبها ميت في غرامها يقام مزاد علني فهي لمن يدفع أكثر وهي حالات نادرة . أما الطلاق فلا يحدث إلا في حالة العقم فإن لم تنجب المرأة للرجل له حق ردها إلى أهلها واسترجاع المال المدفوع إلا من عدد قليل يستبعد بسبب المعاشرة الطويلة التي قضتها معك شريطة أن يكون العقم من جانبها بأن يكون للرجل أبناء من زوجة أخرى أما أن لم تكن له زوجة أخرى فلا يقع الطلاق بحجة ربما يكون العقم من جانبه وهو في حالة أخرى إذا كانت المرأة تلد ذكوراً وليس من بينهم أنثى يحق للرجل المطالبة برد جزء من المال على أساس إن الذكر يأخذ من أبيه ولا مصلحة له في ذلك أما البنت فهي تأتي بالبقر وتعويض أبيها بعض ما فقد .

وهذا المهر ليس من نصيب الأب والأم وحدهما بل يقسم على الآخرين

كالأخوة والأعمام والخالات وغيرهم وكل واحد له نصيبه المعلوم وفي حالة الطلاق يرد مع كل الزيادة التي طرأت بعد ذلك .

وفي حالة رفض الخطيبة أو أهلها لأي سبب من الأسباب كالمغالة في المهر أو ظهور منافساً اتفق معهم وجب عليهم رد قيمة كل ما وصلهم إبان الخطبة التي كان يقدمها وهو يحصيها بطريقة غريبة وهو كل ما قدم شيئاً كسر قشة أو عوداً واحتفظ به والمرّة الثانية يأتي بعود آخر يربطه معه وكل نوع يربط على حده ويحفظ في ذاكرته متى وأين قدمها وبحضور من وعلى مر السنين .

العادات : زواج المرأة من امرأة أخرى

من أغرب العادات والتي لا مثيل لها في أوساط القبائل الأخرى زواج المرأة من امرأة أخرى يصيب المرأة العقم وتكون ميسورة الحال أي تمتلك عدداً من البقر وترى بموتها ستذهب أموالها ويرثها من تعتبره غريباً عنها تتقدم لخطبة إحدى الفتيات وتقدم المهر المطلوب وتختار من بين الفتيان من يروق في نظرها من حيث الوجاهة واكتمال البنية وتتاسق الأعضاء تختاره لمعاشرتها كزوج وتهيء لها مسكناً بالقرب منها وله في كل مولود بقرة إن كان ذكراً وإن كانت أنثى بقرتين أما الأولاد أنفسهم أولادها لأنها الزوج الشرعي ولها حق التصرف في كل ما تأتيه الزوجة من تصرفات وهي التي تقوم بأمرها وتسد النقص إذا عجز هو في معيشتهم اليومية فمهر البنات اللواتي يولدن نتيجة لهذا الزواج فهو للمرأة ولا يصيب العشير منه شيئاً .

في حالة أخرى إذا مات لامرأة ابناً في صغره فهي تزوجه وتدفع المهر نيابة عنه وتأتي بمستأجر ليقوم بعملية الإنجاب ويكون نصيبه كما في الحالة الأولى والأبناء ينتسبون إلى الابن الذي مات في حادثته .

وفي حالات نادرة الجمع بين الأختين ولا يتأتى ذلك إلا لذوي الجاه والعظمة وإن يكن ثرياً مفرطاً في الثراء ويعيشان كزوجتان ولا يحصل بينهما شقاق ولا تغير في المعاملات وهذا التسامح ليس قاصراً على الأختين بل هي ظاهرة بين كل

القبائل اللادينية في السودان والرجل قد يكون تحته أكثر من زوجة وقد يصل عددهن إلى العشرات لا تجد بينهما من تبدى خصاماً أو حسداً أو أي شيء يعكر صفو حياتهن لأن وجودهن بهذه الأعداد ليس الغرض منه المتعة الجنسية لكن الغاية منه الإنجاب أولاً ثم الإنتاج والعمل في المزارع فكلما كثر عدد النساء كثر دخل الرجل ومن واجب أي زوجة جاءت بعد أختها لها أن تحترم التي سبقتها والاحترام والتقدير فهو للزوجة الأولى حيث يحق لها أن تقوم بتوجيه كل امرأة لما فيه صالح الزوج وما عليهن إلا الإذعان .

تَنَقَّلَتْ كثيراً بين القبائل الثلاثة وعاشتهم لفترات طويلة وعرفت الكثير عن عاداتهم رجالاً كانوا أم نساء ما سرني من عاداتهم وأثار إعجابي مثل عادة المرأة الشلكاوية إذا مرت على رجال يجلسون بجانب الطريق أثناء تنقلها من بيت إلى آخر فلا تخطهم بل تجلس على الأرض وتضع يديها على فخذيها وفي أدب واحترام بالغ وتتأديهم بقولها (يا كواجي يو) ما معناها بالعربية استسمح لأخذ طريقي أمامكم فيجيبونها بنفس الاحترام تفضلي لا بأس عليك هذه العادة الحميدة لم أجدتها في بقية القبائل الأخرى كما أعجبت بطريقة يمارسها الأطفال الصغار عندما يكون الرجال داخل الواك (5) وقت الظهيرة واشتداد الحر وهم يدخلون الكدوس وينادون طفلاً ويطلبوا منه أن يأتيهم بجمرة من النار فيذهب إلى أقرب بيت به نار بعد أن يملأ كفه من التراب ويقول لصاحبة الدار ضعي جمرة هنا كي أعود بها إلى الواك (5) فتضع له الجمرة ويذهب بها دون أن تصيبه حروق .

رياضة الصبيان

عندما ينتهي وقت الحصاد وتتحسر مياه النيل مخلفة وراءها وفي مساحات شاسعة أعشاباً يؤمها الأهالي بثروتهم الحيوانية وما تصاحب تلك الثروة من فتيات وفتيان والصبيان حيث يجدون حاجتهم من اللبن والسمك أما كبار السن من الرجال والنساء لا يباحون منازلهم والأبناء يمدوهم باللبن يومياً أما حياة التونج (6) (محل إقامتهم) لكل أسرة كوخها الخاص عبارة عن قطية صغيرة لحفظ الأواني ونوم

الفتيات اللاتي يجهزن الطعام للرجال وهي وجبة في الصباح وأخرى في المساء ، بعد ذلك التفرغ لصيد السمك ولكل رجل أو امرأة كوكاب خاص به يصطاد به السمك حتى الأطفال الصغار في السابعة وما فوق ولكل شخص ما غنمه ويخرجوا ليقودوا النيران ويجمعوا الحطب أو روث البقر ليشعروا عليه السمك حتى ما جاء العصر لجأ الصبية إلى رياضتهم المفضلة هي تعليم الصرف(7) وبما أن شجر الطرور(8) كثير النمو بين الأعشاب يقطع كل واحد منهم فرعين من الطرور واحداً منها ليضرب به أما الثانية ليقبى بها ضربات الخصم ويتقابلوا إثنان إثنان وتبدأ الحرب بينهما وكلما تكسر فرع جاء بآخر حتى مغيب الشمس وهم لا يمارسونها كرياضة بل تعتبر من صميم حياتهم وهي الوسيلة التي ينجو بها من الموت أو الأذى ولا تجد مسافراً ولو في طريقة إلى مزرعته إلا وفي يده درقة(9) من طرور يقبى بها نفسه والدركة من الطرور لها فوائد أخرى بأن يجوف أحد طرفيها فيحفظوا فيها لما لديهم من مال وقطع التمباك ولها قفل وكان الفارس منهم لا ينال درجة فارس أو عقيد إلا عن طريق إجادة الصرف ومهارته فيه وهي التي تكون سبباً في حياته تعطيه فرصة الصمود في ساحات القتال .

وطريقتهم في القتال بين القبائل الثلاثة قد تكون واحدة وهي واجبه على كل فتى شق جبهته وهي علامة لبلوغه سن الرجولة وله حق التصدي لها ودخوله في المعارك ولكن وضعهم دائماً في المقدمة والذين أكبر منهم سناً يأخذوا موقفهم من خلفهم أما بقية القوم والرجال الأقوياء يكونوا من وراء الجميع ليحرضوا الشباب على مقابلة العدو ويجبرونهم على الصمود وكلما رأوا انحرافاً من أحدهم زجروه وبثوا فيه روح الإقدام والشجاعة وهذه الملاقاة قبل أن يطول وقتها فما أن يسقط شخص من أحد الجانبين حتى بث الرعب في صفوف المتقاتلين فيولوا هاربين أو يتدخل العقلاء من الطائفتين .

العادات : دفن الموتى :

لا يعرف الجنوبيين المقابر الجماعية إلا في المدن الكبيرة حيث جاء بها المسلمون وخصصوا لها رقعة من الأرض يدفنون فيها موتاهم ورغم مالها من فوائد صحية واجتماعية لم ترق في نظرهم ولم يعملوا بها إلا الذين سكنوا المدن وبأمر من السلطات أما في القرى فلا زال الميت يدفن بالقرب من بيته الذي يسكنه أو في فناء الدار وكل قبر قائم بذاته فالميت لا يدفن يوم وفاته وربما تأجل ذلك ليومين أو ثلاثة على حسب مكانة المتوفى فان كان من الأعيان أو عمده أو شيخ وله مكانته المرموقة يترك حتى يجتمع أهل والمعارف الذين ترسل لهم الرسل التي تنادي في القرى والحلال تعلن وفاته ولكن الجثة تحتاج إلى نوع من التصبير حتى لا يصيبها التعفن أو التحلل فعند الشك طريقة تحفظ بها الجثة وهي الزريعة (10) والزريعة معروفة لكل سوداني شرب الخمر أم لم يشربها، وما محتويات (الحلو مر) إلا جزء منها . تسحن سحنأ جيداً ثم تغطى بها الجثة فهي مانعة للبكتريا وقد توصلت إلى هذا الاكتشاف منذ مئات السنين وهي تستعمل حتى الآن وبعد إتمام مراسيم الدفن يتفرق الجمع على أن يعود عندما يعلن عن إقامة ليالي المأتم في المستقبل وقد يتأخر ذلك لمدة عام كامل إلى أن تكتمل الاستعدادات اللازمة وقد يتطلب ذلك مبالغاً طائلة وعند الإعلان عن الموعد المحدد تتحرر الذبائح وتعد المشروبات ويتوافد المعزين حتى تضيق بهم المساحة ويجئ الشباب والعقيد الذي يقودهم في عدتهم الحربية درق وحراب وعكايز ذات أذنين وما أن دخلوا فناء الدار وواجهوا قبر الميت حتى صاح العقيد وبأعلى صوته أغانيه الحربية والجنود من خلفه يرددون بعض الفقرات وهم يسرون نحو القبر في حركات تمثل الكر والفر حتى يصلوا القبر ويقف العقيد أمام القبر ليقول ما معناه (هذا الموت الذي اختطفك من بيننا خلصة كان هو راجل ما يجئ بيننا) ثم يرجعوا لينالوا نصيبهم من اللحم والمشروبات ثم يعاودوا العمل إلى وقت متأخر من الليل وبذلك ينتهي العزاء وتتفرق الجموع .

لا أريد أن اخرج عن هذا الموضوع موضوع الزواج وغيره قبل أن اذكر شيئاً عن الآباء عندما يصل بهم العمر إلى أرذله أو تحل بهم الشيخوخة ويكون نتيجة لذلك العجز عن تأدية واجبه نحو نسائه ولديه من النساء عدداً فيهن الكبيرة والصغيرة وله أولاد . هؤلاء الأولاد يحق لهم معاشرة هؤلاء النساء غير أمه وقد ينجب منها فهو أخوه وينسب إلى الأب صاحب المال المدفوع ولا يعامل كمعاملة المستأجر في الحالات الأخرى أما بعد وفاة الوالد فالمرأة والمولود بعد الوفاة فهما له حيث المرأة قد يملكها عن طريق الإرث .

العادات : تسمية المولود عند الشلك

جرت العادة عندنا في الشمال عندما تصل المرأة شهرها الأخير ينعقد مجلس الشورى قوامه الأبوين ربما يتسع ليشمل في عضويته الحموات والأصدقاء لاختيار الاسم للمولود ذكراً كان أم أنثى فيغرق كل منهم في تفكيره وتأملاته ويدخل بطون الكتب التي قرأها أو ما قيل بالسماع ويغوص في دواوين الشعر جاهلية وإسلامية كل ذلك ليجيء بالاسم الذي يحظى بالتأييد ويحرز قصب السبق وينال رضا المجلس وي طرح على مسامع المجلس ما استحسنته من هذه الأسماء وبعد التمهيص يستقر الرأي على الاسم المختار أما عند الشلك يروا لا لزوم لهذا المجهود المضني بل يتركوا ذلك للأيام وإلى الساعة التي تضع فيها المرأة مولودها ويسمى على ما يحدث في تلك اللحظة فمثلاً دخل في تلك اللحظة إلى القرية تاجراً يسوم بضاعته فالاسم (نابوتي) (نا) معناها بنت (بوني) معناها الجلابي وان جاءها المخاض تحت شجرة هجليج فالمولود اسمه (ناطو) أي بنت انهجليج وان كان شجرة ولو قصيرة فالاسم (ناياط) وقد يسمى (ناياط) في حالة أخرى إذا كانت المرأة قد توقفت عن الحمل مدة طويلة واستعانت بالكجور وأعطاهها علاجاً قوامه عروق الشجر يسمى (ناياط) فكلمة (ياط) تشمل الشجر والعروق وقس على ذلك . وفي بعض الحالات عند قبيلة النوير عندما يتأخر الجنين في بطن أمه عن المدة المعروفة التي هي تسعة أشهر ويستمر إلى سنة ونصف السنة ففي هذه الحالة فالاسم عند الشماليين إن

كان ذكراً فالاسم (عاول وان كانت أنثى فالاسم عاوله أما عند النوير فالاسم روفاي) (رو) معناها اثنين فأى شهراً أو شهوور ما يقابل في الإنجليزية (دبل ايدج) ، أما عند الشلك فاسمه (أوو) ذكراً كان أم أنثى .

الشلك (4) المسكن – المأكل

سبق أن تحدثت عن الواك ووظيفته في المجتمع الشلكاوي وقد آن لي أن أتحدث قليلاً عن الدار التي تسكنها الأسرة في الريف الشلكاوي الذي لا يختلف عن بقية القبائل المجاورة هذا إذا استثنينا الذين نزحوا من الريف واستوطنوا العواصم والمدن الكبيرة موظفين أو عمال فقد طرأت على حياتهم الكثير من التغيرات بحكم اختلاطهم بالشماليين والأجانب تغييراً أساسياً شمل كل أوجه الحياة من مأكل وملبس وتبعاً لذلك استعمال الأسرة والفرش التي ينامون عليها فتعال معي ندخل دار في الريف تسكنه أسرة شلكاوية "نحن أمام سور من القصب على ارتفاع مترين أو أكثر وله مدخل واحد وعليه حصيرة مطوية جانباً لسد المدخل عند اللزوم فعندما تلج المدخل تجد أمامك بعض القطاطي تفتح أبوابها على فناء نظيف وعلى أحد جوانبه تقوم بناية على ارتفاع متر وبنفس العرض لتكون موقداً للنار لطهي الطعام ليلاً وتكون حاجزاً يمنع لهب النار من الوصول إلى السور كما أن هذا الفناء مكاناً لسمر النساء عند اشتداد الحر في ليالي الصيف المباني كلها قطاطي لم تشملها يد التغيير منذ أن جاء بها الشلكاوي الأول قاعدتها من الخشب المغزوز على الأرض ومغطي بطبقة من الطين ، فلندخل غرفة منها ولكن كيف الدخول والمدخل يكاد يلتصق بالأرض لا بأس فلندخل حبواً ، حجرة نظيفة بكل ما تحويه الكلمة وعلى جوانبها جرار من الفخار مغطاة بصحون من الصاج المطلي سألنا عما تحويه هذه الجرار فأجابت ربة الدار يحتوى على مأكولات تستعمل في حياتنا اليومية فهذه يوجد بداخلها كمية من الفول السوداني وهذه ملاي باللوبيا وهذا الجر الكبير ملئ بالزريعة والآخر به السمك المجفف وذاك لحم قرنتي مجفف . أما هذه الجرار الصغيرة المصطفة أمامها فهي لدبوبة وهي مشروب أقل كحولاً من المريسة أما

هذه البخس فهي للبن خاصة . ولما نظرنا في أعلى القطية رأينا سنابل الذرة الشامية مربوطة على السقف قلنا ما معني ذلك قالت نعرضه للدخان المنبعث من هذا الموقد يمنع السوس عنه ليحتفظ بصلاحيته ليكون بذرة صالحة عند حلول فصل الخريف وأين تنامون فأشارت بيدها إلى قطعتين من جلد البقر مفروشة على الأرض مباشرة بالقرب منها كأساً مليء بالتراب يستعمل كمتفله وقت التدخين ويمنع منعاً باتاً البصق على أرض الغرفة وقد أفادتنا على كل محتويات الغرفة فلنخرج . خرجنا كما دخلنا حبواً وكان أماننا غرفتين واحدة تخص زوجته الأخرى أما الثانية فهي مسكن بيت الرجل وهي في مقبل العمر تلبس كامل حليها من الخرز الملون منظوم بطريقة متناسقة يزيد من جمالها أذنت لنا في الدخول دخلنا أرض غرفة ملساء وكأنها مبلطة بالأسمنت خشيت أن تنزلق قدمي وعلى الحائط رسومات على أشكال حيوانات باللون الأزرق على جدار بلون بني تضي على الغرفة جمالاً فوق جمالها ووجدت جلد البقر يحتل جانب الغرفة فنفضت منه الغبار اللاصق به وأمرتني بالجلوس ثم خرجت وجاءت وفي يدها بخسة متوسطة الحجم ذات عنق طويل ينتهي بفتحة صغيرة لا تزيد من أن تدخل رأس الإصبع تحتوى على كمية من اللبن الزبادي فجلست أمامي والمرأة المرافقة وعقلت ساقها تحت وركها وأخذت البخسة وأخذت تضرب بالبخسة على أحد فخذيه ليتحلل ما بداخلها من اللبن ليسهل انسيابه عبر الفتحة الصغيرة في أعلى البخسة وقالت أشرب فشربت على طريقة الكولا عن طريق فم الزجاجاة فشربت ووضعتها على الأرض فأخذتها وأعادت نفس الطريقة ووضعتها بين يدي قلت لها كيف تعدون طعامكم فأجابت فهو من الذرة ويصنع على ثلاثة أشكال الأول على شكل عصيدة والثانية على هيئة سكسكانية منحلة أما الثالثة فهي على شكل سكسكانية أو أرز مففل كل حبة قائمة بذاتها وما نوع الادام قالت قد يكون من اللبن أو سمك أو لحم قرنتي يطبخ بالزيت أو دهن الحيوانات الأخرى مع إضافة أنواع من التوابل الأخرى أما لحم الدجاج وبيضه وبقية لحم الطيور الأخرى فلا تؤكل عندهم إنما تربيتها والعناية

بها بغرض البيع في الأسواق لتساعد على مشتري مستلزمات أخرى .
والى هنا أكون قد أعطيت فكرة عامة عن الريف الشلكاوي . ومن طبيعة
الشلك وبحكم وجود التجار الشماليين منذ القدم فلا مانع إذا دعي إلى طعام أن يأكل
مع تاجراً أو خلافه وقل أن تجد ذلك في ريف النوير ففي مرة من المرات وأنا
جالس تحت ظل شجرة في بلد النوير أتناول وجبة الإفطار تتكون من لحم الغزال
ورغيف طازج يصلني عن طريق العربات جاء أربعة من شباب النوير وهم في
كامل زينتهم ووقفوا بجانبني قلت اتفضلوا قال أحدهم ما هذا مشيراً إلى الرغيف قلت
جرايه وهي أسم يطلق على الرغيف بعد أن اختفت الجراية المصنوعة من القمح
والشعير كغذاء للجيش المصري قال أعطيني واحدة فأعطيته واحدة فبدل أن يوجهها
نحو فمه وضعها على أنفه وشمها ثم ابدي امتعاضاً ظاهراً وأبعدها عن أنفه ثم
تناولها الآخر فجاءت منه نفس الحركة وهكذا تداولها ثم أعادوها لي قلت لما لم
تأكلوها قالوا أهذا شيء يؤكل ؟

العناية بالثروة الحيوانية

إن العناية التي يوليها الفرد من القبائل الثلاثة نحو ما يملك من أبقار تكاد
تصل إلى درجة العبادة كيف لا وهي قوام حياته ومصدر رزقه حيث لا مكانة في
المجتمع لمن لا بقر له فهو يسهر الليل لراحته ويقضيه ساهراً لا يذوق للنوم
طعماً يمشى نهاره ويسوقها من مكان لآخر بحثاً عن المرعى يجوع ليشبعها يعرض
حياته للموت ويدفع بنفسه أمام حيوان مفترس لينقذ بقرة أو ثوراً من بين مخالفه
وهو لا يحمل إلا حربة في يده وعند عودتها في المساء في زمن الصيف حيث
تكثر الحشرات التي تقلق راحتها فهي تقضي ليلتها أمام الواك بعد أن يعد أكوام
الروث حولها وبين مراتبها ويشعل فيها النار فتنتشر سحب الدخان ليترد البعوض
والذباب يسهر ليله ليهيئ لها سبل الراحة أما في فصل الخريف فالحالة تختلف
ويشتد التعب ويتطلب الموقف عناية أشد وحرصاً أكبر ولذلك طريقتين ليليه
ونهارية فمهمة النهار جمع الروث وتقطيعه إلى قطع صغيرة ليجف وعندما يحين

وقت الغروب يجعل من هذا الروث أكواماً حول المكان المخصص وبين المرابط ثم توضع عليها النار وهي تسري فيها ببطء لما يحويه الروث من بلل لكن يكثر دخانه وهي الوظيفة المطلوبة حيث تنتشر سحبه لتغطي الساحة ويتردد البعوض والذباب وهو يحمل على كتفه كمية من الحبال ليضع حبل أمام كل وتد وعند دخول القطيع الساحة تتدافع نحو مرابطها ولكل واحدة مربطها الخاص وهي تعرف مكانه فتسير نحوه وتقف عنده وهو يقوم بربطها وفي نحو العاشرة مساء عندما تشعر بان الطقس بدأ في البرودة يقوم بتحويلها إلى داخل الواك الذي يكون سعته على قدر عدد الحيوانات وكلما زاد عددها كان البناء أوسع وقد تصل مساحته إلى عشرة أمتار ويسع نحو الستين أو السبعين منها وينام هو الآخر داخل الواك ليقوم بتزويد النار بكمية من الروث كلما احترقت الكمية الأولى هكذا إلى مطلع الشمس لتخرج من داخل الواك إلى فنائها لتجد نفس الجو المهيأ وعند الساعة الثامنة صباحاً تنطلق نحو المرعى وما أن قاربت عقارب الساعة نحو الحادية عشر ينشط الذباب ويغرس أبره في جسم الحيوان وتمتص دمه فيسبب له الهزال إلى أن ينفق وللذباب لسعات مؤلمة مما يجعله يجري وهي تطارده ولذلك يعود القطيع إلى فناء الواك ليتقي ابر الذباب إلى ما بعد الثالثة بعد الظهر ليرجع إلى مرعاه . هذا نذراً يسيراً لما يلاقيه المرء من عناء ومشقة في تربية قطيعه .

الواك

بقى علينا أن نعطيك فكرة عن الواك الذي ورد ذكره كماوى للثروة الحيوانية وهو عبارة عن قطية واسعة قوامها الخشب المتين تتخلله الشعب يرتفع إلي مترين ويتم سياجه بمطارق لينه وتربط بالحبال ربطاً جيداً ثم تغطي بطبقة من الطين ترتفع منها أعمدة الخشب الطويلة تستند من الداخل على شعبة وهكذا إلى أن يتم بناء الهيكل الخشبي يجئ دور الفلكاب(11) على أبعاد متقاربة بعدها يغطي بالقش وتكون الشعب من الداخل صفوفاً متراسة ذات أبعاد تتسع لربط الحيوان وكلما كثر الخشب كلما وقف صامداً يقاوم الرياح والزوابع وللواك وظيفة أخرى هو محل نوم

الشباب والصبيان من الرجال حيث تقوم راكوبة(12) فوق موقد النار وتتوسط السواك ثم يضفر وسطها الأعلى بأعواد الشجر الرفيعة لينامون عليها وبهذا يتقون وطأة البرد والرطوبة حيث لا غطاء لهم ، وهو مأوى للضيف ولكل طارق كما انه مقبل للرجال والصبيان عندما تشتد حرارة الشمس ويتناولون داخله وجبة الإفطار . أما طريقة الأكل عندهم لكل أبناء جيل مائدتهم الخاصة ولا يميلون إلى الأكل بالأيدي بل بواسطة المحار الذي يحملونه من شواطئ الأنهار أو حفر خشبه على هيئة ملعقة أو قرن ثور ولا تدخل كل الأيدي إناء الطعام بل الأكل بالتناوب بأن يأخذ الأول بالمحارة ويملأها من الطعام ويفرغها فيه ثم يضعها أمام الشخص الذي يليه وهكذا إلى أن يفرغ الطعام أما السمك فهم يستعملون أيديهم مرغمين وليس للملعة دور حيث كثرة الشوك وانتزاعه من بين اللحم لابد من استعمال اليد أو السدين ورأس السمك له مكانة خاصة للذة لحمه وطعم مرقته فهو في الغالب الأعم يكون من نصيب رب الأسرة ولا يؤتى به في وقت تناول الطعام إن كان خارج البيت ومع الضيوف إلا إذا تعددت الرؤوس .

هل تفهم البقر ما يقال لها

يقال إن البقر من الحيوانات التي تفهم وتعي بعض الكلام الذي يدور حولها فان أمرت استجابت سلباً أو إيجاباً وإني مؤمن بهذه الظاهرة والتي شهدت بعضها وسمعت بعضها الآخر سواء كان من الشمال أو في الجنوب حكايات تروى في هذا الصدد يعترف بها كل من أتيحت له الفرصة للعيش بين قبائل البقارة سواء بين من يخاطبونها باللغة العربية أو من يتكلمون بلغة غير العربية والحكايات التي تروى في هذا المجال كثيرة لكني اختار منها ما هو اقرب للعقول .

وما هو غني عن التعريف الاتفاق على أن لكل بقرة اسمها الخاص سواء كان في شمال الوادي أو جنوبه شرقه وغربه هذا الاسم يلزمها منذ الصغر ولا تتساه أبداً غير أن الأسماء نفسها تختلف عند الناطقين بالعربية وعند غير الناطقين بها فالعرب يتفنونون في الأسماء فمثلاً يسمى قمرية — سروال — عجوبة — عروس

، وهكذا أما في الجنوب فاسمها لونها ، ولألوان أوصاف دقيقة قل أن تجد في المراح اثنين بلون واحد ورغم تعدد الألوان فان البقر تميز لونها عند المنادة وعلى الدلالة لهذا الفهم أورد المثل الآتي للقبائل الثلاثة الشلك والدينكا والنوير لهم طريقة في تلوي القرون واعوجاجها عن النمو الطبيعي وفي أوضاع مختلفة وقد تطول هذه القرون وتتباعد المسافة بينها وقد يأتي الوقت الذي يحتاج فيه الثور إلى دخول الواك الذي غالباً ما يكون فتحته على هيئة قوسين متقابلين () ضيق من أعلى ومن أسفل وأوسع الوسط فيتزاحم ثورين على فتحة الواك وقرونها كبيرة والفتحة لا تتسع إلا لواحد فالإنسان القائم على أمرها ما عليه إلا أن ينادي واحداً منها بلونه مثلاً يا أبيض ارجع وراك فيرجع الأبيض ليعطي الفرصة للآخر ليدخل والذي يجد في قرنيه طولاً أو عرضاً فلا يحاول إدخالها بين تلك الفتحة إلا واحداً بعد الآخر .

أما في الشمال فذكاء البقر متعدد الجوانب ففي شهر يونيو من كل عام تبتدئ تباشير الخريف ، الرياح والزوابع مما يثير الأتربة فتغطي برياحها بقية الكلاً مما يسبب الجوع للبقر وبقية الحيوانات الأخرى وتكون في حالة ضيق وقد تسقط بعض الأمطار المبكرة في جهة من الجهات فإذا جاء من يخبر بأن الأمطار قد هبطت في الموقع الفلاني والعشب قد نما والأرض قد اخضرت وكان ذلك على مسمع من القطيع فنتسرب تحت جناح الظلام وحتى تصل إلى المكان الذي أشاروا إليه .

ومما شاهدته كنت قد افتقدت عجلأ لي وكنت ازور موارد الماء ابحت عن ضالتي وكانت الحكومة ترسل الحملات للقبض على أصحاب المواشي الذين يتهربون عن دفع القطعان ولهم حق الحجز على كل القطيع وليس لديه ما يفيد دفع ما عليه من قطعان وكنت اجلس تحت شجرة ظليلة مع أحد الرعاة فإذا هو يلفت نظري نحو جماعة مقبلين وقال من هم قلت لا أعرفهم على البعد قال ربما هم من أحد حملات الحكومة فقام وكان القطيع من البقر يرقد بالقرب منا فوقف أمامه ونادى سروال سروال فوقف كل القطيع فأخذ يلوح بعمامة له فاتجهت أنظارها نحو

الراعي ثم أطلق ساقيه للريح فإذا بالقطيع يتبعه جرياً ولم يترك خلفه إلا العجاج ، ويتكرر هذا المنظر إذا وقع القطيع في أحد المزارع وخاف الراعي أن يدركه صاحب المزرعة فيلجأ إلى هذه العملية حتى يبتعد عن مكان الخطر .

جاء رجل على عهد الحكم الثنائي وتقدم بعريضة ضد شخص آخر وجد عنده بقرة له افتقدها وهي لا زالت عجلة ولما طلب منه ردها رفض فأرسل المفتش الذي كان يقوم مقام القاضي أرسل في طلب الرجل فلما جاء وسئل عن مصدر البقرة قال هي ملكاً لي وبنت بقرتي وجاء بالشهود وحلفوا اليمين إنها بنت بقرته وطلب من الشاكي إحضار الشهود إن كان له شهود في اليوم المحدد وحلفوا اليمين إنها بقرته وبنت بقرته فاحتار المفتش في الأمر، كل خصم جاء بشهود يثبت أحقيته في هذه البقرة فمن هو صاحب الحق وضاق بهذه القضية نزاعاً فماذا يفعل فمن باب الخروج من المأزق أحال القضية إلى المحكمة الأهلية وكان على رأسها ود نواي (13) وهو يمت بصلة إلى الناظر ود عساكر وتربى بين أفراد الأسرة منذ صغره وعندما شب عن الطوق وبلغ سن الرشد عين كعضو في المحكمة حتى بعد نقلها لمدينة كوستي ترأسها في سني حياته الأخيرة وكان ذكياً حاضراً البديهة طيب المعشر وذو أخلاق . تسلم القضية وأمر بإحضار البقرة والخصمين والشهود في اليوم المعين وجاء المفتش ليحضر القضية ويرى كيف يتصرف ود نواي ، أعاد التحقيق في القضية واستجوب الخصمين والشهود بعد أن حلفوا اليمين إلى هنا رأى المفتش إنها قد وصلت إلى الطريق المسدود الذي حيره وقف ود نواي وطلب من المحكمة مرافقته إلى حيث تربط البقرة وكانت ترقد تحت شجرة والمفتش يتبعهم فوقف على بعد خمسة عشر متراً من مكان البقرة وأشار إلى المدعى عليه قائلاً (يا أخي نادي بقرتك) فنادها باسمها نحواً من ثلاث مرات وهي راقدة لم يحرك لها ساكناً فأمره أن يكف فكف والتفت نحو المدعي قال نادي بقرتك فنادى باسمها فما كان منها إلا أن وثبت قائمة ونفضت أذنيها واتجهت نحو المنادي فجاءت ، فقال له سوق يا أخي بقرتك (14) ورجع بالمتهم وشهوده وحكم عليه بالسجن ستة أشهر

وثلاث على كل شاهد وكان المفتش يتتبع ذلك باهتمام واعجب بذكائه ونباهته .

كل القبائل التي تسكن السودان واللايينيين منهم لا يؤمنون بالقضاء والقدر ولا يؤمنون بأن للإنسان أجلاً لا يتعداه فهم في بدائيتهم يفهمون الإنسان لا يموت إلا إذا تسبب إنسان آخر في موته والعرف السائد هو إدانة المتسبب .

وفي يوم شديد الحر عند وقت الظهر جاء رجل بعد أن قطع رحلة شاقة وطويلة فأخذ منه الجوع والعطش مأخذاً بدت علاماتها على وجهه وشفته ، مر على قوم يجلسون داخل واك فأفسحوا له المجال وتبين لهم انه ابن سبيل وحوجته لشيء من الطعام باد على مظهره فقدموا له الطعام والماء فأخذ منها وبعد الفراغ قدموا له الكدوس المحشو بالتبناك وهو يؤدي وظيفة الغليون أو لفافة التبغ من حيث النكهة أو الكيف ففي أثناء التدخين يمر الدخان عبر قناة في طرفها الأعلى مما يلي الفم بخسه (15) محشوة بألياف نباتية تشبه السبب ليؤدي وظيفة الفلتر بالنسبة للمجائر ومن هذا الدخان أثناء مروره بين الألياف تتولد مادة كالعسل ربما هي نكوتين وبعد احتراق التبناك يكون قد حصل على درجة من درجات الكيف ولكن التي تأتي بعدها هي المطلوبة وهي الأهم يحشو الكدوس من الفحم وتوضع على رأسه جمرة من النار وتبدأ عملية تدخين أخرى لا أثر للدخان فيها ولكن حرارة النار المتأججة داخل الكدوس تنبعث منها حرارة شديدة تمر على ما علفت به البخسة من المادة العسلية فتحترق وتتحول إلى نكهة قوية الرائحة تأثر تأثيراً مباشراً على الأعصاب وتبلغ درجة الكيف أعلاها وصاحبنا الضيف عندما وصل إلى هذه المرحلة تصيب منه العرق حتى ابتل جسده وانحلت أعصابه وارتخت أطرافه في حركة من حركاته خرج منه ريح سمعه كل من كان في المجلس وكان في الواك بعض الأطفال فانفجروا ضاحكين وما كان من أحدهم من شدة الضحك أن وقع على قفاه فاصطدم رأسه بأحد العيدان المثبتة من أعواد الواك فشج رأسه وسال دمه وأسعف في الحال ولم يستمر الجرح طويلاً حتى برأ وسار الضيف في طريقه ولم تمض إلا شهور حتى مات الطفل لم يكن الجرح سبباً في وفاته فقاموا أهله

برفع قضية ضد الضيف واعترف بما حصل منه أمام المحكمة وقال أهل الميت لولا مجيء هذا الرجل وحصل منه ما حصل لما مات الطفل فأدانت المحكمة وقضت عليه بدفع الدية إلى أهله .

الزمبارة (16) (الناي)

الراعي هو الراعي يجب عليه العمل بكل ما تحمله هذه الكلمة من معاني كالسهر على سلامة قطيعه وأن يلتمس لها الأماكن التي تتوفر لها فيها أسباب الراحة سواء كان من ناحية ورود الماء أو أماكن الرعي وأن يؤدي وظيفة الراعي بكل أمانة وإخلاص وفي أغلب الأوقات تكون حياته فردية لا مؤنس له يجلس حيث ترقد هي يقوم عندما تقوم فهو ملازماً لها ملازمة الظل لا يجد النوم إلى عينيه سبيلاً إلا لحظات تأتي بغير إرادته وهو يحتاج في هذه الحالة لشيء لطرد السأم ويؤنسه في هذه الوحدة وتعينه على السهر فوجد ضالته في الزمبارة وكانت الزمبارة الأولى تصنع من نوع من البوص يسمى البزام (17) يستعمل أساساً في سقف المنازل بدلاً من الحصائر في وقتنا الحاضر وهو مجوف البطن متراكب على فصوص ينمو غالباً ويكثره على شواطئ النيل الأبيض وروافده يغطي مساحات واسعة ويعيش مدة أطول مما تعيشه الحصائر ولا يتأثر بالماء الذي يتسرب من خلال السقف لصلابة عوده ووجد فيه الرعاية صلاحية لعمل هذه الآلة أكثر من غيره والزمبارة معروفة من أقدم العصور لكن التاريخ لم يشر إلى مصدرها فهي دخيلة على السودان ومن أين جاءت أفريقية هي أم جاءت من خارجها ترسل هذه الآلة نغمات موسيقية تأخذ بمجامع القلوب وترتاح لها النفوس ولها مواويل ومدادات في شكل مقاطع غنائية لا يرددها الحضور كما هي الحالة في الأغاني السودانية وفي نغماتها الكفاية لمعرفة ما يريده الزامر نغماتها توحى بالحنان وتبث الشوق والغرام في قلوب العاشقين وأول مسدار يبدأ به الزامر ومن يريد أن يتعلم هو اللوت كلمة لا تعطي معنى وليس لها وجود في اللغة ولا اللهجات العربية لكنها سهلة التوقيع للمتعم واستعمال الزمبارة ليست وفقاً على الرجال بل تعدادهم حتى

شمل الفتيات ومن الأغاني المستعملة (صوت الغرنوق)(18) و (يا بنات المنصرة)
(19) يا بنات المنصرة) وهي توحى بأن تاجراً يحث بناته على شراء بضاعته من
المرايا وكلمة منصرة لهجة عامية مستعملة في كثير من أنحاء السودان محرفة من
منظراً أو منظار تعني المرأة وأغنية أخرى تقول (يا نسيب أمي الدود جاك) ولهذا
المسدار حكاية ترويهما الأجيال وتتناقلها :

يقال أن شاباً جاء شاطئ النهر يستحم وخلع ملابسه ودخل الماء وكانت له
خطيبة ترعى سرب من غنمها بالقرب منه وهي تجلس تحت شجرة من حيث لا
يراها فإذا بتمساح في منتصف النهر يطفو على سطح الماء فلما رأى الشاب غاص
في الماء مسرعاً واتجه نحوه ولما رأت الفتاة هذا المنظر وأدركت بفراستها ما
سيحل بخطيبها إن هي تغاضت أو تجاهلت الموقف احتارت في أمرها وكيف تنبئه
بهذا العدو المتربص وكانت من عادات النساء قبل أن تصلنا مدنية القرن العشرين
لا تنطق باسم الزوج أو الخطيب مهما كانت الظروف لان الرجل يعتبرها أكبر
إهانة لحقت به فجزاؤها الطلاق الذي لا رجعة كما أشارت المغنية الكردفانية
أسمك ثقيل يا فلان ذي حنضل القيزان

وخشيت الفتاة أن تتعرض لمثل ذلك ويعتبرها من جانبه عملاً مقصوداً
وإهانة صريحة فيفسخ الخطوبة ولا تستطيع مجابته وهو عار يستحم ووجدت
نفسها بين أمرين أحلاهما مر ويجب أن تفكر قبل فوات الأوان فهداها أخيراً
تفكيرها فأمسكت بالزمبارة وبدأت تردد يا نسيب أمي الدود جاك والدود يطلق على
التمساح وعلى كل حيوان مفترس رددتها مرة ومرتين وما أن سمع الفتى فهم منها
أنه في خطر خرج مسرعاً وقبل أن يرتدى ثوبه فإذا بالتمساح يظهر في نفس
المكان .

والأغاني والترانيم التي تستعمل في الزمبارة كثيرة لا يمكن حصرها في هذا
المجال وبعد أن كانت الزمبارة وفقاً على طبقة الرعاة تعدتهم حتى دخلت القرى
واحتلت مكانتها في بيوت الأعراس وفي ليالي السمر يلتف حولها كل الشباب من

الجنسين للاستماع لنغماتها ولا أبالغ إن قلت إن البقر يستأنس بها ويصغي لنغماتها وتوقف عن المرعى كما تستأنس الجمال وتستمع إلى صوت حاديها وهي تزيح تجاوباً معه ، والزمة صوت يصدر من الصدر ترويحاً لما يعتمل بداخله كما قال ابن الفارق :

بفرج بالتغريد ما بفواده وبطرب أرباب العقول إذا غنا

الاستهتار بحياة الإنسان

اعتدت دائماً بأن أقوم برحلات تجارية على ظهر مركب شراعي صغير لا يتسع إلا لنحو ستين جوالاً أدخل بها الخيران كلما شعرت بنقص في كميات الذرة المعروضة في السوق بعد أن أجري اتصالات مع معارفي من الشلك الذين يسكنون القرى المجاورة لمدينة ملكال لمعرفة المناطق التي نالت حظاً وافراً من الأمطار وجنت محصولاً وافراً من الذرة وأشاروا لي على قرية نيار قرية كبيرة تقع في منتصف خور فنكانق معروف لدى التجار بخور حرامي وهذا الاسم لازم هذا الخور من قبل الثورة المهدية حيث يستمد مجراه من مستنقعات شمال مركز تونجه ويأخذ مجراه نحو الشرق حتى يلتقي بنهر النيل في نقطة جنوب غرب ملكال سمي بهذا الاسم أي خور حرامي لأن مدخله كان غير واضح وكانت المراكب الشراعية العاملة بالتجارة في تلك الحقبة تمثل دور الحرامي الذي يدخل الدار عن طريق بابه الضيق وعندما جاء الحكم الثنائي ووطد قدماء في تلك المنطقة لم يستطيع أن يغير هذا الاسم.

أخذت كل ما يلزم من بضائع ودخلت الخور وهو يسير متعرجاً تعرج طريق الحية وعلى ضفتيه تقوم القرى لكنها تبدو صغيرة الحجم قليلة السكان فلا تقف عندها حتى وصلنا نيار فألقت المركب مراسيها وأرسلت في طلب الشيخ فجاء رجل في نحو الستين من عمره يتوكأ على عصا يمشي خلفه ثلاثة من أبنائه وكنت قد تعرفت على اسمه وانتسابه إلى أحد البيوتات المالكة بوظيفة كونجرت. أي حفيد الملك استقيت كل هذه المعلومات قبل أن ألقاه فلما التقينا وأجلسته على فراشي

الخاص على ظهر المركب وخاطبته بكونجرت وقعت هذه المخاطبة في قلبه موقعاً حسناً وانشرح صدره ولم يحتاج الأمر إلى توضيح المهمة التي جئت من أجلها لأن وجود المركب والجوالات تعرف بنفسها وفي ضحى اليوم الثاني لاح على الأفق البعيد غبار يتصاعد ويقترب شيئاً فشيئاً حتى انكشف عن كوكبة من الفرسان على ظهر جيادهم يتقدمهم اثنان من المفتشين مفتش منطقة الشلك والآخر مفتش منطقة غرب النوير والتقىنا بهم أنا والشيخ وحييناهم والتفت مفتش الشلك نحوي وسألني عن مهمتي قلت مشتري الذرة وأين تصرحك فقدمته له وبعد الإطلاع عليه رده إليّ واتجه نحو الشيخ قائلاً ليس لدى من الوقت ما يمكنني من النظر في قضايا المنطقة وجئت مع مفتش غرب النوير في البحث عن النوير الذين يختبئون بين الشلك ليعودوا إلى ديارهم وفي هذه اللحظة سمعنا صوتاً ينادي بلغة النوير أرجع تعال والنقتا جميعاً نحو مصدر الصوت فإذا برجل من النوير يطلق ساقيه للريح تكرر النداء ثلاثاً وكان المفتش هو المنادي فلما لم يستجب أمر الجاويش المرافق أن يرميه بطلقة ففعل غير أنه لم يصبه بقصد أم بغير قصد فما كان من المفتش إلا أن رفع بندقيته ورماه فوق على الأرض وهو يتخبط في دمائه سألته مفتش الشلك لم ذلك كله قال يبدو أنه ارتكب جريمة وهرب من دياره ليجد الحماية بين الشلك فلما شعر بوجودنا ووقفنا ظن أننا جئنا في طلبه ولولا ذلك ما كان له أن يجري وكان يبدو على وجه مفتش الشلك عدم الرضا والغريب في الأمر بعد أن أرداه قتيلاً لم يهتم بجثته وسار في طريقه إلا أن شيخ الحلة نادى في أهله وواروا الجثة التراب تصور هذا الحادث الذي صدر عن مسئول يقتل شخصاً على الظن يخلق لنفسه المبرر بقصة من نسيج خياله لا تمت إلى الحقيقة بصله ، إنه الاستعمار والاستعمار والاستهتار بقيم الإنسانية يأتي بمثل هذه الأفعال دون أن يخشى حسياً أو رقيباً(20).

صيد القرنتي (فرس النهر)

القرنتي حيوان خصه الله جلّت قدرته بالحياة تحت الماء وبالحياة في البر

وهذه الخصوصية لم توهب إلا له وللتمساح والسحفاة وهو كبير الجسم يأكل العشب ولحمه يؤكل ويقال أن بعض العلماء أفتوا بأكل ميتته باعتباره صيد بحر كالحياتان والله أعلم ويختار لسكناه الجزر الغنية بالأعشاب التي يتصل أحد طرفيها بتوج واسع والتوج معناه مكان منخفض تعلوه الفيضان وتنحسر عنه المياه فينمو العشب وقد يترك الفيضان بعض المستنقعات وهو مرعى كل الحيوانات التي تعيش على الأعشاب الأليفة منها والبرية . هذا الحيوان شرس الطبع يهاجم الإنسان وفي عرض النهر إذا وجده على مركب أو طرور له أنياب طويلة قوية يدافع بها عن نفسه وهي كافية لقتل الإنسان إذا ما وقع بينهما أو بتر أي عضو نهشه بها واسع الفم كبير الرأس كثير اللحم غزير الشحم قد يصل إلى مائة رطل بعد تصفيته ولحم الصرة منه من أجود اللحوم وهي تعادل السنكيت في البقر وهي من نصيب المك عند الشلك لا تمسها يد ولا يطعم فيها طامع فهي ترسل إلى فشودة رأساً . وتضع أنثاء جنينها في أماكن غير مطروقة وتخفيه من الأنظار بين الأعشاب الطويلة وتراقبه عن كثب حتى يقوى عوده ويستطيع المشي وراء أمه نحو النهر .

أما طريقة صيده عند الشلك ولهم معرفة تامة ومهارة فائقة لا تجدها عند القبائل النيلية إذا استثنينا قبيلة المونتانج وهم فصيلة من فصائل الدينكا سيجيء الحديث عنهم في موضوع آخر .

والخروج لصيد القرنتي يحتاج إلى زمالة اثنين أو ثلاثة حيث السفر طويلاً والمسافات بعيدة وهم على ظهر مركب شروك ربما يستغرق أربعة أو خمسة أيام ذهاباً وسلاحهم أربعة أو خمسة بدينقات يصنع هذا السلاح خصيصاً لهذا النوع من الصيد ينقرز في جسم الحيوان ولا يخرج . له جهازان الأول الحبل يربط بين البديقة والقناة الخشبية تشبه الرمح وهي سهلة الانفصال وينتهي دوره عندما تنغز البديقة في جسم الحيوان أما الجهاز الآخر عبارة عن حلقة تقوم في أصل البديقة ليربط عليها سلك طيع مرن سهل التثني يربط ربطاً قوياً وفي نهاية السلك تربط حزمة من الطرور لما له من خاصية هو عدم الغوص في الماء ليبين مكان الصيد

عندما يغوص في الماء . وأماكن صيده تكون غالباً في الجزر المفتحة على التوج وتكون الجزيرة ذات أعشاب طويلة وعامرة بقصب البردي وعلى شواطئها تجد المرعي الخصب وهي تسلك طريقاً واحداً يقوم بتعبيده كثرة المرور عليه وعند العثور على هذا الطريق يقيمون معسكراً على بعد ميلين ويهيئوا مكاناً لمعسكرهم على اليابسة ومن أهم مستلزمات الرحلة الناموسية لكل منهم حيث لا نوم ولا راحة إلا بداخلها ويفرغوا المركب من محتوياتها إلا من سلاحهم وقبل غروب الشمس بقليل يسبوا نحو المكان المعين ويهيئوا للصياد مكانه بالقرب من طريق الحيوان ومن مؤهلات الصياد أن يكون قوى البنية مفتول العضلات شجاعاً صبوراً يتحمل قرصات البعوض ولسعات الحشرات وهو عاري الجسم لا يرتدي شيئاً لئلا يحدث تغييراً في طبيعة المكان فيسترعي انتباه الصيد فإن سبقه لاجتياز هذا المكان انتظر عودته عند تبشير الصباح وإن لم يكن ذلك فهو آت لا محالة . وعندما يحين وقت مجيء الحيوان ويشعر بحركته وهو يمشي الهوينا بسبب رخو الأرض المبتلة أو الأعشاب التي تسد مسلكه بسبب الرياح المتقلبة فيمسك الرجل ببدينقته وهو واقف حذر حتى يدنو منه وهو يقف كالخشبه لا يبدى حراكاً ولا يتنفس إلا ببطء وعندما تحين الفرصة يرميه بكل ما أوتي من قوة فتغوص البدينقة في جسده ويتخير لها الأماكن القاتلة وعندما يشعر الحيوان بما أصابه ينثني راجعاً نحو النهر وهو يجر وراءه حزمة الطرور ويبتعد عن المكان وبعد ذلك يكون قد انتهت مهمته في هذه المرحلة ولا لزوم للتخفي أو السرية فينادي على صاحبيه بصوت عال فيسرعوا نحوه ويأخذوه عائدين إلى معسكرهم وفي الصباح تبدأ الجولة الثانية فيجوبون النهر عرضاً وطولاً بحثاً عن الطرور فإذا ما عثروا عليه أمسك أحدهم ببدينقه بيده وأمسك الآخر بطرف السلك يجذبه نحوه بقوة فتتبعه الفريسة وما أن تقترب وتطفو على وجه الماء يرميها بما في يده ويغرزها في جسمها وبهذه الطريقة إلى أن تموت فيسحبونها نحو المعسكر ويقوموا بعملية تقديد اللحم والجلد وينشر على الهواء وتبدأ عملية البحث عن صيد آخر ومن جلده تصنع الدرق والسيطان .

اقتحام النار

بينما كنت أمارس عملي التجاري في قرية صغيرة تابعة لمركز أبونج على الضفة الغربية من نهر سوبات ولما كانت المسافة بين أبونج وتوبو وهي مقر تجاري ليست بالبعيدة رأيت أن أقوم بزيارة لتجارها الثلاثة وتربطني بهم صداقة هم محمد الحسن العواي ومحمد احمد الشيخ وكان لدي كل منهم زوجة شمالية تقيم معه بأبونج إلا محمد الشيخ فالمرأة التي لديه من حلة الملكية بملكال وفي بعض الأحيان يتغيب التاجر ويخرج في رحلة قصيرة لا تستغرق أكثر من سحابة يومه عله يصادف بقرة يشتريها أو ثوراً أو جلودها وهو خير له من أن يقضي يومه في الدكان . جئت ولم أجد بالسوق إلا ود العواي يجلس أمام متجره وحيداً فرحب بي وقال هل لك في عشرة طاولة قبل أوان الفطور فلم أبد اعتراضاً وبدأ اللعب وانحصر كل تفكيرنا في الطاولة فإذا بجرس الحريقة يضرب من نقطة البوليس ويعلن إن حريقاً قد شب ويطلب النجدة لإطفاء الحريق فاشترأبت أعناقنا واتجهت أنظارنا نحو المصدر فإذا بالدخان يتصاعد من منزل محمد الشيخ الذي كان غائباً عن المنزل والدكان لا يبعد إلا بأمتار قليلة من المنزل المحترق فصحت مسرعاً واتجهت نحو المنزل فقابلتني الخدامه وأشارت إليّ بأن زوجة محمد الشيخ داخل القطية التي تملكها النار وهي التي اضرمت النار من الداخل وأحكمت قفل الباب وراءها وهي تحمل المفتاح وما أن وصلت الباب حتى وجدته من خشب قوى لا أستطيع كسره بيدي فأني لي بفأس أحطم بها الباب والنار تتأجج من الداخل وقد تجمعت الناس ووقفنا مكتوفي الأيدي وكان يقف بجواري ود العواي فقلت في نفسي لا بد من عمل شيء وكل حركة معها بركة كما يقولون وخير لنا أن يقال عملنا ولم ننجح من أن يقال إننا لم نبذل مجهوداً لإنقاذ حياة امرأة وننتهم بعدم المروءة فجريت نحو الباب وشعرت بيد تحاول أن تمسك بيدي فخلصتها في سرعة وضربت الباب برجلي ضربة قوية فانفتح ورأيت تحت ضوء النيران وحرارتها وشاهدت أمامي وعلى مقربة من الباب كومة سوداء وتحتها جسم لا يتحرك مغطي بالرماد المتساقط

من السقف المحترق وأمسكت بأول طرف أقرب إليّ من جسمها فإذا هي رجلها فسحبته على الأرض وخرجت بها وما هي إلا دقيقة أو دقيقتين حتى سقطت القطية ووجهي يكاد أن ينسلخ من شدة الحرارة التي أصابته وكان من الناس من يلومني باعتبار أنه تهور ومنهم من رآه واجب .

وقد تعجبت من شجاعة هذه المرأة التي واجهت بها الموت في شجاعة وصبر وبيدها الفرصة بأن تنقذ حياتها حتى عندما أصبح الموت بالنسبة لها قاب قوسين أو أقرب حتى عندما شعرت بأن الباب قد أنفتح فلم تتحرك ولم تكلف نفسها مؤنة النظر إلى من اقتحم عليها الباب ومفتاح الباب مربوط بطرف ثوبها وبعد أن استعادت أنفاسها انطفأ الحريق اقتيدت نحو نقطة البوليس وعند التحقيق معها تبين أنها أصيبت بلوثة في عقلها وزين لها شيطانها بأن تأتي بمثل ما أنت به . وفي المساء جاء زوجها وعلم جليته الخبر والمرأة لا زالت في الحبس التحفظي وذهب إلى هناك وبعد كتابة التعهد اللازم اقتادها إلى البيت وعمل على ترحيلها نحو ملكال وأخذ بقية عفشها وذهب إلى أهلها بعد أن قدم لهم مبلغاً من المال ليقوموا على علاجها بواسطة الكجور وعمل الطقوس اللازمة بالطريقة المتبعة عندهم وهي حالات كثيرة الحدوث ولم يكن وقتها الطب النفسي معروفاً ولا يوجد أخصائيون كما هو الحال في وقتنا الحاضر .

مركز تونجه

سبق أن ذكرت قبل قليل أن للشلك تجهيزاتهم ومهاراتهم في صيد القرنتي بأسلحتهم التقليدية جاءت هذه المهارة بحكم تواجدهم بالقرب من ميعة (21) (باركونجه) التي تقع في الضفة الشرقية من مركز تونجه في أرض النوير وهذه الميعة التي تتصل بنهر النيل بأحد طرفيها عامرة بالقرنتي بأعداد كبيرة تفوق الخيال ونسبة لسعتها وركود مائها وسعة الرقعة التي تكون مرعى خصباً لهذا الحيوان ولكثرة السمك بها أمتها كثير من بيوتات الشلك وشاركوا النوير سكنى المنطقة في السنوات الأخيرة حيث أصابوا فيها رغد العيش ومتعة الحياة دون كبير

عناء ولا مشقة ولكن توقفت عملية صيد القرنتي منها بسبب خلو شواطئها من قصب البردي الذي يحمي الصياد من التعرض للخطر وقد هجرها الصيادون ونزحوا نحو الجنوب وعندما كان نشاط صيد القرنتي على أوجه كانت تونجه هي البلد الوحيد في مديرية أعالي النيل وخلافها التي تمتد العاصمة وتغرق أسواقها من جلود القرنتي وسنها لتصنيعه درق وبازات وسياط ومن سنها تصنع حلية تلبسها كعقد المرأة الغربية ويصنع منها الأناتيك تباع للسائح الأجنبي لما كانت لتونجه في ذلك العهد من شهرة في هذا المجال فقد ذكرها الشاعر الملهم والعبري الفذ ود الرضي طيب الله ثراه في قصيدته المشهورة :

من الأسكلا وحلا قام من البلد ولا دمعي للثياب بلا
الذي أبدع فيها إيما إبداع حيث تابع رحلة الحبيبة بخياله ومشاعره من مدينة إلى مدينة إلى أن وصل بها إلى تونجه الذي وصفها مركز العنجا وهنا لأبد من وقفة تأمل حيال هذا الوصف الذي يحتاج إلى شرح والغوص في معانيه فهل يا ترى أن الشاعر جاء بكلمة العنجا يريد بها المعني الحقيقي التي يشمل معنيين أم اضطرته ظروف القافية لوزن البيت فأقحم كلمة العنجا لكن الحقيقة التي لا تقبل الجدل والتي ظهرت من سياق القصيدة أنه يعني أحد المعنيين الأول هو الذي ذكرته فيما تقدم هي تجارتها التي انفردت بها تونجه من جلود القرنتي مما جعله يسميها مركز العنجا والعنجا تأتي من صفة السياط التي كانت تصنع فمثلاً يقول الجمالي الليلة اشتريت لي سوط عنج كما يقول المعلم اشتريت سوط عنج لعقاب الأولاد الأشقياء هذا معني وهو أقرب المعنيين كما يقصده الشاعر . أما المعني الثاني إن كلمة العنجة ترد في كثير من اللغات واللهجات السودانية بمعني الميلة أو الانحناء والمتبع لمجري النيل بعد ما بارح كيلو خمسين وهو في طريقه إلى واسيك تجد نهر النيل قد انحنى انحناء هي زاوية حادة نحو الشرق حتى التقاؤه بنهر السوبات قبل ملكال ومركز تونجه يقع في وسط هذه الانحناء . أما ورود كلمة المركز ربما قصد بها مقر الإدارة من مأمور وهيئة مكتبه فأبي المعنيين أراد أصاب فلا غرابة

إذا إنساناً وصف شيئاً رآه لكن الغريب هو أن يصف الإنسان شيئاً لم يره فمما لا شك فيه إن ود الرضي لم ير الجنوب فمن أين أتى بهذا الوصف الدقيق لتونجه إلا إذا آمنا بالنظرية التي تقول (لكل شاعر شيطاناً يلهمه الشعر) وأكثر المؤمنين بهذه النظرية هو أمير الشعراء احمد شوقي حيث استدل بها في روايته مجنون ليلى عندما تقابل المجنون بشيطان وجرى بينهما حواراً في هذا الشأن فليرجع إلى الرواية من يريد التثبت .

القرن الشلكاوي

عندما يجلس المرء أمام جهاز الراديو ويدير مفتاحه ليستمع إلى نشرة الأخبار يلاحظ أن المذيع دائماً يتخير الكلمات ويصنع الجمل ليستحوذ على مشاعر المستمع ويشده على مقعده فهي مدرسة يأتي المذيع بتعابير واستعارات لغوية لتواكب النهضة الحضارية للقرن العشرين التي شملت كل أنحاء المعمورة ما وجدت باباً إلا طرقتة ولا مرفأً من مرافئ الحياة إلا دخلته مما يدل على صلاحية اللغة العربية وتمشيها مع التطور وتزداد عمقاً فلسفياً كلما تقدم بها العهد فهي متجددة وفي السنوات الأخيرة دخلت الميدان جملة القرن الأفريقي وأخذت مكانها كلما أراد المذيع أن يصف الحرب الدائرة في أنقولا وموزمبيق وجنوب أفريقيا يجئ بكلمة القرن الأفريقي كمدخل أو عنوان للحديث عنها فهل هي حقيقة من مستحدثات القرن العشرين؟ أنا أقول لا بل سبقهم عليها الشلك قبل مئات السنين إن لم أقل الألف فلا غرابة في ذلك لو علمت أن الاسم الحقيقي لتونجة في أقصى الجنوب من ديار الشلك هو (تونق) وهو الاسم المعروف بين أوساط الشلك ولا يعرفون كلمة تونجه ولم ترد على لسانهم وكلمة تونجه إنما تحريف لكلمة (تونق) لتكون سهلة الكتابة والنطق باللغة العربية أو الإنجليزية شأنها في ذلك شأن بقية الأسماء التي شملها التحريف فكلمة ملكال أصلها (ما كال) وهذا الاسم لا زال يطلق على القرية المجاورة للمدينة الحديثة وكلمة كدوك أصلها (كدك) اشبعوا الضم فأولدوها واواً وغيرها كثير أما كلمة (تونق) معناها في لهجة الشلك وهو قرن الحيوان ولما كانت

ديار الشلك لا تتعدى حدود تونجه في أقصى الجنوب وتسير الحلال والقرى على شكل مخروطي من نقطة النقاء النيل بنهر السوبات وينتهي على شكل رأس مثلث بعد تونجه بقليل ولذلك أطلق عليها أسم تونق أي القرن فيكون هذا القرن الشلكاوى عرفه الشلك وعبروا عنه بلغتهم قبل أن يعرف القرن الأفريقي فهل هذا مقتبس من ذاك ولا يامن توسع قليلاً في الكلام لأن هذا القرن قد أمتد قليلاً وشمل منطقة الطرور فهي حد فاصل بين الشلك والدينكا المعروفين باسم دينكا بيل كُوي وهو عبارة عن سهل منبسط ومنخفض قليلاً عن سطح الأرض تغمره مياه الفيضان ويقع شمال غرب تونجه وغرب الرقبة ، والرقبة اسم لخور صغير يتفرع من النيل ويستجه شرقاً ويقطع الشارع الرئيسي الذي يربط جبال النوبة وتونجه ويتعداه نحو الشرق وقد يتسبب في قطع الطريق وشل حركة المواصلات بسبب فيضانه وتراكم مياه الأمطار حول مجراه وعندما يأتي فصل الصيف وتنخفض مياه النيل تخلف وراءها مستنقعات تجف أطرافه تدريجياً وتنبث الحشائش وتؤمها الحيوانات يختبئ الأليف والبري ولكثرة نبات الطرور المعروف سميت المنطقة باسمه وهذا المستنقع يحتل رقعة واسعة من الأرض وبعيدة عن المناطق المأهولة لذلك تجد فيها الأفيال والأسود والجواميس وكل أنواع الصيد وهي قبلة الصيادين من جميع طبقاتهم حتى صيد السمك وتجفيفه. في أوائل العشرينات نزل من الباخرة النيلية على رصيف ميناء تونجه رجل أبيض في الحلقة الخامسة من عمره تصحبه فتاة شابة في مقتبل العمر ومعهم بعض الأمتعة الخفيفة ووضعوها على طرف من الميناء ووقفوا بجوارها ولما كانت البواخر النيلية هي السبيل الوحيد للمواصلات تجئ محملة بالبضائع لجهات مختلفة من جبال النوبة علاوة على ما للمدينة نفسها من بضائع تخص التجار وتمتلى جوانب الميناء وكان السيد يوسف شمه من أكبر تجار تونجه ووكيلاً للحكومة والتجار بجبال النوبة يستلم البضائع والمهمات الحكومية ليرحلها بواسطة حملة عبارة عن عربات كارو تجرها الثيران وتعج الميناء من الحركة من بين بائع ومشترى من ركاب الباخرة من بروش وسباتات ومفارش يأتي بها

أصحابها من مناطق جبال النوبة علاوة على العسل والسمن البلدي وقد تركت
البخرة صندلاً أو اثنتين محملات بالبضائع للتفريغ إلى أن تعود من جوبا فلما حان
إقلاع البخرة وبدأ الجمع في العودة نحو السوق لاحظ السيد يوسف شمه (22)
وجود الرجل والفتاة في زاوية أمام متاعهما وكان يوسف رجلاً كريماً شهماً وهو
قبلة كل طارق ووجهة كل زائر له مواقف مشهودة فتقدم نحو الرجل ولما وجد
نفسه أمام رجل لا يعرف العربية استعان ب مترجم المركز وقد عرف هوية الرجل
فنادي بالحمالين وتبعوهم جميعاً حيث هيا لهما منزلاً خاصاً وجند لهم خادماً ليسهر
على راحتهم وبعد أن مكثا يومين وعرف هويتهم هي صيد أسدين فاستأجر لهما
جوادين وخبيراً على ظهر ثور لحمل المتاع وكان يحمل كل منهما سلاحاً نارياً
وزود الخبير بكل ما يحتاجه المرافق من تعليمات وأمره أن يقصد منطقة الطرور
فسار الركب ووصلوا إلى منطقة الطرور فرأى الخبير شبح أسد يرقد على الأرض
فلفت نظرهما وأشار إلى موقع الأسد مترجلاً عن ظهر الخيل بعد أن ربطتهما
الخبير على جزع شجرة ومشيا نحوه فلما رآهما الأسد هب واقفاً فصوب الرجل
بندقيته نحوه ورماه بطلقة فجرحه فأخذ يعدو نحوهما فأرسل له الطلقة ثانية وثالثة
فلم يصبه ولما أقرب من موقعهما تقدمت الفتاة خطوة ووقفت أمام الرجل مواجهة
للحيوان المغير ورمته بطلقة من بندقيتها فأصابته منه ما بين عينيه فسقط على
الأرض جثة هامة فتبادلا الضحك فقام الخبير بعملية السلخ بتوجيه منهما على أن
يكون الأسد قائماً على قوائمه بعد حشوه بالتبن ففعل وقاموا هم برش بعض
المساحيق لئلا يتعرض الهيكل للتعفن وفي اليوم الثاني لم يجدوا صعوبة في صيد
الثاني وهيئوه على الطريقة الأولى ولما فرغوا من مهمتهم وأن لهم أن يغادروا
المنطقة راجعين اعترض طريقهم عقبة وهي حمل الهيكليين الى تونجه فالثور ينفر
ويستعصي كلما قربوا منه الهيكل بمجرد أن يشتم رائحة الأسد ولما رأوا استحالة
ذلك أسنقر الرأي على أن يستعينوا برأي يوسف شمه فامتطيا صهوة جواديهما
البنت والرجل وتركوا الخبير في حراسة الهيكليين ووصلوا إلى تونجه وشرحوا

الموقف فهيأ عرباً كارو وثورين وأخذ أحد العمال بزمامها بعد أن نصحه بأن يغمض أعين الثيران بقطعة من قماش وبالوقوف عكس مهب الريح حتى لا تصل رائحة الهياكل إلى أنوف الثيران فعملوا بنصيحته ورجعوا في اليوم الثاني ومعهم الهيكليين وبعدت الباخرة من الجنوب وودعهما على شاطئ النيل حيث أقلتهم إلى الخرطوم وعرف منهما أنه أباً لتلك البنت وهي طالبة في جامعات لندن .

ومما يروى كانت ليوسف كلبة اسمها تونجه تبحث عن يوسف وأني وجدته رقدت تحت مقعده تألفه وتسير خلفه أني سار فتغيب يوسف عن تونجه منتقلاً بين الليري وتالودي لتفقد عمل فروعه التجارية وصرف استحقاقاته من أجر البضائع المرحله سواء أكان من الحكومة أو التجار استغرقت الرحلة نحو ثلاث أسابيع وعاد إلى تونجه على فرس ونزل وجلس على مقعد وجاء للتحية كل من سمع بمقدمه وجلسوا حوله فإذا بالكلبة تجئ وتقف أمامه وترفع رجليها الأماميتين وتضعهما على ركبتي يوسف وترفع رأسها كأنها تريد تقبيله وهو يمسح بيديه ظهرها ولما رأى شطورها مليئة باللبن وقد أصابها الهزال بسبب الرضاعة ناداها قائلاً تونجه ولدتي ؟ فتركته وجرت ثم عادت تحمل بين فكيها جرو وضعت أمامه ورجعت حتى وضعت أمامه خمسة ووقفت تنتظر إليه فتعجب الحضور من هذه الظاهرة أما من ناحية يوسف فخصها ببقرة حلوب ليساعدها على تربية صغارها ولهذه الكلبة خاصية يعرفها كل سكان مركز تونجه وهي رفيقة كل مسافر ما بين تونجه والليري شرط أن لا يكون معه رفيق ولن تدعه يسافر وحيداً فهي الرفيق إلى أن يصل الليري وتنتظر أي قافلة عائدة إلى تونجه تعود معها وتقضي أيامها وهي ضيفة عزيزة مكرمة على وكيل يوسف هناك ويوليها العناية الكاملة ويهيئ لها طريق الرجوع فما أن وجد مسافراً أو مسافرين إلى تونجه حتى يناديها ويوصيهم بها خيراً وتتبعهم .

المفتش البريطاني يتعرض للضرب

عندما قام الحكم الشعبي المحلي بين الأقاليم الجنوبية خصوصاً بين قبائل النوير والدينكا التابعين لإقليم أعالي النيل لاحظت السلطات عزوف الأهالي عن اقتناء العملة وعدم تداولها ويرجع عدم الاهتمام هذا إلى عدم الحاجة للتعامل بها لا يجد ما يرغبه للاحتفاظ بها ولا مكانة لها في حياته اليومية ولذلك جعلت البديل في البقر فعندما تصدر المحكمة حكمها بالغرامة تكون على أساس الجنيه ولما كان الجنيه لا وجود له في يد المدان يقبل منه ما يساوي الغرامة من البقر وحددوا قيمة البقر فالعجل أقل من المتوسط بجنيه واحد وجنيهان لما فوق الوسط ثلاث جنيهات للثور الكبير والأنثى من العجول جنيهان وكان هذا الاتجاه يخدم غرضين الأول بغرض تداول العملة والإقبال عليها من العملة الفضية طبعاً لأن العملة الورقية لا تصلح في تلك المناطق لكثرة الأمطار والرطوبة أما الغرض الثاني محاربة الجريمة عندما أحس المستعمر مدى حب الأهالي للبقر ولا يريد المساس بها إلا للضرورة القصوى جعلوا من البقر أساس التعامل ويدفع ما وقع عليه من غرامة هذا ما لا يرضيه تحفظ هذه الأبقار الناتجة من الغرامات تحت رعاية رئيس المحكمة التي هي وقفاً على العمد والسلاطين وتقام أسواق لبيعها بالمزاد العلني وفي أوقات معينة يعلن عنها أثناء العام يحضرها جمهور غفير من الأهالي الراغبين في دخول المزاد علاوة على التجار والبوليس وكان هذه المرة داخل مركز فنجاك(23) فاجتمع خلق كثير من المناطق المجاورة وبما أن المركز هو مقر الرئاسة فالعملة المتداولة بها أكثر من القرى والبوليس أكثر حرصاً على اقتناء المال لأن مرتبهم الشهري أكثر من الحاجة ولذلك يميلون إلى مشتري البقر .

جلس المستر وندر(24) وهو المفتش المسئول عن المنطقة جلس على كرسي وأمامه تربيذة وفي يده دفتر لتسجيل المبيعات وبما أن البقر في الجنوب سلسلة الانقياد تمشي وراء كل من قادها وبدأ العرض وتمتاز النوير بحبها للألوان الجميلة خصوصاً الثيران ليتسمى بلونه كعادتهم لينادونه به وليعتز به كلما كان لون الثور جميلاً كانت قيمته أعلى . وكانت طبقة التجار لا تهتم كثيراً إلا بكبار الثيران أما

بقية الأنواع الأخرى فهي متروكة للجمهور وكان من بين الحضور فتى من النوير شاباً مربوع القامة قوى العضلات شديد الحماس كل ما عرض عجلأ زاهي اللون وتبدأ المزايدة وأخيراً يتغلب عليه أحد رجالات البوليس لما يملكه من مال فيشعر الفتى بمرارة الهزيمة وفي مرة جيء بعجل ذي لونين أبيض شديد البياض وأسود شديد السواد فوقف الشاب أمام المفتش وخاطبه قائلاً وفي نعمة المتوسل أرجو أن تخصصني بهذا العجل حيث وقع في نفسي موقع الاستحسان فرد عليه بعنجهية المستعمر دونك والمزاد فلم يرضيه هذا الرد ودخل المزاد معه أحد أفراد البوليس وأخيراً تغلب عليه رجل البوليس وأخذ العجل وأنصرف فاستشاط الفتى غضباً وهو يرتجف من شدة الانفعال وقف أمام المفتش وهو يضرر شيئاً وقال بأعلى صوته (المفتش أنا كلما أردت أن اشتري عجلأ تحرمني منه وتبيعه لبوليسك ولا أدري غرضك من هذا التصرف) فرفع المفتش رأسه ليجيبه لكن الفتى بادره بلطمة شديدة من كف يده على وجهه فسقط من على كرسيه وانفه وفمه ينزفان ففر الجميع وانفضوا من حوله حتى بوليسه وخلا الميدان إلا من التجار وبعض العمد والمشايخ وتقدموا نحوه لينفضوا عنه الغبار ويساعدوه على الجلوس على كرسيه . أما الشاب وقف بعيداً وهو ممسكاً بحرابه معتزاً بثوره وقال وهو يخاطب الجمع المتبقي فليجئ كل من تحدثه نفسه وسيرى ما أنا فاعل به . ولما لم يتقدم نحوه أحد أخذ طريقه وغادر المركز وبعد أن لملم المفتش أطراف شجاعته وعاد إلى وعيه بعد هول المفاجأة التفت نحوه المشايخ من أين هذا الفتى فتقدم أحد المشايخ وقال هو من رعييتي قال له المفتش أتظن أن هذا الفتى أقدم على عمله هذا بوحى منه و لا أظن ذلك إلا إذا وجد منك ومن أهله التشجيع الكافي وأنت لا شك لك ضلعاً كبيراً وهي مؤامرة لا تستهدف شخصي فحسب بل الحكومة أيضاً كل ذلك ليغطي ما لحقه من إهانة وسط جمهوره فالمفتش يتهم والشيخ ينكر وبعد تدخل بقية العمد والسلطين وطيبوا خاطر المفتش وأمرؤا الشيخ بإحضار الجاني في أسرع فرصة والقي القبض على الفتى وشكلت له محكمة كبرى وقضت المحكمة بسجنه لمدة سبعة

سنوات وبمائة من البقر لصالح المجني عليه تكون كتعويض لما لحق به من أذى وإهانة(25) .

وليس هذا بأول حادث من نوعه وقد سبق أن قتل المستر فارجسون(26) على أيدي النوير ومثلوا بجثته ولعبوا بأيديه على ضربات النقارة ونغمات المغنين بأغاني الشجاعة والحرب مما أضطر الحكومة لإرسال حملة عسكرية لتأديبهم هذا باختصار حيث لا علم لي بالتفاصيل والأسباب التي أدت إلى مقتله ولا شك أن الاستعمار قد لقي من المضايقات الشيء الكثير رغم أنها حوادث تعتبر فردية بعيدة عن المؤامرات الجماعية على العموم هي ثورة في ضمير كل سوداني يقوم بتنفيذها كلما سنحت الفرصة ففي منطقة العالياب(27) مركز البحيرات ببحر الغزال كان المفتش أثناء مروره السنوي لتحصيل الجزية مر على مراح من البقر تملكه كجوربة فطب منها سداد ما عليها من أموال حكومية فرفضت وبازدراء وكلمها مرة وأخرى وهي مصرة على عدم الدفع فهددها بأخذ ثوراً كان مربوطاً بالقرب منه أخذاً بالقوة فرفضت أن تدعن لهذه التهديدات وقال للجوايش الذي يرافقه مع كوكبة أخرى من الخيالة وأمره بأن يفك الثور ويأتيه به فسألت الجوايش عن ما قاله المفتش قال أمرني أن أفك هذا الثور ردت عليه قائلة لا تعرض نفسك للموت فإن حربتي كفيلة بإنهاء حياة كل من تسول له نفسه التصدي لأي ثور فتردد الجوايش في تنفيذ الأمر أمره ثانية بحل الثور فقال له إنها تهددني بالقتل إذا فعلت ذلك وقال للجوايش قل لها إن المفتش سيترجل عن حصانه ويحل الثور فقالت له إن كان يريد الموت فهذا هو أمامه مربوط مع الثور في حبل واحد فنقل للمفتش ما جاء على لسانها فشعر بأن الخطر يستهدف كرامته أو حياته فبأيهما يضحي فأثر أن يضحي بحياته ربما كان كلامها على سبيل التهديد وغير جادة في تنفيذ القتل فنزل عن جواده وتقدم نحو مربوط الثور وما كان منها إلا أن اعتزت بثورها ونادت باسمه ورمته بحربتها فأصابته إصابة بالغة فسقط على الأرض والدم ينزف فصادف وجود عربة تجارية بالقرب منه فحملته إلى ميناء شامبي(28) ولحسن حظه إن

صادف وجود رفاص تابع للري المصري أثناء مروره لعمل ميزانية لمياه النيل وطلب من المهندس الذي يترأس العملية بأن يقوم فوراً إلى ملكال لإسعاف المصاب قبل أن تحصل مضاعفات وقام الرفاص بعد أن ترك الصندل على الرصيف وبعد وصوله إلى ملكال حملته طائرة خاصة إلى الخرطوم وأسعف ولم يمض . أما ما كان من أمر المرأة عادت إلى بيتها وكأنه لم يحصل شيء وبعد أيام جاءت قوة وألقت عليها القبض وقدمت أمام محكمة وقضت بحبسها سبعة سنوات . ولكن لحسن حظها جاء الاستقلال وتولت الحكومة الوطنية مقاليد الحكم وقبل أن تتم مدة سجنها أفرج عنها(29) .

الحرب العالمية الثانية

ولما كانت الرقعة من الأرض المحصورة بين ملكال شمالاً وبور جنوباً وأكوبو شرقاً وفنجاك غرباً أراضي واسعة عامرة بالسكان ومنهم الشلك والدينكا والنوير وليس بينها نقطة بوليس كان مرور المفتش في حدود مركزه كافياً لإستتباب الأمن وقد تغير الحال بنشوب الحرب العالمية الثانية وتحركت جيوش المحور وتصدت لها جيوش الحلفاء وتقدمت جيوش المحور وهاهي قد احتلت أثيوبيا وعلى وشك الانقضاض لغزو السودان إذن لأبد من نقطة بوليس على الأقل تكون مركز إستخبارات وعهد إلى المستر وندر مفتش مركز فانجاك لتنفيذ هذا المخطط وجاء يوماً يطلب من عثمان مبروك(30) ليختار شخصاً يحمل المسؤولية ليعمل كتاجر بنقطة بوليس واو(31) فوقع على الاختيار ووصلت واو ووجدت اثني عشر من البوليس تحت رئاسة امباشي من قبلية الدينكا ووكيل امباشي من قبيلة الجور وباقي العشرة خليط من أبناء الدينكا والنوير وواحد فقط من قبيلة الزاندي وهو الوحيد الذي تصحبه زوجته .

وتقع واو على بعد مائة ميل من ملكال على الشارع الرئيسي المؤدي إلى جوبا وعلى بعد أربعة أو خمسة أميال يتفرع شارع يتجه نحو الجنوب الشرقي يؤدي إلى أكوبو اختير لهذه النقطة الجديدة ربوة عالية ذات أشجار طويلة وغزيرة

وكانت جميلة خضراء كثيفة الظل فاحتلت نقطة البوليس الناحية الشمالية منها وخصص للدكان الناحية الجنوبية وجاء المفتش وكرس جهده في حفر الآبار لإيجاد الماء الكافي واستطاع أن يأتي بالعمال من نوير اللاو ولما عزم على الرجوع ترك عندي مبلغاً من المال لأقوم بالصرف للعمال أسبوعياً ففي فترة وجيزة استطعنا إنجاز بئرين وكانت مياههما غزيرة وصافية نقية وكانت الحياة سهلة مستقرة الأمن مع قلق بسيط يساورنا باحتمال تحرك جيوش الإيطاليين التي غزت أثيوبيا أن تفكر في التقدم لغزو السودان عن طريق أكوبو(32) التي لا جيش فيها إلا قوة من البوليس قوامها عدد محدود من الأفراد تحت قيادة المفتش وقد صحت التنبؤات وهانحن نسمع بأن القوات الإيطالية تتحرك نحو أكوبو وهذه الأخبار مصدرها النوير من سكان المنطقة وبعد يوم أو يومين من انتشار الخبر جاءت أخبار بأن أكوبو محاصرة وقد تسقط في أيدي الإيطاليين بين عشية وضحاها لأن القوة الغازية كثيرة العدد لا قدرة لبوليس بهذا العدد الصمود أمامها إذا وضعنا في الاعتبار قلة الذخيرة بأيدي البوليس . كانت الأخبار تصل تباعاً ونحن نتوقع أن يجئ دورنا في أي لحظة وطال غياب المفتش ومسئولية النقطة تقع على عاتق الأمباشي وفي عصر أحد الأيام وفي نحو الساعة الخامسة مساء سمعنا أزيز عربات كثيرة تأتي من ناحية الجنوب وتقف بالقرب من نقطة البوليس ولما كان الدكان بالقرب من مدخل الربوة وكنت أجلس على كرسي فإذا بعربة صالون في مقدمتها علم صغير يهب هب بفعل الريح وبداخلها شخصان أبيض اللون يدل مظهرهما على أنهما من ذوى الرتب العالية في الجيش خاطبني أحدهما باللغة الإنجليزية أين نقطة البوليس؟ فأشرت نحو الشمال قال وما وظيفتك هنا قلت تاجراً وكان يحمل في يده ورقة مطوية وبعد نشرها تبين لي أنها خريطة للمنطقة رفع رأسه عنها قائلاً لي كلم الامباشي يأتي لمقابلتي في الشارع مما يبدو على أنه جاء مزوداً بمعلومات كافية عن المنطقة فقد ساورني الشك هل هي قوة من الجيش الإيطالي في طريقهم نحو احتلال ملكال بعد أن سقطت أكوبو لكنهم يتكلمون اللغة الإنجليزية بطلاقة وقبل أن

أفريق من حيرتي وقف أمامي الامباشي فأبلغته الرسالة وأول ما قاله إنها قوة إيطالية ويجب علينا أن نطلق عليهم النار فاعترضت وقلت لا تتعجل الحكم بل يمكن أن تذهب وترى وتسمع ما يقال لك وهؤلاء الناس لم يبد عليهم أثراً للشر فإن كان عندهم نية غزو لدخلوا النقطة بكامل قوتهم وقبل أن تتناول سلاحك أو تجمع صفوف عساكرك قال لأبد من إطلاق النار قلت كن عاقلاً ولنذهب الاثنين لمقابلتهم فلم يستمع لنصحي وأخيراً خاطبني قائلاً (دا موش شغل جلابة) إلى هنا قفقت باب الحوار وأنا غير راض بما أحدثته هذه الجملة من رد فعل فرجع عني ميمماً وجهه شطر النقطة وما أن وصل نادى في قوته للاجتماع وخرجوا من معسكرهم مدججين بالسلاح ويحملون كمية من الذخيرة فناديت وكيل الامباشي وخاطبته قائلاً هل أنت موافق على رأى الامباشي بإطلاق النار على القادمين؟ قال لم أكن موافقاً لكنه مصر قلت لنكن عقلاء ونمشي أنا وأنت لمقابلة القائد ونعرف منه ما يريد فوافق وعرضنا الفكرة على الامباشي فوافق بدوره وأخذنا طريقنا نحو موقف القوة ووجدناهم منهمكين في إعداد الطعام وأشاروا علينا عن مكان القائد فلما وقفنا أمامه قال إن طرف الليل قد حال دونه ودون مواصلة السفر وسيقضي ليلته هنا لتجد القوة ما تحتاجه من ماء وستقوم في الصباح نحو ملكال ونهاية المطاف ربما يكون (كفره) حيث روميل(33) ومنتمقري يقفان وجهاً لوجه وهذه القوات ومن سيجيء من بعدنا من قوات جنوب أفريقيا وأعطى كل منا علبة سيجائر إلا إني رفضت بحجة عدم التدخين وانصرفنا وشرحنا للامباشي كل ما جاء على لسان القائد وعند التمام وجد إن أحد أفراد قوته غير موجود مرت الأيام فإذا بالأخبار تقول أنه عندما نادى الامباشي في القوة بأخذ السلاح أخذ سلاحه وخرج من المعسكر متخفياً وخلع ملابسه العسكرية وأخفاها تحت شجرة وأخذ سلاحه واتجه نحو فانجاك فوجد المفتش وأبلغه إن قوة قد وصلت واو وربما تكون قوة تابعة لإيطاليا فأودعه المفتش السجن بعد أن استلم السلاح لكن المفتش قد كان يعلم بمرور هذه القوات الآتية من جنوب أفريقيا والكنغو وبدأت القوات تتقاطر علينا وهي في طريقها نحو ملكال.

أما من ناحية أكوبو فلا زال الخطر ماثلاً وقد جاءت الأخبار بأن المفتش قد أمر بإخلاء المدينة تحسباً للاحتلال المتوقع وكانت القوات الغازية قد احتلت موقعاً قريباً من أكوبو وكان تاجراً شاملياً يعمل بها واسمه الريح الطيب من مواطني مدينة أم دوم فإكرم القائد ورحب به وبمساعديه وبدأ يتجسس لمعرفة القوات وعن جنسياتهم وأنواع الأسلحة التي بأيديهم وكميات الذخيرة فلما تجمعت عنده كل هذه المعلومات تبين له أنها قوة غير نظامية أكثرها من النوير ومن أبناء أثيوبيا وعدد قليل من المرتزقة البيض لكنه أدرك بفراسته أنها كافية لاحتلال أكوبو لكثرة عددهم وقلة المدافعين عن المدينة وفتح أحد خدمه إن كان يستطيع أن يحمل خطاباً لمفتش أكوبو ويخرج من هنا متخفياً تحت ستار الظلام ويسلم الخطاب للمفتش يدأ بيد وأبدى الخادم استعداده وأودع الخطاب كل ملاحظاته وشجعه على الهجوم بدلاً من الدفاع وخرج الخادم من القرية في ليل قاتم في الطريق بعد أن ابتعد عن المعسكر وسلمه الخطاب وكر راجعاً سار الخادم على مدى ثلاثة ساعات تقريباً وقصد نقطة البوليس وطلب مقابلة المفتش الذي كان يتناول عشاءه في داره فجاء وأخذ الخطاب وعلم محتوياته واستفسره عن الطريق وأشياء أخرى وكتب له رداً يشكر التاجر صنيعه بوصيته فهيأ قوته وزحف نحو القوة المتمركزة وأقترب من المكان وقوات العدو تغط في نوم عميق أما المفتش وقوته فقاموا بحفر الخنادق وما أن انجلت ظلمة الليل وانتشر ضوء الصباح حتى بدأت القوة بإطلاق النار بشكل يوحي للعدو بأنهم أكثر عدداً وكانوا أكثر حرصاً على ألا يسرفوا في إطلاق النار خوفاً على الذخيرة من النفاد وكان إطلاق النار مستمراً دون توقف لكنها طلقة وراء طلقة فأخذ العدو يبحث عن سائر ليحمي نفسه وهم يطلقون النار من بنادقهم وبشكل عشوائي استمر إطلاق النار بين الجانبين طول النهار ولما جاء الليل شعر العدو بأن لا طاقة لهم بهذه القوة فانسحبوا وأخلوا القرية وفي الصباح دخل المفتش القرية وقوته وكان قائدهم يسكن خيمه وكان وقت إطلاق النار أمامه مائدة عامرة من زجاجات الخمر وأنواع المزز من بينها لحم الدجاج فألهاه صوت إطلاق النار عن تناول شئ منها

وهجر الخيمة وعند دخول المفتش الخيمة وجدها هكذا وبجانب سريره بندقيته من نوع إيطالي وتتبعوا قوتهم حتى أجلوها عن المنطقة وبعد أن انتصر المفتش قدم البندقية التي وجدت بالخيمة كهدية للتاجر .

عندما نشبت الحرب العالمية الثانية وشعرت الحكومة بالنقص الذي سيواجهها في مادة الفحم الحجري لتسيير القاطرات وبعض السفن التجارية التي تسير على نهر النيل عملت في التوسع في دائرة نقاط الخشب التي تمد البواخر النيلية مما تحتاجه من وقود على شواطئ النيل فازداد عدد أفرادها وعدد نقاطها لتجد كل باخرة حاجتها على طول النهر حتى مدينة جوبا وتبعاً لهذا التوسع وما يصحبه من اتساع رقعة التجارة لدى المتعهدين طلب مني أن أسافر إلى واسيك لاسئلم مع أبو زيد مبروك (رحمه الله) المحل التجاري هناك وله عدة فروع تجارية ويعتبر المحل الرئيسي الثاني بعد محل ملكال الذي يشرف على إدارته الحاج عثمان مبروك (رحمة الله عليه) واسيك وكانت تسمى الهجليج قبل أن يستبدل الاستعمار اسمها باسم واسيك وتسكنها قبيلة النوير وعلى الضفة الشرقية من نهر النيل وهي جزيرة حيث يمتد خور يسمى خور قاركك من الناحية الجنوبية إلى أن يلتقي طرفاه بنهر النيل مكوناً بذلك جزيرة واسيك ولها مرفأ جميل على ربوة عالية ذات طبقة رميلة وعلى شاطئها ترتفع هجليجة عالية وهي التي سميت باسمها من أصحاب المراكب الشراعية بغرض التجارة ولا يوجد على شاطئها قرية فهي مكان خال من العمران اختير لصلاحية المكان كمرفأ للسفن البخارية لتتزوّد بالوقود وكانت في حركة دائبة تعج بالسكان ممن يقومون بقطع الخشب خلف الخور الذي عملت له ردمية من التراب عبر الخور لترحيل الخشب بواسطة العربات أو الحمير لداخل المرفأ والحركة التجارية مزدهرة ونشطة ففي فصل الصيف عندما تتحسر مياه الفيضان مخلفاً وراءه الأعشاب النيلية الطويلة يقوم الأهالي بإضرام النار فيها فتحرق كل هذه الأعشاب لتقوم مكانها حشائش جديدة صالحة لأكل الحيوانات الأليفة كانت أو صيد بري ولما كان ذبح البقر يتم كل أسبوعين مرة

بواسطة التاجر لتقسيمه بشكل أكوام على عدد الأسر الراغبة بعد أن يقوموا بتقييم الذبيحة ولحوجتنا اليومية للحم نلجأ إلى سد هذا النقص من صيد الغزلان ففي الليالي المظلمة يرافقني غالباً مرحوم العوض يحمل بيده بطارية وأنا احمل البندقية ونسير نحو خور قاركيك ويسلط الضوء على عرض الخور فإذا بأعين الصيد وكأنها المصابيح الموقدة فنسير على رؤوس الأقدام لكي لا تبدو منا حركة فتنبه الحيوان حتى نصل إلى بعد أمتار من مكانها فنرميها بطلقة تسقط على الأرض وكثير ما نختار العيون الكبيرة ونمشي نحوها ولما تقترب منها نجده أسداً يرقد على الأرض متربصاً بغزال ليفترسها فكنا نتركه وشأنه وتجيئ لهذا المكان الأعداد الهائلة من الأسود والنمور بغرض افتراس الغزلان أما الذئاب فلا تجهد نفسها للبحث أو الجري وراء الغزالان بل تكتفي بدخول القرية لتجد بهيمة ضالة أو دجاجة قريبة المنال وان عذمت ذلك فتمر بين البيوت لالتقاط الفضلات التي يرميها الناس وينطبق عليها قول القائل :

إذا كان الغراب دليل قوم يمر بهم على جيف الكلاب

كنا نعمل عملنا هذا خلسة لنلا يصل إلى سمع المفتش لأننا في وسط الجزيرة التي يطلق عليها جزيرة الزراف وهو اسم النهر الذي يخترق أراضي النوير الذي تقع فنجاك في ضفته الشرقية وهي مقر المفتش وهذه الجزيرة حرم صيدها منذ أن نزل الاستعمار أرضها وكانت منسوبة إلى البرنس أوف ويلز (ولي العهد البريطاني) فلا يجرأ أحد على قتل حيوان فيها وكاد الأمر أن ينكشف عندما جاء مفتش المركز في زيارة إلى واسكيك ليتفقد سير العمل فيها ووفرة كميات الخشب المعد للبواخر وكان في عربة كומר وبصحبه عدد من المشايخ يركبون في الصندوق الخلفي وقبل أن يدخلوا القرية وهم في طريقهم من فانجاك فاعترضهم سرب من التيتل وهو يرعى فأشار أحد المشايخ إلى المفتش أن يقتل واحداً منها ليكفيهم غائلة الجوع فرد عليه قائلاً هنا ممنوع ضرب الصيد ولا يمكن أن اخرق القانون فقالوا بصوت واحد ممنوع شنو وعثمان مبروك وجماعته كل يوم يقتلوا

(الصيد) أسرها في نفسه . نام ليلته في النقطة وقد بلغنا ما جاء على لسان المشايخ فكنا في خوف شديد من أن يسألنا عما قالوه وقد ثبت ذلك بشهود العيان من العاملين في النقطة لكنه كان رجلاً عاقلاً لم يلق بالاً عما بدر منهم .

الصيد في الواكات حول نقطة بوليس واو

بعد شعورنا بالأمن عندما حققت جيوش الحلفاء النصر تلو النصر رأيت من الأفضل أن ابتعد قليلاً عن دائرة نقطة البوليس فأخذت موقعاً مناسباً تحت شجرة ظليلة من شجر العرديب وبجانب الشارع الرئيسي بنيت دكاناً ومخزناً ليصبح كموقف للعربات أثناء مرورها من جوبا أو بور أو أكوبو وذلك مما يساعد كثيراً في تحسين العمل التجاري .

عندما جيئت لواو لم يكن بحوزتي سلاحاً نارياً والذي كان بيدي بندقية رصاص منذ عام 1926 وكانت ذخيرتها صعبة المنال وغير متوفرة مما جعلني أزهّد في حملها وعرضتها للبيع وعشت نحو سنتين وليس بيدي سلاحاً نارياً وكنا نعتمد على لحم البقر المقرر لنا ذبحة أسبوعياً نقسمه وأفراد البوليس وكان ضغط الشارع وحركة المرور عليه لا تتوقف مما يجعلنا في حوجة لإيجاد لحمه إضافية ولو على قدر سترة الحال فوجدنا في دجاج الوادي خير معين في متناول اليد دون الحاجة إلى سلاح ناري اتفقنا نحن الثلاثة وكيل الامباشي من البوليس والبوليس الزاندي على أن نفتحم الواكات عند منتصف النهار حيث تشتد حرارة الشمس وتكون الواكات الخالية التي نزع أصحابها مع أبقارهم إلى المصايف على شواطئ التيجان والمستقعات ولسعتها من الداخل تكون باردة فيدخلها دجاج الوادي ويتعلق بخشبها أو ينزوي في أركانها لان هذا النوع يختلف عن نوع الدجاج البلدي من حيث استغناؤه عن الماء طيلة فصل الصيف بل يكفي بأكل عروق الشجيرات الصغيرة فيجد فيها ما يغنيه عن البحث عن الماء وكذلك نجده يلجأ إلى الأماكن الرطبة منذ الساعة العاشرة ولا يعرض نفسه لحرارة الشمس فكنا الثلاثة نفتحم الواك واحد على الباب يمنعه من الخروج والاثنين وفي أيديهم عصي يضربون بها

الدجاج فتخرج ويبعدنا منها خمسة أو ستة نقتسمها فيما بيننا ولكن الطمع قد دخل قلب صاحبنا الزاندي حيث كانت تعيش معه زوجته ورأى إن القسمة لم تكن عادلة ولا تكفي نهمهم فذهب نحو الواك وحيداً وفي وقت مبكر وجاء يدب دبيباً إلى أن وقف أمام باب الواك وحدث صوتاً مزعجاً بضربة خشبية بخشبة كي يتطائر الدجاج ويحاول الخروج فيصيب منها واحدة أو اثنتين لتزيد من حصته فإذا بصوت أسد كان يرقد داخل الواك وزأر زئيراً ارتعدت معه فرائضه ولم تقو قدماه على الوقوف فسقط على الأرض وهو يهزئ بكلمات لا معنى لها ويحرك يديه ورجليه في الهواء فاقد الوعي فكنت أول من وصل إلى المكان لاستطلع الخبر وسبب زئير الأسد في وضح النهار وهي لا تصدر عنه إلا إذا أفترس فريسة فلما اقتربت من الواك فإذا بي أرى صاحبي وهو يعمل بيديه ورجليه يحاول الوقوف فلا تقوى قدماه فأمسكت بيده وساعدته على الجلوس ليأخذ بعض الوقت ليستعيد نشاطه ووقفت أمام الباب فإذا بالضوء يقابلني من جانب جدار الواك المهذوم فجئت من الخارج لأجد أثر الأسد وهو هارباً بعد أن ضرب الحائط بكفه فحدث فيه فتحة التي مكنته من الهروب رجعت لصاحبي وقد تقاطر علينا الناس وأمسكنا على يديه ووقف طويلاً حتى مشى على رجليه وبعد أن استرد أنفاسه بدأ يحكي وهو يلوم نفسه والطمع الذي كان أن يؤدي بحياته وجاعت الزوجة وهي في حالة انزعاج شديد وطمأنها وساقته ولمدة لم يستطع أن يفارق سريريه .

النمر جد القبيلة

من قبائل الشلك والدينكا والنوير من يؤمن بتمص الروح وإن كانت لا يفهمونها بهذا المعنى فتجد منهم من يقول إن النمر جده ومنهم من يقول أن نوعاً من الثعابين جداً له وكل بيت منها له جد فهو لا يتعرض إلى قتله ولا يترك إنساناً أن يقتله أو يؤذيه فهو محل تقديره واحترامه وفي أو نفسها تكثر فيها الحيوانات المفترسة تحوم حول الدكان لتجد عظماً أو أن تجد فرصتها من حيوان خرج من حظيرته وفي غشية يوم ممطر جاءت الطاهية بطعام العشاء وكنت قد أضدت شيئاً

من الدجاج وكنت أكل وأقذف بالعظام خارج الحجرة فإذا بحيوان يلتقطه واسمع صوت تهشم العظام بأسنانه وبجانبى بطارية تسع خمسة من الحجار سلطت ضوءها فإذا هو نمر كبير الجسم وهممت أن أقتله بطلقة وقد كانت العاملة لازالت تقف بجانبى فما أن رأيته وتبين لها أنه نمرأ حتى أمسكت البندقية وقالت هذا جدي فلا تقتله وحاولت كثيراً أن أقنعها بخطأ هذا الاعتقاد فلا تضيعني مني هذه الفرصة لأنه كبيراً وقد لا أجد مثله فأبت عليّ ذلك وبدأت تخاطبه بلغة الدينكا حيث هي من رعايا مركز بور تناديه يا جدي لم أتيت لهؤلاء القوم الذين لا يعرفونك ولا يقدرُوا مكانتك ، جدي أذهب قبل يصيبك سوء فلما سمع الهمهمة شعر بأن هناك متربصاً فغادر مكانه وابتلعه الظلام والشيء المعروف أن كل بطن من هذه البطون له جد فمنهم من اتخذ الأصله ومنهم من اتخذ التمساح وليس في الإمكان التصدي لكل هذه البطون وعن تقمص أرواح الأجداد لحيوان أو وحش لأنها تحتاج لبحث موسع ودقيق ومنفرع لكن هناك سؤال يفرض نفسه هل للثعبان أو التمساح أن يفترس من أحفاده من بني البشر دون مراعاة لما يكونون له من قداسه واحترام أجيب بنعم لأن التمساح لا يعرف هذه العلاقة بل هي من اختلاق البشر واعتقادات فاسدة لا صلة لها بالحقيقة هذا رأيي أما رأيهم إذا حصل شيء من ذلك لا يعتبرونه انتقاماً بل يعتبرونه عقاباً نتيجة لغلطة ارتكبوها في حق هذا الجد .

لقاء مع المفتش وندر

كان على كل مفتش منطقة أن يحرص على تنفيذ الأمر المحلي الذي يصدره سعادة مدير المديرية والقاضي بأن يبادر كل مفتش قبل نهاية أكتوبر من كل عام بصيانة الشارع الرئيسي الذي يقع داخل حدوده بإزالة الحشائش وردم الطريق بطبقة طينية بمساعدة العمد والمشايخ باستئجار الأهالي من حلة إلى أخرى ، والمفتش ينقل معهم سيراً على الأقدام يقضي نهاره بمراقبة العمل وليلة في خيمة صغيرة ينام تحتها لتقيه الأمطار وكان لا تصحبه حاشية و لا خدم إلا من طبّاخ يؤدى وظيفة طبّاخ وسفرجي . ولما كان الموسم على الأبواب ولا بد من بضائع

لمواجهة الموسم الجديد فقلت من واو(34) على ظهر جواد ميمماً شطر ملكال وعلى بعد أربعين ميلاً تقريباً وجدت المفتش وندر يعسكر في الخلاء ويرتدي قميصاً ورداء من الملايات المصرية ذات المربعات الملونة فقابلني ونزلت عن جوادي وحييته وجلسنا على الأرض لأنه لازال بينه وبين خيمته نحو ميل ولا يرجع إليها إلا بعد العصر وقال : إلى أين؟ قلت : إلى ملكال وماذا تعمل قلت لأقدم كشفاً باحتياجاتي من البضائع لمقابلة الموسم الجديد لتصلني بمجرد الفراغ من تعبيد الشارع وأمن على الفكرة ثم قال هل معك ما تأكله أثناء الطريق قلت احمل معي كمية من القرقوش وكمية من السكر والشاي والبن قال بماذا تأكل القرقوش قلت أجد حوجتي من البيض والدجاج من القرى الواقعة بالقرب من الطريق وهل عندك بندقية قلت كانت لدى بندقية وبعتها قال منذ قليل رأيت بعض الوز ينزل على بركة ماء تحت تلك الشجيرات وأشار إليها بيده وجاعني يحمل بندقية وبيده طلقة واحدة أضرب بها بعض الطيور لأن الذي بيدنا من لحم البقر طعناه بالحربة كعادة النوير هل تأكله فقلت لا ، أخذت البندقية فأصبت نحو ستة من الطير وجئت بها فنادى الطباخ وأمره بأن يعدها للعشاء واخذ باقيها كزاد في الطريق وكانت الشمس قد أخذت طريقها للمغرب وقادني نحو خيمته وجاء الطباخ بالشاي فشربت وأثناء ذلك أعاد نفس السؤال لم لم يكن بيدي سلاحاً وبدأت أحكي من جديد بأن كنت أملك سلاحاً نارياً عبارة عن بندقية موزر جميلة المنظر وكأنها عروسه وكنت معجباً بها وبعد قليل اتضح لي أن ذخيرتها غير متوفرة في أماكن بيع السلاح نسبة لأنها من عيار صغير ومثلها قليل في أيدي الناس ولذلك الموردين لا يطلبونها بكميات كبيرة ولهذا السبب تخلصت منها عن طريق البيع غير أن أبي يملك بندقية خرطوش ووعدني أن يحولها تحت اسمي ولكن لكبر سنه وعدم استطاعته بقطع المسافة بين الدويم رئاسة المديرية والكوة محل سكناه لم يجد فرصته في تحويلها ففتح مذكرته وامسك بالقلم قائلاً : أمني عليّ عنوان أبيك بالكامل وسجله . قضيت ليلتي في المعسكر وفي نحو السابعة صباحاً ودعته وأخذت طريقي وفي نحو العاشرة

صباحاً إذا بأسد يرقد على الأرض على ربوة يكثر فيها شجر الكداد المعروف بشوكه القوي ورؤوسها الحادة من جهة أما بقية الجهات كلها مغطاة بالمياه مما يجعل الأرض رخوة لا تتحمل حوافر الجواد واحترت في أمري ماذا افعل لابد من المرور عبره وليس بيدي سلاحاً إلا سوطاً أحمله أو سكيناً على ذراعي فكيف الخلاص وأخيراً عزمتم أن اقتحم عليه مرقده فرجعت قليلاً ونزلت وأعدت ربط الحزام جيداً وأحكمت لف أعين الحصان بقطعة من القماش لئلا يخذلني إذا أقترب من الأسد فيقف فيعرض حياتي للخطر وكان الحصان قد شعر بوجود الأسد وكان يخرج زفيراً من أنفه . وركبت وسرت فلما صرت على مقربة منه أطلقت عنان الفرس فكان يجري بكل سرعته محدثاً صوتاً عالياً نتيجة لوقع حوافره على الأرض والأسد راقدًا فاقتربت منه ، وهناك داخلني خوفاً أأف أم أستمروا ولما كانت بيني وبينه خطوات فإذا هو يقفز نحو الماء بكامل قوته مفسحاً الطريق أمامي. تقدمت خطوات والتفت ورائي متحسباً أن يجري ورائي فوجدته لازالت أرجله غارقة في الطين وهو يحاول الخلاص منه فنزلت وأعطيت الحصان برهة ليعيد فيها أنفاسه وواصلت سيرتي.

وبعد انتهاء فصل الخريف وفتح الطريق أمام العربات جاء المفتش وهو يحمل في يده البندقية وطلب مني سداد مبلغ خمسين قرشاً رسوم تغيير الرخصة لاسمي وكنت أتساءل بيني وبين نفسي ما هي الخطوات التي اتخذها حتى استطاع الحصول على البندقية لكن عندما ذهبت لأقضي إجازتي سألت فقالوا جاء جاويشاً من قوة البوليس وسأل عن الوالد فقابلته وقال له إني مندوب من سعادة مدير النيل الأبيض في أمر يخص بندقيتك فهل لك ابن بمركز فانجاك قال نعم هل أنت راغب في تغيير بندقيتك هذه من اسمك إلى اسمه قال لا مانع قال أعطيني إياها مع رخصتك وحرر له وصلاً بالاستلام ووقع عليه وبعد وصولها الدويم أرسلت بدورها إلى ملكال وملكال أرسلها بدوره إلى مركز فانجاك الذي أكمل إجراءات التحويل وجاعني يحملها(35) .

لقاء مع قطيع أفيال

قبل أن استلم ولا زال الخريف وحشائشه الطويلة المتكئة على بعضها تسد الطريق أمام المارة ، رأيت أن أزور فانجك وركبت الحصان أخذت طريقي نحوها ولكن فانجك ليست على الطريق الرئيسي ولكن على طريق فرعي من قرية فلاك مستنقع من الماء يغطي مساحة واسعة وتنمو وسطها الأعشاب الطويلة فإذا بي أجد نفسي أمام قطيع من الأفيال وهو يتلاعب في الماء ويتجاري خلف بعضه هذا ينضح الماء وهذا يشرب والصغار تخوض في الماء وراء أمهاتها وعلى مقربة من طريق ضيق قد لا يظهر معالمه من طول الحشائش فأمسكت عن أي حركة ولا فرقة السوط الذي أحث به الحصان على السير فاعترض طريقي طريقاً جانبياً فعرجت عليه فقادني إلى فناء دار فسيح وعلى جانبه قطية مقللة وراكوبه بالقرب منها ذات ظل فنزلت من على جوادي وربطت مقوده على عمود الراكوبة حتى يأخذ القطيع طريقه فسمعت همهمة داخل القطية فقلت : من بالداخل ؟ صمتوا برهة بعدها سمعت صوت امرأة تقول من أنت ؟ قلت : أنا ترك . وكلمة ترك تعني تاجراً ففتحت الباب قليلاً ونظرت منها إلى المتحدث فخرجت وقالت عندما سمعنا وقع حوافر الحصان قلنا إنه صوت أرجل فيل ثم قالت : ألم يقابلك قطيع الأفيال الذي مر من هنا منذ وقت قصير ؟ قلت لا زال موجوداً على الميعه (36) يتلاعب ألم تسمعي حركته ؟ واستمر يتصايح ويلعب إلى ما بعد العصر بقليل وان الشمس لا تمكنني من وصول فانجك ولذلك آثرت المبيت معهم ولا زالت أصوات القطيع تصل إلى مسامعنا حتى منتصف الليل ثم أخذ طريقه نحو الشرق .

بدايات التمرد بملكال

كانت في يدي كمية من الذرة في مخازن ملكال والمحصول الجديد على الأبواب وخشيت أن يتعرض للتلف من ناحية السوس أو البوار إذا ما تم نزول المحصول الجديد للأسواق فلا بد إذن من التخلص منه ، جئت بالطائرة من جوبا ووجدت الحالة متوترة وشعور بأن هناك شئ يضره الغيب بالنفوس غير مرتاحة ،

الضمائر قلقة ، لغة التخاطب بين الشماليين والجنوبيين قد تغيرت عما كانت عليه في السابق انقلب الحب إلى بغضاء وكراهية وقد تسمع من البعض كلمة نابية تسيء إلى الشمالي والناس في حيرتهم هذى تواترت الأخبار بأن في اليوم الأول من العام الجديد 1956م سيحتفل السودان باستقلاله وسيحتفل الشعب بنزول علمي الاستعمار البريطاني والمصري عن ساريتهما ويرفع العلم السوداني وعلى الفرقة الجنوبية أن ترسل وحدة لتمثلها وتشارك في هذا الحفل التاريخي وجاء اليوم المحدد لسفر الفرقة واعدت لهم باخرة نيلية تقلهم حتى كوستي ومنها يأخذون طريقهم بالقطار الذي سينتظرهم على رصيف الميناء جاءت الوحدة واصطفوا على رصيف الميناء وهم يحملون أمتعتهم وسلاحهم والباخرة راسية تنتظر دخولهم وجاء لوداعهم عدد من الضباط والإداريين وضباط البوليس وأمر قائد الوحدة بالدخول فسألوا عن الذخيرة فرد القائد قائلاً لا حوجة لنا بالذخيرة نحن في رحلة تشريفية لنشارك إخواننا في هذا الحدث العظيم وليس وجهتنا ميدان حرب فرفضوا الانصياع لأمر القائد بدأت الأخبار تأخذ طريقها إلى آذان المسؤولين بأن شئ من العصيان أو التمرد ستقوم به الفرقة وظلوا في عنادهم حتى جاء الليل فأمر مدير المديرية بالإنبابة السيد احمد حسن الضو(37) وكان المدير محمد عثمان يسن(38) عليه رحمة الله غائباً بالعاصمة وأمر النائب بعدم إنارة المدينة وشوارعها خشية أن تكون الإشاعات حقيقية وتعلن الفرقة عصيانها وتهاجم المدينة وكانت مخازن السلاح والذخيرة تحت رقابة مشددة ، انتحى جانباً لقمندان البوليس وأسر إليه ببعض كلمات قام على أثرها القمندان بعربته متجهاً نحو رئاسة البوليس وطلب مقابلة جاويش فرقة السواري وكان خليطاً من العرب وأبناء النوبة واخبره بجلية الأمر وطلب منه بأن يأتي بكل قوته وسلاحه إلى الوقوف على شارع الزلط المطل على رصيف الميناء دون أن يحدثوا ضوضاء ورجع إلى النائب واعلمه الخبر بعد ساعة تقريباً والليل قد أظلم فأخذوا موقعهم لا على خيولهم بل كانوا مشاه ولا زالت الوحدة تصر على تزويدهم بالذخيرة والمسؤولين يحاولون إقناعهم بعدم ضرورة الذخيرة وفي نحو العاشرة

مساء وبعد أن اطمأن المسؤولون بصدق نوايا قوة السواري وتنفيذ أمر إطلاق النار على الوحدة إذا ما طلب منهم ذلك فوقف قائد الوحدة خطيباً يقول إن قانون الجيش يعطيني الحق بأن افعل ما أراه مناسباً وإن موقفكم هذا يدل على العصيان بعدم إطاعة الأوامر فأنا بالتشاور مع مدير المديرية بالإجابة أعطيك مهلة نصف ساعة ولحل هذه المشكلة أما إن تدخلوا الباخرة أو يخلع كل جندي ملابس الجندي يأتيني بها مع سلاحه ويعتبر نفسه مفصول من قوة دفاع السودان أما إذا مضت نصف الساعة ولم تنفذوا أحد الأمرين سأمر قوة السواري التي أخذت مواقعها واستحكاماتها سأمر بإطلاق النار عليكم وقبل خمسة دقائق من الميعاد المحدد ستبارح الباخرة مرساها لئلا يصبها الرصاص وهنا جن جنونهم وشعروا بالخطر فأنحلت عزيمتهم وآثروا الدخول فدخلوا الباخرة للإقلاع .

أخذت الباخرة طريقها تمخر عباب الماء وارتاحت النفوس وتنفست الناس الصعداء بعد أن عاشوا على أعصابهم عدة ساعات وحسبوا سحابة صيف وقد انقشعت ولم تدم الفرحة طويلاً حتى وردت الأخبار بتمرد حامية توريث (39) فتكهرب الجو من جديد وعاد القلق بأكثر مما كان عليه من قبل ففي صبيحة يوم من الأيام إذا ببرميل البارود يتفجر من ناحية قوة البوليس بملكال وفتحوا النار على ضباطهم فأصابوا أحد الضباط بغيار كسر يده ثم انتشروا في المدينة بدءاً بمكاتب الحكومة وفي تلك اللحظة هبطت طائرة تحمل قوة من الجيش متجهة نحو جوبا لتعزيز إخوانهم للاحتفاظ بمطار جوبا ولما كان الموقف في ملكال ينذر بخطر عظيم يهدد سلامة كل من فيها من شماليين فاتصل السيد محمد عثمان بسن رحمة الله عليه بالخرطوم هاتفياً بأن تبقى هذه القوة لحماية أرواح الناس فوافقوا ونزلت القوة وركبوا العربات وما أن وصلوا مشارف المدينة فأطلقوا النار عدة مرات في الهواء كإندازار وقبل أن يدخلوا منطقة السوق جاءنا الأخ الحاج الخليفة وهو رئيس حسابات المركز وملابسه ملطخة بالدماء أزعجني هذا المنظر ولما له من صلة القرابة بيني وبينه جريت نحوه وفي لهفة سألته عما أصابه قال اطمئن فأنا لم اصب

ولكن رجال البوليس أطلقوا النار على حرس الخزنة فأصابوا أحدهم فاقتحم علينا المكتب وأراد الاحتماء بي والدم يتصبب من جرحه فأصابني منه هذا الدم فقوة البوليس لما سمعوا إطلاق النار توجسوا خيفة ورأوا طلائع الجيش الزاحف وكانوا على شاطئ النهر فوجدوا فلوكة حديدية كبيرة رأسية بالقرب من المركز فدخلوها ورفعوا مراسيها وكانوا يحملون الأسلحة الخفيفة والمدافع ذات العيار المتوسط وكمية من الذخائر اتجهوا نحو الشاطئ الغربي حيث تنمو بعض الأعشاب ويبدو أن غرضهم هو أن يجعلوا من تلك الأعشاب ساتراً لتنفيذ مخططهم وانتهزوا فرصة ضيق مجرى النهر وأما هروباً من المعركة وما توسطت بهم المركبة عرض النهر وقف قبالة رجل يحمل مدفعاً ونادى فيهم ارجعوا ارجعوا فلم يستجيبوا للنداء ردها اكثر من ثلاث مرات وقال أنا سوف أطلق عليكم قذيفة من هذا المدفع تأتي على المركبة ومن فيها فتكونوا طعمة للحيتان فلم يستمعوا لقوله وأخيراً أرسل قذيفة وأصاب المركبة فغاصت في ماء النهر بمن فيها ومن عليها ولم ينج منهم أحداً .

بعد أن اطمأنتت على سلامة أخي الحاج رجعت إلى مقعدي أمام دكان عثمان فضل الله كانت أمامي شجرة نيم وكان هناك شارع يؤدي إلى نقطة البوليس تحرس مكاتب المحكمة الأهلية وعلى بعد خمسين متراً وأنا على مقعدي هذا فإذا بصوت سلاح يدوي صوت طلقه تصيب ساق الشجرة وتغوص فيه وهي لا تبتعد عن مقعدي إلا مترين فقط وهذه الشجرة موجودة للآن وبعناية من الله والشجرة نجوت من موت محقق فاتجهنا نحو مصدر الصوت الذي كان يأتي من ناحية المحكمة الأهلية ولم نر أحداً وانتشر الجيش بالمدافع واتجه نحو المديرية ومنزل المدير وكان السوق قد اقفل أبوابه واتجهوا نحو مساكن التجار ليطمئنوا العوائل فجاء ضابط كان مع الفرقة ومعه أحد ضباط البوليس ونحن لا زلنا نقف أمام الدكان وأبوابه مفتوحة وقف أمامنا وقال الضابط ألم تشعروا بخطورة الموقف بالأمر اقفلوا الدكان وغادروا السوق فامتثلنا للأمر أغلقنا الباب وتوجهنا نحو القرية وبذلك انطفأء اللهب ولا زالت الجمرة تحت التبن .

جاء الليل والأعصاب متوترة والقلق يساور النفوس ولا ندري بعد ذلك
وشعرت بعظم المسؤولية التي تقع على عاتقي بصفتي اكبر الموجودين سناً ويجب
عليّ أن أفكر قبل فوات الأوان وكان أفراد العائلة يسكنون في جهات مختلفة فالحاج
سيد أحمد وأسحق أحمد صديق وعائلتهما يسكنون حي الموظفين ومحمد بابكر
كنتباي الحي التجاري (حي الجلابه) فلا بد من الجمع بينهم في صعيد واحد
وقمت بنفسي وتوجهت نحو حي الموظفين وأسرت عليهم أن يقفلوا منازلهم
وينتظروني داخل منزل كنتباي وجمعتهم مع كل من في البيت في غرفتين
متجاورتين للرجال واحدة والأخرى للنساء وجلست على مقربة من باب الغرفة
ليسهل على الدخول والخروج إذا تناهى لسمعي أي حركة خارج الدار وكانت
أصوات الطلقات تظهر من حين لآخر بعيدة عن الحي التجاري لكن والحمد لله
مرت الليلة بسلام.

رحلات على الشروك

عندما حان موعد إجازتي سلمت نقطة واو لوكيل آخر وبعد انتهاء فترة
الإجازة عدت إلى ملكال وفكرت في عمل تجاري متجول وكانت الحرب لازالت
دائرة الرحى ولازال بعض السلع غير متوفرة فاشتريت نحو عشرة جوانات من
البن من ملكال ومن بعض التجار خارج ملكال وكانت الرقابة من السلطات تقف
عند دائرة العربات والبواخر النيلية فأجرت مركب شروك من أحد الشلك بعد أن
رحلت الكمية إلى نقطة قريبة من شاطئ النيل بالملكية وبعد اكتمال العدد أجرت
مركب من نفس النوع يكون طاقمها مكون من شخصين لينقلوا الجوانات إلى دكان
يديره أحد أبناء الشلك تربى على يد تاجر شمالي واسلم وحفظ العشر الأخير من
القرآن الكريم وكان مخلص أمين وجاءت المركب تحت جنح الظلام وشحنا
البضاعة وأبحرنا نحو تونجة وكنا نحذر الاقتراب من الشواطئ خوف من القرنتي
الذي غالباً ما يكون مرعاه ليلاً وبالقرب من الشواطئ وكانت المركب رغم سيرها
عكس التيار بضغط مجدافين تسير بسرعة إلى أن وصلنا قرية (ناجواده) وكان

النهر يسير تحت هضبة عالية يبلغ علوها نحواً من الثلاثة أمتار فإذا بأحد من الشلك يسعل (يصبيه السعال) فإذا بقرنتي كبير الحجم يسقط من اعلي هذه الهضبة ويرمي بنفسه علي الماء والمركب تمشي تحتها غير إنه سقط على بعد متر واحد خلف المركب حتى أن الموج الناتج من كبر جسمه أثار المياه الأمر الذي افقد المركب توازنها فتأرجحت ولكن أعادوا توازنها بعد أن غيروا اتجاه سيرها فنجونا ووصلنا تـونـجة بعد أن بعنا بضاعتنا إلى تجار الليري أصبت من ذلك ربح لا بأس به ففكرت في رحلة أخرى .

كان لي صديق اسمه مصطفى عبد القادر(40) يعمل بمركز كدوك ومن اكبر تجارها من سعة راس المال بعد أن اختاره تاجر سوري اسمه ابكریان من اقدم تجار كدوك وأصاب منها أرباحاً طائلة وقد أدركه الكبر وكان متزوجاً من بنت أحد المكوك زواجاً غير شرعي لأنه مسيحي وهي لا دينية وأولدها ولداً وبنثاً أراد أن يتخلى عن السودان ويذهب إلى وطنه في سوريا واستطاع إن يهرب أمواله شيئاً فشيئاً حتى بقي القليل واضمر في نفسه أن يتركه لولديه الذين لازالا صغيرين واختار مصطفى عبد القادر لأمانته ومعرفته للتجارة وحب الأهالي والتجار على السواء فجاء يوماً ليعرض عليه فكرة تسليم الدكان وكل البضائع الموجودة وله نصف الفائدة من الإرباح فوافق وانتهت عملية التسليم والتسلم وأخذ ابنه للخرطوم وألحقه بالمدارس أظنها الكمبوني وكان مصطفى قد واثاه الحظ وأصاب أرباحاً استطاع أن يشتري كل أملاك ابكریان ويسدد قيمتها للابن على أقساط بعد أن أتم تعليمه واتخذ من الخرطوم مقراً له وفي مجلس ضمنا ونحن أربعة فإذا بساعي البريد يمد برقية فتناولتها وفتحتها وما أن وصلت نهايتها قلت (الله) متعجباً من اختصارها فسمعتها من بالمجلس ونوا أنه خبر غير سار فاخطفها أحدهم ثم عقب بقوله أنها لغز وناولها لمن بجانبه وقال الثاني مبتسماً أنها شفرة وتلف الثالث سر بين شخصين وكان نص البرقية كما يلي (عثمان نور ملكال يومين فقط) خمس كلمات وغير موقعه وكثرت التخمينات والنون وسألني أحدهم هل أدركت لها معنى

قلت هونوا على أنفسكم ليس في الأمر سر ولا شفره كما تتون البرقية من مصطفى عبد القادر يطلب أن أزوره ليومين فقط ربما بالقيام برحلة صيد للغزلان على الضفة الشرقية من كدوك ترويحاً للنفس من عناء العمل . جاءت الباخرة ووصلت كدوك وفي شجن من شجون الحديث تطرقت إلى حادث القرنتي الذي رمي بنفسه من ذلك العلو على المركب ونجونا بمعجزة وقال مناسبة طيبة أنا تحت يدي مائة ثوب من الدمورية أبيعها لك تسليم نقطة أخشاب الزرزور وعندي مركب شروك كبيرة من مخلفات ابكريان تسع عشرة جوالات ذرة ولي صديقين مخلصين يمكن أن تعتمد عليهما في أداء أية مهمة ويكون قبلك كوستي فوافقت تجمعت الدمورية في النقطة وتحت ستار الليل وعلى مركب الشروك سرنا نحو النقطة وكان أحد التجار الشماليين المعروف لدينا هو صاحب المتجر وأودعنا البضاعة المركب ومن باب الاحتياط وتحسباً لأي طارق ربطت البندقية بحبل طويل وربطت الطرف الآخر في وسط المركب حتى لو انقلبت المركب وأفرغت ما بداخلها فتكون البندقية معلقة بهذا الحبل . أن الشروك لا يغرق في الماء بسبب خفته لكنه قابل للانقلاب إذا ما داهمه قرنتي أو عصفت به الريح وكان مهمة الرجلين هو التجديف واحد في المقدمة والآخر في المؤخرة واخترت موقعي في الوسط وكان فيضان ذلك العام قد وصل منسوباً غير عادي فغمر أكثر الأرض التي بقرب شاطئه وعندما يحين وقت الطعام نبحث عن شجرة وسط الماء ذات شعبتين وتوقد بينهما النار ونضع عليهما براد الشاي وكل منا يتناول كباية وهو جالس مكانه ويتناول ما يكفيه من الرغبة ولا مجال للحركة ولا للاجتماع . بعد الفراغ تبدأ المسيرة وعند وقت النوم أو شعورنا بحركة وابور ندخل بالمركب ونجعل من الأعشاب النامية سائراً حتى تمر الباخرة وعند النوم ندخل الأعشاب وتربط النواميس على أطراف الأعشاب كل في محل جلوسه بهذه الطريقة حتى وصلنا الجبلين(41) ولكن لا يمكن الدخول إليها مباشرة خوفاً من البوليس وكان على رأس الإدارة الأهلية العمدة امبدا من قبيلة التعايشه رجل كبير السن صهرته الأيام وعركته الحياة عاقلاً سريع البديهة

واستحسننت أن اترك المركب بين الأعشاب وادخل المدينة أتعرف على الأخبار والأحوال وكيف دخول البضاعة فذهبت لأحد أقاربي من التجار ووقفت أمامه وهو مشغول مع الزبائن وكنت ارتدي قميصاً قصيراً قد احمر لونه من كثرة خوض مياه الخيران فلما شعر بوجودي وبدت على وجهه حالة الانزعاج وقبل أن يتفوه بكلمة قلت له أطمئن يا حاج عبد الماجد(42) كل شيء على ما يرام فعانقني طويلاً والعبرة تكاد أن تخنقه وهو من ابرز رجالات الجبلين كريماً يضرب به المثل باب داره فاتح أثناء الليل والنهار لا يخلو بيته من الضيوف رحب الصدر ذا أخلاق وهو من أبناء عمومتنا وأخذ بيدي قال تمشي البيت لأن حالك تزعجني قلت ألم أقل كل شيء على ما يرام إذن أين ملابسك فشرحت له الموقف وقال إن الجبلين مفتوحة أمام كل طارق وسلطات المدينة متهاونة مع أي إنسان يجيء بشيء إلا إذا أراد أن يخرج منها أي نوع من البضائع الخاصة من حصّة المدينة . أخذت قسطاً من الراحة وجاعني بركوبه أصل بها إلى مخبأ الجماعة فأعلمتهم الخبر وأمرتهم أن يدخلوا الميناء وسأكون في انتظارهم ورجعت وفي صباح الغد جاءت المركب وجاء أحد بوليس العمدة وقال لمن هذه البضائع قلت أنا قال ما عندك ؟ قلت مائة ثوب دموورية قال ومن تعرف من التجار قلت الحاج عبد الماجد عبد الرحمن وانصرف وفي أحد المخازن أودعنا الشحنة وبقيت المركب وهي عرضة للسرقة فجئنا بجماعة حملوها إلى أقرب فرنده دكان وجئنا بجنزير وربطنا طرفه بالمركب والطرف الآخر على شعبة الفرنده وجئنا بقفل من النوع الكبير وقفلنا به طرفي الجنزير وملأناها ماء لئلا يحصل لها تشقق بسبب الجفاف .

كانت الرحلة موفقه وبعنا بضائعنا . هنا اعترضتنا عقبه كيف الرجوع اتصلت بمكتب وابورات كوستي تلفونياً ليحجز للمركب . رد المكتب الحجز لا يأتي إلا من حديد عطبرة وهنا اتسعت الخرق على الراقع لاشك إن السير عكس التيار يعوق سيرها وتحتاج إلى أيام وكانت رياح الشتاء قد هبت فهداني تفكيري إلى عمل شراع فاشتريت ثمانية أذرع من القماش وقسمتها أربعاً وضبطها مع بعضها وجئت

بصفحة فارغة وملأتها من الرمل وجئت بخشبة ذات قرنين كشعبة ووضعتها في نصف الصفحة لتكون كسارية وجئت بعمود آخر من الخشب لربط طرفي القماش وبدأت السير حتى وصلنا كاكا التجارية ولي بها معارف فتخلفت عنهم وواصلوا سيرهم بعد ثلاثة أيام جاءت الباخرة وسافرت فيها نحو ملكال ولما وصلت الباخرة مرفأ كدوك قابلت مصطفى وأخذني جانباً وقال إن أحد التجار قد علم بهذه العملية وأوصلها بدوره إلى مفتش المركز فارجع إلى فراشك قبل أن يراك فرجعت إلى أن وصلت ملكال وقد كنت أظن أن الموضوع بعد أن مرت عليه أسابيع قد دخل طور النسيان وجاء مفتش كدوك في زيارة لملكال لبعض شئون الإدارة وكان له مكتباً مخصصاً له فاستأذن أحد التجار واسمه عثمان له دكان في الخارج يعمل فيه أحد وكلائه يريد أن يرحله من مكانه الحالي إلى موضع نقطة الخشب القريبة منه لأن وجود النقطة أثر على عمله التجاري وأصبح لا يزوره أحداً من الأهالي وهو يريد مساعدة جناب المفتش ويوافق على ذلك فسأله من أسمه فقل عثمان أبشر (43) فوقف من مقعده وقال له أنت حرامي هربت كل دمورية الشلك وبعثتها في كوستي أنت حرامي بس ولا تستحق المساعدة أخرج من مكنتي وكانت مفاجأة لعثمان وأراد أن يدافع عن نفسه ويزيل بعض ما علق بذهن المفتش ولكن لم يجد فرصته فقد نادى المفتش أحد عساكره وأمره بإخراجه من المكتب وإلا سيفتح ضده بلاغ بتهمة التهريب وخرج وهو في حيرة من أين للمفتش بهذا وهو لم يصدر منه شيء من هذا القبيل أهو من كيد الحاسدين وشاع الخبر بين التجار ما تعرض له عثمان من إساءة دون جريمة فقلت لصديقي المفتش على حق تشابهت الأسماء وأنني قبل ذلك ذكرت لك إن فلان الفلاني قد أوصل إلي علم المفتش بأن عثمان نور هرب كمية من الدمورية لكوستي ويتقارب الأسماء ظن أنه قد عثر على ضالته ولذلك أفرغ كل جام غضبه على رأس عثمان أبشر (رحمه الله) .

كثيراً ما وردت كلمة شروك فما هي شروك هذه؟ هو اسم شجر ينمو في الأراضي الأنثيوبية وفي أعالي نهر سوباط يطول ساقه إلى أكثر من عشرة أمتار

في متر وخفيف الوزن خشن النسيج أقرب شيها بالمندراب يجوف وسطه بواسطة أناس متخصصون ثم يباع له زبائن كثيرون ومن خواصه أنه لا يغرق بل ربما ينقلب ويطفو على وجه الماء وبهذه الخاصية تجد الإقبال عليه من جميع القبائل النيلية سواء لعبور الأنهار أو لعملية الصيد وماله من خفه في الوزن يزيد من سرعة سيره ولو كان ذلك عكس التيار وغالي الثمن ومن اكبر أسواقه مدينة الناصر حيث هي أقرب مركز للحدود الأثيوبية يأتوا بها الأنواك والنوير لبيعونها إلى تجار الناصر ويحتفظوا بها كسلعة تجارية ويستعملونها في تجارتهم بين قمبيلا والناصر والقرى الواقعة بينهما ولهم في ذلك طريقة من ابتكارهم بأن يأتوا بمركبين متوازنتين بينهما فاصل قد يصل إلى متر ونصف المتر ثم يأتوا بعيدان من الخشب ترص على شكل سيداب من فوق المركبين وتربط بحبال قوية لئلا يصيبها التفكك ويضعوا بضاعتهم عليها ويجعلوا منها مكاناً لا يقاد النار وهي تسير بهم الليالي والأيام تحت ضغط تيار شديد الاندفاع .

واقبال الصيادين لاقتنائها أي مركب شروك مساعدة الصياد في حالة انقلابها أو إذا فقد توازنه وانقلبت تطفو على وجه الماء فيركب على ظهرها ويأخذ بالتجديف إلى أن يصل بها أرض يابسة دون أن يتعرض إلى غرق .

ملكال ورحلات الدمورية

اتسعت رقعة مدينة ملكال وازداد عدد سكانها بسبب موقعها كعاصمة لمديرية أعالي النيل واهتمام الحكومة المصرية لتجد موطناً قديم ثابت في السودان جعلت من خدماتها في مدينة ملكال خير ما يعينها على ذلك وأنفقت من الأموال الشيء الكثير على المباني والجناين والخدم والسعاه وما قامت حكومة السودان من توسيع لا يقل عما قامت به الحكومة المصرية حتى أصبحت المدينة تعج بالسكان من أجانبا وسودانيين جاءوا من جميع أنحاء طلباً للعيش الكريم وازدادت الخدمات تبعاً لذلك إلا ناحية واحدة هي سوق السمك ليتمشى مع النهضة العمرانية ويكفي حاجة السكان من هذا النوع الذي لا غني عنه وكانت الكميات التي ترد السوق على أيدي

مواطنين شلك يكاد يكون شيء لا يذكر وجاء العركي علي (44) وعبد الله جاد الله وهما من مواطني الكلاكلة القبة وتقدما بطلب ليسدا هذا الفراغ فوجدا تجاوباً من السلطات ومنحوا رخص تجارية لممارسة هذا العمل على نطاق واسع فجاءوا بالمراكب والشباك وعدداً من الصيادين المهرة واستوطنوها وكانوا يمتازون بالأخلاق الكريمة والمعشر الطيب فهم أصدقاء لكل شخص في المدينة دون تمييز فعندما نشبت الحرب وأصبحت كل السلع خاضعة للرقابة وبدأ التهريب خصوصاً سلعتي الديمورية والبن ودخلت أنا في هذا الميدان وقمت برحلات قليلة جاعني الأخ عركي علي وعرض علي أن نوحد عملية الترحيل وتكون علي ظهر أحد مراكب السمك وهي أكبر دون شك من الشوك وأضمن ولكن لكل منا بضاعته من حيث التوزيع ولا نكون كشراكه فشكرته علي هذه المساعدة القيمة وأخذ كل منا يجمع من الديمورية بطريقته الخاصة وبعد حصول كل فريق علي كفايته نجعل في كل جوال عشرة ثياب من الديمورية وتخط بالدبارة ونرسلها خارج المدينة وفي قرى الشلك إلى أن يكتمل العدد خارج المدينة تجيء المركب المعدة بطاقمها وهم أربعة من الشباب يقوموا بعملية التجديف ونحن نوفر لهم كل سبل الراحة من أكل وشرب وقهوة وشاي طبعاً وسجاير ليساعدهم على السهر ليلاً وتجيء المركب تحت ظلمة الليل في نحو الساعة الثانية صباحاً وترسو على الطرف الشمالي من حلة الملكية ويجيء واحداً منهم ليعلن مجيئهم وفي سرعة نتجه نحوها وبمجرد أن ندخل ترفع مراسيها وتأخذ طريقها في عرض النهر وكل من عليها سكوتاً إلا من همس خصوصاً عندما تقترب من قرية على شاطئ النهر وسفرنا دائماً ليلاً ونقضي سحابة النهار في داخل الخيران أو داخل أعشاب النيل بحيث لا يقع نظر إنسان وبعيدة عن سير البواخر وفي مرة من المرات مررنا على مركز ملوط في نحو الثانية صباحاً وكان معنا بالمركب خروفاً اشتريناه لنقوم بذبحه عند الحاجة ومدينة ملوط ليس بينها من شاطئ النهر إلا أمتار قليلة ومع ضيق النهر شعر الخروف بحركة البهائم في داخل البيوت ووقع أقدامها على الأرض من شدة عض البعوض

فصاح وكنا في صمت شديد خوفاً من متربص فينكشف الستر . ولما صاح الخروف هجم عليه أحد الطاقم وأمسك بخناقه حتى كادت أن تقبض روحه فلم يتركه إلا بعد أن ابتعدنا عن منطقة الخطر وكنا نمر على مدينة الجبلين نبيع أو وجدنا مشتري وإلا إلى كوستي .

تجمعت تحت يدي عدداً من الجالات المعبأة بالدمورية والزراق في قرية على نهر السوبات ولما حان وقت السفر اتفقت مع صاحب الدكان على أن نؤجر عربية ليشحن هو ذرة وأنا اشحن الدمورية وكانت العربية من مخلفات جيش أفريقيا وكانت مصممة خصيصاً لتكون كجراج تحمل قطع غيار ومعلقة بالصاح من جميع جوانبها إلا باباً خلفياً ، بارحنا المدينة بعد صلاة العشاء وكنا خمسة والسائق وصاحب الدكان والآخر أحد أعواني وكان السائق لأول مرة يسير على هذا الطريق وكان ممن أتوا رخامة الصوت وملكة الحفظ يحفظ الكثير من أغاني الحقيبة غزلية كانت أو في وصف الكرم والشجاعة فما أن خرجنا عن حدود المدينة صعدت فوق الصندوق بغرض أن اصطاد الغزلان وبدأ السائق يغني وينقلنا مرة إلى حفلة من حفلات سرور ومرة إلى حفلات عبد الله الماحي ومرة إلى مجالس محمد ود الفكي تسير العربية في طريقها ونحن في واد آخر وكلما زاد الليل برودة ازداد الشاعر حرارة واجتمع الضدين في قلب حرم بعضاً من زينة الحياة الدنيا فالتوالد لا شك سيأتي بشرود في الذهن واستغرق في الأحاسيس وكان الشارع الذي نسير عليه ينعطف عند شاطئ النهر ليأخذ مسيرته متوازياً مع النهر وعندما وصل إلى هذه النقطة وهو لا يعلم فإذا بنور العربية يسطع على مياه النهر ولم يبق بينه وبين حافة النهر ومن على قيف عال إلا مترين فقط فانحرف بالعربة في زاوية حادة وهي تسير في سرعتها نحو اليسار ففقدت العربية توازنها وانقلبت على الجانب الأيسر فلو انقلبت على الجانب الأيمن لسقطت في النهر و لابتلعنا وإياها اليم وبعد الاطمئنان على سلامتها جاء دور البحث عني بعد أن قذفت بي السيارة أثناء افتقادها توازنها على بعد أمتار فجاء أحدهم وهزني فأفقت من غيبوبتي وسألني عما

بي قلت لا شئ وقلت ابحثوا عن البندقية فجاعوا بها وقد انشقت خشبتها فقلت في نفسي سلامه وأفرغت ما بها من ذخيرة فرأيت في الأفق البعيد نور عربية قادمة نحونا وقال آخر خذ راحتك حتى تصل تلك العربية فرقدت على الأرض وعادنتي الغيبوبة فلم أشعر إلا عندما وقفت العربية أمام مستشفى ملكال عدت إلى وعيي ونزلت ودخلت المستشفى وجلست على أرضية العيادة الخارجية وقلت مخاطباً الذين كانوا معي هل أصيب أحدكم في هذا الحادث قالوا خدوش بسيطة فقامت وتركتهم في عيادتهم واتجهت نحو البيت ورفقت على فراشي وأنا اشعر بالتعب ولا أستطيع أن احدد موقعه وفي الصباح عادني عثمان فضل الله(45) وقال هيا على السوق قلت لا أستطيع وبعد حوار قصير قال : توكأ على هذه العصي وضع يدك على كتفي فوقفت متحاملاً حتى وصلنا الدكان فهياً لي مرقداً على عنقريب صغير أمام الدكان وبدعوا العواد يتوافدون ودارت كؤوس الشاي وفناجيل القهوة وفي آخر النهار أعود وأنا متثاقل الخطى وبعد يومين تمكنت من إحضار البضائع وقبل أن يمضي على الحادث أسبوعاً جاعني العركي وجلس بجانبني وقال إن المركب ستأتي مساء اليوم وأنا سأتولى تصريف البضاعة نيابة عنك وقلت لا أجد سبباً في تخلفي قال إن حالتك الصحية قد لا تمكنك من السفر قلت في المركب هو الرقاد على الفراش وهنا الرقاد على الفراش سافروا مرضى يشفيكم الله قال إذن بعد صلاة العشاء مباشرة ستأتي العربية لتتقلنا إلى الملكية ووافقت جاء المركب وجاء المندوب واتجهنا نحو شاطئ النيل واعدوا لي مكاناً داخلها ورفقت فأدرکنا الصبح على مشارف قرية واو شمال ملكال ودخلنا بين أعشاب النيل الطويلة وقضينا النهار وتحركنا بحلول الظلام وأفراد الطاقم يتبادلون التجديف كل ساعتين حتى وصلنا إلى مقربة من مدينة ملوط ولا زال في الليل بقية ولكن هذا المكان وعلى شكل جزيرة مهجورة ومرعى للصيد خير مكان نجد فيه مأمننا وما أن لاحت تباشير الفجر حتى قام الأخ العركي ليصلي الصبح فإذا بتيس (غزال) أقرن يشرب الماء بالقرب من مرسى المركب فجلس بجانبني وهمس في إذني قائلاً هل تستطيع أن ترمي غزالاً

بالقرب منا قلت نعم قال إذن تحرك بحذر وأخذت بيدي البندقية ورفعت رأسي فإذا هو لا يزال يشرب فرميته بطلقة أصابته غير أنه جري فأخذت بيدي البندقية وخرجت وراءه جارياً وتبعوني بقية الجماعة الذي هبوا من نومهم على صوت إطلاق النار ولم يجري بعيداً حتى وقع وهذا الحادث كان سبباً في إزالة كل ما بي وما كنت أشعر به من تعب في جسمي فهل هذا من أنواع العلاج النفسي الذي لا يحتاج إلى تعاطي العقاقير .

واتخذنا من هذا المكان مأوي لنا نبئت فيه ومنتزود من لحم صيده بكل ما تحتاجه الرحلة وهذا النوع من الصيد معروف بالتيل الغطاس(46) أكتسب هذا الاسم لأن مرعاه الجزر ويغطس في الماء إذا داهمه خطر ولحمه من ألد أنواع اللحوم ويسمي بصيد المسك عند الشلك ومحرم لبس فرائه لعامة الشلك إلا العائلة المالكة كما ذكرنا سابقاً .

رحلة مع الرضي في بلاد النوير

من ضمن هذا التوسع الذي أصاب مدينة ملكال إنشاء معمل للسيرم تابع لمصلحة الثروة الحيوانية وبه عدد من الدكاترة البيطريين من سودانيين أجانب ويحتل رقعة واسعة من الأرض وحظيرة للبقر ولما كانت الثروة الحيوانية متواجدة بأعداد كبيرة داخل حدود مديرية أعالي النيل وهي عمدة حياة الأهالي أعطوا هذا المعمل عناية خاصة لمحاربة الأمراض التي تسبب الموت بأعداد كبيرة كل عام وبما أن مادة السيرم التي تستعمل كوقاية لمرض أبو قنيت(47) الذي يصيب البقر يحتاج إلى عدد كبير من العجول فأعلن المعمل عن حاجته إلى نحو مائة من هذا النوع وكانت قد تأسست شركة رباعية قبل أسابيع من صدور هذا الإعلان مهمتها تصدير البقر للشمال بينهم ثلاثة أعضاء تربطني بهم صداقة قوية وفي اجتماع لهم لتدارس الإعلان وجدوا أنه ليس من السهل إيجاد هذا العدد مهما بذلوا من جهد لأن كل منطقة أعالي النيل قد أصابها مطر غزير وتحصلوا على إنتاج وفير من الذرة وفي هذه الحالة لا حوجه للأهالي لبيع شيء من ثروتهم الحيوانية وهم لا يضحون

بها إلا في حالات المجاعة وانفض اجتماع الشركة على أن لا يتعرضوا لتقديم عطاء مما يعرضهم لخسارة أو إخراجاً مع سلطات المعمل وفي مجلس ضمني مع اثنين من أعضاء الشركة وكان شغلهم الشاغل احتياج المعمل وعجزهم عن تلبية مطالبه وقال لي أحدهم هل لديك فكرة لحل هذا الموضوع قلت نعم فأقبلوا نحوي قلت على شرط ان احصل على موافقة الشركة أن يكون لي سهم من الأرباح كواحد منكم قالوا هات ما عندك قلت إنكم تعلمون أن مدينة تالودي في هذه الأيام محل تجمع لكثير من قبائل العرب الذين جاءوا بغرض المرعى سنجد طلبنا من إناث العجول ما يشبع رغبتنا ونقوم باستبدالها بالشيران في منطقة غرب النوير ولا تجد سلطات المعمل صعوبة لإقناع مفتش غرب النوير وينتزعوا منه الموافقة قالوا ومن يقوم بعملية الاستبدال هذه قلت أنا بنفسى قالوا فكرة جميلة يجب عرضها على بقية الأعضاء وقاموا على التو وعادوا بالموافقة .

وصلنا مدينة تالودي وقد اختاروا رجلاً من رجال الحمر الذين يسكنون مدينة ملكال بأبقارهم ليمدوا المدينة باللبن على طول العام واسمه الرضي اختاروه ليكون مرافقاً لي في هذه الرحلة لم يمض نحو أسبوع إلا أخذنا كفايتنا من العجول بأثمان زهيدة وتركناها تحت إشراف الرضي لأننتظره بتونجة جاءت العجول ولكن بسبب عدم احتكاكها بالناس تكاد تكون غير أليفة وتتفر من أقل صوت خصوصاً الكلاب وتونجة مدينة معروفة بكثرة ناموسها فجمعنا الحطب في ساحة بقرب السوق وأوقدنا النيران ورقدت العجول حولها ولكن رغم ما أصابها من تعب من طول الطريق كانت تنفر من حركة أي كلب يمر بجانب مرقدها فعرضت على الرضي أن تكون الحراسة بالتناوب وله حق الاختيار أما أول الليل أو أواخره فاختار آخر الليل فتوليت الحراسة وإيقاد النيران حتى جاءت الساعة الواحدة فأيقظته من نومه ليتولى الحراسة فقام ولم تمض ساعة حتى نفرت كل العجول وهبت من مرقدها وجرت فقامت منزعجاً ووجدته على وشك أن يغادر من فراشه مما يدل على انه كان نائماً فجمعناها وجاءت لمرقدها ولفت نظره بأن يقوم دائماً

بالمروور من حولها وطررد الكلاب من أن تحوم حولها ورجعت إلى فراشي وحصل نفس الشيء مرة أخرى وسهرت معه بقية الليل فلما أصبح الصبح جاء حسن محمد علي فكنا ضيوفاً عليه وهو من خيرة الرجال بتونجة كريم باش الوجه مع كل من يلقاه حيانا وسأل عن كيف كانت رحلتنا فقلت أنا في انتظار فتح الخط التلفوني لاتصل بالشركة وأعطيهم الخيار إما أن يرسلوا مندوباً بدلاً عني وأتخلى أنا عن القيام بهذه الرحلة أو يستبدلوا الرضي بآخر وكان هذا الكلام على مسمع من الرضي فتناول الحديث (والله لومتني لوم شديد فأين أدارى وجهي إذا قابلت أعضاء الشركة وهم كلهم أصحابي) قلت صحبة الحضر تختلف عن صحبة الخلاء لان صحبة الخلاء محفوفة بكل أنواع الخطر فيها التعب والمشاق والتعرض للحيوانات المفترسة وفيها التعرض للصوص وتعرض أرواحنا للموت طمعاً في هذه الثروة وكلنا نعلم أن النوير لا تهمهم حكومة ولا يخافون من مفتش إذا سنحت لهم الفرصة للحصول على هذه الثروة فأبدى عذراً وطلب مني أن أسامحه وفي نحو منتصف النهار نادى عامل التلفون يطلبني لمحادثة تلفونية وكان المتكلم أحد أعضاء الشركة وأخبرني أنهم قد اتفقوا مع مفتش غرب النوير ليأخذ ما يمكن من العجول على ظهر باخرته في يوم غد وليتعاون معكم حسن(48) في استنفار العتالة والشك ليقوموا بعملية الشحن تمت الاحتياطات وجاءت الباخرة وشحنا نحواً من ثمانين عجلة وتركنا البقية تحت رعاية حسن وسارت الباخرة حتى ألقّت مراسيها في منطقة رير النوير وهي عبارة عن دكان واحد قائم علي ارض مردومه وسط توج وكان تحت إدارة كرار صابر لكنها مصيف يؤمه قبائل النوير بغرض المرعى وهم يملكون ثروة حيوانية كبيرة وبعد أن أفرغت الباخرة شحنتها من العجول واخذ المفتش بيدي وتوجه إلى حيث تواجد النوير علي اقرب مراح ووجد بها بعض المشايخ وقال لهم هذا تاجر وبيده عدداً من العجول لاستبدالها بالثيران فكل من لديه الرغبة وفي حالة التراضي بين الطرفين يتم التبادل وهذا عمل تجاري لا دخل الحكومة فيه فلا إكراه على أحد ولا جبر فليس للحكومة طرفاً فيه فرحبوا ورجعنا وأقلعت الباخرة

وبمعاونة الأخ كرار استأجرنا أحد النوير لرعاية العجول جاء المساء واتخذنا من الشاطئ مأوى لها حيث الرمية أوسع تستعمل كميناء لوقف الواحورات وما أن غابت الشمس حتى أغارت علينا جيوش البعوض وجن جنون العجول وأبت أن تهدأ لكن لحسن الحظ كانت على أرض الميناء كميات هائلة من بقو الدوم كان معداً للتصدير إلى بورتسودان لتصديره خارج السودان لعمل الزرار الذي يناسب لون الكاكي ولكن بعد نشوب الحرب العالمية الثانية أوقف هذا التصدير فوجدنا فيه خير ما يعيننا على انقضاء لساعات البعوض وأخذنا في وضعه في هيئة أكوام صغيرة حول مرقدها ونزوده كلما احترقت وبعد أن تناولنا طعام العشاء ظهرت مشكلة أخرى هي التماسيح من ناحية النهر التي تجد في هذا المكان فرصتها للنوم لأنه المرفأ الوحيد على طول هذا النهر حيث كلا الشاطئين مغطاة بقصب البردي القائم على الماء وبمجرد خروج أحدها من الماء ستجفل العجول هذا من ناحية النهر أما من ناحية البر فحدث عن أنواع الحيوانات الأخرى كالسباع والنمور والذئاب اللائي تحاول الاقتراب من المراح لتجد فريستها فتتقض عليها وأصبحت أنا بين نارين فما العمل إنها مهمة شاقة فطلبت من الأخ كرار أن يأتينا أولاً بفانوس وتربيزه ومقعدين ووضعت أحد المقعدين على شاطئ النهر وأما الثاني من جهة البر حيث تجوبه الحيوانات فاقترحت على الرضي أن يجلس بحريته تجاه التماسيح ولما معي من بندقية سأكفيه شر الحيوانات المفترسة وحشوت سلاحي وجلست أمام صندوق شاي فارغ كبير ووضعت عليه الفانوس وأخذت مقعدي فما ذاق أحداً طعاماً للنوم إلى أن أصبح الصبح وطلعت الشمس وجاء الراعي وأخذها نحو المرعى وعدنا إلى مكان الدكان وهو عبارة عن كرنق من القش ينقسم إلى قسمين واحد ليكون دكاناً أما الآخر فلسكني التاجر وهو قائم على مواسير حديدية وله فرندة من ناحيتين على أعمدة حديدية فلاحظنا اعوجاجاً فيها ونثني حتى تكاد تكون كالقوس فسألت كرار عن سبب هذا الاعوجاج فقال هو نتيجة احتكاك القرنتي الذي يقضي أكثر ليله حول هذا الدكان ونحن ننوم بداخله ونشعر بحركته يومياً وبعد أن تناولنا وجبة الإفطار

وجئت وأنا في حالة غضب وقلت للحاضرين ليس لهذه شيخ فسكتوا قليلاً وأجابني واحد منهم أنا الشيخ فأخرجت ورقة وقلم من جيبتي قلت ما اسمك قال فلان الفلاني قال وما شأني قلت ستعرف شأنك عندما تقف أمام المفتش فتدخل الوسطاء لئلا يصل الأمر إلى المفتش ولاموا الشيخ لعدم تدخله وقد حكموا عليه بخروف غرامه فتنازلت عن القضية .

رجعت ملكال ووجدت عندهم الكثير من أخبار الرحلة حيث حكاها الرضي وضمن ما قاله عني نحن كنا مغشوشين في الجلابة وكنا نعتقد إن الجلابي في الخلاء زول هوين وما كنا نعطيه اعتبار ولكن مرافقتي لعثمان نور في هذه الرحلة عرفت عنه وعنهم الكثير وأنا بي حرام مرتي إذا ولدت ولد اسميه عثمان نور .

أبقار الناصر (المجوك)

مركز الناصر يقع شرق مدينة ملكال وعلى شاطئ نهر سوبات يمتاز بسعة المساحة وله حدود مشتركة بينه وبين أثيوبيا ويملك من الثروة الحيوانية الشيء الكثير وهي تمتاز بكبر الجسم وسمنة الأبدان ولا أدري لهذا الامتياز من سبب ظاهر أو معلوم وهل هو اختلاف في السلالة أم جودة المرعي وللناصر شهره عظيمة بين أوساط تجار الماشية ومتعهدي التصدير يؤمها كثير من مندوبي الشركات لمشتري البقر وكان يغلب على لونها البياض الناصع إلا في الحالات القليلة تجد بقية الألوان وإن وجدت تكون كعدة ألوان في جسم واحد وهو محبب لدى كل القبائل فمثلاً إذا أرسل أحد التجار برقية لرصيفه في العاصمة يسأل عن أسعار البقر يأتيه الرد (المجوك بين خمسة عشر وثلاثة عشر) وكلمة مجوك وهي من ألوان البقر بلغة النوير اتخذها تجار الماشية رمزاً للثور المكتمل للياقة كالثيران وارد الناصر وجزء من هذه الأبقار يباع في الأسواق الأثيوبية بطريقة فردية ولاحتياجات شخصية ليس من بينها حب امتلاك المال لان كل سكان الأقاليم الجنوبية حبه للحيوان يفوق حبه للمال ولا يريد الفرد منهم أن يتخلى عن ماشيته إلا في حالة الزواج أو اقتناء سلاحاً نارياً يشتريه عن طريق المقايضة من أثيوبيا

حيث الحدود بينهما مفتوحة بسبب انقسام القبيلة الواحدة إلى نصفين نصفها يتبع أثيوبيا والثاني يتبع حكومة السودان لا فاصل بينهما إلا خط وهمي أو خور صغير أو شجرة كبيرة ولذلك يسهل التداخل وتبادل الزيارات ليل نهار وهذا الانقسام ينطبق على كل القبائل الواقعة على الشريط الحدودي بين الدولتين .

ولما كانت بيدي نحواً من سبعين عجلة وكلها من سلالات مجربة سهلة الانقياد وأليفة مرغوبة لدى جميع سكان الإقليم فتجولت بها على بقية القبائل وطمعت في ثيران الناصر . وبما أن لي سابق معرفة بنصف الطريق المؤدي لها حيث الحدود مشتركة بينهما وبين مركز ابونج ولم يبق أمامي إلا النصف الآخر يمكن أن أقطعه دون صعوبة لأنني أحفظ من لغة النوير ما يفي بالغرض وفاتحت الشركة الرباعية لأنها ذات الشأن فتركوا لي الخيار وزودوني بحمار قوي سريع وبعد أربعة أيام حلت ضيفاً على محمد عبد الرسول في داخل مدينة الناصر ومن تجارها المشهورين رجل إن قلت إنه كريم فلم أوفه حقه فهو أكثر من كريم له أيادي بيضاء عمت الكثير من أهل الشمال وأهل الجنوب ولا زالت أيادي ترمي بالمال هنا وهناك وكأنه لا قيمة لوجوده وقد عرفته قبل أن أراه لما بين أسرتينا من ترابط . فآكرم وفادتي وأعطاني كل وقته لنجاح مهمتي فأخذني وأشار إلى مكان فسيح شرق السوق ليكون مربطاً للعجول جاء الليل وخرجت الحيوانات المفترسة من مكانها تبقي الرزق فجاءت أول دفعة منها عبارة عن اثنين من الذئاب يتسابقان وكننت دأيم الدوران حول مرقدتها واحمل سلاحي ولدى كمية من الذخيرة مما لا وجود لها داخل السودان تصنع خصيصاً لصيد الحيوانات وغير مصرح استعمالها ولذلك لا تدخل السودان إلا عن طريق التهريب وبكميات قليلة فما أن وصلت الذئاب ووقفنا وجهاً لوجه وكان موقفهما متجاوران فرميتها بطلقة فقضت عليهما الاثنين وتجمع الناس على أثر صوت الذخيرة . طلعت الشمس وتزودت بكل المعلومات عن الطريق والسكان وقال أحد التجار لولا بعد المسافة ومشقة السفر وما يعترض طريقك من خيران ومستنقعات لأشرت عليك أن تتجه مباشرة نحو

(واروينق) وهي بالقرب من الحدود الأثيوبية حيث بها تجمعات كبيرة من قبائل النوير وهو مصيغهم المفضل وشكرته على هذا التوجيه وقلت له المثل المصري (ما فيش حلاوة من غير نار) فالتعب يهون في سبيل الغاية .

وتحرك القطيع تحت حراسة اثنين من النوير جاءوا معي من ملكال بعد أن تخلف أحدهم بسبب المرض وعززتهم بثالث ليقوم بوظيفة الخبير تركنا وراعنا فارجوك وقارجاك وقار معناها أين في لغتهم والجكنج شق والجكنج دور وشنق معناها الشرق ودور معناها الغرب أي الجكنج الشرقية والغربية والجنب وفاقوان وكلها قبائل من النوير وما أن وصلنا واروينق بعد مسيرة أربعة أيام وكانت الرحلة كما وصفها صاحبنا متعبة وشاقة بالنسبة لنا وللحيوانات . وجدتها عامرة وتنج بالناس منهم من يعمل في صيد السمك وتجففيه لزمن الخريف ومنهم من يرعى قطيعه وبقيتهم تحت قطاطي صغيرة وفي حالة عطالة تامة ولحسن الطالع وجدت المفتش قد سبقني في مروره السنوي لحل المشاكل والقضايا والنزاعات بين القبائل وتحصيل أموال الحكومة من المشايخ وكنت احمل مكتوباً من مصلحة البطري للمسئولين بصفة عامة للتعاون معي في إنجاح المهمة فتقدمت بمكتوبي له ووقع عليه بإمضائه وشرح لمشايخ النوير مهمتي وقال لهم كل من يريد الاستبدال عن طريق التراضي بينكما فليأتي بثوره وأمر أحد بوليسه ليراقب الموقف بعد أيام قليلة تم التبادل دون كبير عناء وقبل أن أبارح واروينق سمعت أحد المشايخ يقول للمفتش أنا عندي ثلاثة أولاد سيذهبون غداً إلى البر الحبشي ومعهم بعض الثيران لمشتري أسلحة نارية قالها بكل بساطة فانزعج المفتش ورد عليه إن اقتناء الأسلحة غير المرخصة من سلطات حكومة السودان ستعرض حاملها إلى العقوبة وكان رداً غير مقنع بالنسبة له وهو مصر وكثيراً ما حاول المفتش ليثنيه عن عزمه فلم يفلح وفي الصباح جاء الأخوة الثلاثة وأمامهم أربعة من الثيران وأخذوا طريقهم نحو الحبشة ولم ير المفتش بداً من التناضي .

تركت واروينق وأخذت نفس الطريق للناصر ووصلتها وفي يوم وصولي

الفصل الثالث

إنسان إلا في القليل النادر وكنا كلما اقتربنا من القمة كثرة العوائق وكنت أحاول أن أعينه على حمل الزمزية فيأبى وبعد جهد جهيد ومعاناة شديدة استطعنا أن نتغلب على الصعاب ونرقي إلى القمة ونقف على صخرة منفصلة على مساحة مترين في مترين وقفنا فوقها والسوق تحتنا ونراه كأنه رقعة ثوب أبيض وقلت لبابكر أرفع الأذان حمداً لله وشكراً لتوفيقه وفي صوت جهير نادي بالأذان والصدى يردد والجبل يكبر الصوت فسمعه الناس على مسافات بعيدة مما جعلهم يتساعلون عن مصدر هذا الصوت من أين جاء وخرجوا التجار من متاجرهم على سماع الأذان وكل من كان معهم وكانت فرحتنا عظيمة وسرورنا أعظم (وحققنا المستحيل واتينا بالمعجزة ونزلنا عن القمة وتحت ظلال تلك الأشجار الملتفة حيث الجو البارد أخذنا قسطاً من الراحة وشربنا من الماء البارد وكأنه عصير فاكهة من الجنة أو هكذا كان شعورنا بعد أن حققنا أمنية غالية وحلم يراود نفوسنا وكانت رحلة الهبوط أهون علينا من الصعود فنشوة النصر جددت من نشاطنا وهانحن نصل الأرض بسلام وكان قبل غروب الشمس بقليل وفي الغد بعد أن تسامع الأهالي بما قمنا به فكانوا يقولون إننا سنلاقي نفس المصير في الأيام القليلة القادمة فكانت تنبؤات فاشلة واعتقادات باطلة ولازلنا والحمد لله على قيد الحياة (7) .

رياضة الخيول وتعلم الفروسية

كنا نملك من الخيول الممتازة عدداً لا بأس به لكل تاجر حصاناً أو أكثر ونوليها العناية التامة ونتعهدا للتنقل بها بين القرى لقضاء أعمالنا التجارية وللزينة أيضاً ولما كانت حركة السوق التجارية لا تتعدى الساعة الثالثة مساءً حيث يخلو السوق عن رواده يخلف ذلك فراغاً عقب ذلك فكنا نمارس الرياضة على ظهورها ومنها هناك ميداناً واسعاً قد اجتمعت أشجاره وسويت أرضه ليصلح لهبوط الطائرات إذا لزم الأمر فكنا نذهب إلى هناك ومع كل فرد نحو خمسة إلى سبعة من قصب الذرة أو العدار الأخضر كرمز للحربة وينزل اثنان الساحة ويتقدم واحد مسافة خمسة أمتار والآخر خلفه ويقف ثالث كحكم للمبارزة ويعطي إشارة البدء فينطلقا

ويبدأ الفارس الخلفي برمي الفارس الأمامي بما في يده من قصب واحدة تلو الأخرى والأمامي يتفادى تلك الطعنات وعندما تتفد ما بيده من قصب يكر راجعاً ويتبعه الآخر ويرميه وذلك يتفادى ثم يدخل اثنان آخران وهكذا إلى مغيب الشمس وكانت رياضتنا المفضلة لأننا اكتسبنا منها مهارة في ركوب الخيل من حيث التحرك على ظهر جوادك تفادياً للطعنات وعلى طرق مختلفة وجاء بعد ذلك من يقول أن مفتش تالودي المستر بيل قد جاء بريضة أخرى تسمى الكاله وعلى ظهر الخيل وهي عبارة عن كوكاب حاد الرأس مركب على قناة طولها نحو مترين ويؤتي بخشبة من الزان على عرض كفة اليد يغرس طرفها في الأرض بميلان بسيط وعلى ارتفاع ثلاثون سنتيمتر وتصطف الخيول على مسافة مائة متر ويخرج من بينها واحداً ممسكاً بالكوكاب ويطلق عنان فرسه نحوها وما أن يقترب منها حتى يميل بجسمه نحو اليمين ويغرز الكوكاب في نصف الخشبة ويقتلعها من مكانها فجهزنا كل المعدات وخرجنا إلى ميدان قريب من السوق وأمرنا الذي جاء بها أن يشرح لنا البيان بالعمل وكان له فرسه فلما وصل بالقرب منها حاول أن يلتقطها ومال على جنبه فسقط على الأرض ثم أعاد الكرة ونحن ننظر إليه ثم سقط للمرة الثانية لأن جسمه كان كبيراً فقلت له مداعباً هل هذه السقطة جزء من الرياضة فضحك وقال لا بل المفروض أن تأخذها على رأس الكوكاب ثم تعود إلى مركبك فقلت له دعني أجرب فأخذتها بكل سهولة وتتابع الجماعة وكانت هي الرياضة الثانية وبعد شهور قليلة بدأنا التمرينات على لعبة البولو ولكن لم نستمر فيها مدة طويلة حتى فرقت بيننا الأيام .

تنصيب مك النوبة

بعد أن أدخلت الحكومة زراعة القطن في منطقة جبال النوبة وأقامت محالجات في جهات مختلفة ووفرت لهم البذور اللازمة أقبل الأهالي على زراعته كمحصول

نقدي سريع العائد ودخل معهم هذا الميدان كل التجار وكان اهتمامهم وإقبالهم عظيماً وتوسعوا في رقعات الأرض ووضعوا كل إمكانياتهم ووفوا أموالهم لهذا الغرض كل ذلك قبل دخول الآلات الزراعية الحديثة وهذا التوسع الزراعي له خلفيات مما يسبب قلق التاجر وهي قلة اليد العاملة نتيجة لهذا التوسع الجديد إبان الخريف فبدعوا بعمل صداقات بين أهالي القرى المجاورة للمزرعة ودخلوا في شبه أحلاف تربطهم مع شخص معين للاستعانة به إذا لزم الأمر فيختار المرء من بينهم نحو ثلاثة أو أربعة ليكونوا رؤساء شعب تدعوهم عند الحاجة وكانت طريقة ناجحة ساعدت كثيراً في إنجاح المشاريع خصوصاً في أيام جني القطن في الوقت المناسب قبل سقوطه على الأرض وفي أحد الأيام جاء أحد هؤلاء الرؤوس إلى السوق في مهمة خاصة وكان يجلس بجواري الأخ بدوي محمد علي فأكرمناه وقمنا بالواجب نحوه وتحدثنا عن مواضيع مختلفة وكانت هناك إشاعة مفادها أن المك يعاني من مرض ألم به وهو من النوبة من أهل الزائر فسألته عن حال المك فأجاب هو بخير ويتقدم نحو الشفاء وقد تعدى منطقة الخطر قلت بالمناسبة ما هي العادات والطقوس التي تعمل في حالة خلو مقعد المك بسبب الوفاة أو عزله من جانب الحكومة وهل هي وراثية فأجاب ليست وراثية إنما باختيار المناسب بعد أن يجتمع الرجال الكبار ويكونوا كمجلس شوري من خيار القبيلة ويتعرضوا للبحث عن الخلف وأسماء المرشحين أمامهم ويختاروا منها واحداً بالإجماع إن وجد وإلا بالأغلبية ويعلن عن الاسم الفائز ويذبحوا الذبائح وأكثرها من الكداريك (الحلوف البرى) الذي يربي بكثرة وله حظائر خاصة بجانب ثوراً أو ثورين ويكثر من عمل المريسة ويجتمع الأهالي في اليوم المحدد ويخصصوا جزءاً من اللحم والمريسة يقدمونها إلى الثعابين الكبيرة الحجم التي تسكن المغارة التي تقضي إلى كرسي في نهاية المغارة داخل جبل عالي وبين سلسلة جبال وعرة المسالك يجد الداخل صعوبة في تجاوزها يقدموا هذه كقربان لهذه الثعابين وهي تقبل على أكل اللحم وشرب المريسة وبعد فترة وجيزة يجيء المرشح وسط رجال في أغلب الأحيان من مجلس الشوري الذي

انعقد لاختباره ومن بينهم الكجور وأعوانه يتقدمون الوفد ويدخلوا المغارة ويواجهون الثعابين فإن أفسحت لهم الطريق وتمكنوا من الوصول إلى مكان الكرسي وجلس عليه فهي علامة الرضا بأن الآلهة قد قبلته وإن هاجت وماجت واعترضت سبيلهم تدل على أن الآلهة لم تقبله فيرجعوا لاختيار شخص آخر قلت هل هذا الكرسي من الحديد وكم عمره قال مسألة الأعمار وحسابها بالسنين فهذا ما لا نعرفه لكنه في هذا المكان منذ الأسلاف الأوائل وهو ليس من الحديد الأزرق لكنه ذا لون أصفر ونظر داخل الدكان وأخذ كفة الميزان وقال بهذا اللون قلت لبدوي ألا تري معي إن هذا الكرسي ربما يكون من الذهب الخالص وإلا لعلاه الصدا سواء كان من الحديد أو من النحاس بفضل الرطوبة وعدم تعرضه للشمس وعدم خبرة الأهالي بالقيام بمسحه بالخرق لإزالة الأتربة والأوساخ والندى بحكم وجوده في هذه المغارة قال ربما يكون ذلك فالغريب في هذا الأمر من أين جاءوا بهذا الكرسي سواء من الحديد أو النحاس ومن صنعه وهم قوم لازالت بدايتهم ظاهرة يعيشون عيشة القرون الوسطى .

ثورة المك كوبونقو

لغرفا قبيلة من النوبة قليلة العدد هادئة الطبع يميلون إلى العزلة يسكنون رؤوس الجبال وخلف منطقة السوق وكان على رأسهم المك (كوبونقو) لا ينزلون إلى الأرض إلا نادراً حيث مزارعهم ومواشيهم من غنم وبقر وكدرائك تعيش معهم على رؤوس هذه الجبال ولديها ما يكفيها ويسد حاجتها من مرعي وموارد الماء من طبعهم الهدوء لا يميلون إلى العنف وهم شعب يعيش على الطبيعة النساء منهم لا ترتدي الثياب بل تكفي بستر عورتها بربط مجموعة من أوراق الأشجار من الأمام ومن الخلف وتنزل بها إلى السوق من غير مبالاة ولا حرج وهذا منظر طبيعي نراه في كثير من مناطق جبال النوبة والبعيدة عن الأسواق أو مركز الإدارة (8) .

وهذه القبيلة رغم أقلية أفرادها لا يملكون أسلحة نارية ذات مفعول بل بأيديهم قليل من الأسلحة القديمة يرجع تاريخها إلى العهد التركي وهم لازال يحتفظون بها

ويستعملونها على قدمها وخلو أيديهم من ذخيرتها الأصلية والتي أصبحت لا وجود لها وكل ما بأيديهم من هذه الذخيرة من صنع محلي لا يصل إلى درجة الجودة رغم ذلك فقد أمتنع المك كوبونقو عن دفع الجزية المقدرة عليه وقد أرسل إليه الناظر الذي كان على رأس الإدارة في مركز الليري أرسل إليه ليمثل أمامه فرفض الحضور وصعد إليه الناظر وزاره في بيته ونصحه وبين له خطورة ما هو مقدم عليه من تعرض أفراد قبيلته إلى الموت دون جدوى لأنك لا تملك من السلاح ما يعادل سلاح الحكومة فإن أنت جمعت جميع أفراد القبيلة من رجال ونساء فلن تستطيع الصمود أمام قوة الحكومة أكثر من خمسة دقائق فتدور بك أنت وأهلك الدائرة وتكون قد جنيت على نفسك وعلى هؤلاء الصغار الذين سيلاقون مهانة اليتيم وذل الترميل من النساء فلم يستمع لنصح الناظر ولم يستجيب لتوسلاته وأصر على عناده فتركه الناظر ونزل إلى الأرض ولم يجد بداً من إبلاغ الأمر إلى مفتش تالودي الذي تقع الليري تحت إدارته وأخذت الحكومة في إعداد فرقة من الجيش لتأديبه وإخضاعه . مرت فترة تقدر بشهرين تقريباً والجو هادئ لا أخبار ولا شائعات حيث لجأت الحكومة للسرية في هذا الاستعداد وقمنا ذات صباح لنجد أفراد الجيش بكامل عدتهم الحربية ينتشرون حول الجبل وأعمدة التلفون وأسلأكه معلقة وعلى جميع نواحي الجبل شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً وجعلوا لها نقاط قيادة أما الرئاسة فكانت تحتل المركز أما المك وجيشه فقد اعتصم بالمغارات والكهوف وخلف الحجارة وبدأت المناوشات بين الجانبين كان من بين قواد جيش كوبونقو شاب شجاع يعتبر كقائد الفرقة وتجده دائماً في الطليعة وعندما يضرب ضربته يعتز بقوله وبصوت مسموع من جيش الحكومة يعتز بقوله (أنا الأمين شيدا لعيب عاشه نيله) وعاشه نيله هذه التي يعتز بها ما هي إلا امرأة مغنية (حكاه) مشهورة بين قبائل الليري الأخرى فلما تنأهى إلى سمع القائد هذا الاعتزاز باسم امرأة معينة أرسل في طلبها ولما حضرت أمامه سألها هل تعرفين الأمين شيدا فقالت لا فظننها أنها تتستر عليه فقال لها هو يعرفك وله علاقة بك فكيف لا تعرفينه قال كل فرد في

هذا المركز يعرفني لأنني حكامه وأغني في كل المناسبات دون شك هم يعرفوني وليس بالضرورة أن أعرفهم كلهم فأمر بوضعها تحت الحراسة المشددة ظناً منه بأن الأمن شديداً لو سمع باعتقالها فتتحرك غريزة الرجولة فيه وتأخذه الحمية فيجيء مستسلماً لفديتها ولكن هيهات وأخذت الطائرات ترمي قنابلها جزافاً دون هدف لأن النوبة داخل الكهوف ولا يظهر منهم أحد في النهار أو يكون الغرض من رمي القنابل التهديد وإظهار قوة الحكومة وإرهاب المواطنين وأخذ الجيش في حصارهم للجبل وقد أمتد لأكثر من شهر ولم يجد المحاربين بداً من الاستسلام لنفاد ذخيرتهم وخرجوا من بين الصخور مستسلمين وحاصرهم الجيش واعتقل المك والأمن شديداً ورؤساء المقاتلين وواجهوا مصيرهم بشجاعة فائقة وتم إعدام المك وبعض القادة من محاربيه وسجن الآخرين وقد قتل من أفراد جيش الحكومة عدداً قليلاً وكانوا جميعهم من الجنود السودانيين .

وما دمت قد تطرقت إلى ذكر المغنية عاشة نيله لابد أن اذكر واقعة مشهورة بينها وبين عمر النسو وكان فارساً شجاعاً له موافقه وقد وصل في آخر عمره إلى درجة عمده فرأت أن تهجوه لجفوة اعترت العلاقات بينهما فخرجت للساحة ووضعت أمامها الدلوكة وتجمع حولها كل أهل القرية من شيب وشباب ونساء ورجال وكان هو ممن حضروا وبدأت في هجوه تتهمة بالخوف ولما سمع منها ذلك دخل ووقف أمامها وهو يحمل في يده رمحاً والشباب يرقص والبقية تستمع فوضع يده على رأسها هي من عاداتهم عندما يضع المرء يده على رأس الحكامه يجب أن تكف عن الغناء وتقف ضربات الدفوف كما يقف الرقص لأن لهذا الشخص ما يقوله يجب الإصغاء إليه فسكنت كل هذه الحركة وكأن الطير على رؤوسهم فشق هذا السكون صوت عمر ليقول بعد أن هز قناة رمحه حتى كادت القناة أن تتكسر من شدة قوته أن قولك هذا لا يضيرني ولا يجد ما يصدقه لأن موافقي مشهودة وأعمالي منذ قمت شاباً لا ينكرها أحد وإن كنت تصفينني بالجبن فهذا محض هراء وإدعاء لا يجد سنداً ومن بعض موافقي أحلف عليه (بي حرام مرتي في الزمن الفلاني

وبالقرب من جبل مانجيره وكان معي مانجيره الذي سمي هذا الجبل باسمه من ذلك الحين كنا ومانجيره هذا نركب فرسين بقصد السلب وعلى مقربة من هذا الجبل ظهر أمامنا رجلين من أهل أبوك وقبضت عليه وأسرتة ما بين السماء والأرض عندما فروا من أمامنا هاربين فتبع كل منا واحداً أما مانجيره فقد قبض على طريدته أثناء محاولته لصعود الجبل ليعيق سير الفرس فوكزه بمؤخرة الرمح فسقط على الأرض وترجل عن فرسه ليقيد يديه أما صاحبي فعندما شعر بأنه لا يسبق الفرس جرياً فعمد إلى شجرة عالية وتسلقها وترجلت عن فرسي وربطه على شجرة قريبة وأخذت حبلتي وتسقلت الشجرة خلفه فاستسلم ومد يديه فربطتها مغلولة إلى عنقه وتركت الأخرى ليستعين بها على النزول من أعلا الشجرة وبعد نزوله ربطته من عنقه بحبل وجئت به عبداً إلى أن دفعوا أهله الفدية فأطلقته من رق العبودية فتحدث الناس كثيراً في أمر هذا الحلف حتى وصلوا إلى أهل الزوجة المحلوف بها وجاءوا ليستفسروا خوف العار الذي يلاحقهم بحجة معاشرته لها كزوجة وهي طالق عنه ولما شرح لهم هذا الموقف من جديد وأقنعهم بأنه لم يقبض عليه على الأرض بل فوق رأس الشجرة وما دام ذلك فهو ما بين السماء والأرض.

العيد بكادوقلى

أظننا عيد الأضحى المبارك في عام جادت فيه سماؤه بمائها ولم تبخل أرضه وآتت أكلها ضعفين فاعشوشبت الأرض فانتسع الزرع ودر الضرع وأصبحت نعمه تعالى على خلقه ظاهرة فالبسمة لا تفارق الوجوه وأصاب الناس شيء من اليسر فاقتني الكثير منهم مطايا فرساً كان أم حماراً وأصبحت الاستعدادات لملاقاة هذا العيد ظاهرة تستلقت النظر فأشرقت شمس ذلك اليوم وجاء الناس زرافات ووحدانا ليؤدوا صلاة العيد في الميدان المعد لها بالقرب من منطقة السوق وبعد الانتهاء من مراسيم الصلاة وتبادلوا تهاني العيد رجع كل منهم من حيث أتى وانقضت سحابة ذلك اليوم والتجار في محيطهم الضيق فأخذهم الملل فالسوق مقفل الأبواب وساحته خاليه من الرواد وضربات النقارة التي تحملها النسمات الباردة من القرى المجاورة

احتفالاً بهذا العيد حتى الهزيع الأخير من الليل وفي صبيحة اليوم الثاني فإذا بالنسيم يحمل صوت عربة قادمة يختفي تارة وتظهر أخرى حتى دخلت ميدان السوق وتبين لنا أنها تحمل بعض تجار ملكال وموظفيها وكلهم من الشباب حملهم طموحهم لانتهاز فرصة عطلة العيد واستغلالها لزيارة هذه المنطقة فبعد الترحاب الحار وكانت عقارب الساعة قد تجاوزت العاشرة بقليل وكان من بينهم عبد الله محمد على ومحمود حاج المهدي ومحمد محمد صالح من التجار وشبابها الطموحين أما من طبقة الموظفين محي الدين أبو سمرة وبشير علي الشايقي وإدريس علي هؤلاء ما وعنتهم الذاكرة ولما شعروا بأن حركة إخوانهم في الليري أوحث إليهم أنهم سيقومون بعمل شيء يكرموا بها وفادتهم من ذبائح وخلافها أعلنوا استعجالهم حيث وجهتهم مركز كادوقلي حيث تقام الجمعية العمومية ويؤمها أكثر سكان جبال النوبة من مكوك وعمد وأعيانهم البارزين حيث تقام هذه الجمعيات سنوياً كل عام في مركز ونحز الآن على عجلة من أمرنا ونعدكم زيارة أخرى في أقرب فرصة ممكنة ونحن نرحب بكل من يريد مرافقتنا فكننت أنا وبدوي واحمد حاج عثمان أول من لبوا الدعوة وأخذت العربة طريقها نحو تالودي وما أن دخلنا المدينة حتى التقينا بذلك الرجل الكريم وهو شاب في مقتبل العمر يفيض حيوية ونشاط حسن الأخلاق كريم السجايا وهو محمد احمد المقبول(9) كان أبوه سر تجار تالودي هو وأخوه الحسن كانا من الرجال الأفذاذ في كل أوجه الحياة دارهم قبلة ومنازلهم مفتوحة ليل نهار فلا غرو ولا غرابة أن يكون محمد احمد هذا شبل من تلك الأسود ورث عنهم هذه المكانة المرموقة بين تجار وأعيان تالودي قابلنا وأخذ بأيدينا نحو داره العامرة ومدت الموائد وتوافد علينا كل من سمع وأصبنا من مائدته العامرة فاستأذن الوفد لضيق الوقت ورافقنا منهم الحاج شمه فأخذت العربة تنهب الأرض وتسابق الريح في طريق جميل حتى ألقينا عصا التيسار في موقف كادوقلي بعد صلاة المغرب مباشرة واتفق الجمع على ألا يظهروا أنفسهم للتجار هناك خوفاً من إزعاجهم والليل قد أرخي سدوله بل يقضوا ليلتهم في الموقف العمومي فالتزم كل منا بهذا العهد

وفرشنا الأبسطه على الأرض وأخذ كل منا مكانه وكنا أربعة على بساط واحد أنا وبدوي والحاج شمه واحمد حاج عثمان فإذا بشاب معروف لدينا اسمه حسن شايب وهو من سكان المنطقة وكان من أسرة مشهورة بكرمها وشجاعتها فلما لفت نظره هذا الجمع الكبير وفي يد كل منهم سلاحه الخاص ونوع الفرش الذي يجلسون عليها تقدم نحونا وحيانا فرددنا عليه وأخذ يحاورنا من أنتم ومن أين جئتم ونحن كانت إجابتنا مقتضبة وتكرنا عليه ولا نريد عن الكشف عن شخصياتنا ولا هويتنا تحاشياً لإزعاجهم فالح علينا وأصر أن يعرف من نحن فقلت لبدوي هيا بنا نعانقه دفعة واحدة ونناديه باسمه فقمنا نحوه وكل منا أمسك بعنقه وقلنا حسن شايب كيف حالك والأهل فأخذه الاستغراب وأصبح يتلفت في حيرة ويقول الله الله واخيراً أقنعناه على تركنا الآن ويأتينا في الصباح الباكر ذهب وعاد ومعه عمه مالك شايب وأصر على أن نرافقه إلى منزله وبعد أخذ ورد اتفقنا أن يذهبوا معه بعضاً منا حيث الذين أثرت عليهم طوال الرحلة فمنهم من أصيب بحمي ومنهم من أصيب بصداع وكانوا سبعة فذهبوا. وبعد صلاة الفجر جاء التاجر المعروف أبو حسين وتصادف مجيئه مع مالك سوياً وكل منهم يريد استضافتنا في منزله وأخيراً استقر الرأي كحل وسط أن ننقسم الى فرقتين كل فرقة تمشي مع واحد منهم فقبلوا على مضض فذبحوا الذبائح وتقاطروا علينا بقية تجار البلد بغرض التحية وهم مشكورون قد قدموا لنا الكثير من المجاملة كضيوف بعد أن تناولنا وجبة الإفطار تجمعنا ثانية لنقوم بجولة حول المدينة لمشاهدة معالمها حتى قادتنا أقدامنا إلى دار المك محمد رحال فقابلنا بكل ترحاب وبشاشة وقادنا نحو صالونه المعد خصيصاً من الطوب الأحمر مساحته سبعة أمتار في خمسة تقريباً يتوسطه طاولة واحدة على طول الصالون وحولها كراسي الخيزران متراصة وفي الخلف مقاعد جلوس بمراتب قطن على طول البناية وعرضها إلا مدخل البابين أما محتويات هذه الطاولة كل ما لذ وطاب من أنواع الحلويات وأنواع الكعك ومن التين والزيتون والزبيب كل هذه الطاولة ملئ بحيث لا تجد موضع لصحن آخر هذا الرجل ورث

هذه المكانة عن أبيه ، كريم منتهى الكرم باش الوجه كريم السجايا والخصال يظهر لك من عمله حيث يقدم لك كل شيء بيده ويقف على رجليه ليقدم عصير الفواكه بنفسه مع وجود من يقوم بهذه العملية من بين الأهالي ولكن شعوره الرقيقة أبت عليه ذلك وهو ميسور الحال مما يدل على ذلك سيفه المعلق على الحائط وله مقبض من الذهب الخالص وله من الأسلحة النارية العدد ملكه الخاص غير الأسلحة التقليدية التي يحملها حرسه الخاص وخفراه لم نمكث معه طويلاً لعلنا أن وقته لا يسمح له بأكثر من ذلك لأن مسؤوليته كبيرة وبعد قليل سيحضر السادة الإنجليز ولا بد من عمل اللازم فخرجنا منه وكل منا يمدح خصلة من خصال هذا الرجل وأخذنا نطوف حول المدينة ونزور حدائقها الغناء المملوكة للتجار وهي يانعة مخضرة لوفرة المياه الجوفية وعلى أعماق لا تزيد عن الثلاثة أو أربعة أمتار وما آن للنهار أن ينتصف حتى بدأت الوفود تتقاطر من كل فج عميق وكل قبيلة من النوبة تسير خلف المك وترفع علماً وتتصايح وكانت الاستعدادات قد اكتملت لكل ضيف طارق وعلى اختلاف جنسياتهم وذبحت الثيران وقد قابلنا حوض من الأسمنت في مساحة ثلاثة من الأمتار على عمق مترين ملئ بالمريسة وعلى جوانبه أربعة من الحراس في يد كل منهم دلو مربوط بحبل ليغرف به على الصفائح ليحملوها حيث تجلس القبائل تحت ظلال الأشجار ونيران الشواء موقدة وحولها من يشرب ومن اللحم يأكل والكل يرسل في طلب المزيد من الشراب وقد خصص لهذا الحفل ميداناً سعة أربعة كيلومترات في أربعة كيلومترات وخطط بالجير الأبيض على أربعة أقسام ولما حانت الساعة الثانية بعد الظهر جاء الإداريون الإنجليز ومع كل منهم حشمه وخدمه وكبار المكوك ونصبت لهم رواكيب من القش على الجهة الشمالية من الميدان وصفت على أنواع المقاعد للموظفين والتجار وكل وافد وقد كان عدد العرب الرحل الذين اضطرتهم ظروف المرعي عدداً كبيراً وكلهم على ظهور الجياد ولهم موقعهم الخاص من الميدان ولقبائل النوبة موقعهم الخاص خوفاً من وقوع احتكاكات بين العرب وقبائل النوبة الأخرى انتظم

الحفل وكل الناس أخذوا مواقعهم وقف البوليس منهم من هو راجل وهم شاكى السلاح ومنهم من على ظهر جواده يحمل بندقيته بغرض حفظ النظام وغير مسموح لأي شخص أن يتخطى الخط الأبيض الذي يقطع الميدان على أربعة سواء كان راجلاً أم على ظهر فرس بل يقف عند الخط ثم يرجع إلى مكانه وكان البرنامج حافلاً ففيه سباق الخيل وسباق المسافات وسباق الحمير بنوعيه النوع الأول تتركب ركوبك العادي أي وجهك للأمام أما الآخر فتولي وجهك ذنب الحمار وسباق النساء يحملن جرار الماء وهي ملئ ومعرض زراعي وحيواني أما حلقات الرقص لكل قبيلة على حده ولا تسأل عن الثياب الزاهية والحلي من الفضة وأنواع الخرز والنساء في أغلي ثيابهن وحليهن وزينتهن ولحقات المصارعة أهمية خاصة وإن أنسي لا أنسي منظر بطلين في المصارعة وهما يجولان ويصولان في الحلبة وكل منهما يتحين الفرصة للانقضاض على خصمه ويقفان بالقرب من بعضهما وجهاً لوجه يمد كل منهما يده نحو الآخر ليقبض عليها والآخر يتربص بخصمه وكانا بطلان بمعنى الكلمة كبار الجسم قويا العضلات يربطون عدداً من الأجراس النحاسية الصغيرة على بطونهم تحدث رنيناً أثناء حركته وإذا ما أهتز جسمه وهما يصولان ويجولان في استعراضات رياضية عندما يصل إلى قرب مقاعد الإنجليز ينفض جسمه نفضة قوية تهتز معه كل أعضاء جسمه فتحدث الأجراس رنيناً متواصلاً ثم يلتقي الخصمان وفي مرة سنحت لأحدهما إن أمسك بيد الآخر مسكاً قوياً فجذب يده بنفس القوة فإذا بالقشرة السوداء من جسمه ينسلخ وتصبح بيضاء ويتساقط منها الدم لكنه غير غزير فلم يهتم وبعد جولات ومصادمات حتى حانت الفرصة لأحدهم وأمسك وسط خصمه ولاحه لوح السلمه فبرك على ركبتيه فتركه ووقف رافعاً يديه إلى أعلى علامة النصر كل ذلك بعيد كل البعد عن العنف الذي تحمله شاشات التلفزيون من ضرب ورفس وحركات لا تمت إلى الإنسانية بصلة ولا إلى الرياضة فمن بين قوانين المصارعة أو العرف الجاري أن مس أي عضو من أحد المتصارعين وجه الأرض تعتبر مهزوم وهذا هو الغرض الأسمى من هذه

الرياضة لا ضرب ولا عنف وكنت والأخ بدوي نحمل آلة تصوير لكنها من النوع الصغير وكان أحد السادة الإنجليز يحمل آلة تصوير أكبر حجماً مما عندنا كنا ننتهز فرصة إعداد بعض المشاهد من هذا السيد المطاع كنا نسبقه ونقترب من الحشد ونأخذ الصورة قبله وكنا نقول له مع الاعتذار إن ما لدينا من آلة تصوير لا تصلح ولا تعطي مفعولها من المسافات البعيدة بخلاف ما تملك أنت فكان يضحك وكلما أعد مشهداً أمرنا بأن نلتقط نحن أولاً وكانت لدينا صوراً كثيرة لهذا المعرض وقد ضاعت بسبب الإهمال وعندما غاب قرص الشمس بدأت حلقات الرقص على ضربات النقاره وتعددت الحلقات حيث لكل قبيلة رقصتها الخاصة وضربات النقارة تختلف في ما بينها أما قبائل العرب تكاد تكون ضرباتها متقاربة ويمكن ممارسة الرقص على أي نغمة منها استمرت الحفلات على ضوء القمر الساطع حتى طلوع الفجر وكانت أيام لا تنسي ولا زالت ذكرها عالقة بالأذهان . أنفض هذا الجمع ولم يحدث ما يعكر صفو الأمن وكل قد رجع إلى أهله أما نحن كان دورنا لو انتظرنا يوماً آخر أو يومين ولكن ظروف العمل بالنسبة للموظفين اضطرتنا دون تحقق هذه الأمنية فعندنا أدرجنا وكانت رحلة لها قيمتها وكل منا لسانه يلهج بالثناء لما لقيناه من ترحيب وحسن ضيافة من إخواننا التجار ومن المك محمد رجال رحمه الله رحمة واسعة .

منظمات تطوعية

ظهرت حركة بين قبائل العرب في منطقتي دارفور وكردفان منطمتان أحدهما تسمى البرامكة الذين هم وزراء الدولة العباسية واشتهروا بالكرم حتى صاروا مضرب المثل أما الأخرى فهي (الترك) وهي منظمات خيرية تطوعية

يحكمها قانون وتنقيد بدستور غير انه غير مكتوب تناقلت الفكرة من بلد لآخر حتى وصلت منطقة الليري فاقبلوا عليها وانتموا إليها شباب وشيب نساء ورجال لم تشذ عنها قرية واحدة من قري الليري فتجد في القرية فئة تمثل البرامكة والفئة الأخرى الترك ، فللبرامكة رئيس وقاضي وملاحظين وبيت مال تحت إشراف شخص معين وعلى رأس الترك الملك وأعوانه ومستشاريه وعسكره وأميناً للمال وهذه المنظمات ليست وفقاً على الرجال بل تعدتهم حتى شملت طبقة النساء غير أنه لا يجمع بينهم مجلساً واحداً بل لكل جنس اجتماعاته الخاصة وإداراته الخاصة منفصلة انفصالياً تاماً عن منظمة الرجال وأول ما تهدف إليه هذه المنظمات بث روح التعاون فيما بينهم ومساعدة الضعيف ومد يد العون في حالة المأتم وعلى قدر ما تسمح به حالة المنظمة وقدرتها المالية وبقي علينا أن نعرف من أين تمول هذه المنظمات فهي تعتمد اعتماداً كلياً من ناحية التمويل على التبرعات ثم من الغرامات المحصلة من الأعضاء نتيجة مخالفات يرتكبها بعض الأعضاء فمثلاً جاء العضو يرتدي ثياباً غير نظيفة وجاء حاسر الرأس أو أمسك بكوب الشاي ووضعته على الأرض قبل أن يأخذ منه رشفة وعلى الملاحظ مراعاة ذلك وهو يبلغ عنه إلى القاضي أما المنوط بعمل الشاي يجب عليه أن يراعي كمية أوراق الشاي وأن يكون جيد النوع وان طعم الشاي أظهر من طعم السكر وقوانين كثيرة تقيد العضو فهذا عمل إنساني لاشك فوجد تجاوباً كبيراً من طبقة التجار مما شجع الأهالي إلى الانتماء لأحد المنظمين وكان من واجبنا تشجيعهم على هذا العمل التعاوني لرفعة البلد وتحسين دخل الفرد فكنا نقدم لهم التبرعات ونشاركهم في اجتماعاتهم كلما سنحت الفرصة وكان لطبقة التجار في حالة حضور الجلسات لهم مقاعد خاصة ويشاركون في المداولات والأحاديث وإبداء الرأي غير أنهم مقيدون بمراعاة النظام واحترام الدستور فتقع عليه الغرامة كأى فرد إذا حصلت منه مخالفة ففي حالة انعقاد الجلسة يجلس كل الأعضاء على الالبسطة إلا الرئيس والقاضي لهم كراسي خاصة وأمام كل منهما تربييزة صغيرة أما نوع المساعدة التي تقدمها المنظمة للفرد في أيام

الخريف تتمثل في تقديم يد العون أيام إزالة الحشائش فلكل عضو له حق أن يتقدم إلى الرئيس بأن يخصصوا له ضحي يوم من الأيام فيذهب جميعهم إلى مزرعته وعند منتصف النهار يذهب كل فرد إلى منزله دون أن يكلفوه أكل ولا شرب خلافاً لعادة النفير المعمول في السابق حيث يقدم لهم الأكل والشرب من مريسة أو خلافاً هذا مما يفرضه القانون بالنسبة للأهالي فماذا كفل هذا القانون بالنسبة للتاجر فيما أن للتاجر مزارعهم الخاصة وبمساحات واسعة وقد تكون بعيدة بعض الشيء عن القرية واغلبها مزارع قطنية وتحتاج إلى مسيرة ساعة أو ساعات ففي هذه الحالة ينتدبوا من بين الجمعية لمساعدة التاجر ويدفع لكل منهم حقه كعامل نقداً وقد يستمروا معه أكثر من أسبوع كل على حسب حاجته للمال أما إن كان له مزرعة قريبة من القرية فله حق الأخوة كسائر الأعضاء.

وفي مرة كانت منظمة من هاتين المنظميتين غير راضية عن رئيسها وأرادت تنحيه عن كرسي الرئاسة ولكن كيف السبيل إلى ذلك وهو لم يرتكب جرماً يوجب ذلك إذن لابد من غطة أو سوء تصرف يقع منه فلجئوا للحيلة والكيد فانتهزوا فرصة الميزة الممنوحة له باستعمال كوب الشاي من الصيني الموضوع على صحن فملئوا الكوب شايا وغطوه بالصحن وقلبوه فالكوب مملوء من الشاي غير أنه مقلوب رأساً على عقب وقدموه له وبما أن القانون ينص على ألا يضعه على البساط أو على التريزة إلا إذا أخذ منه رشفة وكيف ذلك والكوب مقلوب واحتار في أمره والجماعة تنظر إليه فأمسك بمقبض الكوب ورفعها بسرعة فإذا بالشاي ينصب على ملابسه فضج الجالسون بالضحك فتقدم القاضي واتهمه بسوء التصرف وجهله بمجريات الأمور وأعلن القاضي بأن عمله هذا يعد جريمة وعليه أن يتنحى عن كرسي الرئاسة فأمن الجالسون وقام المخلوع وجلس على البساط كعضو وعينوا خلفاً له .

هذه الجمعيات كانت نواة صالحة لنشر التعاون بين الأفراد والجماعات لولا الظروف الأمنية التي وأدت تلك المنظمات وهي لازالت في مهدها لكان لها اليوم

شأن عظيم في رفعة مستوى المنطقة وتحسين دخل الفرد كانت قبل ذلك عادة سائدة بين الأهالي وتحث الفرد على العمل منها إذا وقعت مشادة بين رجلين وكثيراً ما تحدث في محلات شرب المريسة أو في غيرها فكل منهما يفتخر على الآخر بأنه أشجع منه حيث حصل منه كذا وكذا ويعدد موافقه ثم يفتخر عليه في مجال الزراعة أن ما عنده من مخزون من الذرة كذا ومن السمسم وهكذا إلى أن يأتي بكل ما عنده والناس سكوت وعندما يأتي دور الخصم الثاني وينتهي من تعداد ما يملك على المجلس في هذه الحالة تعيين لجنة من ثلاثة أو أربعة أشخاص ممن مشهود لهم بالاستقامة أو الحياد التام ليقوموا بجرد المخازن وعند ظهور النتيجة فعلي المقلوب أن يفي بما وعد بأن يذبح ويولم ويدعو الناس للأكل والشرب هذه الأخرى روح تشجيعية لا بأس بها تخلق بين الأفراد روح التنافس والعمل الدؤوب خشية أن ينهزم يوماً من الأيام إذا ما تحداه آخر .

بدأت هذه الجمعيات بداية حسنة وإمتدت فروعها خارج قري العرب بين أوساط النوبة عندما تقدمت ملكة دلاس جمعية نسائية تدعو ملك جمعية الترك في قرية الغبابيش أن يكونوا ضيوفاً على الجمعية لمدة ثلاثة أيام فوافق على طلبها وتحرك الجميع نحو دلاس وهي على الطريق الرئيسي بين الليري وتونجة فلما وصل الوفد إلى مشارف القرية وجدوا الطريق مفروشاً بالسباتات الزاهية الألوان ليمشي عليها إلى دار الضيافة المعد خصيصاً للملك وما حوله للحاشية وذبحت الخراف والثيران ومدت الموائد ومشروب الشاي أما الملك فمائدته من لحم الحمام والدجاج واستمر ذلك لمدة ثلاثة أيام بعد ذلك بدأت رحلة الرجوع بعد أن شكروا الملكة وشعبها على ما لقوه من حفاوة وكرم .

غابة العرب وكيد المستعمر

بين منطقتي بحر الغزال وجبال النوبة طريق بري يربط بينهما يبدأ من

الليري ماراً بكرندي متجهاً نحو الجنوب الغربي حتى الأبيض وبعض قري (بيل كوي) وهو الجزء المتاخم لمنطقة بحر الغزال ويسير حتى يصل لمركز غابة العرب التي كانت مركز تجمع بين العرب والدينكا وبعض قبائل النوير حيث يفدون إليها العرب الرحل بكل ثرواتهم الحيوانية منذ بداية فصل الشتاء حتى نزول الأمطار في أول الخريف بغرض المرعي لأنها منطقة وسط من ناحية المناخ والطقس بحكم موقعها بين رمال جبال النوبة والأراضي الطينية من بحر الغزال ونسبة الأمطار فيها في حدود المتوسط وكان العرب الرحل يجدون راحتهم التامة واستقرارهم الكامل في هذه المنطقة زد على ذلك بيع منتجاتهم من سمن وعسل ومواشي في سوق غابة العرب وكان اختلاطهم بقبائل الدينكا والنوير في هذا السوق لا يسبب إزعاجاً لأحد وكانوا يتعايشون تعايشاً سلمياً بكل ما فيها من معني أو مدلول وكان سوق غابة العرب تصدر الكثير من السمن والجلود والعسل والمواشي بإعدادها الهائلة ومعروفة بجودة الصنف تصدر كل ذلك إلى داخل السودان علاوة على بقية المحاصيل الأخرى وقد كان لمنطقة أعالي النيل الكأس المعلي والحظ الوافر من كل هذه السلع ولما رأى المستعمر هذا التقارب وهذا التآخي بين الدينكا والنوير من جهة والعرب من الجهة الأخرى أزعجه ذلك وبحث عن شيء يوقع الفرقة بينهم وأستبعد فكرة العنف لعلمه إذا وقع أي تصادم مسلح ستدور الدائرة على الدينكا والنوير لما للعرب من معدات الحرب من خيول ودروع وأسلحة نارية بما لا قبل لهم بها وسيعرض أموالهم ونساءهم للسبي وكذلك استبعدوا فكرة العنف ولجئوا للحيلة ونقلوا مركز غابة العرب وقسموه إلى مركزين أبوي من ناحية الدينكا وبانتسيو من ناحية النوير ومسحت غابة العرب من خريطة السودان أما العرب فلم تتوقف مسيرتهم السنوية لكن قل اختلاطهم مع بقية القبائل الأخرى لبعد المسافة إلا في فترات متباعدة حيث يجمعهم أحد السوقين .

في شهري مايو ويونيو من كل عام تعتبر فترة ركود تجاري لاشتغال الأهالي بتنظيف مزارعهم واستصلاح أراضيهم استعداداً للموسم الجديد مع شعورهم بقلّة المخزون لديهم من محاصيل بعد أن بيع منها ما بيع أما ما تبقى منها لا يتعدى الضروريات وكذلك يبعدوا حالة التصرف فيها وبسبب ذلك يصيب حركة السوق ببعض الشلل فانتهزت فرصة هذا الكساد وفكرت في رحلة إلى منطقة الفيوض وكثيراً ما كنت أسمع عنها هي عبارة عن مستنقعات متجاورة تقع جنوب شرق الليري وشمال غرب ملكال هذه المنطقة مراعيها غنية ومياها متوفرة وتسكن غاباتها جميع أنواع الصيد إلا الفيل أو وحيد القرن ويؤمها كل قبائل العرب بمواشيهم وخيولهم ليقضوا فصل الصيف على ضفافها فهي كسفاهة⁽¹⁰⁾ بالنسبة لعرب الرزيقات والمسيرية كما يكثر في غاباتها الزراف والعرب بطبعهم ميالون لتربية الخيل وتدريبها لصيد الزراف من أجل تجفيف لحمه وبيعه في الأسواق ولسبب⁽¹¹⁾ تجارة رابحة تستعمل كزينة بين قبائل الشلك والدينكا والنوير فكل ما كان اقتناء الفتى لكمية منه كان حظه بين الفتيات أكبر فهو منظوم حول عنقه للزينة يتوسطه نوع من الخرز خاص كبير الحجم بيضاوي الشكل أبيض اللون وكل ذلك علامة أنه ميسور الحال فعزمت أن أزور هذه المنطقة على أن أصيب شيئاً من هذا السبب كان لي صديق من مشايخ الحكومة وآخر من تجار المنطقة ولما علموا بما عزمتم عليه أصروا على مرافقتي على أن أحمل معي جوالين من السكر وصندوقين من الشاي وبدأت الرحلة وأنا امتطي فرساً وهما على حمارين وكان الطريق ظاهراً ولا يحتاج إلى خبير لأنه يمر على قري مأهولة تخطينا جبل تكيم آخر حدود مركز الليري ودخلنا في منطقة الكواهلة⁽¹²⁾ وأول ما طالعنا جبل مرنج بعده جبل ويرنه يسكن حواليهما خليط من النوبة وعرب الكواهلة أقمنا بورنه يوماً واحداً كضيوف عند التاجر المقيم هناك وببزوغ شمس الغد سلطنا طريقاً سهلاً منبسّطاً تنبت أنواع مختلفة من الأشجار على أرض رملية ونحن نقترّب من أول مستنقع يسمى دحيل السندالي وكلمة دحيل بالتصغير معناها في لهجة قبائل الكواهلة معناها المستنقع أما السندالي نسبة للسندان وهي من آلات الحداد الذي يضع عليها

الحديد المحمي ليضرب عليه بالمطرقة فالمطرقة والسندان هما كل ما يحتاج إليه الحداد في صنعته وسمي هذا المستقع باسم أول حداد سكن في هذه المنطقة وبما أن حوجة الأهالي للحداد كبيرة ليقوم باستصلاح الحراب وسنها والتي يستعملها الصياد لطعن الزراف فلا بد من وجوده بينهم غير أن هذا المستقع لم نجد حوله سكاناً وعندما نحن على وشك أن نجتازه فإذا بأنثي الأسد وحولها ثلاثة أشبال على ظل شجرة بالقرب من الطريق والأشبال الثلاثة ترضع من ثديها وهم في حالة اطمئنان مررنا عليها ولم نقيم لها وزناً ولم نعرها نظرة كما بدأ لنا منها نفس الشعور وكانت المسافة بيننا نحواً من خمسين متراً وقد انتصف النهار وشعرنا بالتعب والإرهاق فنزلنا تحت ظل شجرة لناخذ قسطاً من الراحة وكنا نحمل معنا من الزاد وتناولنا وجبة الفطور وأصبنا شيئاً من الشاي حتى أدر كنا صلاة الظهر وقبل العصر شددنا الرحال وواصلنا السير فإذا بالأشجار الخضراء تلوح في الأفق البعيد ونحن نحث الركائب على السير فإذا نحن أمام بحيرة أو شبهها والأشجار الخضراء الكثيفة تحيط بها من كل جانب وبيوت من الشعر والبروش البيض على شواطئها هذه هي فتاش أكبر المستقعات ومحل تجمع كل قبائل الكواهلة وبكل ثروتهم الحيوانية وكان أحد مرافقي له صلة ومعرفة بأشخاص معينين فسأل عنهم في أول خباء مررنا به فأعطوه وصفاً كاملاً بمكانهم فسرنا على ضوء هذا الوصف وقابلنا رجلاً متوسط القامة وهو في نحو الأربعين من عمره فأنزلنا وأعد لنا منزلاً مباركاً وجاء بقوم منهم يرحب بنا ومنهم من يسأل عن هويتنا وكانت من بين الزوار فتاة في العقد الثالث من عمرها ورحبت بنا وجلست على الأرض وهي تنتظر إلينا مرة وتغض الطرف مرة أخرى فقالت لي متسائلة هل كنت تاجراً في ملكال قلت نعم قالت ألم تعرف بعضاً من الذين كانوا يبيعون اللبن من عرب الكواهلة أو الحوازمة قلت أعرف منهم الكثير حتى أنت فضحكت وقالت فلم تبدي شعور هذه المعرفة التي هي عبارة عن زبونة نشترى منها اللبن يومياً ويدخلن السوق في شكل جماعات بغرض بيع اللبن بناء على رغبة الحكومة التي صدقت

لهم بالإقامة وبعد عامين فقط استبدلتهم الحكومة بعرب الحمر ولما همت بالرجوع قالت لصاحب الدار أبا(13) فلان أنا سأتي لهؤلاء الضيوف عشاء فشكرها وبعد قليل عادت ومعها أخيها تحمل صحناً من النوع الكبير ملئ بلحم الزراف المفروم ومقلي بالسمن البقري والأخرى تحمل جرديلاً من اللبن وضعته وانصرفت مكثنا نحو عشرة أيام نتنقل بين المعسكرات حول المستنقع ونسهر معهم الليالي وهم يرقصون على دقات النقارة أو ليالي السمر الجامع بين الشباب من الجنسين وقد كانت رحلة ناجحة واشترينا عدداً من السبب وبدأت الأمطار تهطل وشعروا بأن الناموس والذباب يقلق المواشي في حظائرهم ومرعاهم فعزموا على الرحيل وفي صباح يوم باكر ضربت الطبول وهب القوم من نومهم وأخذوا في التأهب نحو الرحيل وحيء بالثيران وشدت عليها العطف منها ما هو معد لركوب الفتيات ومنها ما للرجال لحمل المتاع وبيوت الشعر أما ما هو خاص بالبنات فهو مزين وله أجراس نحاسية صغيرة الحجم تعلق على سيور متدلّية لترن أصواتها عند السير وفي نحو الثامنة صباحاً ضربت الطبول مرة أخرى بالسير فتحرّكت القوافل وأصوات الأجراس ترن في نغمات موسيقية على حسب خطوات الثور وقبل منتصف النهار بقليل ضرب الطبل وتجاوب معه آخر إيذاناً بالنزول تحت أشجار ظليلة هذا ونحن نشعر بمتعة طغت على أتعاب السفر فنزلنا ثلاثتنا تحت شجرة ظليلة في طرف القافلة وكانت إحدى الفتيات قد سبقتنا مع زوجها في النزول ولما شعرت بوجودنا أشارت إلى زوجها بأن يقدم لنا مفرشاً وكأساً ملئاً بالماء فلم يستجب لها فحملته بنفسها ووضعته بين أيدينا ورجعت لتأتيننا بطعام فنحن نرفض وهي تصر وأخيراً نزلنا إلى إرادتها وقدمت لنا الشاي بعد الطعام وهنا وقع لي أن أكافئها على مروعتها وقبل الرحيل بقليل جاءت لتأخذ أوانيها فوجدت بينها رأساً من السكر وكمية من الشاي فأصرت على عدم أخذها وحلفت عليها وأخذته تحت إصرار الجماعة وسرنا حتى مغيب الشمس وقد شارفنا وتراعت لنا ضوء نيران ويرانا حيث ديارهم فمالت بثورها نحونا وقالت أنتم ضيوف في الليلة فشكرناها واعتذرنا بأن منزلنا مع التاجر ولا يحق

لنا أن نبذله قالت لا بأس فهو زوج لأختي وسار كل منا نحو منزلته ونزلنا فجاءت المرأة لتقول للتاجر إن هؤلاء هم ضيوف في وفي الصباح سأتي لهم بالفطور ولا تعمل حساب لذلك واعتذرنا بأننا سنقوم بعد طلوع القمر مباشرة لكسب الوقت لكنها أصرت في الصباح أوفت بما وعدت فجاءت المائدة وعليها عددًا من الدجاج المحمرة والمطبوخ ومن لحم الزراف ما يكفي لعشرة أشخاص وأردفت ذلك بالشاي والقهوة بعدها شددنا الرحال وواصلنا سيرنا نحو الليري فكانت رحلة راحة وممتعة فإن جاز لي أن أبدي ملاحظات عن طبيعة الأرض وطقسها وجب لي أن أقول إن هذه المنطقة بحكم موقعها ونوع تربتها تصلح لإقامة مشاريع آلية يزرع فيها الذرة بأنواعه المختلفة والفول والسمسم وعباد الشمس وأما حول البحيرة تقوم جناين الفاكهة وتروي بطلمبات من ماء هذه البحيرة وهي لا تبعد كثيراً من ملكال ولو شق طريق من ملكال إلى هذه المنطقة بدلاً عن تونجه لوفر كثيراً من الوقت ولمد المدينة بكل ما تحتاج إليه من فاكهة أو خضر أو لبن لنمت تجارة وارتفع دخل الفرد .

حسد الإنجليز وذهب تالودي

الحسد من الخصال المذمومة تؤذي صاحبها كما تؤذي المحسود وقد تبرأت كل الأديان السماوية كما نهت عنها وصاحبها منبوذ بين الناس فلا يعاشره أحد ولا يصادقه وقد وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة التي تنهي عنه وهو رغم ذمه فهو ليس محصوراً بين ملة أو جنس بل موجود بين شعوب كل العالم وهو نتيجة لعوامل كثيرة منها الغيرة وحب الجاه والظهور من المعروف عن الشعب الإنجليزي يملك برودة الأعصاب والسيطرة عليها أكثر مما يملكه غيره من الشعوب الأخرى مما جعله يضرب به الأمثال ولكن رغم ذلك وكسراً لهذه القاعدة تجد من بينهم شواذ وخروجاً على مألوفها كان لمدينة تالودي (14) مفتشاً يسمى بنتلي وكانت عاصمة لمديرية جبال النوبة وكان مديرها نورث كوت تظهر على وجهه علامة الطيبة ويقنّب على طبعه التعقل وبعد أن استلم عمله

كمفتش رأي أن يربط منطقة السوق ومباني المديرية الأخرى بشارع يزيد قليلاً عن الأربعة كيلومترات وخطط الشارع ورصفه وردمه بالتراب وغرس على جنبه شجر التبليدي وأعطاه من العناية مما جعل الشجيرات تنمو وتزدهر واستوت على سوقها وأصبح معلماً بارزاً أطلق الشعب عليه اسم شارع بننلي دون أن يقول لهم أحد ولما علم المدير بهذه التسمية تملكه الحسد والغيرة وكان يري نفسه أحق بهذه التسمية تخليداً لذكراه فكتب عنه في تقريره السنوي أسوا تقريراً وأوصي بخروجه من السودان فوافق السكرتير الإداري وأمره بمغادرة السودان وكانت مفاجأة بالنسبة له حيث أنه قصد بعمله هذا كسب رضا مروضيه فكان جزاؤه كجزاء سنمار حيث كانت النتيجة عكسية واختار أن يعيش في جنوب أفريقيا أو روديسيا الجنوبية فكانت المفاجأة له ولأصدقائه السودانيين من موظفين وتجار حيث كان ميله شديداً نحو أحمد المقبول وأخيه حسن اللذان كانا من أكبر تجار تالودي ولهم مكانتهم الخاصة في أوساط الإنجليز من جميع الطبقات . فعل المدير فعلته هذه ليمحو أثر اسم بننلي ظناً منه بفراقه للسودان ستموت هذه الذكرى لينعم براحة الضمير ولكن قد حصل العكس فالاسم لازال باقياً وأصبح شارعاً رئيسياً وقد أنشأ بجانبه المحلج وما يتبعه من مكاتب وملحقات أخرى . طالت الأيام ونسي الناس هذه الشخصية إلا من الاسم الذي ارتبط بتاريخ تالودي في تعبيد هذا الشارع فإذا به في يوم من الأيام يزور تالودي بعد غيبة طال عهدها والتي غادرها وهو مكره ودخل السوق يسأل عن أصدقائه القدامى من التجار فوجد أكثرهم قد أختارهم الله لجواره فلم يجد إلا محمد أحمد المقبول الذي تركه وهو لا يزال صبيّاً بين والديه أحمد وعمه حسن فعرفه بنفسه وكيف كانت صلته معهما ورحب به محمد وسأله عن حاله بعد أن رحل عن السودان وهل رجوعه لملى وظيفة إدارية في جبال النوبة فنفي ذلك بحرارة وأجاب بأن طلب من حكومة السودان بأن تأذن له بزيارة قصيرة إلى تالودي لمقابلة أصدقائه القدامى من تجار أو مكوك (جمع مك) -وهي وظيفة تطلق على رئيس القبيلة - فأذنت لي لمدة محددة،وبدأ رحلاته لهذه الزيارات وبعد عودته جاء لمحمد

بعد أن لمس منه من الكرم ما عجز لسانه فأخذ منه صديقاً وجاء ليفضي له عن سر وقال في أثناء زيارتي المختلفة ومروري على جهات مختلفة من الجبال وتنقلي من وديانها وسفوحها تبين لي أنها غنية بمعدن الذهب الذي لا يحتاج إلي تنقيب ولا إلى تمويل خارجي ولذلك تقدمت بطلب لحكومة السودان لمنحى رخصة أمارس بها عملية استغلال لهذه الأرض بحثاً عن معدن الذهب أتوقع إذا ما منحت هذه الرخصة تتغير الأحوال في مدينة تالودي خاصة والمنطقة عامة وستشهد تقدماً عمرانياً بحكم مناجم غنية بالذهب هذا المعدن النفيس وها أنا في انتظار الرد ولم تمض أيام قليلة حتى جاء الرد مخيباً للآمال بأن يبارح السودان في أقرب فرصة ممكنة وجاء ليودع صديقه ويبلغه قرار الحكومة الذي حز في نفسه وما وصلت إليه حكومة السودان للوقوف ضد تقدم السودان الذي سيصبح في القريب العاجل جنوب أفريقيا أخرى من ناحية معادنه المطمورة في باطن الأرض فودع تالودي وهو يلعن الاستعمار الذي هو العدو اللدود في تقدم الشعوب .

وفي مرة جمعتنا الظروف مع محمد أحمد المقبول عليه رحمة الله وكان الحديث يدور حول ذكريات الماضي وكيف تغيرت الأوضاع ورحل الاستعمار وتسلم الحكومة أبنائه وأصبحت الفرصة سانحة أمام كل سوداني فكانت الفرصة سانحة أمامي كي أسأل الأخ محمد أحمد عما حكا له المستر بنتلي عن الذهب ووجوده بمنطقة جبال النوبة فهل حدد مكانه أو منطقته بالنسبة للجبال الكثيرة في هذه المنطقة قال إن قرار الطرد جاء مفاجأة لنا نحن الفريقين بغير ما كنا نتوقع في الوقت الذي كنت أتباحث عنه في نوع الخبرة التي أكتسبها مما أدي إليه وجود هذه المعادن فقال هو لم تكن لديه الخبرة الكافية ولكن سيستعين بخبراء أجنب متخصصون ولهم معرفة تامة بوجوده وأبعاده وكمياته وكنت المح بيعض كلمات يستدل منها على إنني أسأهم معه مالياً في كل ما يتطلب الأمر ويبدو على وجهه علامات الرضا وقبوله للمبدأ فقلت لمحمد أما ما كان من نافلة القول أن تعرف شيئاً عن أماكنه ولو بطريق غير مباشر حتى تستغل هذه المعلومات ونقدم نحن بطلبات

تتقيب قال لم يخطر ببالي بأن الحكومة ردها سيأتي سلمي وأمرها له بمبارحة السودان ولذلك ضاعت الفرصة إلا رحم الله محمد احمد المقبول .

عالم الجن

أليس من العبث أن يضع المرء نفسه موضع السخرية ويجعلها عرضة للنقد والتجريح طوع إرادته دون ما إكراه ولا ضرورة أو يقف موقفاً وهو يعلم قبل غيره بأنه الخاسر في أول جولة ولكن نزولاً تحت تأثير الرغبة الملحة التي تفرض نفسها وتعتلج في صدر الإنسان لمعرفة الغيبات التي تملأ الكون المحيط به منها ما يمس حياتنا اليومية بطريق مباشر وغير مباشر وهنا قد يقول القائل مالك وللغيبات فما بلغ علمك بالموجودات حتى تطرقت للغيبات أقول مع شيء من الاعتذار شطحة فلم أوقعتي في هذا الحظ العاثر ولا بد هنا أن ادفع عن نفسي هذه التهمة غير الكريمة وأقول لا لوم ولا حرج لجاهل يريد أن يتعلم فما دمت طالب معرفة وأجري وراء حقيقة خافية وربما خفيت على الكثيرين عليّ أجد من أولي الفضل من ينير أمامي الطريق أو يلقي الضوء على هذا الموضوع الشائك والموضوع الذي أريد الخوض فيه هو الجن أي نعم الجن الذي قال الله فيه (ما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) صدق الله العظيم . من حيث علاقته بالإنسان فمن المعروف والذي أثبتته الكتب السماوية أن الجن مخلوق قبل آدم عليه السلام بدليل قوله تعالى عندما أمر الملائكة بأن تسجد لأدم فأبى إبليس وقد نزلا سوياً إلى الأرض يشاركونا سكنى هذا الكوكب رغم الحجاب المفروض علينا والذي قضته الإرادة كما جاء في الآية الشريفة (يرونكم من حيث لا ترونهم) والجن منهم من آمن برسالة محمد ﷺ ومنهم من كفر ومما يقال أن الفكي الصالح من بني البشر يسخر الله لهم بعض الجن لخدمتهم وقضاء حوائجهم أما طبقة المتشعوزين من بني البشر فيسخر الله لهم الشياطين فيستعينون بهم في قضاء حوائجهم ومن مصادر حرام ومما يقال في هذا المجال كثير ومتنوع يقال في موقف بين رجل صالح يخاف الله ويقف عند حدوده جمعته الظروف بأحد الذين يمارسون الشعوذة ولا يتورعون عن كسب مال سواء

جاء عن حرام أو من حلال وكان في بحبوحة من العيش بخلاف الرجل الصالح الذي يدل ظاهره على أنه في حالة ضيق من العيش وفي أثناء جلوسهم رأى المتشعوذ أن يقدم لصاحبه يد المساعدة رافة به فمسح على الأرض على مرأى من الرجل وخططها في شكل مربعات ووضع بينها أرقاماً ونبش في وسطها فإذا بخاتم من الذهب من بين التراب فقدمه لصاحبه كهدية يستعين به لقضاء حوائجه ورفض الرجل رغم الإلحاح ولما لم يجد الرجل بد بإقناع المتشعوذ أمسك برأسه قائلاً أنظر ماذا ترى قال امرأتين تتشاجران قال فيما ؟ قال تتهم واحدة الأخرى بسرقة خاتمها وأمره برد الخاتم فردته وانتهت الخصومة وقال له أتق الله وأرضي بما قسمه لك الله من رزق حلال ولا تخسر آخرتك بعرض الدنيا الزائل فتاب من وقته .

خرافة هي أم حقيقة

قبل سنوات قليلة تري كثيراً من الناس يسировن نحو تالودي زرافات ووحداناً منهم من يسافر عن طريق العربات الخاصة ومنهم من يسافر عن طريق المركبات العامة طلباً للعلاج لمرضاهم الذين عجز الطب عن علاجهم ومداواتهم وقد ظهر رجل⁽¹⁵⁾ أوتي من القدرة على علاج الأمراض المستعصية وقد عمت هذه الشائعة كل أنحاء السودان وسارت الناس نحوه فمن هو هذا الرجل وما حقيقة أمره أنه رجل عادي من النوبة يسمى راجا يسكن بالقرب من مدينة تالودي من الناحية الجنوبية يمتن الزراعة ولا تبعد داره عن المدينة إلا بنحو ثلاثة كيلومترات يقال إن هذا الرجل من عامة النوبة وليس له ممارسات كجورية ولا صلة له باستعمال العروق قد ساقه القدر وهو يسير على حافة الجبل فإذا هو يجد نفسه أمام ثعباناً هائلاً مقطوع على نصفين فهاله الأمر وتملكه الرعب وفكر أن يهرب من هذا المنظر المخيف حرصاً على حياته وشمر عن ساقيه لكن الثعبان الذي به رمق من الحياة ناداه قائلاً لا تخف واسمع ما سأقول إن أنت أتيت بالنصف المنفصل وقربته مني ووضعت مكان الجرح بالقرب من مكان الجرح الآخر ستعود لي الحياة وستجد مني كل عون ويكون سبباً لثراء عظيم لك ولأولادك من بعدك فتردد الرجل قليلاً

خوفاً ان يكون قد خدعه وربما لو فعل ذلك وعادت له الحياة ربما عضه وسبب له الأذى ولا زال هو في تردده خاطبه لمرة الثانية لا تخف ولا تدع الفرصة تفوتك وسأكون بجانبك وصديقاً لك فاطمأن قليلاً وجمع شجاعته وأخذ يقرب الجزء المفصول نحو الأصل وهو يرتجف خوفاً من الثعبان الذي يتكلم وكيف يلتصق وشاء القدر أن يلتحم الجزءان ويصبح ثعباناً كما كان لا أثر لجرح وعاد سليم الجسم وتتفس الرجل الصعداء وسكن جأشه قليلاً وظل ينتظر الوفاء بالعهد وما هي نوع هذه المساعدة التي ستكون سبباً في ثراء عظيم فخاطبه قائلاً أنا في إمكاني أن أعطيك مالاً ولكن أخشى أن يزول ولو بعد حين أما أن أعطيك شيء من الحكمة لتعالج بها المرضي وسأكون بجانبك وأتعاون معك وهذا مورداً لا ينضب معينه فأبي الخيارين أحب إليك فاختر الحكمة وهو خيار موفق لأن المال لأبد أن يزول عاجلاً أم آجلاً هذه هي حقيقة هذا الرجل كما تناقلتها الأفواه ولاكتها الألسن ولا علم لنا إن كانت خرافة أم حقيقة ففي كلا الحالتين تجد كثيراً ممن ذهبوا للعلاج رجعوا كما ذهبوا ومنهم من يدعي أنه شفي من آلامه التي كان يعانيتها ومنهم من يقول أن صحته تزداد تحسناً كل يوم .

ونحن لو وقفنا أمام هذه الظاهرة وقفة فاحصة وعما تروجه الإشاعات في مثل هذه الأعمال التي تعتبر خارقة للطبيعة كما حصل لهذا الرجل مع الثعبان تجعل الإنسان في حيرة فهل هذا الثعبان من الجن وهل في مقدور الجن التحكم في إعادة الحياة لجزء منه انفصل عنه وانقطع النخاع الشوكي وانكسرت السلسلة الفقرية وإن كان يملك مثل هذه الخواص فلم عجز عن القيام بعملية التقاء الجزئين دون طلب الإعانة من قوة خارجية ولو قيل إن هذا الرجل رأي ذلك رؤية مناميه لكان الحديث مقبولاً عقلياً ويدخل في باب رزق ساقه الله إليه لينقله من حالة العسر إلى اليسر أما أن يقال بمثل ما قيلت عثر عليه وفي وضح النهار ودار بينهما الحوار مما يغلب الظن إنها رواية وتمثيلية من نسيج الخيال وذريعة اتخذها لجلب الناس إليه وإيهامهم بأنه يعمل بوحى خارجي مأموراً وإن الفكرة من نسيج الخيال أو ما شاكله يكون

هذا الرجل من العبقرية والنباهة لدرجة يعجز عن وصفها العقل .

صنع البارود

عندما دخل الجيش التركي فاتحاً للسودان كان يحمل أسلحة نارية في أشكال مختلفة رغم أنها تعتبر بدائية بالنسبة للتطور الذي حدث فيما بعد لكنها كانت كافية لإدخال الرعب في شعب أعزل يحمل السيف والحربة وتفتك به فتورده موارد الموت ، والحرب بطبيعتها يوماً لك ويوماً عليك فوق الكثير منها في أيدي السودانيين بعد المعارك الضارية التي استطاع الشعب السوداني أن ينتصر فيها وهم يستعملونها في حربهم القبيلة وما لبث إلا وقد نفذت ذخيرتها وسقط في أيديهم وأصبحت البندقية بمثابة عصا للتهديد وحمل العكاز أحسن منها حالاً وبما أن القول بأن الحاجة أم الاختراع وأخذوا يتلمسون ويجربون بعد أن استعانوا بخبراء أجانب من الأتراك حتى توصلوا إلى تصنيع البارود محلياً ومن مواد محلية وبطريقة سهلة لا تحتاج إلى كبير عناء ولا تكاليف مادية وأول خام لهذه الصناعة يأتي من حظيرة الغنم ومن تراب أرضها التي تكون قد أصابه البلل بسبب تبول الغنم تحفر أرض هذه الحظيرة على عمق خمسة سنتيمتر تقريباً ويوضع هذا التراب داخل جرار من الفخار المحروق ثم يصب عليه الماء ويحرك بعصي خشبية وبعد التمازج ورسوب التراب على القاع يصفى هذا الماء ويوضع على جرة أخرى ويوقد تحتها النار ساخنة وهي تقلي لمدة أكثر من ساعتين تجد أن الماء قد تبخر أكثره وقد خلف رواسب على شكل الشب المعروف قد تولد نتيجة الأملاح الكامنة في بول البهائم ترفع الجرار عن النار حتى يبرد ويصفى الماء وتبقي الرواسب التي هي على هيئة الشب وتنتشر على الشمس حتى تجف ويؤتي بمادة أخرى هي الكبريت الأصفر وهو في شكل حجارة صفراء تستورد من مصر وكان في تلك الأيام في متناول اليد ويسحن سحناً دقيقاً ويجيئوا بكمية من الفحم العادي ويسحقونها سحقاً ناعماً ثم تخلط الثلاثة أنواع بكميات مناسبة إلى هنا يكون قد توصلت إلى مادة البارود بحق ولكن هناك عقبات أخرى فمن أين يجدوا الظرف النحاسي فهم يحتفظون بالفارغ ليعيدوا

تعبئته مرة أخرى وبعد أن يخرجوا قطعة النحاس التي تحت الطرف الفارغ وعلى شكل دائري ويسوونها ويحشوا مكانها بكبريت خاص سريع الالتهاب ويعيدوا قطعة النحاس المنزوعة إلى مكانها ثم يحشى الظروف من هذا البارود ويوضع في رأسه قطعة من خشب الأبنوس بعد أن تسوى ليسد مكانه الرصاصه إن لم تتيسر مادة الرصاص ففي الأبنوس ما يؤدي وظيفة القصدير أو الرصاص .

ومن الأسلحة التي كانت تستعمل آنذاك نوع يسمى الشكشكو عبارة عن بندقية مقفولة من تحت ولها فوهتها من فوق لا وجود لمكان ظرف يؤدي به من الخارج فهي تحشى بالبارود من أعلاها ثم تغطي بخرقه من قماش وتضغط عليها بواسطة سيخ من الحديد لئلا ينساب البارود ويتسرب ثم يوضع من الكبريت سريع الالتهاب في مكان خاص من البندقية وعند اللزوم توضع قطع الحديد أو الرصاص بين فوهة البندقية وتوضع قطعة من القماش لنفس الغرض وتكون بذلك جاهزة للاستعمال .

ومن مخلفات تلك العصور ما يسمى أبو جقرة بنوعيه القصير والطويل ونوع ثالث يسمى المرمطون هذه الأنواع الثلاثة موجودة ومستعملة حتى جاء الحكم الثنائي ولآن.

الخيـل

عندما دخلت القبائل العربية وبدأت هجرتهم نحو السودان سواء كان عن طريق مصر أو عن طريق الدول العربية التي تقع على حوض البحر الأبيض المتوسط من الناحية الغربية للسودان وكانت هجرتهم عن أوطانهم طلباً للمرعي بعد ما أصاب الجزيرة العربية من جفاف وضيق في المعيشة وعدم الأمن بسبب الحروب وضعف الحكومات ولا شك أن السودان كان في ذلك العهد أكثر أمناً وسلاماً وأرغد عيشاً وكان قبلة فيممو شطره وهم يسوقون أنعامهم متقلين من بلد إلى بلد ولما كانت الرحلة طويلة وشاقة وتكتنفها المخاطر من قطاع طرق أو من ناحية الحيوانات المفترسة التي تعترض سبيل القوافل فلا يمكن الدفاع عنها إلا بوجود الخيل فالعربي يرى أن الحصان من مستلزمات حياته البدوية ويعتني

بتربيتها وإعدادها للطوارئ وقد يبيت ليلته على الطوى ليأكل حصانه فتربية الخيل وتحسين نسلها هو جزء من حياته وقد قيل إن هناك أحاديث كثيرة تحث على اقتنائها منها ما جاء في هذا المعنى ركوبها عز وبطونها كنز وقيل أن رسولنا الكريم قال فيها (الخير معقود بنواص الخيل) وبعد أن طاب لهؤلاء العرب المقام واستقروا في نواحي السودان المختلفة استهوتهم الغابات المليئة بالحيوانات كالأفيال والزراف وغيرها فبدأت تراودهم فكرة تربية الخيول والعناية بها وتوظيفها لصيد الزراف وبعد التجارب العديدة اهتموا إلى فكرة ترويض الخيل وهجره أي منعه من أكل العشب بعد أن يكون قد أكتنز لحمه يعد له مربطاً خاصاً لا يقدم له إلا الذرة وملح النطرون وفروع شجر الخشخاش وهو شجر مر المذاق يأكل من فروعه ولحاه وبهذه الطريقة ينقص وزنه تدريجياً وما أن يحين موعد الخروج به لمطاردة الصيد يقوموا بعمل ترويضه صباحاً ومساءً بأن يجري مسافات قصيرة تزداد قليلاً كل يوم إلى أن يصل إلى عدة كيلومترات فعندما يجتاز هذه المرحلة يكون قد اكتسب قوة الاحتمال المطلوبة دون أن يفتر أو يتعب وغالباً ما يقيسوا قوة الاحتمال هذه بنسبة احتمال الزراف الذي من طبعه الجري إلى مسافات طويلة . صيد الزراف من أجل لحمه وهو من أجود أنواع اللحوم قاطبة وهو عمدتهم في حياتهم اليومية بعد أن يقدد ويجفف على حرارة الشمس أو على نار هادئة وبعد إعداد الحصان إعداداً كاملاً يجب إعداد الفارس ولا بد من مؤهلات خاصة بأن يكون خفيف الوزن قوى الساعدين يجيد ركوب الخيل وفي مهارة ويستطيع الحركة أثناء عدو الحصان وأن يكون يقظاً ليتفادى المعوقات وهم يخرجون إلى الصيد في جماعات وبعد دخولهم الغابة ومواجهة الصيد يعين كل منهم طريقته ويطلق عنان فرسه وهو ممسكاً بحربه ذات قناة طويلة يطعن بها بين وركيها كلما سنحت له الفرصة حتى تعجز عن الجري ويسقط على الأرض وليس للزراف قروناً يدافع بها عن نفسه فيميل إلى الحيلة والمكر فيقصد الأراضي الوعرة ذات الشقوق الكثيرة ليعوق سيرها لأن خف الزراف أكبر من حافر الحصان مما يضطره أمام هذه

الطبيعة من تخفيف سرعته ويجد الصيد فرصته للابتعاد من العدو المطارد ومنها المرور بين شجرتين متقاربتين فيمر بينهما بقوة جسمه فتتفتح المسافة بينهما فلما يخرج تعود إلى مكانها الطبيعي فإذا ما صادف وجود الحصان بالقرب منهما أصطدم بها لاشك فيلحق الأذى أما الحصان أو الفارس وتفاذي هذه المخاطر متروك ليقظة الفارس وملاحظة ذلك ليعطي كل موقف وزنه الخاص وتجده دائماً أي الزراف إذا وجد نفسه على أرض ذات شقوق أحنى رقابه لينظر موقع ظلفه وبذلك يعرف الفارس أنه أمام أرض ذات شقوق فيقلل من سرعة الحصان حتى ترفع هي رؤوسها .

تتقارب قيمة الخيل وتتفاضل بعضها على بعض مراعاة لتكوينها الطبيعي فإن كانت تحمل قدراً من صفات التفاؤل فهي ذات قيمة عالية أما إن حصلت قدراً من علامات التشاؤم فهي غير مرغوب فيها مهما بلغت من جمال الصورة أو اللون أو سرعة العدو فمن الصفات المحببة عند المشتري أن يكون مخمس أي أربعة حجول في رجليه وغرة في جبهته وأن يكون أسود أو أشقر حريري أي لامع الشعر ولا بأس من أن تقتصر الغرة على الجبهة أو تتدلى إلى شفتيه وأن كان الحصان ذا أربعة حجول بدون غرة فهو أقل قيمة من الأول وإن كان له غرة وثلاثة حجول في رجليه إلا اليمني فهو مرغوب فيه يسمونه مطلق يمين أما إن كان طبيعة الحصان لا حجول له ولا غرة فيه فهذا يسمى بطيخة مقفولة وأنت وحظك قد تجلب الخير الكثير وقد يحصل العكس أما أن كانت فرسه أنثى ولها أربعة حجول وغرة صغيرة فهي تدخل مع نوع التفاؤل وإن كانت ثلاثة ورجلها اليسرى خالية من الحجل هي في قمة التفاؤل يقولوا عنها مطلوقة يساره والغرة ديناره تعني أولاد الأم كان سبعة قفاري أما ما يروونه بجلب النحس لصاحبه إذا كان له غره سابلة تميل إلى أحد أنفيه يقولوا عنه صاحبه دائم البكاء وأنفه تسيل ماؤها وإن كان له حجلين أماميين هذا وحلان (أي في الطين) لا يستطيع صاحبه من الفرار أو النجاة أما أن كان حجليه خلفيتين فهو سكاكات هذا غير مرغوب فيه أما ما كان حجله واحد في يمينه فهذا لا

محال يقتل صاحبه أما أن كان حجلين واحد أمامي وواحد خلفي فهذا مشكل أو مقيد وأشكالها كثيرة ومتعددة لا يمكن حصرها في حيز ضيق مثل هذا أما اللون العسلي والبيدي من الألوان المحببة أما الابط أو ما به أكثر من لون غير مرغوب فيه أما الحصان البيدي أي ذا لون حمامي(16) بالنسبة للحمير يعتقد بعضهم أنه من الجن فلا يطلقون العنان عند أو بعد غروب الشمس لاعتقادهم انه يطير بصاحبه ويقال عنه أمثال أشبه بالخرافة حيث انه طار بصاحبه ولم يعد ولم يعثر على جثته ولذلك أمسكنا عن إيراد مثل هذه الأشياء التي ليس لها ما يساندها من أدلة أو براهين .

والعربي بطبعة ميال إلى التفاخر بما يملك سواء كان من الخيول أو مواشي فإذا ما سمع حصانه وهو يصهل تجده ينادي (مورت صابون الفقر) وكلمة مورت معناها المورث من الجد أو الأب وصابون الفقر معناه أنه يزيل الفقر والعدم ما دام هو عنده .

وللخيل طرق عديدة في تأديبها وعلى حسب اختبار صاحبها فالعرب الكثير مبنهم يفضلون الخيول الهادئة الطبع سلسلة المران لان طريقة ركوبها عندهم هي الاعتماد على الرمح بعد أن يضع قدمه على الركاب أما البعض الآخر بما في ذلك طبقة التجار لا يعجبهم هذا النوع من الأدب فيميلون إلى النوع الآخر وهو كثير الحركة عند الركوب يشعرك بحيويته ونشاطه ولهذا النوع مروضون معروفون فعندما أمسكت بعنانه وضعت قدمك على الركاب انطلق جارياً وأنت لا زلت معتمداً على قدمك هذا ولم تصل إلى السرج وإذا ما وقفت عنه أو انزلت قدمك من الركاب وقد شعر بذلك يقف بجانبك وهذا النوع من الأدب محبب بين طبقات الشباب لأنه رمز للقوة والحيوية مما يثير إعجاب الفتيات زد على ذلك المهارة في الركوب ، وبهذه المناسبة تحضرني حكاية عندما كنا في منطقة الليري وكانت قبله لبعض قبائل العرب الرحل في فصل الصيف طلباً للمرعي وكنا نعشق الخيول الجميلة فإذا ما وجد أحد التجار حصاناً أو فرسه أنثى وراقت له في نظره يغري صاحبها بالمال حتى يبيعه وفي هذه المرة وقع الاختيار على فلو حديث الأدب فأخذ

يساوم صاحبه حتى اتفاقا وقبل الثمن ورجع إلى أهله أما التاجر المشتري فأرسله إلى المروض ليغير من طبعه وأدبه القديم وبعد أسبوع جاء البائع نادماً وقد وجد كثيراً من اللوم من أهله وعشيرته وهو ما جاء إلا طالب فضل وليس له حق فتدخل العقلاء من التجار وأشاروا على التاجر المشتري بأن يرد له حصانه فقبل متجاوزاً كل ما أنفقه عليه في الأدب الجديد فرح الرجل وأمسك بمقوده وهم بالركوب على طريقته الأولى معتمداً على قناة الرمح فما أن فارقت قدمه الأرض حتى شب الحصان جاريّاً فسقط الرجل على ظهره وطارت رمحه وضج كل السوق بما فيه من رواد ووقف الحصان معاود فعلته فسقط على الأرض فساءه هذا الموقف حيث أصبح مكان للسخرية والمهانة واحتار في أمره ماذا يفعل وأخيراً رد الحصان لصاحبه وهو يقول (خربت الخيل يا جلابه) .

داء الكلب (السعير)

داء الكلب من الأمراض الخطيرة التي تصيب الإنسان والحيوان والكلاب أكثر الحيوانات التي تتعرض للإصابة بهذا المرض وتنتقل العدوى بطريقة العض أو اللعاب فمن طبع الكلاب أن تعض بعضها بمجرد لقائها بسبب ذلك ينتشر المرض ويمكن علاجه في أطواره الأولى يحقن المصاب في بطنه حول سرتة بإبر غليظة مؤلمة أثبتت التجارب فعاليتها أما في أطواره الأخيرة فلا يجدي معه علاج ولما كان المصل المستحضر يحتاج لحفظه في درجة خاصة من الرطوبة يحتاج إلى ثلاجات لأن حرارة الطقس تفسده والثلاجات ليست في متناول كل إنسان خصوصاً بين العرب الرحل تكثر الإصابات بين حيواناتهم بسبب تربية الكلاب جنباً إلى جنب مع الحيوانات مما تفرضه طبيعة الأرض فهم يكثر من تربية الكلاب بغرض الحراسة من اللصوص وسارقي المواشي وحراسة المواشي من الحيوانات المفترسة كالأسد والنمر والذئب وبحكم اختلاط النوعين الكلاب والمواشي وفي موقع واحد خصوصاً بين قبائل العرب في منطقتي دارفور وكردفان فيقع التالف بينها وبمجرد إصابة الكلب بالمرض يبدأ في عض كل من خوله من كلب أو بقرة

أو حمار فينتشر المرض وفي ذلك ما يهدد بإبادة الثروة الحيوانية ولكن عندما قابلتهم صعوبة حفظ المصل إلا داخل ثلاجات صرفوا النظر عنها وتوصلوا بطريقة أو أخرى للبديل وهو علاج ثبتت فعاليته في الطائر المسمي (أبو ندلك) وهو طائر معروف سبق وصفه في غير هذا المكان وبطريقة سهلة بان يؤتي بهذا الطائر بعد ذبحه وإزالة ريشه ويوضع علي قدر ويضاف إليه كمية من الماء ثم يوقد تحته النار لمدة طويلة حتى يذوب اللحم ويمتزج بالماء حتى يصير في شكل شوربة ويؤخذ جرعة من هذا المستحضر ويضاف إليه من الماء علي قدر ما يكفي الحيوان ثم يشرب الحيوان هذا الماء وهو يصلح في الحالتين كعلاج وكوقاية يكسب الحيوان مناعة لمقاومة المكروب وهنا لابد من وقفة تأمل في خاصية هذا الطائر الذي يسرح ويمرح أمامنا ولا نري له قيمة ولا نعطيه وزناً غير نظرة المسافر إليه إذا اعترض طريقه مما يشعره بالتشاؤم والطيعة (17) وهو يحمل بين طيات لحمه دواء نافعاً للإنسان والحيوان.

وأنا إذ أذكر كل ذلك لا أدعي بأني جنّت بشيء جديد بل أعلم تمام العلم بأن الكثير من العلماء والمتخصصين في علم الحيوان في منطقتي دارفور وكردفان ضمنوا ذلك في تقاريرهم السنوية وأيدوا ملاحظات في غاية الدقة والأهمية ورفعوها إلى الحكومة أو قد تخطاها إلى المحافل الدولية والذي أري من واجبي أن أدلي بدلوي معهم حيث لا ضرر ولا ضرار إذا رأى غير أنه تكراراً لا طائل وراءه ولكني غير ذلك بل يضيفي على الموضوع أهمية خاصة تلفت النظر لهذا الطائر وما يحويه من علاج باستعماله بهذه الطريقة البدائية التي فرضتها الحاجة تحت نظر الحكومة وسمعتها فهل حركت ساكناً وهل فكر مجلس الأبحاث الطبية في طريقة الاستفادة من هذا الطائر وما هي العقبات التي اعترضت طريق تنفيذه إذا ثبت لها بالتحليل المعملّي أنه حقيقة ما قيل فيه .

وقد شاهدت حالتين أحدهما بالليري وقد أصيبت امرأة بهذا المرض وهي نوباوية من لفوفا جيء بها وهي مقيدة اليدين وفي حالة تدر الشفقة والعطف وتحز

في النفس مما وصلت إليها حالتها من اليأس حيث كانت تمزق جسمها بأسنانها وتقلع أصابع يديها والدم يتساقط من أعضائها ومن فمها وهي تصيح وتهزئ بكلمات (يا أخواني أدوني زول آكله) ومرة تقول (لحم الناس حلو) والمصاب بهذا المرض ينفر من الماء ولا يريد النظر فيه و لا يشرب منه وكانت المريضة حبيسة غرفة نحو ثلاثة أيام لم ينقطع صياحها ولم تنق للنوم طعاماً بعدها فارقت الحياة بسبب تمكن الداء منها وكثرت ما نزفت من دم . أما الحادث الثاني فقد كان المصاب حماراً بدأت عليه الأعراض وبفسس الأفعال حيث بدأ يأكل ذنبه بادئ الأمر ولما انتهى منه بدأ بأرجله فأنكشف أمره وأطلق عليه النار وأحرقت الجثة وكل آثار الدم خوفاً من أن تأكله هرة أو كلباً .

الرمل (18)

الرمل معروف لدى كل إنسان في البلاد العربية في باديتها وحضرها أشتق له هذا الاسم من المكان الذي يخطط فيه وهي الأرض الرملية لسهولة ظهور النقاط التي هي أساس الرمل والرمل هذا مجهول المصدر والمؤلف فالتاريخ لم يشر إلى مألفه ولا جنسه ولا المكان الذي جاء منه حتى أمهات الكتب القديمة لم تذكر شيئاً من ذلك مع أن التاريخ سجل اسم صصه بن داهر هندي الأصل بأنه مخترع الشطرنج وأشار إلى مخترع النرد وهو اردشير بن بابك أحد ملوك الفرس كما أورده الصولي في كتابه أدب الكتاب ولم يذكر شيئاً عن الرمل بينما الرمل بين الرسوم والأشكال في كتاب شمس المعارف الكبرى ومشروح شرحاً وافياً ليقربه من ذهن القارئ لكنه لم يتعرض إلى اسم المخترع ولكن إذا نظرنا إلى التسميات التي أطلقت على أصول الرمل هي عربية وتدل على أن مخترعه عربياً وكانوا شديدي التعلق به لمعرفة الغيب المجهول في كل ما يتعلق بحياتهم اليومية في جاهليتهم وبعد إسلامهم شأنهم في ذلك شأن المصريين في قراءة الكف والفنجان وهم يعطونه أهمية خاصة لمعرفة المستقبل وكان وفقاً على الكهنة والسحرة منذ أقدم عصور التاريخ قبل أن يصبح علماً يدرس ويتخذ منه مهنة لكسب العيش .

أما الرمل بالنسبة للعرب كان أكثر أهمية بما له من صلة بسفرهم وحضرهم وصيدهم وبما يخشى من أن يصاب بمكروه اتخذوا منه وسيلة لمعرفة ما يكنه الغيب في طياته وكخبرة يؤمن بها إيماناً كاملاً ولما جاء الإسلام نهى عنه ونهى عن تصديق المنجمين ولكن رغم هذا النهي لازالوا يمارسونه كخبرة في سفرهم وفي خروجهم للصيد وكان لابد من استشارة الرمالى ليري إن كانت الرحلة سليمة أو يعوقها عائق فإن أشار عليه بالعدول فهو مستجيب لا محالة وإن أشار عليه بالمضي قدماً . وانتقل الرمل من موطنه الأصلي هي جزيرة العرب انتقل إلى السودان مع العرب فانتشر في جميع أنحاء حتى أخذت عنهم الأجناس الأخرى كالنوبة وغيرهم إلا القبائل النيلية كمديرية أعالي النيل وبحر الغزال والاستوائية فلا وجود للرمل بين السكان الأصليين ولهم طريقتهم الخاصة في هذا المضمار كالودع الذي تمارسه العجائز من النساء فعرب البقارة بحكم ظروفهم وخروجهم للرعي بمواشيهم وكثرت الحيوانات المفترسة زاد تعلقهم بهذه الاستخارة فكانت السبب في نشرها وتعلق كل إنسان لتعلمها فمن علاماتها ما يوحى بالتشاؤم ومنها ما يوحى بالتفاؤل الحسن فمنه ما يشير إلى قمة التفاؤل الحسن أن تكون الخاتمة (جودله) فصاحبها يكاد يعتقد أن ما هو مقدم عليه في حكم المضمون إما قمة التشاؤم الذي يرى صاحبه الإقلاع وعدم التقدم إذا وقعت النتيجة (حمره) وهي لون الدم ولكل خاتمة تأويلها شراً كان أم خيراً وهذا التفسير والتأويل يكون على قدر المران الذي أكتسبه الرمالى من طول الممارسة وهنا لأبد من ذكر مثل لما وصلت إليه درجة الإتقان حتى صار صفة تدرس وفناً يتبارى فيه كل من نال خبرة ففي قرية من قري الليري جاء شاب عند الأصيل ومر على أرض رملية نظيفة ناعمة الملمس وعلى طرف القرية طاب له الجلوس ووجد في الرمل ما يغري بعمل الرمل قطعاً للوقت وعلى سبيل التسلية ولكن لابد من نية ينويها وكان له علاقة غير شريفة مع امرأة متزوجة وبدأ عملية الرمل ليري إن كان زوجها موجوداً في داره وبوصوله إلى النهاية تبين له إن الزوج غائباً والمرأة وحيدة في دارها فلعب الشيطان في

رأسه واستعجله لملاقاة الحبيبة وقد أنساه أن يمحو آثار الرمل المخطط وأخذ عصاه وذهب مسرعاً وبعد قليل جاء زوج المرأة ماراً على تلك البقعة فلفت نظره عملية الرمل هذه وكان بارعاً أيضاً في علم الرمل فتتبع عملية النقل ووجدها صحيحة وجاعت الخاتمة فأوحت له نفس الإيحاء وتأكد من الغرض الذي عمل من أجله ومثل هذا الوقت والشمس قد أدركها المغيب لا يوجد من يكون بعيداً عن داره إلا أنا ربما يكون المقصود فذهب مسرعاً نحو بيته فوجد الرجل والمرأة وهما في خلوة مشبوهة فقبض عليه وقمه للقضاء والأمثلة كثيرة ولا بأس من ذكر حادث آخر.

في يوم من الأيام حصل عطل في خط التلفون ما بين الليري وتونجه في وقت الخريف وكثيراً ما يحصل ذلك العطل بسبب الاحتكاك من الزراف على أعمدة التلفون عندما تشعر بقرصة الذبابة وهو نوع خاص كبير الجسم لها قرصة حادة تقلق الحيوانات ومن شدة ضغط الاحتكاك على العمود ينكسر العمود وتسقط الأسلاك على الأرض فتسبب العطل وقد احتاطت مصلحة البريد والبرق بتعيين شخصين لكل منهما حماراً يحمل عليه متاعه وأدوات المصلحة الأخرى وزودتهم ببندقية للطوارئ وكانت الأعشاب طويلة تغطي وجه الأرض وفي أثناء سيرهم جاءهم الظلام وأخذوا مضاجعهم وكان بينهما سوء تفاهم وكان المبيت بالقرب من الشارع الرئيسي وطريق المارة ما بين الليري وتونجه وهو مطروق على الدوام لا يخلو من مسافر فأنتهز أحدهم هذه الفرصة ليقع صاحبه في جريمة وهو الرئيس المسئول وأثناء نومه أخذ صاحبه البندقية وخبأها في مكان أمين وكانت الأرض صخرية لا يظهر عليها أثر القدم ففي الصباح لم يجد سلاحه فسأل صاحبه وقال ربما مر بهم مسافر وهم في نومهم فأخذها فاحتار في أمره وقد قام بتفتيش المنطقة فلم يجد شيئاً ولم يستطع الاستمرار في الرحلة وأمر صاحبه بالرجوع وكانت أول قرية تصادفهم في طريق العودة هي قرية دلاس وبها رجل يجيد معرفة الرمل فذهبوا إليه وقصا عليه القصة فقام بعملية الرمل تكررت عملية الرمل مرة مرتين ثلاثة دون أن يقول شيئاً وسأله الرجل عن كثرة المحو وهو لا يقول شيئاً قال أن

عملية الرمل تأتي بحالة غريبة لم أجد لها تفسيراً مما زاد في خيرتي فالبندقية موجودة لم يتصرف فيها إنسان وليست في يد إنسان ولا علي ظهر دابة لكنها في موضع غريب وشاذ لا هي في الأرض ولا معلقة في الشجر فرجاء بأن يعيد الكره فكانت النتيجة كسابقتها وأخيراً بعد إلحاح ورجاء وافق على الذهاب إلى مكان الحادث ووصلوا المكان وناموا في نفس المكان وفي الصباح بدأت عملية الرمل بعد أن حملوا معهم كمية من الرمل لأن المكان أرض صلبة وقام وأخذ اتجاه خاص ثم جلس وبسط الرمل ثم قام وانحرف قليلاً عن اتجاهه إلى أن وصل إلى نقطة قال فيها للرجل إن البندقية في هذه المنطقة فلا وجود لها في الأرض ولا على فروع الأشجار فكل منا يبحث بطريقته ولم تمض ساعة حتى وجد شجرة مجوفة الوسط كأنها كانت بها خلية نحل ثم انتزعت فادخل يده في جوفها فاصطدمت يده بجسم فإذا هي البندقية .

التميمة والحجاب

التميمة خيط معقد يتكلى من عنق الإنسان هي من عمل الكهنة والسحرة في عصور ما قبل التاريخ لعلاج المرضى وطرد الأرواح الشريرة عن الإنسان يمارسون أعمالهم هذه بغرض الكسب المادي ولغرض سيطرته وتقوية مكانته الاجتماعية وقد قويت شوكتهم خصوصاً في مصر وعلى عهد الفراعنة وكان عندما يشكو المريض من علة أصابته لجأ إلى الكاهن أو الساحر فيأتي بالخيط وينفث فيه ويعقده ثم يربط في مكان الألم وقد بين ذلك في القرآن الكريم في صورة الفلق أما الحجاب بصورته المعروفة حالياً لم يكن له وجود بل استمد وجوده بعد ظهور الإسلام ونزول القرآن الكريم ووجدوا فيه شفاء لكل داء ودواء لكل مرض كما جاء على لسان الرسول ﷺ (خذ من القرآن ما شئت لما شئت) وأجاز الرسول ﷺ الرقي (العزيمة) بقراءة بعض الآيات على مكان المرض قد مارسها الكثير من الصحابة وقد أجازها ولو لغير المسلم بقصد الدعاية للإسلام ولا مكانة للمنفعة الشخصية في ذلك العهد تغيرت بعدها الأحوال وأطلت المنفعة برأسها وظهرت للوجود طبقاً لما

يعانيه الفرد في الجزيرة العربية مهد الإسلام الأول من شظف العيش وقسوة الحياة وازدادت الرقعة وانتشر الإسلام فعم بقاع الأرض وخلا الميدان من الرعيل الأول من الصحابة وجاءت طبقة التابعين وبدعوا يستنبطون من آيات الكتاب والسنة ما يعالجون بعض الأمراض واجتهدوا في ذلك فكانت ثمرة ذلك ولادة الحجاب وهو آيات قرآنية وأدعية بشفاء المريض وقد استكرها البعض بحجة أن الرسول ﷺ لم يفعلها وغض الطرف البعض بحجة أن فيها نفعاً للمسلمين لكن إن أردنا أن نضع الأمور في مكانها الحقيقي نجد أن الكثير من الناس قد استقلوا الدين كمطية للوصول للقيادة أو كسب المال الحرام بشتى الوسائل ودخلت الشعوذة والدجل الميدان حتى فارقت الدين كنتيجة لممارسات خاطئة وإيهام الناس بأن لهم احترام من الجن يساعدونهم ويأتون بأخبار الغيب كل ذلك لسلب أموال الناس وهناك طبقة معتدلة لا يمارسون مثل هذه الأعمال المخالفة لما جاء به الدين الحنيف واتخذوا طريقاً وسطاً ولا تمنع م لبس الحجاب ما دام هو آيات قرآنية وأدعية أنزلها الله لخدمة الإنسان والانتفاع بها كالرقي من العين قد ثبت أن الرسول ﷺ قال (كلكم معانئون إلا من بورك فيه) وعنه قال (من شك في العين فقد كفر) وقد جعل من المعوذتين رقي للعين تقرأ ثلاث مرات صباحاً ومساءً والأدعية كثيرة بين صفحات الكتب ولذلك أجتهد العلماء وتوسعوا في هذا الميدان على قدر اجتهاده وجمعوا الآيات الكريمة والأحاديث وضمنوها كتبهم واتخذوا منها أوراد تتلى صباحاً ومساءً أما أمر الجن أيضاً ثابت بالكتاب والسنة وعلاجه بواسطة المشائخ المتمكنين أصحاب الأقدام الراسخة في الدين وبعد شفاء المصاب يعمل له حجاب لطرد الجن عنه وهي لم تخرج من الآيات القرآنية والتعاويذ التي تطرد الجن وموضوع الحجاب هذا يجرنا الى استعمالات أخرى لها فوائدها بين المسلمين وهو حجابي يبطل عمل السلاح ولا يخرق جسمك وهو متفرد الجوانب لكل جانب آياته الخاصة بالسلاح الناري له حجابه الخاص ويكون شامل على بقية الأسلحة الأخرى البيضاء لها آياتها الخاصة ولا ينتهي لكل إنسان أن وجد هذه الآيات سواء بطريق نقلها من حجاب أخرى فلا

تؤدي وظيفتها فمثلاً عندنا في النيل الأبيض محصور هذا الامتياز والقدرة في بيت واحد هو الشيخ البشير ود مضوي وأولاده وأحفاده وهو من البيوتات العريقة يسكن العليقة شمال كوستي وبها خلوة لتحفيظ القرآن منذ أكثر من مائتي عام لم تخدم نارها حتى يومنا هذا ويؤمها الطلاب من جميع أقطار السودان وكان يحكي عن الشيخ البشير قوله لاتباعه (الحمد لله الذي أعطانا سر السلاح والجناح) يقصد بذلك إبطال عمل السلاح كما أعطاه سر طرد الطيور كالزرزور الذي يفتك بالمزارع وكل هذا مجرب وكثير من الناس ما يلجئون إليه عندما يشعروا بوجود هذا الطير الذي يهددهم والسلاح الأبيض كالحربة والسيف والسكين لها آياتها الخاصة وكمثال لإبطال مفعول السلاح كان الشيخ طبق شيخاً على قرية تيرا شمال الليري يعود (محل آبار الماء) ليورده الماء فإذا برجل يعترض طريقة وفي يده حربة طويلة حادة وخاطبه قائلاً (أبييت ما تفك طريقي) وأمسك بالحربة بكلتا يديه وطعنه بها في بطنه ووقع على الأرض من شدة الصدمة وتدخل الحاضرون وحالوا بينهما ولكن الحربة لم تحدث جرحاً ولم تنزف دماً غير أن مكان الطعن قد تورم ونقل إلى منزله وكانت تربطنا به علاقة صداقة ذهبنا إلى زيارته في منزله وأردت أن أتأكد إن كان هناك جرح فلم أجد أثر غير التورم الذي أحدثته قوة الصدمة ورأيت يلبس الحجاب ويقول لولا هذا لكنت اليوم في عداد الموتى والأمثال كثيرة والطريق نحو العليقة مفتوح ومطروق لمن يريد المزيد . ومن أنواع الحجب الأخرى ما يسمى النجسه والكلمة مشتقة من النجاسة وصاحبها لا يحتاج الى طهارة في حالة حملها وهي قليلة التكاليف يلجأ إليها الصعاليك والاشقياء ويقوم بكتابتها الدجالون والمشعوذون ومفعولها محدد وقد تفقد صلاحيتها ويفسد مفعولها إذا أكلت فول سوداني أو وطأت بقدمك على جلد حديث السلخ وأشياء أخرى تقسد مفعولها وكل هذه الأنواع من الحجب جاءت مع الذين وفدوا من إقليم دارفور فهي معقل هذه الأعمال قبائل الفلاته وهم الذين جاعوا بكل أنواع الشعوذة وتتوع فروعها مما يسمونه علم الحرف-وامتلاك الجن ومعرفة الغيب . وهناك أقوال تروي عن

مشايخنا الصوفية الذين لهم القدم الراسخ في علم الحقيقة يقولون أن النار لا تحرق لأنها نار ولا يتأتى لها ذلك إلا بالقدرة الإلهية التي مصدرها كن فيكون كما أن السلاح مهما يكن قاطعاً لا يعمل إلا بعد كن فيكون وفي اعتقادهم من يؤمن بغير ذلك فهو في عداد المشركين والمعني الظاهر من هذه الأقوال إن الله القادر بقدرته والمتصرف بإرادته والذي بيده كن فيكون هو المتصرف أولاً وأخيراً ولا شيء يؤدي وظيفته دون كن فيكون ولدينا أمثال كثيرة تناقلتها الألسن وتوارثتها الأجيال مفادها وأنت تسمع باسم الشيخ فلان المجرم فما معني المجرم .

من المعروف والذي لا يتطرق إليه الشك إن كل من أتصل نسبة بالرسول ﷺ فلا تحرقه النار فعندما يشك الناس في نسب أحد ويدعي أنه شريف ولم يصدقه أحد عمد إلى بناء بيت من القش ودخل وسطه واشعل فيه النار وتأتي النار على القش والحطب وتصبح رماداً تذرؤه الريح ويخرج هو سالماً لم تصبه النار لا قليل ولا كثير مما يثبت قول أهل الحقيقة أن النار وخلافها لا يؤدي عملها إلا بعد كن فيكون ولا شك أن في السودان مجمرين عديدين ومعروفين وكلمة مجمر مأخوذة من جمر الذهب أي قد أزال شوائبه وكل ما علق به من مواد أخرى ومثلاً آخر معروف ومدون في كتب تقرأ على مسامع الناس منذ أجيال تقول الرواية إن رجلاً على أيام السيد أحمد بن إدريس ؒ هذا الرجل أدركته الصلاة وهو يحمل في يده قطعة لحم داخل كيساً من القماش فوضعها جانباً ودخل في صفوف المصلين وكان السيد أمام القوم وبعد انتهاء الصلاة أخذ الكيس وأتى داره وأعطاه للزوجة وجلس في انتظار العشاء مرت الساعات وهو يرقب مجيء العشاء ولم يجد بداً من أن يأتي المرأة ويسألها عن سبب التأخير فتجيب المرأة بأن ما جاء به من اللحم لم تؤثر فيه النار رغم الحطب الجذل والنار المتأججة فرفعت له قطعة منها فإذا بها حمراء كما وضعتها أول مرة فأخذ منه العجب مأخذاً وفي الصباح جاء الرجل ليحكي للسيد ما حصل فأجابه قائلاً إن الرسول ﷺ قد بشرني بأن النار لا تحرق ولا تمس كل من صلي معنا فلا غرابة إن لم ينضج اللحم هذا الحادث مثبت في مناقب السيد أحمد بن

إدريس تأليف السيد إبراهيم الرشيد ﷺ .

وآخر ما يمكن أن أقدمه كمثل آخر جاءت على لسان رجل يهودي عربي تنقل بين جميع الدول العربية وزار السعودية (الحجاز وقتها ومكث في الحرمين الشريفين سنين عديدة وهو يخفي يهوديته ويظهر الإسلام وكان كل وقته يقضيه داخل الحرمين الشريفين وينام في أروقتها حتى ساقته قدماه ودخل السودان تحت اسم الشريف وكان يؤم الناس في صلاتهم المكتوبة والأعياد مرت الأيام والسنون ولم ينكشف أمره إلا في أخريات أيامه وتبين للناس أنه يهودي ولم ينكرها وكان طيب القلب يخالط الناس في سرائهم وضرائهم وقد حكى لنا في مرة وكنا نفر قليل ممن يصطفاهم يميل إليهم هو يقول هذا سر لا يجب إفشاؤه قلنا هات قال على أيام وجودي في الحرمين الشريفين المكي أو المدني لا أذكر أيهما قال لطول العهد قال اشتاقت نفسي للحم الحماض ووجود الحمام بهذين الحرمين ظاهرة كثير العدد يسرح بين الحجاج آمناً وله مونه من القمح والشعير بالمخازن يطرح في ساحات الحرم ولا يصيبه أذى من الناس قال وفي غفلة من الناس أمسكت بزوجين منها وقمت بتجهيزها ووضعتهما على النار فمرت الساعات الطوال وأنا اجزل الوقود وأشعل النار تحت القدر فلم تعمل النار ولما أخذ مني اليأس أردت التخلص منها خوف افتتاح الأمر فلفتها في خرقة وهي حمراء وعمدت إلى أقرب مرحاض وأودعتها فيه . بشيء من الفضول سألته ألم تقنعك فعلتك هذه بتخليك عن دين اليهودية لتعتنق الإسلام بعد أن ظهر لك وتبينت هذه المعجزة التي ساقها الله لك لينقذك من الضلال وبشري للمسلمين وننيراً لمن كفر فأجاب في برود لم تؤثر في عقيدتي فقلت صدق الله العظيم حيث قال (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) صدق الله العظيم.

كاكا التجارية (19) وإحداثها الدامية

كاكا التجارية من الأماكن المشهورة منذ العهد التركي وأبان حكم المهدي ونالت شهرتها لوقوعها على الشاطئ الغربي من نهر النيل وعندما كان النيل هو

السبيل الوحيد الذي يسلكه التجار وهم على مراكبهم الشراعية من ناحية أما الناحية الأخرى تواجد العرب من قبيلتي سليم وأولاد حميد واختلاطهم مع الشلك في فصل الصيف مما جعلها مركزاً تجارياً هاماً وقد سميت بهذا الاسم نسبة لأمراة تدعي كاكّا(20) تسكن على شاطئ النيل وترسو عندها المراكب وهي تجيد اللغة العربية وتقوم بدور المترجم ما بين التجار وقبائل الشلك سكان المنطقة الأصليين ولا يعرفون من العربية إلا قليل وعندما جاء الحكم الثنائي جعل منها ميناء للجمال الشرقية لمديرية جبال النوبة فالأرض تخضع لإدارة مديرية أعالي النيل أما الإدارة فمشتركة فيها فرقتين من البوليس واحدة تابعة لجبال النوبة وأخر تابعة لأعالي النيل وكاكّا كمركز تجاري يلعب دوراً هاماً من الناحية التجارية حيث يؤمها وكلاء الشركات الذين اتخذوا الخرطوم محلاً لرئاسة هذه الشركات ويرسلوا مناديباً لهم لمشتري المحاصيل آتى تتمثل في الذرة بأنواعه والفول السوداني والسمسم والصمغ بنوعيه والعسل وشمعه والماشية بأنواعها وكانت بها معاصر تديرها الحيوانات قبل ظهور المعاصر الحديثة هذا هو تاريخها التجاري ولها تاريخها فيما يتعلق بسكانها الأصليين وهي قبيلة الشلك يقولون كما تناقلتها الأفواه عندما وقع الخلاف بين نيكانق ودانقي في فشودة استقر الرأي على أن يفترقا وأن يقيم نيكانق في فشودة ويرحل دانقي وسار حتى بلغا كاكّا وفي خور شمالها بقليل وكان بيد أحدهما كوكاباً يقال أنه من فضة وعرزه في نصف الخور وقال من هنا نفترق وودع كل منهما الآخر فمكان هذا الكوكاب أصبح علماً بارزاً ومقدساً ورجع نيكانق ، ويدخل هذا المكان ضمن الطقوس عند اختيار المك إذ خلا المقعد بأن يركب الكجور وهو أكثر من شخص ومعهم المك المرشح ويأخذون خروفاً إلى أن يصلوا إلى مكان الكوكاب في منتصف الخور فيرمي بالخروف فإن غاص ولم يظهر له أثر فقد قبلت الآلهة هذا الشخص المرشح وإن عام ونجا معني ذلك إن الآلهة لم تقبل فيعيدوا النظر في ترشيح أحد أخوته هذا تعريف مقتضب عن كاكّا ولما كانت عليه قبل أن تخربها أيدي التمرد في يوم مشهود كنت في طريقي من ملكال إلى كوستي على ظهر

باخرة نيلية وهي تحمل عدداً من الركاب علاوة على فرقة من الجيش في طريقها للخرطوم بعد أن انتهت مدة خدمتها في الجنوب وقد تسلمت فرقة أخرى على حسب قانون الجيش وكان وصول الباخرة في ميناء كاكّا نحو الساعة الرابعة صباحاً وكنت قد هيات نفسي لمقابلة معارفي من التجار وكانت قبائل العرب والشلك يجتمعون على الميناء لعرض بضائعهم ومصنوعاتهم على ركاب البواخر ومن هذه المصنوعات البروش والسباتات والبنابر والعناقير والسمن والخراف والدجاج وأشياء كثيرة أخرى وكانت الميناء تضيق بهم من شدة الزحام ألغت الباخرة مراسيها ولم نجد في الميناء غير رجل واحد والحرائق في المدينة تكاد تجعل من الليل نهائراً من شدة الأضواء من أثر الحرائق في البيوت وكان مشهداً يحز في النفس فخرجت لأقابل هذا الرجل وقد تبينته على الضوء المنبعث من ثريات الباخرة فإذا هو من معارفي وهو يرتدي قميصاً من الكاكي وبيده بندقية وهو يرتجف من شدة الانفعال فقلت له ما الخبر ومالي أراك بهذه الحالة وأنت في حالة انزعاج قال قد أغار على المدينة عدداً من المتمردين وأخذوا يقتلون كل من صادفهم وأشعلوا هذه النيران لولا أن رأوا نور هذه الباخرة القادمة لما بقي على أرض كاكّا حياً لا يتورعون عن قتل الأطفال والنساء والعجزة والرجال قلت كم فقدت من الأسرة قال امرأتين وطفلين قد أحرقوا داخل القطية التي يسكنونها فعزيتيه وقلت هل أصاب السوق شيء من الخراب قال لا أدري لأنني كنت مشغولاً بالدفاع عن بقية الأسرة فقلت إن بالباخرة فرقة من القوات المسلحة تحت إمرة ضابط فها بنا نقابله ونرى ما هو فاعل فعند وقوفنا تحت سلم الدرجة الأولى فإذا بمهندس الوابور على السلم وشرحنا له الموقف وعرضنا عليه وجهة نظرنا في مقابلة الضابط المسئول وتقدمنا حيث يقيم الضابط فقام من نومه ليلقانا وتفهم الموضوع واتفق مع المهندس ليرسل إشارة مستعجلة إلى مقر القيادة بملكال لتشير إليه بما يفعل فجاء الرد ونحن وقوف بأن تظل الباخرة راسية في الميناء لمدة أربعة وعشرين ساعة وتقوم الفرقة بالمحافظة على الأمن إلى حين وصول النجدة وبطلوع الشمس انتشر كل من

بالباخرة وأخذنا في دخول البيوت بحثاً عن مجروح أو مصاب لنقوم بإسعافه وكانت
جثث الموتى ملقاة على الأرض في فناء الدور وكان منظراً رهيباً يقشعر منه جسم
الإنسان بعد ذلك أَسْتَقَرَّ الرَّأْيُ على جمع الجثث ومواراتها بالتراب وحفرنا حفرة
واحدة وأخذنا في جمع الجثث حتى بلغت أحد عشر جثة وصلينا عليها وقطعنا
أغصان شجر النيم اخترناه لمرارته مما يساعد على منع التعفن ثم أهلنا عليهم
التراب ولكن للحق أن أقول إننا لم نجد لهم أكفاناً لأن السوق ليس فيه شيء من
القماش ولذلك جعلنا من ملابسهم أكفاناً وهي ملطخة بالدماء ليلقوا الله بها ويشكو
ظلم الإنسان إلى أخيه الإنسان بعد أن فرغنا من هذه المهمة توجهنا نحو نقطة
البوليس وكانوا بخير لم يصب منهم أحد وكان الجاويش المسئول يحكي كيف
حاصرتهم نيران الأسلحة ومنعتهم من الخروج من دارة النقطة لم يستطيعوا أن
يؤدوا واجبهم والدفاع عن مواطنيهم وكان أكثر النار تطلق علينا من ناحية النهر
واتخذوا من جزع الشجر تلك ستاراً يمنعهم طلقاتنا فذهبت نحو الشجرة ووجدت
عدداً من الظروف الفارغة ووجدت أثر دم على الأرض يتصل بشاطئ النهر مما
يدل على أن المعتدين جاؤوا بمركب شروك عن طريق النهر واتخذوا من الشجرة
ساتراً وبدأ إطلاق النار وقد أصيب برصاصه إثناء تبادل النار مع البوليس وحمله
رفاقه إلى داخل المركب وفروا به وتحت شجرة كبيرة تتوسط ساحة النقطة كنا
نقف تحتها ولا زال البوليس يصف الواقعة فإذا بأحد الوقوف يرفع طرفه إلى أعلا
الشجرة فإذا بشخص يستتر بأغصانها وهو أعزل لا سلاح له فأشار عليه الجاويش
بالنزول فتردد بادئ الأمر ولما هدهد بإطلاق النار عليه نزل وهو خائف يتردد
وأشار العقلاء من الحضور ألا يؤذوه ويتركوا أمره للقوة التي ستجيء بعد قليل
ليستفيدوا مما عنده من معلومات ويدلي بمكان المعسكر الذي فروا نحوه وما أن
وصل الأرض قيدوه وأدخل السجن وتفرقنا نبحت عن جثة أو إنسان وفي الطرف
الغربي من المدينة لاح لي بياض وكأنه كومة من قماش فاقتربت منه فإذا هو أحد
المتمردين قد أصيب بعيار ناري في بطنه ولقي مصرعه وهو يرتدي قميصاً ورداء

من الديمورية وقد انتفخت جثته وتورمت حتى ارتفعت رجله ويده ورجعت وأبلغت البوليس ودخلنا بيوت الشلك القريبة من دائرة السوق فوجدناها خالية من أهلها ولم تصلها يد التخريب مما يدل على الاتفاق مع المتمردين على أن تتحصر الأضرار بسكان المدينة فقط ولما جاء الفرج بوصول الباخرة خافوا مغبة عملهم هذا بإيواء الخارجين الذين قتلوا هذه النفوس البريئة وخافوا من أن يكون بالباخرة قوة مسلحة ويلقوا نفس المصير فهربوا وتركوا بيوتهم مفتحة الأبواب ونجوا بجلدهم . قضينا سحابة نهارنا في المدينة ولا زال الدخان يتصاعد من أنقاض البيوت وجاء الليل ورجعنا للباخرة وبعد انتهاء المدة المحددة تحركت الباخرة وأخذت طريقها نحو الشمال ولا ندري ما فعلته السلطات بعد ذلك هل وصلت القوة وتتبع أثر الخارجين .

حواشي الفصل الثالث

- (1) أهله يعتزون به ويسمونه الكريس كمل نومك جبل الزريعة الخاتي الشريعة .
- (2) كانت هذه الرحلة في عام 1929م
- (3) اعد باحث نرويجي يدعى لايف رسالة علمية عن قبيلة لفوفا وقد قابلته في منتصف السبعينات بالليري وامتدت المعرفة حتى الخرطوم واستطاع لايف ان يبني علاقات وثيقة مع المواطنين من نوبة وعرب وسكان الليري وقد صدرت دراسته في كتاب وتمت ترجمته الى اللغة العربية .
- (4) أتخذ النيميري شعاراً للجمهورية بدل وحيد القرن.
- (5) السيد نصر الدين من كبار تجار الليري واهله من الدويم ومن ابنائه حسن وعباس الذين عملوا بالتجارة والزراعة .
- (6) بابر الرشيد موطنه ام غنيم على النيل الابيض استقر في ادمرمان فيما بعد .
- (7) توفي السيد بابر الرشيد قبل عدة اعوام وذلك اثناء اعداد الكتاب للطباعة وكان قد هاجر الى الاراضي المقدسة واستقر بها ودفن هناك .
- (8) هذا المنظر كان في الماضي وربما فترة الثلاثينات التي عاش فيها الوالد وعمل بمنطقة الليري وقدر لي زيارة الليري للمرة الاولى في منتصف الخمسينات فلم اشاهد مناظر العرب بهذه الصورة ، وعندما زرتها للمرة الثانية في مطلع السبعينات كان الوضع مختلف تماما حيث جميع الرجال والنساء والفتيات في كامل ملابسهم .
- (9) اسرة المقابيل جعلت من مركز تالودي بجبال النوبة مقراً لهم وقد اصابوا فيها تجارة واسعة وامتدت اعمالهم التجارية لتشمل العديد من مدن الجبال وكل ذلك من ازمان بعيدة وحتى وقت قريب .
- (10) سفاهة SAFAHAH الموقع E ٥٥ - ٢٦ من مصايف التجاره على بحر العرب
- ٩ - ٤٧ N
- (11) السبب : شعر ذنب الزراف او ذنب الفيل يستخدم كزينة للرجال والنساء ويضاف اليه بعض الخرز حيث تترين به النساء على الرقبة والرجال على ايديهم او ارجلهم .
- (12) الكواهلة من القبائل العربية الرعوية والتي تهاجر في رحلتين في الصيف حيث الجفاف شمالاً الى الجنوب حيث المياه والمرعى جنوباً .

- (13) يا أبي .
- (14) تالودي TALAWDI الموقع $23^{\circ} - 30^{\circ} E$
 $10^{\circ} - 38^{\circ} N$
- (15) رجل تالودي ظهر واشتهر في مطلع السبعينات من القرن العشرين ابان فترة مايو وقد لاقى شهره واسعة وله قصص وحكايات تروى بين العامة والخاصة .
- (16) اللون الرمادي الفاتح
- (17) بعض القبائل العربية تتخذ من هذا الطائر مؤشراً للتفاوض والتشاور ، فعندما يركب الانسان متجها نحو جهة معينة فيقابل هذا الطائر جاسما على الارض فيقوم باستنفاره فان طار نحو الجهة المقصودة فهو فال حسن ولكن ان طار عكس الجهة المقصودة فما على المسافرين الا العودة من حيث اتى .
- (18) الرمل يطلق على صاحبه اسم الرمالي وحتى سنوات قليلة ماضية كان تواجد بعضهم تحت الاشجار في بعض المواقع بالخرطوم أمراً مألوفاً يصطادون البسطاء ويحملون الرمل داخل شنطة خاصة .
- (19) كاكا KAKA الموقع $11^{\circ} - 32^{\circ} E$ احدى مراكز مديرية اعالي النيل
 $10^{\circ} - 36^{\circ} N$
- (20) اسم كاكا من الاسماء السائدة بين قبائل النوبة مما يوحي بأن المرأة المعنية نوباوية .

الفصل الرابع

عثمان أحمد محمد نور نكريات صياد

نصف قرن من الزمان
بين الغابات والأحراش والجبال بجنوب السودان وجبال النوبة

(تابع) الفصل الرابع

معذرة وتنويه :

عذراً للقارئ الكريم فقد سقط سهواً الجزء الأول من الفصل الرابع ، وعليه نرجو أن تضاف هذه المجموعة لتكون في بداية الفصل الرابع ليستقيم وضع المتن والهوامش وأخذت الأرقام من ١/٢٤٠ إلى ٤٧/٢٤٠ .

الناشر

بحر الغزال

أول رحلة خارج مديرية أعالي النيل

وضعت الحرب (١) أوزارها بعد الانتصار الذي حققته جيوش الحلفاء والهزيمة التي لحقت بجيوش النازية وعادت الحياة إلى طبيعتها إلى ما قبل الحرب والمصانع التي دمرتها الحروب بدأت الحياة تدب فيها من جديد ورجعت بعضها إلى عملها بعد أن حولتها ظروف الحرب إلى مصانع حربية ونتيجة لذلك فقد غمرت الأسواق كل أنواع البضائع وتوفرت كل السلع وأصبحت في متناول كل طالب وقد قصت على السوق الأسود قضاء مبرماً من كثرة المعروض وقلة الطلب وفي آخر رحلة وأنا عائد من مدينة كوستي وقد تخلصت من آخر ما بيدي من بن ووصلت ملكال وكنت أفكر في الفراغ الذي ينتظرني وأن أعيد ممارساتي التجارية داخل مدينة ملكال أم ابحث عن مكان وفجأة جلس بجانبني على مقعد رجل من معارفي وخاطبني قائلاً هل لك في رحلة إلى واو عاصمة بحر الغزال عسي أن تجد ما تشتريه من بضائع ومحاصيل ومنتجات وقد لا تستغرق الرحلة أكثر من ثلاثة أسابيع قلت على شرط واحد أن تكون أولاً عن طريق جوبا وليس شامبي وأن نأخذ طريقنا مروراً بغرب الاستوائية لأنني قد سمعت الكثير عن أنزارا ومصنعها وما يتبعه من منشآت ونتمتع بما يقال عن مناظرها الطبيعية فوافق .

أخذنا طريقنا على ظهر باخرة نيلية من ملكال وهي تمخر عباب النهر لمدة أسبوع كامل وكانت رحلة ممتعة حيث رأينا أمامنا أسراب الفيل وهي ترعي على شاطئ النيل وسط التيجان وقصب البردي الذي يغطي وجه الماء لمسافات طويلة وعلاوة على المدن الرئيسية التي تقوم على شاطئ النيل حتى بدت على الأفق مآذنه الجامع تبشر المسافرين بوصوله إلى مدينة جوبا وكلما سرنا قليلاً ظهرت معالم أخرى إلى أن ألفت الباخرة مراسيها على الميناء وقد التقينا بشلة من أبناء الكوة الذين يعملون بسوق المدينة أمثال خلف الله الشيخ وأبو القاسم محمد أبو القاسم وعلى عبد

المجيد وعبد الحي حسن كرار رحمهم الله مكثنا بينهم لمدة ثلاثة أيام في انتظ ر
عربة نقلنا عن طريق الزاندي وكنا موضع حفاتهم وتقديرهم في اليوم الرابع جاء
أحد تجار مريدي المشهورين وهو محمد احمد عترة رحمه الله بعربة لوري لم تكن
بيننا وبينه سابق معرفة وقد أبلغوه عن عزمنا فرحب بنا وبعد انتهاء المهمة التي
جاء من أجلها وهي نقل بضائعه ركبنا العربة وأخذ طريق ياي مريدي وهو طريق
خلوي غير مطروق كثيراً لكنه قريب أكثر من غيره من الطرق المؤدية إلى مريدي
وكان الليل مظلماً والجو بارداً وروائح الزهور تعطر الجو كأنك داخل حديقة غناء
وصلت العربة مريدي في نحو منتصف الليل والناس نيام فأدخلنا منزله وأعطى كل
واحد منا سريراً وغطاء حيث البرد قد اخذ منا مأخذاً وجاء بالشاي الحار فشربنا
وقد خفف عنا كثيراً من وطأة البرد وفي الصباح أخذ بيدنا حيث يسكن الأخ
محمود حاج مهدي(٢) وأخوه عباس وكانت مفاجأة لهما حيث لم يتوقعوا مثل هذه
الزيارة وكانت الدعوات تتقاطر علينا من كل تجار مريدي(٣) ممن نعرفهم وممن لم
نعرفهم كانت أقامتنا نحو أسبوع ولم نجد عربة لمواصلة الرحلة فتبرع الأخ محمود
وقدم لنا عربة بوكس كان يملكها لنصل إلى أنزارا وكان هو نفسه يرافقنا مروءة
منه لا يريد أن يوكل أمرنا للسائق ومررنا بسوق يامبيو وبعد أن طفنا حول المدينة
وتعرفنا على معالمها وأخذنا قسطاً من الراحة وكان الطريق سهلاً معبداً وبارحناها
بعد قليل ولما وصلنا مشارف انزارا طالعنا مباني من القش كثيرة وتبين لنا أنها
مدينة العمال الشماليين الذين يعملون في المنشآت التابعة للمصنع وهم من أبناء
الشمال المهرة بينهم البناء والنجار وعلى رأسهم المهندس القدير السيد أمين عيسي
فقابلونا بالترحاب ومكثنا معهم بعضاً من الوقت ثم دخلنا انزارا لنشاهد مصانعها
ومنشآتها وكانت بحق مدينة عظيمة ومن منشآتها مصانع للصابون ومعاصر
للزيوت ومخازن اللبن ومصنع للدمورية وهي تنتج أحسن أنواعها وفرع للبحوث
الزراعية ومحطات تجارب وقد احتوت على أنواع كثيرة منها تجارب زراعية

وإنتاج الهبهان الذي أجري عليه التجارب ونجح نجاحاً باهراً ومنها الزنجبيل وأنواع كثيرة وقد نجحت التجارب على كل ما يستورد من الهند أو جزر الهند الشرقية من توابل وخلافها حيث تقارب الطقس في جميع منطقة الزاندي أو غرب الاستوائية وبعد أن وجدنا عربة لوري في طريقها لواو وودعنا محمود وسارت بنا العربة إلى أن وصلنا طمبره مقر رئاسة سلاطين الزاندي حيث مقر جددهم الأول ومؤسس الدولة قبل مئات السنين توقفت العربة قليلاً ثم اتجهت بنا نحو مدينة واو عبرنا نهر بشري بواسطة بنطون والقينا عصا التيسار إذ حلت ضيفاً على الأخ بشير محمد خير(٤) والرشيد محمد البشير رحمهما الله حيث سكنا في قطية يملكها أحد اليونانيين بالقرب من خور صغير يصب في نهر الجور ومقام عليه جسر خشبي ينادونه كبرى التكتكه ليصل بين مدينة واو وقرية سكاني الأهالي يسموها المقطاع (أي عبر النهر) فكنت أشاركهم سكاني هذه القطية ليست ككل القطاطي فإنها تمتاز بموقع جميل وعلى مساحة من الأرض تطل على هذا الخور وحولها عدداً من أشجار المنقا وسط هذه الأشجار بنيت مسطبة على ارتفاع خمسة وسبعين سنتيمتر للجلوس عليها ليلاً تفادياً للزواحف والحشرات يؤمها في كل مساء جوقة من الشماليين ومن بينهم الأخ الفاتح الماحي(٥) الذي كان يشغل وظيفة أمين مخازن المديرية رحمة الله عليه وكانوا يقضوا لياليهم في سمر مع بقية الرواد وهم كثرة ويفصل هذه القطية عن حلة فلاته شارع رئيسي من ناحية الغرب وكان حظر التجول مفروضاً على المدينة من الساعة العاشرة مساء وقوة البوليس تجوب وسط وأطراف المدينة على ظهور الخيل ويساق للحراسة كل شخص لا يحمل فانوساً مضيئاً ولقلة انتشار الفوانيس وعدم البطاريات بين الأهالي لهم حق استعمال عوداً من الخشب يوقد أحد طرفيه كجواز مرور وبعد قضاء نحو أسبوعين أراد مرافقي أن يرجع إلى ملكال وقد راققت في نظري وقد فكرت في فتح متجر بها ويشجعني الأخ الفاتح والحاج بشير وقررت التخلف وودعنا صاحبنا وقام إلى ملكال

واستأجرت دكاناً صغيراً من الشيخ يوسف المليح الذي تربطني به صداقة قديمة منذ العشرينات فقدم لي كل مساعدة وهياً الدكان وبدأت العمل بما يشبه كنتين في حي ولكن كانت حركته التجارية لا بأس بها .

مدينة واو رغم أنها عاصمة مديرية بحر الغزال وأكبر مدنها وتعتبر من المناطق المقفولة في عهد الاستعمار إلا أن هذا المنع لم يطبق التطبيق الحرفي كما هو في بقية المدن الأخرى لأن العرب بحكم وجودهم في مصيفهم (سفاهة).

مدينة واو مع اتساع رقعتها وكثرت سكانها من أجناس مختلفة كالفلاته الذين استوطنوها من قبل مائتين من السنين إذا أضفنا إليهم بعض الأفراد من قبائل العرب الذين فقدوا مواشيهم وامتهنوا مهناً أخرى وعرب الرزيقات والمسيرية هم يحملون منتجاتهم من سمن وجلود ومواشي بغرض بيعها في سوق واو كل ذلك من العسير تطبيق قانون منع الدخول ولذلك يدخلونها وهم على ظهور خيلهم وعلى ظهور دوابهم الأخرى دون أن تعترض السلطات ولكن يطبق هذا القانون على كل وافد من التجار الشماليين بحذافيره ولم نجد متنفساً ولا تساهلاً إلا بعد تنفيذ توصيات مؤتمر جوبا(٦).

كانت الحياة في المدينة رتيبة وجامدة خصوصاً بين طبقة التجار ويعزي ذلك إلى تقدمهم في السن كانوا فوق الخمسين سنة ولم يكن بينهم شباب إلا القليل كعمال مع ذوبهم وبطبيعة الحال ليس لديهم نشاطات رياضية ولا ثقافية أما طبقة الموظفين لهم ناديهم يقضون فيه جزء من الليل وكانوا قليلو العدد أما بعد الانفتاح وبدأت الهجرة فجاءت التجارة بشباب طموح فعمروا النادي وجعلوا منه منتدى يجمعهم كل مساء للعب الورق وكانت أعين الاستعمار بصيرة لئلا تدخله السياسة وأكلوا أمر الرقابة إلى مأمور المركز وضباط البوليس الشماليين وكان يرأس النادي في ذلك العهد السيد حسين احمد عثمان الكد(٧) وكان يشغل رئيس حسابات المديرية وقد اشتهر بوطنيته التي لا غبار عليها رغم أن نشاطه محدوداً لقلّة الموظفين والتجار

الذين ينتسبون للنادي لكن الاستعمار يخشى من استغلال النادي لأغراض سياسية فعملوا جاهدين على تحييته عن رئاسة النادي وجاءت الانتخابات وترشح السيد حسين احمد عثمان وترشح ضده مأمور المركز وقامت الدعاية المغرضة التي تصاحبها بعض التهديدات من جانب السلطة فجمع المأمور حوله طبقة من التجار وأغراهم بالوعود وحذا حنوه ضابط البوليس ورشح بعض التجار كأعضاء في اللجنة التنفيذية إذا فازوا بالرئاسة فطبقة التجار إذا وضعت مصالحها في الحسابان فلا شك أن المأمور هو قبلتهم وتقربهم له أجدى بكثير من الانتماء إلى حسين وأعوانه وجاءت الانتخابات وظهرت نتيجة الانتخابات بالاقتراع السري بفوز المأمور وشلته و لم يرغب علينا إن المأمور وضابط البوليس هما عينا الحكومة التي ترصد وتسجل حركات كل شخص في المدينة وإيلاغها يومياً إلى سعادة المدير المستر وأين ويعرف من اللغة العربية الكثير ويكاد يصل إلى درجة المستشرق وكان يزور النادي في أغلب الأوقات ويلعب الورق وهو الوحيد من البريطانيين الذين يهتمون بزيارة النادي ليقضي بعض وقته في لعب الورق فكانت لعبة الوست هي التي يمارسها ولها طاولتها الخاصة معه وجود لعبة الكنكان وكانت طريقة اللعب هي بخروج المهزوم لأن غالباً ما يكون المنتظرون كثيرون بطريقة الحجز للأقدم ولما يجي دور سعادة المدير يكون قد اختار زميله لا فرق عنده من أن يلعب مع تاجر أو موظف وفي مرة تصادف أن يكون زميله من الموظفين ضد اثنين من التجار كنت أنا أحدهم فلما أخذ مجلسه قال مباراة اليوم الإدارة ضد التجارة فلمن ستكون الغلبة فضحك كل من في النادي إنها لفئة بارعة منه وللحقيقة أقول قد خسر المباراة فقام ضاحكاً وهناً بالفوز وكان سياسياً بارعاً وقد تجلي ذلك في موقفه عندما وقعت مشادة كلامية بين الفاتح الماحي أمين مخازن المديرية مع نائب المدير المشرف على المخازن وله حق الجرد في أي وقت يشاء حصلت المشادة الكلامية بينهما وكان الفاتح لا يخاف أبداً وله مواقف مشهودة مع الإنجليز وهم في أوج

السلطة من هذه المواقف عندما أضرب طلبة كلية غردون عام ١٩٣٢ كان هو من ضمنهم ولما لم تجد الوساطات من زعماء السودان قفلت الكلية أبوابها وعاد الطلبة إلى أهلهم ورجع الفاتح إلى موطنه الكوة وجاء نائب مدير الدويم تصحبه زوجته على ظهر جوادين لمقابلة باخرة نيلية فترجلا عن جواديهما وكان الفاتح يقف على شاطئ النهر فأمره النائب بأن يمك بمقود الجواد ليساعد زوجته في نزولها من ظهر جوادها فقال بالحرف (أنا موش خدامك) ف وقعت هذه الكلمة كالصاعقة ورأي فيها أكبر إهانة تلحق به فاستشاط غضباً وتلفت يمنة ويسرة فلم يجد من يستعين به على القبض عليه ليوذعه السجن وذهب الفاتح عائداً إلى المدينة فأرسل النائب إلى عمدة المدينة وقدم له أوصافه كاملة فمن باب تهذئة الخواطر قال العمدة أن هذا الولد الذي وصفته له لوثة في عقله وقد تحصل هذه النوبات كثيراً مما يجعله يتصرف تصرفاً غير سليم وعلى كل حال أنا سأقوم بمعاقبته بالجلد وأترك لي يا سعادة النائب هذا الأمر فسري عنه قليلاً وترك الأمر له ولكن هذه المرة وباصطدامه مع نائب مدير بحر الغزال وهو رئيسه المباشر فمن يكون له شافعاً وكل يري قد أصابه شئ من الإهانة ففكر الفاتح قليلاً وآثر أن يسبق النائب ليبلغ الأمر إلى سعادة المدير قبل أن يسبقه النائب فتوجه نحو مكتب المدير وطرق بابه فأذن له وكان منفعلاً وهكذا يبدو فقال يا سعادة المدير إني مريض بضغط الدم وعندما يسئ إلى سعادة النائب بهذه الطريقة وأنا أخشى على حياتي فأمره بالجلوس على أريكة بجانب المكتب وأخذ يتلطف معه في الكلام حتى هدا روعه وطلب نائب المدير فلما وصل أجلسه بجانب الفاتح وقال له أن الفاتح أخوك وأن إنك لا تعلم بأنه مصاب بضغط الدم لما حصلت بينكما قال لا علم لي بذلك قال يجب أن تتسامحا أمامي ولا يحصل بينكما مثل ذلك مستقبلاً وتسامحا وخرجا كأخوين .

كانت مياه نهر الجور في أيام فيضانه تغطي جزء كبير من الأرض شرق مدينة واو لما تتحسر المياه تصبح هذه الرقعة من الأرض مخضرة مليئة بالحشائش

تقصدها أنواع الصيد المختلفة خصوصاً غزالة الحمراية ترعي ليلها كله في هذه المنطقة بإعداد كبيرة وكنا لا نألف لحم البقر وقد لا يلائم طعمه كل إنسان فنعمد إلى صيد الغزلان لنشبع رغبتنا من لحمها اللذيذ وكان يرافقني عبد الوهاب عبد الله أحد التجار وكان شاب قوى البنية ففي أول رحلة وكان ماء النهر لا يتجاوز الركبتين بعد صلاة العشاء قطعنا النهر وكانت ليلة شديدة الظلمة وتجولنا في أنحاء التونج فعثرنا على قطيع من الحمراية وأصبنا واحد منها ولما كنا نحن اثنين لا ثالث لنا فقد شممت عن ملابسي لا قوم بمساعدته في حملها لأنها فوق طاقة شخص واحد من حيث كبرها فلما رأي منى ذلك قال على الطلاق لا تحملها معي فأنا كفيل بها فقلت من المستحيل أن تستطيع حملها قال عليك بندقيتك فقط فجمع قوامها وربطها بحبل وجلس على الأرض وأراد أن يضعها على رأسه فلما أستوي قائماً تمايل وترنح وسقطت منه على الأرض فقلت له أنت أمام أحد خيارين أما أن تحمل جزء على قدر ما تستطيع حمله أو نرجع لنا تي بمن يساعدك فلم يرضه الحلين فقلت إذن أطع أمري بأن نجرها بالأرض حتى نقليها في النهر وبعدها نجرها وهذا أنسب الحلول فوافق ولما بلغنا المدينة ووصلنا الشاطئ الغربي أدخلت في روعه بأن إذا عثر بنا أحد البوليس أو رجال حرس الصيد فسنقضي بقية ليلنا في الحراسة لمنع التجوال ليلاً فبعد أن أفرغنا بطنها من الفرث والمصارين إلا الكبد ورفعناها فوق كتفه وسرت أمامه وكان البيت لا يبعد كثيراً من شاطئ النهر وصلنا وكانت عقارب الساعة تقارب منتصف الليل بعد ذلك قام بتحميم الكبد وأكل أكثر من نصفها وأغلق الباب خلفه وانصرف بعد أن أمرته إلا يوقظني من نومي للأكل وفي المساء ذهبت إلى النادي قدمت دعوة لبعض الموظفين وبعضاً من التجار للعشاء معي وجئ بالعشاء حلة كبيرة مليئة باللحم غنية بالسمن والبصل وصحن آخر مليء بالمحمر ومد البساط وضعت فوقه الحلة والصحن وحوله الرغبة فكانت أكله دسمة وتكرر هذه الدعوات كلما أصبنا غزلاً وأصبح عدد الرواد يزداد في كل مرة كل

واحد يجز معه صديقه وكانت أيام مشهودة تحمل كل معاني التآلف والتكاتف وكانت قد نالت إعجاب الجميع . وفي أحد الأيام وقد أصبت بوعكة أقعدتني عن الخروج للصيد وكان الفاتح بجانبني واتفق الفاتح وعبد الوهاب أن يقوموا بهذه المهمة وكان الفاتح يملك سلاحاً نارياً وخرجا ولما جاء بعد طلوع الفجر صفر اليدين وقلت ما الخبر قال أثناء اللف والدوران في ظلمة ونفور الصيد والجري وراءه قد تهنا وسط التونج ولم نميز الشرق من الغرب ولم نهتد إلى النهر واختلفنا فهو يقول نسير اليمين أقول لا أنا أقول نسير نحو الشمال هو يقول لا حتى أخذ منا التعب وجلسنا على الأرض ونحن نسمع وقع أقدام الذئاب قلت له إن ما يقال عن كديس بت المني سينطبق علينا الليل وقال ماذا قيل عنه قال اشتكي أحد المزارعين من وجود الفيران التي تقلع البذور فجاء بكديس (هر) وسرحه في المزرعة ولما جاء في الصباح وجد الفيران قد أكلت الكديس فإن نحن لا زال نختلف سنقع بين برائن الذئاب التي تسمع عواءها فانصاع إلى الأمر بعد قليل قد وجدنا أنفسنا على شاطئ النهر ولكن أين تقع مدينة واو من مكاننا هذا وقررنا المبيت على الشاطئ حتى مطلع الفجر قلت ألم تفكر في إلقاء قشة على النهر ليتبين لكم اتجاه التيار فتمشوا عكسه قال لم تراودنا هذه الفكرة إنما مشينا دون هدى حتى طالعتنا أنوار المدينة.

يقال أن الحاجة أم الاختراع كانت الطيور التي تتجمع على شاطئ النهر بأعداد كبيرة من وزين وفكنج وكان أحد الفلاته من سكان مدينة واو يري هذه التجمعات وهو عاجز عن أن ينال منها شيئاً وكان نحيل الجسم قصير القامة كجسم الشاعر بشار بن برد قال :

وإن بين بردي جسم نازل لو اتكأت عليه لا تهدم

ففكر ملياً وجا بقطعة من القماش وجمع كمية من ريش الطيور المختلفة وأخذ في نظمها وتثبيتها على القماش وجعلها في شكل قميص يرتديه فكان يزحف على ركبتيه تارة وعلى بطنه حتى يدخل وسط الطيور فيقبض على واحدة منها واستمر

على ذلك وشاع الخبر حتى وصل سعادة المدير فطلبه وصادر منه القميص بعد أن
لقي جزاءه من السجن وقال له انك تحتال على الطيور وهذه طريقة ممنوعة قانوناً.
شامبي والكجور (٨)

الكجور وأثره في حياة المجتمع البدائي

في عام لم تجود السماء كما وعدت وكان برقها خلب وسحابها لا يأتي إلا
بالرزا فأصاب الأرض الجفاف ولم يجني الأهالي محصولاً يعتمد عليه وكان
التخوف من حدوث ضائقة أو مجاعة وفي ذلك ما يعرض الثروة الحيوانية للتلف
بيعاً كان أو ذبحاً وهذا مالا يرضيهم وتحسباً لما يجيئ به المستقبل لابد من عمل
يخفف من وطأة هذه المجاعة أو يبعد شبحها وكان ميعة شامبي (بحيرة صغيرة) (٩)
هي المنفذ الوحيد الذي يرون فيه الخلاص وشامبي تابعة لمديرية أعالي النيل وقد
اتخذتها مديرية بحر الغزال ميناء لها على نهر النيل وهي لا تبعد كثيراً عن مركز
يرول أكبر مدن بحر الغزال بعد واو وقد كانت بها معصرة حديثة للزيوت
لاستيعاب محصول السمسم الذي يزرع في مساحات واسعة يأتي بمحصول جيد
وإنتاج وفير وبدأ يغزو الأسواق بإنتاجه وبيعاً بأسعار رخيصة وقد سد حاجة أكثر
أسواق بحر الغزال من هذه السلعة غير أن يد التخريب قد لحقته في السنين الأخيرة
وأصبح أثراً بعد عين وقد ساهم مساهمة فعالة في تحسين دخل الفرد علاوة على
التحسن الذي طرأ على اقتصاديات المديرية .

وميعة شامبي غنية بأنواع السمك المختلفة لاتساع رقعتها واتصال أحد
أطرافها بنهر النيل وقد وجد فيها السمك مأوي ومرتعاً خصباً لما ينبت في أطرافها
من قصب البردي وأهلها من قبائل الدينكا القاطنين حولها يلجئون إليها دوماً لصيد
السمك لاستعمالهم اليومي لكن هذه المرة تختلف عن سابقتها حيث الطلب أكثر وكل
فرد يريد أن يقتني أكبر كمية ويطمع في المزيد وهنا يكمن الخطر وتقع المشاكل
والمنازعات بين الأفراد وربما شملت القبائل فكيف القبائل فكيف الوصول إلى السلم

والتحاشي من حدوث مجابهة ودون ذلك خرط القتاد فاجتمع العقلاء من بين القبائل وقرروا الاتصال بالكجور لينالوا رضاه ويعطيهم الضوء الأخضر لممارسة صيد السمك ويطلبوا منه الدعوات لئلا يحدث ما يعكر صفو الأمن بين القبائل وقام الوفد والتقى بالكجور في منزله وطرحوا له الفكرة وشرحوا له القصد وأبدوا له تخوفهم من حدوث فتنة لكثرة الأعداد التي تدخل الميعة سواء بقصد أو بغير قصد وألحوا عليه بعمل طقوسه المانعة لما يحدث من شر فوعدهم خيراً واقتراح عليهم أن يتقابلوا غداً على شاطئ الميعة من ناحية السوق وكل العاملين به من التجار الشماليين ولما جاء الغد والتقى الجمعان وكان الكجور وسط كوكبة من رجاله وهو يمشي الهوينى وفي أبهة وعظمة وهو يتوكأ على عصاه المريشة والمزينة بأنواع الخرز وقد ربط عليها إعداد من أجراس النحاس الصغيرة وهي ترن رنيناً موسيقياً أثناء تحركها وفي طرفها الأسفل كوكاب صغير ليسهل غرسها في الأرض وسار الوفدان نحو الشاطئ وتبعتهما طبقة التجار بدافع من حب الاستطلاع وتقيماً للموقف وماذا يقول وقفوا جميعاً على حافة البحيرة وتقدم الكجور وأمسك بعصاه السحرية وبكل قوته غرزها على طرف الماء وبدأ يتكلم بكلام وفي لهجة المتوسل وفي صوت هادى وبلغة مفهومة ما معناه يا اللاهي أوجدني (قن دونق جدي الكبير) إن هؤلاء القوم جاءوا يطلبون منة أن تسمح لهم بصيد السمك أولاً وثانياً أن تمنع عنهم الشر وأنا جئت إليك متوسلاً وراغباً في مساعدتك بتحقيق كل ما يطلبونه رحمة بالعجزة والأطفال الذين هم أولادك فأمنع عنهم الشر وآتهم الخير تغيرت بعد ذلك سحنته وأغمض عينيه وأخذ يتفوه بكلمات غير مفهومه وهو يتصعب عرقاً لم تستمر هذه الحالة إلا بضع دقائق ثم غير من لهجته إلى كلام مفهوم وقال بعد ثلاثة أيام سيموت السمك ويطفو على وجه الماء وسوف لا تجدوا مشقة ولا تعب وكل إنسان يجد حاجته منه دون استعمال حربة أو كوكاب وتستمر هذه الحالة لمدة ثلاثة أيام أخرى وسيكون الناس في محبة ووثام ولن يصيبهم مكروهاً غير حادث واحد وبعد

أيام قليلة سيدخل المدينة حيوان مفترس ويتصدى له بعض الأهالي فيقتل منهم شخصاً ويتعرض أحد التجار إلى أذى بسيط عبارة عن جروح غير أنها ليست مميتة وكان من بين التجار من يجيد لغة الدينكا فنقل الحديث إلى بقية التجار فكانت مفاجأة وكان كل الجمع في حالة إصغاء يستوعبون كل صغيرة وكبيرة تخرج من فيه ويضعوا لها وزنها استمر هذا الموقف ما يقرب من ساعة كاملة ثم بدأ يعود إلى حالته الطبيعية شيئاً فشيئاً حتى إذا ما عاد إلى وعيه رفع عصاه من مكانها وجلس الجميع على الأرض مسحونها تحت أقدامه بأيديهم تجلة واحتراماً وتفرق الجمع كل منهم سلك طريقه وانتشر الخبر بين القبائل واستعدوا جميعاً في انتظار اليوم الموعود وأصبح شغلهم الشاغل يحصون ساعات الليل والنهار يستعجلون حلول اليوم المرتقب ومضت الأيام الثلاثة وأشرق شمس اليوم الرابع حتى بدأت الآلاف من الناس تتقاطر نحو البحيرة وقد رأوا العجب السمك يطفو على وجه الماء منه ما هو ميت ومنه ما يتقلب وعلى وشك أن يموت وهم يجمعون حتى زالت الشمس من كبد السماء ووجدوا أن ما لديهم يزيد عن حمل كل فرد فأوقفوا الجمع وحملوا ما جمعوا إلى دورهم وقضوا بقية يومهم في تقديده ونشره للهواء وكانت فرحتهم عظيمة لما أصابوا وبعد انتهاء الثلاثة أيام أختفي المنظر وعادت البحيرة كسابق عهدها وكانت ظاهرة غريبة حقاً لم يروا لها مثيلاً قبل ذلك وكان حديث الناس أما طبقة التجار بعد رأوا أن النبوة الأولى قد تحققت ولم يبق إلا الشطر الآخر الذي يهتمهم كانت حيرتهم شديدة وكان حديثهم في مجتمعاتهم فما العمل وما هي الحيلة التي يمكن عملها لتفادي هذا الحيوان ومن أين يجيء ليلاً أم نهاراً وهكذا شغلهم الهواجس وما هو نوع الحيوان ومع وجودها وهي تحوم حولهم تكثر الأفيال ووحيد القرن والقرنتي وبقية الحيوانات الأخرى وهي تحوم حول السوق وتسمع وقع أقدامها وأنت ترقد على فراش النوم هذا من ناحية أما الناحية الثانية من هو الضحية الذي يسوقه القدر ليكون كبش الفداء وكان الواحد منهم من شدة الحذر أن يتلمس

الأرض موضع قدمه قبل أن يضعها وهم يعلمون أن الحذر لا يمنع القدر مرت الأيام وفي أحد الأيام وكل تاجر أمام متجره وكان سيد أحمد بوبي (١٠) يجلس على مقعد فإذا بصياح وولولة تأتي من ناحية منزله وكانت به عائلة أحد أقربائه (١١) يشاركه سكني الدار فقام مسرعاً وكان المنزل يقع خلف الدكان مباشرة فكان أول داخل للدار وما وطأت قدمه الباب الخارجي حتى رأى نمراً كبيراً يطارده عدداً من الأهالي وقد احتمي بحظيرة للغنم وخشي سيد أحمد أن يفتك النمر بمن في الدار فدخل وراءه فوثب عليه النمر ووضع يديه على كتفي سيد أحمد فأمسك بهما بأيدي قوية وأبعدهم عن كتفيه خوفاً أن يتمادى على جسم سيد أحمد ويصل إلى رأسه فيعمل أنيابه فيه وفي ذلك تهشم جمجمته وأخذ يتصارعان وامتلات الساحة الخارجية بالناس ولم يجرأ أحد للدخول عليهما وكانت المقاومة والصراع وقد شعر سيد أحمد بأن النمر لجأ إلى الحيلة وقد لف ذيله في أحد رجلي سيد أحمد ليدفعه للخلف ويكون الذيل بمثابة قيد يمنعه الحركة فيسقط على الأرض وبذلك يستطيع الوصول إلى رأسه فتعمل أنيابه وتتهشم الجمجمة لكن سيد أحمد كان يقظاً وفطن للحيلة وانتهاز فرصة اشتغال النمر متلمساً أرجل سيد أحمد واستل سكينته وغيبها بين ضلوعه وقد أخطأت موضع القلب بقليل فوجد النمر أيضاً فرصته في تحرير أحد يديه فمال على رأس سيد أحمد لكنه كان أسرع منه إذا أراد أن يطعنه في عنقه لكن لم يتمكن بل تعرض إلى عضة منه أدمت ساعده وغرس أنيابه لكن الطعنه كانت مميتة ونزف منه دم غزير مما أفقده قوته وترنح وسقط على الأرض ورغم سقوطه على الأرض لم يجد سيد أحمد بداً من أن ينهال عليه طعناً حتى فارق الحياة وأخيراً تبين أن النمر هجم على أحد المساجين عندما كان مختبئاً بين الأعشاب الطويلة فمر أحدهم بالقرب من المكان وكانوا يقيمون بحش العلف لخيول البوليس المقيمين بالنقطة ووثب عليه وهشم رأسه وتصايح المسجونون وهرب نحو الدار فلقي مصرعه على يد سيد أحمد وكانت أصابته في كف يده اليمنى حيث

غرس أنيابه فيها مما سبب له عجز بسيط في حركة اليد وعطلت العضة أحد الأعصاب في الكف وأسعف حيث نقل إلى مستشفى رومبيك وكان موقفه هذا يستحق التقدير وإن دل على شئ يدل على شجاعة تامة ومروءة فائقة (١٢).

فما قول القارئ الكريم في تنبؤات هذا الكجور من أين استوحاها أمن شيطان يتغمصه ويتكلم هو بلسان الشيطان عندما كان يتكلم بطريقة لا شعورية وغاب عن وعيه فهل هو في هذه الحالة يتلقى وحياً من شيطانه هذا ما نجهله ولا يستطيع الخوض أكثر من ذلك وللکجور خاصية لا يشاركه فيه أحد وقد يرتدي جلدًا من جلود النمر ويربط وسطه بحزام من القماش الملون الفاخر ويضع على رأسه قبعة مصنوعة من سعف النخيل ومحلة بأنواع الريش الزاهي الألوان بالإضافة إلى ريش النعام الأسود المتدلي حتى يلامس كتفيه وفي يده عصاه التي سبق وصفها أما من ناحية حياته اليومية فهو يعيش عيشة رغده بحكم ما تدره عليه كجوريته من بهائم صغيرة وكبيرة وهو يمارس العلاجات لبعض المرضى ومحاولة إزالة العقم بين الرجال والنساء بطريقة استعمال العروق وخلافها وهو يملك من البقر والغنم ما يكفيه لاحتياجاته الضرورية وغير الضرورية وقد ترفعه كجوريته هذه إلى مصاف الأغنياء في البلد .

البتروول يطل برأسه وسط مدينة واو

اختير لمدينة واو موقعاً يتناسب مع مسئوليتها التاريخية روعي فيها مستقبلها القريب والبعيد من حيث أنها أكبر المدن في ذلك القرن السوداني مما جعلها تزدد عمرانياً وعلى مر الأيام اختير لها أرض حجرية على الشاطئ الغربي من نهر الجور وكل مبانيها من الحجر الأحمر الذي يقال أنه يحتوى على خام الحديد فدواوين الحكومة ومنازل البريطانيين والموظفين والمتاجر والمنازل كلها مبنية من هذا الحجر إذا استبعدنا قرى الأهالي وشوارعها مستقيمة ونظيفة جميلة المنظر عطيك منظرًا المدن الرئيسية في شمال السودان وبها مولد كهربائي ووابور لضخ

المياه أنشأ حديثاً أما في عهدها الأولى كانت حاجتها من مياه الشرب من النهر وكان النهر في زمن الفيضان يتغير لونه مما يحمله من طمي وفي أيام الصيف تقف مياهه عن الجريان وتتحصر مياهه في برك ومستنقعات يفسدها عدم الجريان ولذلك عمد التجار الشماليين منهم والأجانب بحفر الآبار لتوفر لهم احتياجاتهم من مياه نقية صافية فتجد في كل بيت بئراً ففي أحد منازل اليونانيين وجد صعوبة في حفر البئر بسبب ما تعترضه بعض الصخور في باطن الأرض ولم يتقلب عليها إلا بعد جهد جهيد حتى توصل إلى الماء وبدأ يستعملها إلى أكثر من عشرة سنوات وفي صباح أحد الأيام شعر بتغير في لون الماء واختلاطه بطبقة دهنية تطفو على السطح لها راحة الغاز فاتهم عامل الناموس الذي يحمل معه دائماً زجاجة تحتوي على زيت محروق ليصبه على البرك والمستنقعات ومحلات توالد الناموس فشكى ذلك إلى مفتش الصحة وكان السيد مصطفى الشعار هو القائم بأمر الصحة هناك فجمع العمال وأجري التحقيقات وكل منهم ينكر ولما لم يتوصل إلى نتيجة رجع إلى الخواجة واعتذر له ووجهه أن يجند أربعة أو خمسة من العمال لقطف الماء حتى تجف البئر وبذلك ترجع المياه نقية صافية .

جاء بالعمال وبدأ العمل فكلما رفعوا دلوا من ما البئر ازدادت كمية الزيوت الطافية وانتشر ريح الغاز وكان مفتش الصحة يقف بجوارهم فداخله الشك من أن يكون هذا نتيجة عمل من عمال الصحة فأخذ عوداً يابساً ومر به على سطح الزيت الطافي وأشعل تقاباً وقربه من العود المشبع بالزيت فإذا هو يلتهب وتوقد كالسراج ومن هنا لابد أن يبلغ ذلك إلى مفتش المركز وجاء ورأي بعينه وبلغ بدوره مدير المديرية فأمر بوقف العمل في البئر وأخذ عينة من الماء في زجاجة وأرسلت إلى الخرطوم لعملية التحليل ولما كنت أنا موجوداً في تلك الأيام وسمعت بالحادث أثرت أن أتأكد بنفسي (وليس من رأي كمن سمع) فتوجهت نحو مكتب المفتش الصحة وسألته عن جليلة الخبر فأخذ زجاجة من فوق رف وعلى صحن صب جزء من

محتويات الزجاجاة وجاء بخشبه ومر بها على سطح الماء وأشعل عوداً من الكبريت فإذا بها تلتهب وتولع والرائحة غاز ما في ذلك من شك مر الأسبوع ثلو الأسبوع ونحن نتلهف لمعرفة النتيجة بما سترد به الخرطوم بعد التحاليل اللازمة مر أكثر من شهر ونحن على أحر من الجمر وفي أحد الأيام جاعني السيد الشعار ليقول وصلت النتيجة وقررت أن ليس هناك من غاز ولا شيء يشبه الغاز إنما الحصل أنه نتيجة تسرب بعض الزيوت (زيت الطعام طبعاً) من مخزن بالقرب من البئر ووجد طريقه إلى باطن الأرض وهي حجرية واشتداد حرارتها احترق الزيت وأعطي هذه الراحة وبعد أن خف وزنه انساب حتى وصل إلى البئر فقلت للسيد الشعار هل اقتنعت بهذا التعليل فأجابني بأنه كلام مصطنع لا يمت إلى الحقيقة لا من قريب ولا من بعيد إذا أضفنا إلى ذلك عدم وجود أي مخزن بجوار البئر هذا من ناحية أما من الناحية الأخرى ما هو حجم الزيت المتسرب الذي أحدث هذا الكم حتى لوث كل المياه المستخرجة من البئر التي تقدر بعشرات الأمتار المكعبة قلت إذن هو من باب التضليل عمد إليه المستعمر وعاد إلى في الغد ليقول إن الحكومة قد أمرت بردم البئر بالحجارة والأسمنت حتى سطح الأرض وقد حصل ولا زالت هذه البئر موجودة وأثرها بين فما معني هذا الردم الذي كلف الحكومة مبلغاً من المال كان يمكن أن تمنع من أخذ الماء منها ولكن المستعمر قام بعمله هذا ليخفي كل معالم هذه البئر وما تحويه من سر فهل في ذلك ما يشجع الحكومة الآن بحفر بئر بالقرب من الأولى أو أن تعيد فتحها وإزالة ما علاها من حجارة وأسمنت كي يعرف ما بداخلها إن كان هو حقيقة بترول أم غاز طبيعي وهو لا يبعد عن سطح الأرض إلا بأربعة أو خمسة أمتار وإني لموقن بعد أن توفرت المعلومات بوجود بترول في السودان فلاشك إن واو ستكون أولى هذه المناطق بسبب وجود بشائر تشير إلى وجوده على سطح الأرض القريبة .

الصاعقة وما تحمل من موت

عندما يرسل البرق ضوءه وترى في ظلمة الليل البهيم كل ما حولك وكأنه النهار وتعلم تمام العلم أنه نذير رعد قاصف يحمل بين طياته صاعقة تأتي على كل ما غشيته فإذا فكرت وأمعت في تفكيرك عن أساس هذه الظواهر وما تحمل من موت ودمار تخافها كل مخلوقات الله وتشعر بخطرها لا فرق بين الحيوان والإنسان وكنت أتسأل دائماً عن السر الكامن وراء هذه البرق والصواعق وعن مصدرها نجد الجواب بأن علماء الطبيعة يصفونها بأنها نتيجة تفاعلات كهربائية وفيزيائية تحدث بطبقات الجو العليا ولو غصنا في معنى الآية الكريمة وفي شيء من التأمل وهو قول الله عز وجل (وأنزلنا من السماء فيها من برد) .

فمن طبيعة البرد أن يكون جسماً كثيفاً فلو أنزله الله بهذه الكثافة لأهلكت الحرث والنسل بل شاعت مشيئة أن تجعل من احتكاك السحب تياراً كهربائياً يولد الحرارة وتنتشر فيزوب البرد ويصل إلى الأرض قطرات مائية لا خطر منها والدليل الذي يثبت صحة هذه النظرية أو يقربها من معقول الإنسان العادي يلاحظ في بعض الأحيان عندما يصل الطقس على درجة عالية من البرودة وتكون كثافة السحب وتماسكها ويبدأ نزول المطر فينزل في أحجام كبيرة يهرب منها الإنسان والحيوان لأنه نزل قبل أن يجد الحرارة الكافية التي تنذيب البرد مما يكون تراكم الثلوج التي تغطي وجه الأرض ولكن هناك سؤال يحتاج إلى إجابة والسؤال هو هل الصاعقة عبارة عن جسم صلب أم هي مجرد تيار كهربائي يغطي جسم الإنسان أو الحيوان فيؤدى بحياته وأنا أسوق لك حدثاً شاهدته بعيني ولك بعد ذلك أن تجيب عن السؤال أو تمتنع أو تؤمن بأنها جسم أو غير جسم فتقتنع .

كنت أجلس داخل متجري بواو وكانت السحب قد غطت وجه السماء سوداء مترامية تكاد تلامس الأرض من كثافتها وأخذ البرق يرسل ومضاته والرعد يزمر وبدأت قطرات المطر تتساقط في غير غزارة فإذا ببرق يكاد يذهب

بالأبصار أعقبه صوت رعد كأنه طلقة من مدفع من الوزن الثقيل حتى ارتجت الأرض تحت أقدامنا فتعالت صيحات الناس وانقلب إلى بكاء وعويل من الميدان الذي يتخذة الأهالي كسوق لبيع الخضر والفاكهة وأشياء كثيرة أخرى وجاءت الأخبار ثلاثة من الأهالي قد أصابتهم الصاعقة وكان رزاز المطر قد توقف أغلقت باب المتجر وسرت نحو مكان الحادث وفي أثناء سيرني لاحظت على الأرض وهي حجرية صلبة شاهدت أثر وكأنك قد جئت بمطرقة قلمت رؤوس الحجارة وتطايرت بعض أجزائها من مكانها الطبيعي وهي في طريقها نحو السوق المشار إليه وكلما تقدمت كان أثرها بينا يحفر في هذه الصخور إلى مكان الحادث حيث كان يجلس ثلاثة أشخاص كل يعرض سلعته فأصابته الأولى فتركته جثة هامدة أما الاثنان الآخران فكان لا زال بهما رفق من الحياة وجاءت عربة وحملنا إلى المستشفى وعادت لهما الحياة أما جثة القتل فلم أجد فيها أثراً لجرح أو قطرة من دم ونزولاً على أن الإصابة نتيجة لجسم أصطدم به فالأثر على الحجر الذي مر به هذا التيار وأخذ في تقطيع رؤوس الحجارة يدل على أنه من تأثير جسم صلب وكان الميت من قبيلة الجور على ما أذكر ومن عاداتهم أن من يموت من أثر الصاعقة لا يرفع من مكانه حتى يوتي بشاة تذبح في مكان الإصابة ثم يحمل لبلدة لتكمل إجراءات الدفن (١٣) .

بحر العرب

زيارة إلى سفاهه وحولها قبائل العرب

بحر العرب اسم قديم موغل في القدم ولك أن تقول منذ أن دخلت عرب الرزيقات والمسيرية السودان واضطرتهم ظروف الجفاف في شهور الصيف ليجدوا مكاناً يأويهم وتجد مواشيهم المرعي الواسع الفلاة حتى وجدوا ضالّتهم في بحر العرب وهو يقع شمال مدينة أويل التي تسكنها قبائل الدينكا وبعض فصائل الجور وهي عبارة عن فيوض وتيجان ومستنقعات يخلفها وراءه ذلك النهر الصغير والذي

تزيد من رقعة مياه الأمطار الغزيرة فكان لزيارات بعض قبيلة الرزيقات لمدينة واو وهم على ظهور خيولهم الجيدة ويحملون أسلحتهم النارية منظرأ يدخل في الروع وحب الاستطلاع وزيارتهم في هذه المنطقة ومن هنا بدأت الرغبة في زيارة سفاهه لأضيف إلى ما عندي من معلومات أشياء جديدة من ناحية حياتهم ومعيشتهم وهل هي سفاهة صحيح اسماً على مسمى كان ذلك حافزاً إلى الزيارة للمنطقة وجاء من يخبر بأن عربة لوري ستقوم في رحلة تجارية لمدة يومين وقلت في نفسي فرصة طيبة فاتصلت بصاحبه فوافق لأنه يعمل كتاجر متنقلاً على العربة وأخذنا طريقنا ولما ظهرت على الأفق البعيد خضرة الأشجار أشار صاحبي بأنها تباشير تدل على قربنا من منطقة سفاهه وفي نحو الساعة الرابعة بعد الظهر وجدنا تجمعات تحت ظل الأشجار هم رجال يلعبون لعبتهم المفضلة (ضاله) (١٤) وأعوادها المفروشة على الأرض وقابلونا بالترحاب وكان للنساء تجمعاتهن الخاصة ولهن بيوت صغيرة من القش يأوون إليها ليلاً . أصبح الصباح وقمت راجلاً طفت على الأماكن القريبة فتوصلت إلى أن اسم سفاهه لا ينطبق عليها تماماً لأنني وجدت الرجال والنساء يعملون في صيد الأسماك من نوع القرموط (١٥) ويجففوا لحمه بعد أن يقددوه كشرموط ثم يعرض على حرارة خفيفة عن النار خشية أن يصيبه التعفن أو يعرض على الهواء تحت حرارة الشمس ثم يحزم وينقل إلى الأسواق أما النوع الثاني هو ما يسمونه (المندجي) وهو عبارة عن أسماك صغيرة (١٦) وتوضع على حفرة في الأرض ثم يقوم بعجنها على بعض بواسطة أعمدة من خشب على طريقة (الفندك) ثم يصنع منها على شكل قوالب كقمع السكر ثم نعرض على التجفيف تحت حرارة الشمس علاوة على إنتاج السمن البلدي من الألبان المتوفرة مما يجمع منه يعد بمئات الصفائح وقد دخلت في الآونة الأخيرة صناعة الجبن وتنقل أصحابها معهم أينما ساروا هذا عمل الرجال والنساء أما الشباب من الجنسين بحكم عدم المسؤولية التي تقع علي عاتقهم فهم يقضون نهارهم في لعبة الضالة والليل في

حفلات الرقص ولعب النقارة ومنطقة سفاهه هذه ليست قاصرة على العرب بل تجد بينهم من الدينكا والجور وهم القبائل المختلفة ديناً وعادة فالجواب سهل ميسور حيث أن هذه التجمعات ليست بحديثة العهد بل تمتد جذورها إلى مئات السنين وكان مصدرها في بداية الأمر الخوف نعم الخوف مما يملك العرب من خيول وأسلحة نارية ومن المعروف عندهم أن الحصان هو من أدوات الحرب ومعداتنا وهم يتحاشون الوقوع في حرب غير متكافئة يعملون أنهم لا أخوة متحابين لا يحدث بينهم ما يعكر صفو الأمن والشباب عرضه لإثارة الفتنة بين هذه طائفة لهم بمواجهتها قد تتعرض أموالهم وبناتهم للسلب وقد تغيرت الأحوال تدريجياً عندما بدأت بعض القبائل العربية بالتزاوج من بناتهم وأصبحت المصاهرة لها قداستها واحترامها بين الطرفين وعملت في تلطيف الجو ومعايشتهم في سلام ولم يتغير الحال بعد أن عمت الفوضى جميع مناطق الجنوب ودخل الخوارج الغابات وأخذوا يفتكون بالأهالي العزل فلا زال قبائل العرب يتوافدون نحو سفاهه وقد وضعوا في حسابهم كل ما يجيئ به الغيب وأعطوه وزنه واستعدوا له لأن المسألة مسألة حياة أو موت لأن ظروف المرعي التي لم يجدوا لها بديلاً تفرض عليهم ركوب المخاطر مهما بلغ الثمن أو كان حجم التضحية علاوة على ما يجنبونه من تشجيع من الأهالي ليدرعوا عنهم هجمات الخوارج ويحموهم من ممارستهم من سلب ونهب وقتل الأرواح البريئة هذه هي سفاهه في جملتها(١٧) .

علاج نفسي

بعد عودتي من رحلة سفاهه وجدت أحد أبناء العرب الذين يعملون في تجارة السمك المجفف ما بين مراكز مديرية بحر الغزال وجدته ينتظرني أمام الدكان وقال أنا أريد أن أصدقك القول عسي أن أجد منك العون وقال منذ ثلاثة أيام مضت أنا لم أذق للنوم طعماً وقد شعرت بالضيق والكآبة ويرجع السبب إلى بعض أخواني الذين يشاركوني السكن في حجرة واحدة بعد أن نفذ ما كان معي من سجاير

بعد صلاة العشاء وهممت بالخروج بحثاً عن السجائر فقام أحدهم وقدم لي لفافة فيها خليطاً من السجائر وكمية من البنقو فامتنعت من أن أصب منها شيئاً لأنني أعلم ما يترتب عليها وعلى متعاطيها ربما أذهبت عقله وتحت إلحاح شديد على أن آخذ شفقة واحدة فأخذت شفقة وأخرى فإذا بالأرض تموج تحت أقدامي والبيت يدور ويلف فأسرعت نحو فراشي وتمددت وتغطيت ببطانيتي لكن الدوار لم يفارقني وصرت أتقلب في فراشي إلى أن طلع الفجر فقامت متثاقلاً وصلبت الصبح وللآن لم يعاودني نشاطي ولم استطع مزاوله عملي لأنني مشدود الأعصاب وأري خيالات تتراقص أمامي منها ما هو مزعج ومخيف ومنها ما هو مسر وكنت أنتظر رجوعك بفارق الصبر فأيقنت أن قلت له لا علم لي بالعلاجات والأدوية فقد يصيبه اليأس وتزيد حالته سوءاً وربما يفقد عقله فلا بد من علاج نفسي فقلت له أنا ممكن أعطيك دواء ولكن بشرط ألا تعود لمثلها أبداً فقال نعم لك ذلك قلت أذهب من مكانك هذا إلى شاطئ النهر واشتري كمية من السمك على قدر ما يكفيك لوجباتك الثلاثة تكون سليقة لا تضيف إليها إلا الملح وقليل من البصل وتأكله بارداً وأن تكثر من شرب عصير الليمون والبرتقال وتأخذ مضجعتك بعيداً عنهم لئلا تزعجك حركاتهم وفي صباح الغد عد إلى مرة ثانية .

عاد في الصباح وسألته عن حاله قال فعلت كل ما أمرتني وأكلت من السمك غير أن مشاركتهم لي لم أجد كفايتي معهم والكمية القليلة التي أصبتها كانت كافية لتذيقني طعم النوم وقد نمت أكثر من خمس ساعات قلت عاود الكره وأكل منه حتى تشبع وجاعني في اليوم الثالث ليشكر وقد عاد له نشاطه ونومه.

وأنا عندما أعطيته هذه الوصفة استناداً على أعمال الذين يتعاطونها لأنهم دائماً ما يميلون إلى تناول الأشياء الحلوة منها خليط السمسم والسكر وقصصت بالليمون والبرتقال تقوية دمه وحذرت من المنبهات كالقهوة والشاي الأحمر وقد نجحت الوصفة وأخذ يعالج بها غيره.

قبيلة البندا حبل بندا والحرب النفسية

قبيلة البندا هي إحدى القبائل التي تسكن جنوب غرب مدينة واو تشاركها السكن في هذه الرقعة قبيلتي الأندقو وبعضاً من بطون قبيلة كريش التي نزحت عن وطنها الأصلي منطقة راجا وكل هذه القبائل الثلاثة تتفق في كثير من العادات بحكم المواطنة منذ مئات السنين فهم يتخذون من الزراعة مهنة رئيسية وأهم محاصيلهم الذرة والذرة الشامية والفل السوداني والسمسم واللوبيأ بأنواعها والبقرة (١٨) وكان دخل الفرد السنوي ما يكفي لحياته وحياة أسرته ثم يقضوا بقية العام في شبه عطالة يدخل الغابة يحمل حربته وقوسه وكنانته يلتمس من الصيد ليعود به إلى داره وكانت هذه حياة القبائل الثلاثة المتجاورة والمتراصة ولم يطرأ عليها التغيير إلا بعد أن دخلت صنعة أرجل العناقريب من شجر المهوقني الذي ينمو بكثرة في تلك الأرض بواسطة آلة صغيرة بسيطة تدار باليد تسمى المخرطة لأنها تشبه من حيث الشكل والمعدات وطريقة دورانها نفس الآلات التي تستعمل حالياً في سوق أمدرمان خراطة سن الفيل والأبنوس مما يدل على أنها انتقلت من هناك بواسطة العمال الذين كانوا يمارسون هذا العمل بمدينة أمدرمان فنالت رواجاً كبيراً لكثرة الأشجار وتنوعها خصوصاً شجر المهوقني الذي يعتبر هو الخامة الأساسية لأرجل العناقريب (١٩) وبعض المصنوعات الأخرى ووجود شجر الأبنوس الذي يصنع كتحف فنية ومطعمة بالسن أو بقرون البقر يقتنيها ميسورو الحال للزينة وما وصلت هذه الآلة تلك المنطقة حتى عشقها كل رجل وأخذت في الانتشار بسرعة وأخذ يتعلمها كل إنسان حتى دخلت كل بيت وأصبحت تدر عليهم دخلاً يومياً لا يستهان به وغيرت من مجري حياتهم وتحسنت حالتهم المعيشية حيث يأخذ الفرد منهم مما صنعه ليبيعه في الأسواق ويشتري كل متطلبات البيت بعد دخول هذه الصناعة الجديدة . دخلت السعادة كل بيت وأثر النعمة ظاهرة على وجوه الفتيات من حيث اقتناء الملابس الغالية والزاهية الألوان وشعرت بأنها عضو له وزنه في المجتمع

بعد أن كانت كما مهملاً بين الحقول والمزارع شعثناء غبراء كلون الأرض التي تعمل بها هذا التقدم الذي شمل كل فئات وقبائل بحر الغزال إلا قبائل الدينكا قد تخلفت عن الركب الذين شغلته تربية الماشية والزراعة عن سواها ومما ساعدهم على ذلك طبيعة الأرض والمناخ المعتدل أكثر مما لدى القبائل الأخرى ورجل الدينكا أكثر حيوية بحكم الغذاء الذي تربي عليه منذ الصغر وهو اللبن والسّمك وهما من العناصر المهمة لتقوية جسم الإنسان تمده بسرعات حرارية تزيد من نشاطه وطاقاته التي تدفعه للعمل إلى هنا نكون قد بينا السمات المشتركة بين القبائل الثلاثة وبقية القبائل في منطقة بحر الغزال عامة وقد فاتنا أن ننكر عاملاً هاماً له أثره في هذا التجانس والتمازج إلا وهو غزو الزبير باشا وأعوانه لتلك المناطق وإخضاعها لحكمه مما حدا بالأكثريّة من الرجال باعتناق الدين الإسلامي ثم تقلص ظله بعد ذلك بدخول الكنائس وتأييد الاستعمار لها وكانت الحرب الباردة عون بين المسلمين القدامى وبين التبشير بدين المسيحية إلى أن انقرض ذلك الجيل وانفردوا بالأجيال الحديثة واستطاعوا أن يلعبوا دورهم بعد أن غاب أبو شنب (٢٠) وكانت هيئة الكنائس العالمية التي تمدّهم بالمال والمؤن وكان الغرض الأساسي هو محاربة ومحو كل أثر للعرب سواء كان من حيث اللغة أو عادة اللبس لكنهم فشلوا في ذلك حيث أصبحت أصيلة في نفوسهم ولا يمكن الرجوع عنها وللبلندا ميزة خاصة بين قبائل بحر الغزال وهي معرفتهم بخواص عروق الأشجار منها ما يستعمل للشر ومنها ما يعمل للخير وعلاج الأمراض المختلفة كالباطنات والأورام والجروح وهذه العروق منها ما يشرب ومنها ما يعلق على الأعناق ومنها ما يربط على الأذرع وعقيدتهم من حيث النفع والضرر عقيدة راسخة بين كل طبقات الشعب هناك وهم يخشونهم وهي تباع وتشتري من الكجور صاحب الخبرة ولهم طرق عديدة في استعمالها أن كان المعمول له ارتكب جرماً كبيراً يستحق الموت دفنت هذه العروق في قبر ميت وأن كان الجرم لا يستحق الموت فتدفن العروق بين

الأثافي وأماكن إضرام النار بحيث لا تحترق ويكفي أن تصلها حرارة النار فالمعمول له يشعر دائماً بالحرارة تسري في جسده وفقدان الشهية للطعام وينتحل جسمه وبمجرد شعوره بهذه الإرهاصات يبادر بالذهاب إلى الكجور بعد دفع شيء من المال مادياً كان أو عينياً فيعطيه الدواء اللازم وهذا المنظوم من العرق معروف باسم (حبل بندا) أما إن كان المرض بسيطاً فلا يحتاج المريض إلى دفع شيء من المال كالشرب الباطنية والجروح البسيطة .

ولكن هل تعرف مدى تأثير حبل بندا على معنويات الناس هناك واعتقادهم بنفعها وضررها أسوق لك هذه الحكاية عن شاهد عيان عايشها بنفسه دخلها كوسيط مصلحه بين المتازعين وكان أحد التجار المقيمين في أبا(٢١) وهي قرية على الطريق الرئيسي الذي يربط ما بين مريدي يامبيو مارا بمنطقة غرب الاستوائية حتى إقليم بحر الغزال ولا تبعد عن مدينة مريدي إلا بنحو ستة وعشرين ميلاً تقريباً وبها سوق وسكانها من قبائل الزاندي ومن عادة التجار أن يشربوا شاي الصباح مجتمعين في فناء السوق بعد أن يفتحوا متاجرهم . يقول الراوي فإذا برجل قائم أشعث أغبر يحمل سلاحاً نارياً ويلبس بنطلوناً من الكاكي وقميصاً كنغولياً يدخل السوق عن طريق الغابة جاء يجر رجليه جراً من شدة الإعياء والتعب ورغم ما علق بوجهه من غبار ووعاء السفر تبدو على ملامحه أنه ميسور الحال موظفاً ذا مكانة مرموقة في مجتمعه وقابلناه بترحاب وأكرمنا وفادته ويتكلم اللغة العربية بلهجة لا بأس بها وبعد أن ارتاح قليلاً بدأ يقدم نفسه ويكشف عن شخصيته وهويته والمهمة التي جاء من أجلها وقال اسمه جوزيف شوانغو وهو من قبيلة البلندا ببحر الغزال وانتخب عضو في الجمعية التأسيسية وهو الآن في إجازة وعنده رخصة صيد للأفيال وبما أن منطقة بحر الغزال فقيرة من هذا النوع حتى الموجود منها صغاراً من ناحية السن والجسم ولذلك اخترت هذه المنطقة لعلمي أنها غنية وعامرة بأنواع الحيوانات المختلفة واتخذت خبيراً من أهل المنطقة وقد نجحنا في مهمتنا إذ

التقينا بأحد الأفيال وأطلقت عليه النار وقد أصبته إصابة قاتلة غير أنه هرب بما بقي له من رفق بعد أن نزف دماً ونحن الآن ننتبع أثره منذ يومين وسنجد ميراً وما جئت إلا لنشتري بعض احتياجات الرحلة وتركت الخبير يسير على أثر الدم وكان أحد الحضور يسمي مايكل مندليو كان بوليساً إلى أن وصل إلى رتبة جاويز وبعد التقاعد عين كرئيس طلبه يعمل في إصلاح الشارع كان ينصت باهتمام بالغ لكل ما يقول وفي سرعة تسلل عن المجلس وهو يضرر شيئاً لا ندريه وبدافع من الغيرة والحسد اتصل باثنين ممن يثق فيهم فأثار حفيظتهم بأن ما قام به هذا الرجل يمس كرامة القبيلة يجيء من بحر الغزال ويدخل ديارنا دون اعتبار للسلطان ولا البوليس فأنا أشير عليكم برأي صائب تنادي في كل أهل القرية للخروج للغابة فإذا عثرنا على الفيل ندعي أن أحمد إدريس وهو الذي إصابة ويكون نصيبه السن ولنا اللحم واحمد إدريس هذا يحمل بندقية ٣٧٥ عادة لا ترقى بأن يسمح لها بصيد الأفيال كانت مؤامرة محبوكة الفصول أمنوا عليها جميعاً وعلى الفور أرسلوا الرسل يحثون الناس على دخول الغابة فلم تمض ساعة ونصف الساعة حتى عثروا على الفيل ميتاً وعملوا في جسمه بالتقطيع كل على قدرته ونزعوا السن وفي أقل من ساعتين كان اللحم قد دخل البيوت ولم يبق إلا الفرث وبعد قليل جاء لأحمد إدريس من يقول له إن ضيفاً ينتظرك في الدار فلما وصل وجد السن داخل بيته وشرحوا له المؤامرة وهذا نصيبك هي السن فاعتبره رزقاً ساقه إليه أما الخبير المنتبِع للأثر رأى وبقرآستهم المعهودة رأى تجمع الطيور وعلى رؤوس الأشجار وكان يطير من الفرع وهو واثق إن هذه التجمعات من طيور وصقور ما هي إلا على جثة الفيل فهرع نحوها وما أن اقترب من المكان حتى سمع ضوضاء الناس وبوصوله مرقد الفيل لم يجد إلا آثار الفرث وبقية عظام مبعثرة هنا وهناك فأصيب بصدمة نفسية عنيفة ورجع وهو يضرب أخماس باعشار فالتقي بصاحبه في منتصف الطريق وأخبره ما حصل فرجع غضبان أسفاً وتوجه من توه لنقطة

البوليس وفتح بلاغاً ضد أهل القرية ككل وقبل أن يقوم البوليس بإجراءاته وجد التجار أنفسهم في موقف حرج بتورط أحمد في هذه القضية وأي إجراء يتخذ هو وضع أحمد في الحراسة وسيعرض لعقاب صارم وقد يصل إلى درجة مصادرة السلاح ولم يسلم من عقوبة السجن أو الغرامة تحت مواد كثيرة فلهذه الاعتبارات فكر تجار المنطقة لوقف فتح البلاغ ويقدموا الأجاويد لإصلاح ذات البين بين الفرقاء وقد بدأت المشاورات أولاً ومع مدبري المؤامرة وتوصلوا إلى حل وسط هو أن يعطوه السن فذهبوا إلى الضيف بعد أن شرحوا له الموقف بعدم إمكان الحصول عل اللحم بعد أن تفرق في جميع أنحاء المنطقة ومنهم من باع ومنهم من أكل وأصبح جمع جزء منه ضرب من المستحيل ومن باب المال تلتته ولا كتلتته خذ السن واستعوض الله لتخفيف بعض ما لقيت من خسارة فرفض رفضاً باتاً وقال اللحم بالنسبة إليه أهم بكثير من السن وهذه حقيقة إذا وضعنا في الحسبان أن اللحم سيقدمه كهدية للذين انتخبوه وساعدوه في الانتخابات حتى وصل إلى العضوية فماذا يقول لهم بعد عودته من هذه الرحلة فإن سئل أين اللحم فماذا يقول لناخبيه على أثر هذا الشعور بالمساءلة أصر على الرفض ولكن الوسطاء لازالوا به حتى أقنعوه فخاطبهم قائلاً أنا سأترك الأمر كله لأخذ السن ولا غيرها من أجل تدخلكم في الأمر واعتبروا الأمر منتهياً وشكروه على حسن صنيعه ثم قال معقّباً ولكن هناك شيء يجب أن تعلموه أنا من قبيلة البلندا المعروفة لدى كل سكان الجنوب بأن حبل بندا هو ملكاً نستخير على من نريد نفعه أو ضرره فالذين قاموا بهذه المؤامرة أنهم قد نجحوا في تنفيذها أو إنتصروا على كغريب في المنطقة سوف يجد كل منهم على قدر نصبه في المؤامرة أما الذين هم رؤساء المؤامرة فسيجدون مغبة ما صنعوا في القريب العاجل وعلى وجه التحديد إن هم عيدوا معكم عيد الميلاد هذا العام أنا لم أكن بلندا وكان لم يبق للعيد إلا شهرين اثنين وأزيدكم علماً وإيضاحاً ستكون أول الإرهاصات صاحب السلاح الذي أقحموه في المؤامرة فجزاءه عندي إن هذه

البندقية لا تقتل بعد اليوم ولا حجارة ومراعاة لغربته فلن يصيبه أذى إلا البسيط فشكروه وغادر المنطقة متجهاً نحو أهله وهو مكسور الخاطر بما لقيه من خيبة أمل بعد تلك الفرحة العظيمة التي بني عليها آماله العراض يمر اليوم بعد اليوم فإذا بنزلة معوية تنتشر بين السكان في شكل وبائي لكنها سليمة لم تحصل وفيات وخفت حدتها أما صاحب السلاح أحمد فكان قلق النفس وفي صباح أحد الأيام علا الصياح والناس تتادي الزراف يمر بمقربة من السوق فجري خلفه كل إنسان بحربته أو قوسه وأخذ أحمد بندقيته وشق طريقه بينهم ووجد فرصته في واحد منها يمشي في المؤخرة فاختره من بين السرب وما كاد يضغط على الزناد وإذا بحشرة تنزل بين عينيه وتلسعه أغمض منها عيناه ولم يتمكن من رؤيا ما حوله وشعر وكأن جمرة من النار أو شهاب أنقض عليه ابتعد السرب وظل هو ممسكاً برأسه الذي كاد أن يتصدع من شدة الألم وبدأ الوجه في التورم ووجد من بعض المارة ما يساعده للوصول إلى منزله وكادت العيون أن تخرج من محاجرها من شدة الورم واستمرت الحالة لمدة أسبوعين ثم بدأ التحسن إلى أن تم شفاؤه وأصبح سوء الطالع يلزمه فالبندقية لم تصب شيئاً وساعت حالته لأنها كانت مصدر رزقه وهو يعتمد عليها وعلى أثر موجه النزلة التي أصابت المنطقة كانت إصابة اثنين من أعضاء المؤامرة كانت أصابتهما قاتلة فماتا معاً في يوم واحد . بقي على قيد الحياة رأس المؤامرة وقد رأى ما حل بصاحبيه فجن جنونه وطار صوابه وأيقن أنه ميت لا محالة وأصبح يتخبط تخبط العشواء يبحث عن وسيلة تتفذه من هذا الموت ففكر في اعتناق الدين الإسلامي ربما يجد فيه ما يكذب تلك النبوة فاستشار أحد التجار الذي أشار إليه إلى مدير المدرسة وذهب إليه ليلقنه مبادئ الإسلام . وفي أحد الأيام طرق باب داره رجل يعرفه وبشره بأنه جاء إليه يحمل هدية قيمة من محمد قاسم نائب الدائرة الذي كان يعمل معه كداعية حتى فاز وتقديراً لخدمته وأتعبه التي تكبدها من أجله يقدم له هذه الهدية وهي عبارة عن بندقية ٣٧٥ مغنم ومعها كمية

من الذخيرة وهو سلاح غالي القيمة يخول لحامله صيد الأفيال بطريقة قانونية وكاد أن يطير فرحاً وبدأت الآمال العريضة تداعب أفكاره ويرى بذلك أنه قد وضع قدمه على المدرج الذي سيفضي به إلى قمة الثراء العظيم وسيكون أغنياء المنطقة ويتحسن موقفه الاجتماعي بما ستدره عليه هذه الهدية من مال لكن الهواجس تطفي على الأمل فتغض من مضجعه ويطير النوم من عينيه ويسهر الليالي ويئن أنات مكبوتة تحطم معنوياته كالجرح الغائر تظنه قد برئ وهو يخزن في داخله القبح والنتن وكان يقابل المهنيين ولا يجد سلواه إلا بعد أن يخرج إلى السوق وبما يمنونه به من مستقبل زاهر بهذه الهدية التي هبطت عليه من السماء وهو لا يدري إن السم النقيع الذي يرقد تحت الدسم خرج كعادته من بيته ليتناول مع التجار قهوة الصباح فإذا برجل من معارفه يرتدي ثياب الغابة وهو يحمل حربته ويتكبد قوسه وكنانته وخاطبه قائلاً إنني خرجت مبكراً لأجد شيئاً من الصيد فإذا بجاموس يرعى منفرداً بالقرب من هنا فأشار عليه أن يخفض صوته لئلا يسمعه من يسبقه عليه ويفسد عليه خطته وغشي بيته وأخذ ببندقية وأسرعاً في مشيتهما ودخلا الغابة وفي طريقه تقابل مع امرأة تمت إليه بصلة النسب وهي تقتلع من ثمار البامبي لعمل الفطور لزوجها ولعيالها فخاطبها قائلاً أكثرني منه وبعد قليل سنمك بالحم ونتمتع بطعام دسم فتمنت له التوفيق شفا طريقهما في وسط الغابة وكان الجاموس لم يبرح مكانه فرماه بطلقة فأصاب منه جرحاً فوق موقع القلب بقليل فنزف دماً وجري والدم يتساقط على الأرض وتتبع الأثر ولكن الجاموس بحيلته المعروفة ومكره المعهود وحباً في الانتقام من مطارديه قطع مسافة ميل واحد ثم انثنى راجعاً واتخذ له مخبأ بالقرب من مكان تساقط الدم وعينه تراقبهما وهما يسيران وانحصر كل تفكيرهما في أثر الدم وهما لا زال يسير أمامهم نسياً حقد الجاموس ومكره فخرج عليهم من مكنه كالسهم فقذفه الرجل الثاني بحربته فلم تعمل في جسمه وقصد الرجل الذي يحمل السلاح فوخزه في بطنه حتى ما سقط على الأرض غرس قرنه على بطنه

ثانية ودفعه إلى أعلى حتى شق بطنه وفتح صدره وأخذ يعمل في جسمه بقرنيه وبرجليه حتى تركه قطعة من اللحم والجاموس يلغ ما تساقط من دم الجثة وكلما هبت نسمة من الريح حركت طرفا من ملابسه ظن أنه لازال به رفق من الحياة فيعود إليه وبأظلافه حتى اختلط العظم باللحم أخذ بعد ذلك طريقة للغابة وكان الرجل قد هرب لما رأى ما حل بصاحبه وذهب ليبلغ الخبر إلى أهله فجاعوا ولفوه في قطعة قماش صغيرة ووجدوا البندقية قد انكسرت إلى نصفين مما يدل على أن المفاجأة قد شلت تفكيره فأمسك بالبندقية من ماسورتها وضرب بها الجاموس مما سبب لها الكسر فذهب هو والبندقية وذهبت معه أماله العريضة وصدق من قال من حفر حفرة لأخيه وقع فيها ويقول المثل السوداني في هذا المعنى (يا حافر حفرة السوء وسع مراقنك فيها) .

نرجع إلى التاجر الذي كان دوره ثانوياً في المؤامرة لكنه لقي من العقوبة فوق طاقته فالبندقية لم تصب شيئاً كلما ذهب إلى الصيد أما أن يخطئ الهدف أو يفر الحيوان من بين يديه حتى ساءت حالته المالية وبعد سبعة أشهر تقريباً أرسل البلنداوي خطاباً لأصدقائه الذين أكرموا في المرة الأولى ويعلمهم بأنه جاء لصيد الفيل وهو لا يبعد كثيراً عنهم فاتفق الرأي على أن يذهبوا له في مكانه ويرجوه أن يفك الحصار الذي فرضه على البندقية ومعهم صاحبها بعد أن جمعوا نحو المائة جنيه ليقدّموا له وبعد وصولهم تمنوا له التوفيق في مهمته هذه المرة وطلبوا منه أن يعفو عن هذا الرجل الذي تعرضت مصالحه للخطر ويكفيه عقاب هذه البندقية لم تأت بقرش واحد منذ أن فارقتنا وخذ هذه الهدية منا فرفضها بادئ الأمر وقبلها بعد إلحاح وأمسك بالبندقية وتفل في فوهتها وتكلم بكلمات لم نفهمها ومسح بيديه على جوانبها وأعادها إليهم وقال إنني قد عفوت عنه وأنفك الحصار وسارت الأمور سيرها الطبيعي .

صلاح سالم في واو

سُمت مدينة واو وحياتها الرتيبة ذات الثلاث شعب السوق والبيت والنادي لا تجد فيها ولا أثر لجديد يطالعك في المستقبل القريب وبسبب الفراغ الممل تجد نفسك تتمسك بحلقة مفرغة لا طرف لها لمن لا يعتاد الحياة في مثل هذه الأجواء رغم ما لقيت من احترام كل الطبقات فقد كنت عضواً في لجنة النادي التنفيذية ونلت احترام طبقة التجار حيث كان الاستعمار إمعاناً منه في تشديد قبضته على الجنوب ووضع العراقي أمام كل ما هو عربي محافظة على العزلة التامة المفروضة على سكان الجنوب فكانت النشرات التي تخرج عن دواوين الحكومة والإعلانات والعطاءات تصدر باللغة الإنجليزية وكل دواوينها لا تجد في دفاترها كلمة واحدة باللغة العربية ولما كنت رغم إنجليزيتي الضعيفة أقوم بترجمتها إلى العربية في كل ما يختص بالتجار وكنت الوحيد الذي يعرف اللغة الإنجليزية من طبقة التجار وكمثل لوضع العقبات أمام انتشار اللغة العربية ففي حالة ما إذا أردت أن ترسل برقية لأحد مراكز بحر الغزال ولو تجارية يجب كتابة الكلمات العربية بحروف لاتينية لأن موظف البريد والبرق هو من أبناء الجنوب ولم يتعلم الإشارات البرقية إلا بالحروف اللاتينية فهو يكتبها وقد لا يعرف معناها إذا استثنينا عواصم المديرية الجنوبية الثلاث تقبل برقيات باللغة العربية لأن رؤساء المكاتب من أبناء الشمال رغم ذلك لم ترق في نظري حتى لو أرسلت النظر إلى المستقبل البعيد لم أجد فيه بارقة أمل تبشر بمستقبل أفضل وكنت كثيراً ما أفكر عندما أخلو بنفسي وأقارن بين مدينة واو بمدينة ملكال القي البون شاسعاً والفرق عظيماً في كل أوجه الحياة وفي مستقبل الأيام وكنت أقول في نفسي على من ألقى التبعة وأنا الذي اخترت هذا المكان المنفي طوع إرادتي ولم يجرنني إليه أحد وكنت أجد في واو سجنًا واسعاً لكنه غير انفرادي وقد أفضيت بهذا القلق الذي يساورني لبعض الأخوة الذين يزورون القطية لموقعها الجميل تهديها نسمات الليل عبير الزهور ونور

الأشجار مما يجعل منها حديقة وتزيد من الشعور بالنشوة وهم يعاقرون بنت الكرم تارة وبنت العود تارة أخرى فتكسبهم زهو الطاووس والشعور بالعظمة وكنيت أجلس على طرف من المجموعة حيث أنني لم أشاركهم في شيء منها لأنني لم أُنق طعمها في حياتي ولكن من باب المثل القائل (مجبور القناص على صحبة الكلب) قلت بحث لأحد أصدقائي بما تساورني من هواجس وقد لا تطول إقامتي في واو ربما أرجع إلى ملكال وكان يري مثل رؤيائي وما هي إلا شهور قليلة حتى تسلمت برقية من الأخ عبد الرحيم نمر (٢٢) رحمة الله رحمة واسعة حيث نقل في وظيفة باشكاتب للمديرية الاستوائية بجوبا ومحتواها أن اصفي حسابي وأعمالي وأقوم لجوبا بأسرع فرصة ممكنة تنفست الصعداء وقلت جاء الفرج فأخذت في إعداد العدة للتخلي عن واو والتوجه إلى جوبا (٢٣) ووجدتها كما تركتها منذ سنتين لكن قبضة الاستعمار الحديدية قد ارتخت شيئاً قليلاً بعد الاضطرابات التي عمت العاصمة المثلثة ومطالبة الشعب بحق تقرير المصير وانهقد مؤتمر جوبا وقد خرج بتوصياته المعروفة ونشطت الأحزاب الشمالية وافتحت أبواب الجنوب أمام الشماليين وعند وصولي إلى جوبا استطعت أن استخرج رخصة تجارية ورخصة جزر بسوق نمر ٣ وهو حديث النشأة وكنا ثمانية وسارت الأمور طبيعياً غير أن الجو السياسي تتأهبه نزاعات متعددة وتيارات مضادة فالإنجليز يحرضون الشعب ويدعوهم إلى التمسك بوحدتهم وعدم تأييد الأحزاب الشمالية والعمل على استقلال الجنوب وانفصاله عن الشمال وكان من بينهم دعاة الوحدة بين مصر والسودان وفئة أخرى تتأدى باستقلال السودان وفي هذا الجو المكهرب أقصى الملك فاروق عن عرشه وتولت الثورة زمام الحكم بزعامة اللواء محمد نجيب والبكباشي جمال عبد الناصر وازداد الموقف تأزماً وجاء وفد من أعضاء الثورة المصرية من بينهم الصاغ صلاح سالم (٢٤) والشيخ الباقوري (٢٥) وعصمت عبد الجواد (٢٦) كصحفية مرافقة للوفد وطافوا على أنحاء المديرية الثلاث فكان لبعض زعماء الجنوب

مواقف بناءه تريد الوحدة وأخري معارضة تعمل للانفصال تنفيذاً لرغبة السادة الإنجليز وكان أكثر زعماء الاستوائية مع الوحدة سلاطين وموظفين بارزين وعندما قام الوفد بزيارة مديرية بحر الغزال واجتمعوا على مائدة مستديرة التي قام بإعدادها السادة الإنجليز وحشدوا كل أعوانهم وأنصارهم وحمي الجدل فمنهم من استجاب لصوت العقل ومنهم من أبت عليه منفعته أن يستجيب وعلى رأسهم استانس لاوس بياساما وهو من أصل فوراوي تربي في كنف الكنسية وتعلم في مدارسها وكان يبدي معارضة شديدة أمام الوفد وينادي بعدم جلاء الإنجليز ويعد من حسناتهم متناسياً مساوئهم وخرج الوفد وهو غير راضي عنه ورغم ما ابدي في الاجتماع من معارضة خرج معهم مودعاً وعلى القرب من المكان وعلى قمامة تتجمع فيها النفائات وعلى الطريق الرئيسي رأوا بعض الصبية وهم عراة الأجسام يبذو عليهم الهزال والضعف وهم ينبشون القمامة ويلتقطون فتات الموائد التي تلقي في القمامة من فضلات الخبز التي ترميها بعض المنازل المجاورة من تجار وموظفين فما كان من الصاغ صلاح سالم إلا وأمسك بذراع استانس لاوس ولفت نظره إلى موقع الصبية قائلاً لاشك أنك تؤمن بأن هذا من حسنات الإنجليز أبناء عمومك يأكلون من القمامة لا فرق بينهم وبين الكلاب الضالة عراة الأجسام فهل بعد ذلك من ذل وإهانة تلحق بالإنسان الذي كرمه الله من بين خلقه فهنيئاً لك وأنت تمثل السوداني الخائن لوطنه ولم يستطع أن ينطق بحرف واحد وقد ظن الكثيرون ممن شاهدوا هذا الموقف وما ألقاه السيد صلاح سالم من درس قاس على استانس لاوس فيه الكفاية بان يرعوي عن غيه ويغير من موقفه من القضية لكنه تمادى في غيه حتى النهاية هذا باختصار ما كان عليه الموقف السياسي أبان زيارة الوفد المصري وقد صادف نجاحاً عظيماً بين طبقات الشعب مما جعل اسم صلاح سالم على لسان كل جنوبي في بحر الغزال حيث كان يشاركونهم الرقص في الاحتفالات التي أقيمت تكريماً للوفد وسجلت كل هذه المواقف في صور فوتوغرافية حملها معه إلى مصر وكان يطلق

عليه في السودان الصاغ الراقص .

دكتور أحمد السيد حمد (٢٧) :

عندما وجدت الأحزاب فرصتها أرسلت مندوبيها ليقوموا بالدعاية استعداداً للانتخابات الذي تقرر إجراؤها في القريب العاجل فأول من وصل إلى مدينة جوبا الدكتور أحمد السيد حمد وحل ضيفاً كريماً على السيد عبد الرحيم نمر رحمة الله عليه لما تربطهم من صلة القربى وفتح باب داره له ولزائريه على مصراعيه رغم أنه يعلم أن موقفه هذا سيجلب سخط الإنجليز عليه وهو موظف فكيف يأوي خصومهم للعمل ضدهم ولكن شجاعته المعهودة والمعروفة لديهم ووطنيته فوق الوظيفة وفوق المنفعة الشخصية وهياً له غرفة بنملىة خارجية تطل على الشارع وهي جزء من البيت الواسع الذي يسكنه وهو منزل حكومي بالقرب من الكنيسة والمستشفى أفسح المجال أمام مقابلاته الشخصية والدكتور أحمد غني عن التعريف فهو قطب من أقطاب الوطني الاتحادي وأحد مؤسسيه وهو دعامة من دعاماته جاء مندوباً عن الحزب ليجمع حوله مؤيدين لهذا الحزب فأخذ يقيم الليالي السياسية في الميادين العامة ويؤمها جمع غفير من المواطنين شماليين وجنوبيين رجالاً ونساء فيقف على المنصة خطيباً معدداً مساوئ الاستعمار وما وصلت إليه البلاد على أيديهم من تأخر في جميع النواحي طيلة الخمسين سنة التي قضوها وهم كالكابوس يجثمون فوق صدور هذا الشعب ولم تكن نسبة التعليم فيه إلا أقل من ٥% بالنسبة للسودان ككل وتحدث عن الجوع والعري والجهل والمرض حيث كل ذلك من صنع الاستعمار الذي ما حل على قوم إلا ألبسهم ثوب الذل والمهانة فالاستعمار هو ألد أعداء الإنسانية وإن أسباب التخلف الذي نعاني منه الأمرين ونحن نعيش القرن العشرين لا زال بعض اخوتنا وبناتنا وأبنائنا يلبسون جلود الحيوانات والبعض عراة لا يجدون ما يستر عورتهم وكان التصفيق الحاد يقطع كل جملة وكان المستر ايفن جونز هو المفتش المسئول في المدينة كان يندس وسط الصفوف يسترق السمع

وكانت الليالي تتوالى في جميع أحياء المدينة وعدد الحضور يزداد كما كثرت الزيارات ليلاً ونهاراً وهنا شعرت بالمسؤولية بصفتي أكبر سناً من الأخ عبد الرحيم والسني محمد خير وكنا نقيم سوياً في المنزل شعرت بالمسؤولية التي تقع على عاتقي وهي السهر على سلامة الدكتور أحمد وأخشى مكر الإنجليز وإلحاق الأذى به أثناء نومه في فراشة في نملة غير مسلحة إلا بسلك النملة الضعيف الذي يمكن تمزقه بسهولة ثم يدخل حيث ينام الدكتور فكنت أقضي ليلي ساهراً وأقابل كل طارق وكانت الاجتماعات تتوالى تجتمع وتتفص في سبيل عمل لجنة للوطني الاتحادي وإيجار دار لها وطريقة تمويلها وحث الجنوبيين إلى الانتماء لهذا الحزب وكان أحد الجنوبيين ممن عرف بولائه للإنجليز كان حريصاً على حضور كل هذه الاجتماعات وقد غاب مرة فاقترح أحد الحضور بطرده عن الاجتماع بتهمة ولائه وهو جاسوس لحساب الإنجليز وحيث أن المفتش ايفن جونز مفتش المركز والمسئول عن مدينة جوبا يأتي منزله يومياً ويمكث معه نحو الساعة أو أكثر فرد عليه الدكتور احمد إننا ليس لدينا ما نخفيه من الإنجليز ونحن أصحاب حق نجري وراءه ومن واجبنا كرسل وطنية أن نصق الناس القول ونشخص الداء ونقدم الدواء وعلينا رسالة يجب أن نؤديها نحو إخواننا الجنوبيين ولا نتركهم العوبة في أيد الاستعمار ليجعلوا منهم جنوب أفريقيا أخرى فالواجب علينا تبصيرهم بما يحاك ضدهم وضد السودان ككل قبل فوات الأوان فكان الدكتور احمد وقد أقام الليالي السياسية في ميادينها العامة في كل المديرية الجنوبية الثلاث وقابل الزعماء وسلطينها وكانت علاقته بهم قوية ومتينة محبوب من جميع الأوساط غيور على وطنه ومواطنيه وكان له القدر المعلى في إرساء قواعد الوطني الاتحادي ورسوخ مبادئه بين صفوف الجنوبيين الذين لازالوا يذكرونه بالخير . فإن أردت أن أسوق مثلاً لهذا التأييد الذي لقيه الدكتور احمد وخوفاً من أنهم في أمانتي في نقل الحوادث أو أنهم لانحيازي إلى طائفة أو حزب أقولها صريحة أن ميلي للاستقلاليين

أكثر بكثير من ميلي إلى التحزب هذا هو مبدئي الثابت الذي لن أحول عنه قيداً نملة ولم تحدثني نفسي يوماً أن أغير من هذا الاتجاه وفي أحد الأيام بعد وصول السيد الدكتور أحمد بنحو شهر تقريباً جاء وفد من حزب معروف له مكانته جاء بأقطابه وبكل ثقله لكسب بعض الجنوبيين والانضمام لهذا الحزب أقام للوفد ليلة سياسية في مدينة جوبا داخل منطقة السوق وحضرها جمع غفير من الناس أغلبهم من الشماليين وكانت ليلة تحدث فيها رئيس الحزب وأقطابه البارزين وكانت ليلة تعتبر ناجحة من حيث ظاهرها لكثرت الحضور وفي الغد أعلنوا عن قيام ليلة في منطقة سكن الأهالي أمام منزل الخليفة عبد الفراج وهو مواطن شمالي قد أستوطن مدينة جوبا منذ إنشائها وكان رئيس المحكمة الشعبية اصطفت الكراسي وتألفت الأنوار وجاء الناس رجالاً ونساءً وجاء الوفد بعرباتهم واعتلى المنصة الرئيس يقول كلمته إيداناً بافتتاح الليلة وقال بسم الله الرحمن الرحيم فوقف أحد الحضور واسمه نورين ورفع إصبعه طالباً الكلمة فأمسك المتحدث عن الاسترسال وأعطاه حق الكلمة فقال له يا سيد أدينا الفاتحة أما كل هذا الجمع المحتشد قد تمت مبايعتهم للدكتور أحمد السيد وجلس فما كان من الوفد إلا أن قاموا وتوجهوا لعرباتهم دون أن ينبثوا ببنت شفه وتفرق الجمع وهو يضحك هذا الموقف لا يحتاج إلى تعليق فهو أن دل على شيء إنما يدل على الحب العميق الذي يكنه شعب الجنوب نحو الدكتور أحمد فما جمعه حوله من شعبية لم يجدها سياسي لا شمالي ولا جنوبي وقد خلف وراءه ذكرى لا تنسى مهما أراد شائئوه التقليل من دوره الوطني أو ينالوا من أمانته وكرامته فالتاريخ كفيل بتسجيل مآثره وما قدمه لوطنه شيء مشهود وهنا عندما أكتب هذا النذر اليسير من مواقفه لأن المجال ليس تاريخي إنما ذكريات فردية فإن في مذكراته التي يحتفظ بها ما يجلو الغامض وينير الطريق أمام كل طالب حقيقة فليتقدم الدكتور أحمد لنشر مذكراته (٢٨) على الملأ لأنها ليست ملكاً له بل هي ملكاً للشعب السوداني وملكاً للأجيال القادمة وله حق الإطلاع عليها فهي المرجع لكتاب

التاريخ ليأخذوا الحقائق عن مصادرها قبل فوات الأوان.

جاءت الانتخابات وتعددت رحلاته بين المديرية الثالثة الجنوبية يراقب اللجان فيوماً يطير إلى بحر الغزال ليقوم بتنظيم العمل وبعدها إلى ملكال وكان في فترة غيابه يترك لي أمر مراقبة المفتش ايفن جونز وتحركاته المشبوهة وإن أكتشف كل خطواته وأرسل بها برقية إلى المستر سكومارس الهندي الجنسية الذي اختير لحياذه لمراقبة الانتخابات وكل يأمرني بأن أبعث كل يوم ببرقية أتهم فيها المفتش لتدخله السافر في سير الانتخابات وكنت أفعل ذلك حتى جاءت النتيجة المشرفة ولا أنزع سراً إن كل ما قمت به من خدمات كانت على حسابي الخاص لم أنقاضي عليها مليماً واحداً ولو قيمة البرقيات التي أرسلها كل يوم عن سير الانتخابات وكشف دور الإنجليز بغرض التلاعب في حرية الانتخابات ولكي لا اغبط الناس حقوقهم فقد قامت اللجان الحزبية بدورها كاملاً وبكل أمانة ولم يعطوا المستعمر فرصة التدخل في مجريات الأمور مما جاء بانتخابات نظيفة مبرأة من كل عيب .

عضوية مجلس بلدي جوبا

قبل الانتخابات بنحو عامين لانت قبضة الاستعمار وتشبثوا بإنقاذ ما يمكن إنقاذه من هذه السفينة المتهالكة وقد تقاففتها الأنواء من كل جهة فأعلنوا عن قيام مجلسين واحد يختص بالإشراف على مدينة جوبا والآخر لريفي جوبا فالشيء الملاحظ ومعروف ليس من باب إعطاء السلطة لأهلها إنما للسيطرة على الأعضاء والانهياز لجانبهم وكانت الفكرة ليست غائبة على أحد وفتحوا باب الترشيح للعضوية وقسمت مدينة جوبا لعدة دوائر وقد تقدم كل راغب وعلى حسب الشروط المطلوبة إلا دائرتين اثنتين الأولى دائرة المستشفى وتقدم السيد الدكتور عثمان أبو عكر (٢٩) حيث كان حكيمباشي المستشفى في آخر لحظة بقيت دائرة واحدة ولم يبق لقفل باب الترشيح إلا ساعة واحدة فاجتمع بي الكثير من سكان الدائرة فألحوا على

بأن أملاً أورنيك الترشيح وكنت حقاً زاهداً فيه لكن تحت ضغطهم وإلحاحهم ملأت الأورنيك وتوجهت نحو ضابط الانتخابات فكانت دائرة الملكية نمرة ٣ ووجدت أمامي الدكتور أبو عكر جاء لنفس الغرض وسلمنا الأورنيك ورجعنا وأخذت الأورنيك طريقها وتخطت كل العقبات من طعون وغيرها وجاءت الانتخابات وأعلنت النتائج فكان فوزنا بالتركية وأعلن عن عقد المجلس في أول جلسة له للتعارف حيث لا وجود لأجندة عمل دخلوا الأعضاء قاعة المجلس وجاء المفتش ايفن جونز وهو الرئيس دون منازع بحكم وظيفته فلما اكتمل العقد وجلس المفتش على كرسي الرئاسة ونظر في وجوه الأعضاء ووجد من بينها الدكتور أبو عكر جنونه واحمر وجهه واستشاط غيظاً عندما علم إن فوزه بالتركية أبدى اعتراضاً على هذه النتيجة وقال انه لا يؤمن بهذا الفوز ولا بد من استشارة للسيد المدير لفتح باب الترشيح من جديد لتلك الدائرتين وأصر على موقفه فمن الواضح من إثارة هذه الزوبعة هو خوفاً من الدكتور أبو عكر المعروف بوطنيته وشجاعته ووجوده بين أعضاء المجلس سيضع العقبات والعراقيل أمام نواياه في خلق جبهة موالية لهم فطلب الكلمة الدكتور أبو عكر فلم ير بدا من الإجابة على طلبه وقال السيد الرئيس أنك لم تكن على إمام تام بقانون الانتخابات فإن جهلته أو تجاهلته فإن فوزنا بالتركية حق كفه القانون لا غبار عليه وقد مر بكل مراحلنا وإننا نتمسك بحقنا الذي كفه لنا القانون إلا أن يحل المجلس بأوامر عليا أو تتم فترة العضوية وجلس ثم طلب الكلمة السيد عبد السلام عثمان وهو من التجار المشهود لهم بحسن الإطلاع وبنو ثقافة ووطني غيور ومحل ثقة كل سكان جوبا وقال السيد الرئيس إن القانون صريح ولا غبار على أحقية العضوين الذين تم فوزهما بالتركية والقانون المعمول به في جميع أنحاء العالم يجعل منهما عضوين شرعيين رضيينا أم أبينا فلنترك الجدل الذي لا طائل من ورائه فلننكثف ونعمل لرفعة هذه المدينة بدلاً من إضاعة الوقت ولم يكن أمام الرئيس إلا حلاً واحداً هو رفع الجلسة لحين إعلان آخر

وأعلن عن موعد الجلسة الثانية ودخلنا القاعة وجاء الرئيس وأخذ مقعده على كرسي الرئاسة ولم يبد اعتراضاً على وجودنا ولم يشر إلى الجدل الذي أثاره في الجلسة الأولى مما يدل عل أنه لم يجد تجاوباً مع المدير واستسلم للأمر الواقع .

الدكتور عثمان أبو عكر كان شوكة في حلق الإنجليز

في أحد الأيام زارنا الدكتور عثمان أبو عكر في مكتبنا التجاري الذي نشغله أنا والطبيب محمد علي(٣٠) فجلس بيننا ليقول للطبيب أريد منك ومن الأخ إبراهيم أبو طربوش وكانا من أعضاء الحزب الوطني الاتحادي البارزين أريد خدمة مستعجلة وفي تكتم شديد وسرية تامة ولجأت لكما لأنكما مصدر تقني ولا يشك أحد في أمانتكم ووطنيتكم وأشرح لكم الأمر جاء من يطرق باب منزلي (الحكومي) زائر لم اعرفه وقد تبين لي من سحنته ونوع ملابسه التي يرتديها أنه غير سوداني يتكلم الإنجليزية بطلاقة وبأسلوب راقى مما يدل على أنه متقف ثقافة عالية وعلى تعليم رفيع المستوى وبعد أن أكرمت وفادته أعطيته حقه كضيف قال وفي أدب جم لا أريد أن يدخلك شيء من الشك عن أمري أو تأخذك الظنون بأني متطفل أو طالب مساعدة مادية وما جئت إليك إلا بعد أن علمت عنك الكثير من وطنيتك وكرهك للاستعمار وأمانتك وأن يوغندا القطر المجاور للسودان يعاني من وطأة الاستعمار وإذلاله للشعب ونهب خيراته وثرواته لصالح التاج البريطاني وما تحركت من وطني يوغندا إلا بعد أن تأكدت من أن كفاح الشعب السوداني قد آتني أكله وهو على وشك أن ينتزع حق تقرير المصير من بين فكي الأسد البريطاني وإنك تعلم أن للشعب اليوغندي قضية وهو يكافح من أجل هذا الحق المسلوب وأنا لا أكذبك إن قلت إنني الرجل الثاني بعد الكباكا المعتقل في لندن إن لم يكن في أحد سجونها فهو مقيد الحركة لا يسمح له بمغادرة لندن والتهمة الموجهة له هي تحريض الشعب للثورة ضد الاستعمار فشعرت بالمسؤولية وجا دوري ولا بد من عمل شيء فالتقاضي عنه عار وجبن وآثرت أن ادخل لندن مهما كلفني الأمر

لأدافع عن حق الكباكا في العودة إلى شعبه ودخلت السودان متتكرراً ولكن كيف الوصول إلى ذلك والسودان الباب الوحيد الذي أستطيع الدخول منه ولكن الصعوبة تبرز في عدم معرفتي للغة العربية وبمجرد أن يصل إلى علم الإنجليز إنني من يوغندا فتساورهم الشكوك وسأحرم من مواصلة سفري فشكرته على حسن نيته وثقته فوعده سوف لا نألوا جهداً لبلوغ غايتك إن شاء الله فمن رأيي الآن وقبل أن ينكشف أمره للسلطات أريد أن تؤجروا لوري خاص خال من أي بضاعة يمر على المراكز وعلى نقاط البوليس وكأنه لوري خاص محلي لا شبهة عليه وينتظرنا بالشاطئ الشرقي في العصر بعد أن يدخل البنطون في دور منتصف النهار ثم يبتعد قليلاً عن موقف البنطون وأنا سأجيء في آخر دور للمعدية لتكون أمامه فرصة الليل بأكمله حتى يدخل ملكال قبل فتح مكاتب الحكومة ولا يقف إلا أمام مكاتب الري المصري ليسلم كبير مفتشي الري رسالة ليعطي الأمر أهميته ويقوم بعملية الترحيل بواسطة بواخره النيلية إلى الخرطوم وبنفس السرية ويعملوا لسفره إلى مصر فإن استطعنا إنجاح الخطة الأولى ومرت بسلام يكون نحن قد قمنا بواجبنا كسودانيين أما ما تبقي من الخطة فهو يقع على عاتق الحكومة المصرية ولا أظن أن هناك عقبة تعترضه أرسل الطبيب في طلب أبو طربوش وحكي له كل ما جاء على لسان أبو عكر جهزوا لوري واختير له سائق أمين وحملته المعدية إلى الشاطئ الشرقي وسارت الأمور على حسب الخطة الموضوعة وانقطعت الأخبار إلى ما يقرب من شهر كامل حتى سمعنا بوصوله لندن بدأ يدافع عن قضية الكباكا خاصة وقضية يوغندا وقد نجح في مسعاه للمرة الثانية ويعود الفضل في ذلك للسودان عامة وللدكتور أبو عكر خاصة بمساعدة الطبيب وأبو طربوش وكم من جنود مجهولون يعملون في الخفاء خدموا من أجل وطنهم وخدموا الإنسانية دون أن ينتظروا وراء ذلك جزاء ولا شكورا وقد ضحي الدكتور عثمان أبو عكر بمستقبله ووضعه على كف عفريت عندما علمت السلطات وصول نائب الكباكا ودخوله

السودان وبمنزل الدكتور أبو عكر تعرض منزله للتفتيش الدقيق لكنهم لم يعثروا على مكانه حتى كتب له النجاة إلا رحم الله إبراهيم أبو طربوش وأطال الله عمر الطبيب محمد على لما قام به من دور إيجابي في مساعدة شعب يوغندا الشقيق ومن الأمانة أن أقول إن هذا الضيف لم يدفع مليماً واحداً في هذه الرحلة كلها كانت على نفقتهم الخاصة مراعاة لحسن الجوار وللدكتور عثمان أبو عكر مواقف كثيرة أطال الله في أيامه فقد خدم قضية السودان في الجنوب وخدم قضية يوغندا من حيث لا يعلم أهلها (٣١).

الرجاف :

الرجاف جبل لا يطلق عليه اسم جبل إلا مجازاً وهو عبارة عن صخور متراكمة ومتراكبة ولا تعدوا أن تسمى تل وهو لا يرتفع عن الأرض إلا قليلاً على شاطئ النيل لا يبعد عن جوبا إلا بنحو سبعة أميال وهو معروف اكتسب هذه الشهرة منذ حكم الخليفة عبد الله حيث كان منفي لكل المغضوب عليهم أو رأي الخليفة التخلص منه خوفاً من المؤامرات التي ربما أطاحت بحكمه فكان مقبرة لكثير من رجالات السودان المعروفين بشجاعتهم والرؤوس المفكرة والذين كانوا من القادة للجيش أبان الثورة المهدية ضم رفات الكثير من القادة والزعماء .

لما جاء الاستعمار البريطاني جعلوا منه مركزاً تجارياً هاماً كي يربط بين السودان المستعمرة الجديدة وبين يوغندا وكانت البواخر النيلية القادمة من الخرطوم تلقي مراسيها في مدينة الرجاف ثم تعود راجعة ولما كان مجري النيل بين جوبا والرجاف ضيقاً تعترضه بعض الصخور واشتداد التيار وضغطه الشديد مما يعرقل سير الملاحة هذا من ناحية أما الناحية الأخرى كان هذا الجبل الصغير يحدث إزعاجاً وفزعاً للسكان المقيمين بالقرب منه بسبب الرجة الأرضية التي تصدر عنه في فترات متقاربة لم تكن من الشدة التي تستطيع أن يحصل منها ضرر للمباني ولهذا السبب رأت الحكومة نقل المركز من الرجاف ونقل رئاسة المديرية إلى جوبا

في موقعها الحالي سمي بالرجاف بسبب الأرضية فكانت في ما مضى حقيقة لا تتعدى هذه الرجفة أو الهزة الأرضية سكان المناطق المحيطة بالجبل وقد تمتد إلى مدينة جوبا ولكن في السنين الأخيرة أصبحت شيء يذكر وقد ينذر بإرسال دوي بحركة يمشي تحت الأرض له دوي وكأنه قطار يمشي تحت أقدامك ثم تعقبه حركة الاهتزاز وفي آخر مرة شاهدته كانت أكثر اهتزازاً وحركة حيث تساقطت بعض البضائع عن الرفوف في المتاجر وقد حصلت هذه الرجفة ليلاً بعد منتصف الليل بقليل مما جعل الكثيرون يخرجون إلى العراء خوفاً من سقوط المباني خصوصاً الذين يسكنون الطوابق الثانية في المدينة وقد شمل تأثيرها مدينة بور مما يدل على أن تحته بركاناً قابل للانفجار بعد الزمن أم قصر لكن الشيء المعروف بأن مياه الأنهار بعنوبتها(٣٢) لا تكون بركاناً إنما مياه البحار والمحيطات لما تحمله من ملوحة التي تولد الغازات تحت طبقة الأرض فيحصل منها الانفجار وبسبب ارتفاع الأرض في مراحلها الأولى وهكذا شيئاً فشيئاً حتى تنصهر المعادن من شدة الحرارة في باطن الأرض إلى أن يعمل فتحة وتخرج فحمه وحجارتها فمدينة جوبا مهددة عاجلاً أم آجلاً سواء أنفجر الرجاف كبركان أو اقتصر على الهزات ولو ازدادت قوة الهزة لتصدع البنيان أما المباني ذات الطابقين فلا محالة ستتهار في أقل من عشرين سنة إن استمرت رجفات الجبل التي نراها في تصاعد وتزداد قوة في كل مرة أقوى من سابقتها(٣٣) .

جوبا يوغندا والتخطيط المبكر لفصل الجنوب :

كل الأبواب تكاد تكون مفتوحة على مصراعيها أمام الزائر ليوغندا يحمل تأشيرة دخول أولاً يحملها لا أدري إن كان هذا الانفتاح سياسة مرسومة لها ما وراءها أم بغرض تجاري بين مستعمرتين متجاورتين ما دامت سهلة ميسورة ومن غير متاعب ولا صعوبة والعملة المتداولة بين السودان ويوغندا وهو الشلن الإنجليزي(٣٤) وكنت قد استطعت أن أتحصل على تأشيرة دخول وكنت أترقب قيام

أول عربية تجارية فجاء الأخ حمزة الشيخ وقد عقد العزم لزيارة يوغندا فأبديت رغبتي لمرافقته فلم يعترض وقال موعدنا صباح بعد غد وأخذت العربية طريقها نحو الجنوب في طريق معبد غير أنه غير مسفلت لاحظت بمجرد خروجي من مدينة جوبا وجود لافتات كتب عليها حرف S وعدد الأميال وبدأت استعرض كل أسماء الأماكن التي تقع على حافة الطريق من قري ومدن سودانية لم أجد منها ما يبدأ بهذا الحرف فقلت لحمزة ما معني هذا قال حرف يشير إلى اسم سروي وهي مدينة كبيرة داخل يوغندا على الفور أدركت حقيقة الإشاعة التي مفادها أن الاستعمار البريطاني يسعى لفصل جنوب السودان وضمه إلى يوغندا قلت إنها ليست إشاعة لكنها نية مبيتة ومخطط يسير نحو الظهور والعمل له تدريجياً وفي تكتم شديد وهذه أول لبنة توضع لبناء وتنفيذ المخطط تسير بنا العربية في جو غائم والأشجار الخضراء على جانبي الطريق وشذي الزهور تحمله النسائم يضيء على المكان جواً شاعرياً والطريق يمتد أمام ناظريك في استقامة دونه النظر أن اليد الهندسية التي قامت بتخطيطه يد بارعة فنية إلى أن وصلنا إلى نقطة بالقرب من جبل نوملي حيث نقطة بوليس تؤدي دور نقطة جمارك حيث لا جمارك ولا رسوم مفروضة وهي آخر حدود السودان لفت نظري قول حمزة وهو يخاطب السائق خذ حذرك واحترس أنت أمام الهاوية وبدأت العربية تخفف من سرعتها وتسير سيراً بطيئاً بنمرة واحد وهي تصعد على جبل نملي على طريق ضيق على حافة الجبل من ناحية اليمين والهاوية من ناحية الشمال عميقة مظلمة أقل انحراف بالعربة نحو اليسار أو غفلة من السائق معناه سقوط العربة إلى قاع الهاوية بما فيها ومن عليها والمصير واضح غير محتاج إلى توضيح العربة تسير نحو القمة بحذر شديد والقلوب معلقة والسائق يعاني الصعوبة في التحكم في عجلة القيادة إلى أن استوت على القمة فارتاحت نفوسنا قليلاً حيث تجاوزنا منطقة الخطر نحن الآن وقد وضعنا أقدامنا على أرض يوغندية وبعد أن تجاوزنا نقطة بوليس الحدود وهي كمثيلتها من

ناحية السودان من ناحية الإجراءات أشياء شكلية لا رسوم ولا أوراق تعطي
واصلنا السير ولا بد هنا من عبور نهر النيل للصفة الأخرى ووجدنا بنطون
مصنوع محلياً يعمل بماكينة أشبه بماكينة قندران ويديرها محركين اثنين مثبتين
على جانبي البنطون ذات دولاب مزود بألواح خشبية لضرب الماء اقلنا البنطون
إلى الضفة الأخرى وأخذنا طريقنا إلى سروتى بعد أن مررنا على قري كثيرة لكنها
لم تبلغ من حيث السعة والأهمية ما لسروتى وكاد الليل أن يرخي سدوله فواجهتنا
بناية جميلة على حافة الطريق وطالعتنا مئذنة تدل على أنها قائمة على مسجد
فدخلنا السور وعلمنا أن لهذا الجامع ملحقات منها استراحة معدة لإيواء الضيوف
نظير شلنين الليلة الواحدة وهي نظيفة ومعدة إعداداً تاماً لراحة الضيوف من حيث
المنافع والحمامات غير أن لا وجود لمطعم بداخلها وكان مؤسسها من الجالية
الباكستانية وفي الصباح قمنا بالطواف حول المدينة وكانت جميلة من حيث
النظافة عالية البنيان وفي أطرافها مزارع البن والشاي وقصب السكر وما يتبعها
من مصانع صغيرة تنتج الصابون وتطالعك أشجار النخيل التي من ثمارها يستخرج
الزيت الذي يدخل في صناعة الصابون أراضيها كبقية أراضي يوغندا من ناحية
الخصوبة والطقس البارد يساعد كثيراً في عملية إنتاج المحاصيل كالبن والشاي
وخلافها بعدها دفعنا ما علينا من حساب وبدأنا نسير نحو كمبالا العاصمة فلاحت
لنا من البعد مبانيها المبنية على رؤوس الجبال ومتباينة الألوان منها الأصفر
والأبيض والبني مما يزيد من جمالها الطبيعي حيث الخضرة والأشجار الباسقة
والميادين الخضراء دخلناها وبدأ النظام المدعوم بحركة البوليس على دراجاته
البخارية وعلامات المرور المثبتة على كل تقاطع وسير العربات محدد السرعة
ليس أقل من ستين ميلاً في الساعة فإن شعر بوليس الحركة الذي يمشي خلفك بأنه
تسير أقل من ذلك تقدمك قائلاً هذا الشارع ليس ملكاً لك أعطي الطريق للمارة وإلا
تكون عرضة للإجراءات القانونية والطريق ذو شعبتين .

وعلى جانب الطريق لفت نظرنا لافتة كتب عليها فندق كمال أو كامب من هذا العنوان تبين لنا أن صاحبه عربي ووقفت بنا العربية أمامه وبعد الإجراءات المطلوبة احتلينا غرفة ذات سريرين ولها توابعها من ملحقات أخرى غيرنا ملابسنا وأخذنا قسماً من الراحة وكانت الغرفة في الطابق الثاني نزلنا للطابق الأرضي حيث يوجد بوفيه تابع للفندق وهو عبارة عن صالة واسعة وبه مقاعد وطاولات موضوعة بطريقة جذابة وتقدم لك أنواع المشروبات الروحية علاوة على القهوة التي تقدم مصحوبة باللبن الحليب أما الشاي فلا وجود له إلا في أماكن خاصة وكما أن المطاعم على جناح آخر قمنا بطواف للتعرف على جوانب السوق وحول الفندق خوفاً من أن نضل طريقنا وكانت النظافة من أبرز معالم الفندق ويقدم خدماته بسرعة وعناية وعلى باب كل غرفة من الداخل جرس لطلب الخادم وكان طبقة الخدم كلها من الجنس اللطيف تقوم بتغيير الفرش وتسويته كل صباح وكل مساء وتأتي بأي طلب من البوفيه من مشروب أو قهوة لك ولزائرك وتقدم لك إدارة الفندق قهوة الصباح مجاناً رغم أن المبلغ الذي يدفعه النزيل كأجر يعتبر زهيداً إذا قورن بالخدمات والراحة تقدم القهوة على براد متوسط الحجم وجك من اللبن وكمية من السكر تزن أكثر من ربع رطل مع ثلاثة قطع من البسكويت مقابل شلن واحد وهذه الكمية تكفي لثلاثة أشخاص وهي تقدم لفرد واحد مما يدل على أن الأشياء كلها رخيصة ومتوفرة وبأسعار رخيصة رغيف العيش كبير ونظيف . واللحوم بأنواعها لحم الدجاج البيض السمك المحلي منه والمستورد والزبد المربى كل ما تطلبه في متناول اليد وبطريقة لا ترهق جيبك . الشوارع واسعة العربات كثيرة لدرجة الازدحام والبوليس ساهراً على النظام مراقبة إشارة المرور المضئية لافتة على كل منطقة طريق الطقس بارد الشمس المحببة بالغيوم ترسل ضوء لا حرارة فيه طيلة الفصول أرضها جبلية ذات لون أحمر وكل دواوين الحكومة ومساكن البريطانيين على رؤوس الجبال أما سكانها أغلبهم من الهنود الذين يعملون في

التجارة وهم يسيطرون على اقتصادياتها سيطرة تامة علاوة على المزارع ذات المساحات الواسعة وهي تنتج كما اسلقنا السكر والبن وخلافه وأكثر تجارتهم مربوطة بالهند وبعض ما تنتجه المصانع في الجزر البريطانية ومن اليابان في القليل النادر أما منظر مدينة كمبالا في الليل هي عبارة عن ثريات كهربائية معلقة على رؤوس الجبال وهي ترسل ضوءها القوى المختلط بخضرة أشجار البساتين والميادين تمثل حدائق بابل المعلقة . نحن نسير على الأقدام نقرأ كل لافتة مكتوبة على واجهة كل بناية كعادة الغريب الذي يجي لأول مرة لقطر أجنبي لفت نظري لافتة على واجهة أحد الأبواب كتب عليها طبيب أسنان فقلت لصاحبي لابد من زيارته لأنني أشعر بمضايقات كثيرة من ناحية الأسنان الصناعية التي عملتها بالخرطوم وهي عرضة للكسر تحت أي ضغط مما يدل على أن المادة المصنوعة منها من المواد الرخيصة الهشة . ولجنا الدار ووجدنا الطبيب وهو هندي الجنسية ورحب بنا ترحيباً حاراً بعد أن علم إننا من السودان وجلسنا على مقعدين أمامه ابدي لنا استعداده لأي خدمة فخلعت الطاقم من فمي وقلت له هذا من صنع أطباء أجنب دخلوا السودان بغرض اكتساب المال لا أمانة لهم يميلون إلى الغش في معاملاتهم مع زبائنهم وهو مصنوع من مادة رخيصة لا تصمد أمام أي ضغط هذا هو الطقم الرابع وهو قابل للكسر في أي لحظة فقلبه بين يديه وقال صحيح هذه المادة رخيصة وهشة فقلت أريد البديل بشرط أساسي القوة والمتانة قال لك ذلك وأعطيك المهلة الكافية للتجربة وبدأت المساومة على القيمة مداولات لم تطل اتفقنا على ألف شلن أي ما يعادل خمسين جنية سوداني ودفعنا نصف القيمة وقال في الغد في مثل هذا الموعد تجدوه جاهزاً بعد أن أخذ في عمل المقاسات اللازمة .

رجعنا إلى الفندق وغشينا البوفيه لتناول القهوة قبل العشاء وجلسنا أمام طاولة ذات أربعة مقاعد وقف أمامنا شاب هندي وحيانا بتحية المساء باللغة الإنجليزية طبعاً فرددنا عليه وأمرناه بالجلوس فأخذ مقعده بيننا ألتفت نحوي وقال

من نوع الذي ترتديه يدل على أنك عربي قلت نعم قال من أي بلد قلت من السودان وما الذي جاء بكم قلنا بغرض الزيارة لقطر مجاور ويجب أن نتعرف على الكثير من إخواننا هنا حيث العادات ونزور المعالم البارزة للعاصمة فارتاح قليلاً على مقعده وبدأ يكشف لنا عن شخصيته وقال أنا هندي كنت طالباً بجامعة أكسفورد ونلت شهادة الهندسة من جامعتها ولي أخت متزوجة من هندي يعمل تاجراً في هذه المدينة وجئت زائراً وعرضنا عليه أن يطلب شيئاً من الشراب فاختار القهوة واستطرد قائلاً ولي رغبة بأن أقدم لكم خدمة دون مقابل لأن أختي وزوجها وضعا عربة تحت تصرفي وأنا تحت أمركم طول مدة إقامتكم هنا فشكرناه على شعوره وبعد صمت قليل شغلتنا رنات فناجيل القهوة بادرنا بدعوة خزان جنجا الذي يبعد نحو خمسين ميلاً من كمبالا فوق في قلوبنا موقعا حسنا فهي فرصة سانحة لا نتركها تمر دون الاستفادة منها فاجبنا بصوت واحد متى تكون الزيارة ؟ قال : غداً في الساعة السابعة صباحاً كونوا على استعداد وهم بالانصراف فدعواناه للعشاء فاعتذر وغادرنا وجاء الموعد فإذا بجرس الغرفة يرن فإذا به يحتثنا على الخروج أخذنا مقاعدنا وانطلقت بنا العربة تنهب الأرض على طريق مسفلت وكأنها لم تمش على أرض إنما تمخر عباب ماء هادئ تتساب انسياً دخلنا مدينة جنجا مدينة صغيرة هادئة جميلة المباني على الطراز الإفرنجي وتركنا العربة وعلى مدخل الخزان وسرنا على الأقدام وقد هالنا ما رأينا كيف اختير هذا المكان بالذات لإقامة هذا السد أولاً بني هذا السد عند خروج مجري النيل من بحيرة فكتوريا التي تبلغ مساحتها أربعة وعشرين ألف ميل مربع وهي تضم بين شواطئها ثلاثة دول هي تنجانيقا (٣٥) ويوغندا وكينيا وثانياً وقوع السد بين جبلين يجري نهر النيل بينهما وهنا تكمن الخطورة إن أرادت يوغندا أن تحرم السودان ومصر من ماء النيل إلا بقدر ما تسمح به مما يجعل السودان ومصر تحت رحمتها تفقدنا الخزان وعلوه وعرضه وطوله ووجدناه له ستة أبواب ثلاثة منها مغلقة تماماً وثلاثة مفتوحة لتوليد

الطاقة الكهربائية التي تمد يوغندا بالكهرباء وإدارة المصانع وكان الماء يصب من ارتفاع عشرين متراً تقريباً ومن هذا الارتفاع الشاهق تصب المياه ولها دوى يصم الآذان وتري السمك من الحجم الكبير يتقلب على وجه الماء من جراء سقوطها وارتطامها بالقاعدة مع قلة عمقها والخطر الثاني الذي يكمن وراء ذلك هو أن أي زيادة تنتج من كثرة الأمطار يمكن رجوعها لداخل البحيرة دون أن يسبب ضغطاً على مبني الخزان كانت هذه ملاحظاتي وأنا أسير فوق الخزان وأصابعي تشير إلى الاستعمار بتهمة هذا التخطيط الذي ما وراءه من سوء نية قضينا وقتاً ممتعاً على ظهر الخزان ونحن ننقل بين النهر ومصب المياه إلى ما بعد منتصف النهار ودعنا الخزان وطفنا بالعربة حول المدينة وهي صغيرة نسبياً وتوجهنا شطر العاصمة ووقفت العربة أمام دار فخمة ذات حديقة منسقة تنسيقاً فنياً وفي وسطها ميدان صغير تغطيه النجيلة الخضراء وطرق باب الدار وقابلنا الزوج وحيانا ثم امرنا بالدخول وجلسنا على طاولة يحفها خمسة مقاعد وسط الميدان وجاءت الزوجة وهي تحمل صينية يتوسطها أباريق الشاي واللبن وفي صحن آخر شيء يشبه الحلو مر من حيث اللون وخمسة ملاعق حوله صب الشاي وكل منا أخذ كوبه فكنت في حيرة هل ارفض محتويات الصحن ومن أي شيء مصنوع وأخذ كل من الأربعة ملعقته ملأها من ما في الصحن ووضعها في فمه وألحقها بجرعة من الشاي قلت احسن أجرب قبل الرفض فإذا به مصنوع من الدقيق المخلوط بكمية من الزنجبيل والسكر لذيذ الطعم مستساغ مع جرعة الشاي غاب عنا قليلاً من الوقت مرافقنا وقد اعتلي سطح البناية ثم عاد وقال بما أن القمر في أعلى مراتبه من حيث الظهور لقد أعددت لكم مرصداً صغيراً يمكنكم من رؤية سطح القمر بوضوح وذهبنا إلى أعلى وكنا نتناوب الرؤيا وكلما انحرف القمر من وسط المنظار إعادة إلى مكانه قضينا معهم وقتاً طيباً وشكرناهم وقد رافقنا إلى الفندق وقد حان موعد الدكتور وقد وجدنا كل شيء جاهز وبعد عمل التجارب والإصلاحات اللازمة قدم لي قطعة من

الشكولاته ولحمزة أخرى في حجم بيضة الدجاجة يقلب عليها مادة الكاكاو جرب أمامي وأمضغ بقوة وأعمل فيها بأسنانك حتى لا تحتاج للرجوع إلى ثانية وكانت التجربة ناجحة ودفعنا ما تبقي له من استحقاق وخرجنا من عنده شاكرين فلا انسي له إخلاصه وأمانته حيث لازال يعمل بحالة جيدة رغم ما مضت عليه من سنين تعد بخمسة وثلاثون عاماً أو أكثر قليلاً (٣٦) .

قضينا بكمبالا نحو أسبوع كامل وكان كافياً حيث تعرفنا على المدينة ومعالمها ودور الحكومة وبعض مناطق سكن الأهالي في الأرياف الذين يسكنون القطاطي المصنوعة من القش وبعض بيوتات مصنوعة من الصفيح الذي يستورد من السودان عن طريق اللواري بواسطة تجار محليين بقي علينا أن نزور انتبي (٣٧) مقر الحاكم البريطاني وحاشيته وبها المطار فشددنا نحوها الرحال ودخلناها ولم نجد فيها الصورة التي رسمها الخيال لمدينة واسعة ذات مباني عالية وسوقها الواسع فكانت المفاجأة فلم نجد إلا مباني قليلة لكنها فخمة وجميلة وذات ميادين واسعة وخضراء تعمل الماكينات في قصها وتسويتها يومياً وهي ملاعب الأطفال مع مربياتهم في ظلال وارفة ونسيم عليل وزنابق الزهور المختلفة الألوان تحيط بالميادين .

وعلى شاطئ البحيرة أقيم مرفأ على أعمدة حديدية امتد نحو مائة متر أو أكثر داخل البحيرة وعلى ارتفاع أربعة أمتار في عرض خمسة أمتار أرضيته من الخشب وله حاجز على ارتفاع متر هذا المرفأ ليقف عليه سكان انتبي من البريطانيون طبعاً لصيد السمك في أيام العطلات وفي عصر كل يوم للترفيه وقتل الوقت وكنا نجلس على طرف من هذه الميادين وقد مر بنا عدد منهم وهم في طريقهم إلى البحيرة فلم يسألنا أحد رغم خلو المنطقة من أي مدني رغم أنني كنت ارتدي الجلابية والعمامة وبعد أن زرنا معالمها أخذنا طريقنا إلى كمبالا .

مواجهة مع مدير الاستوائية إبان فترة حكومة عبود

كان الهمس يدور بين أوساط الشماليين موظفين وتجار مما لهم اتجاه سياسي كلجان الأحزاب يدور هذا الهمس عن اعتقال الشيوعيين في العاصمة وتوزيعهم على سجون المدن الكبيرة المختلفة فكان معاوية إبراهيم (39) والتجاني الطيب (40) قد اختير لهم سجن جوبا وبما لنا من صلة القرابة بالسيد معاوية ليس من المروءة أن نتقاعس وأن نوليه ظهرنا وهما في محنتهم هذه وفي غربة كهذه فلا بد من مقابلتهم مهما كلف الأمر وكان مأمور السجن وقتها السيد ميرغني محمد علي ولم تكن بيننا وبينه سابق معرفة وكان الأخ السني محمد خير (41) يشاركني نفس الاهتمام وأشار على بأن نلتقي به في مكان غير مكتبه الرسمي ونطلب منه العون والمساعدة لتذليل كل عقبة تعترض طريق زيارتنا لهم فزرناه في منزله وشرحنا له القصد من هذه الزيارة وللتأكد من أن هذه الإشاعة حقيقة أو هي مجرد شائعة فأكد لنا ووجدنا عنده الكثير من العطف عليهم وهو لا يألوا جهداً في تخفيف متاعب السجن وأشار علينا بأن نلقاه يوم غد في مكتبه في الساعة العاشرة صباحاً وذهبنا بطريقة سرية أخذ بأيدينا وأدخلنا المكان المخصص لهما ووجدنا روحهم المعنوية عالية وهم في شجاعتهم المعهودة وعدم المبالاة قالوا هذه الاعتقالات بالنسبة لنا شيء متوقع فإن خرج أحدهما من منزله يضع في حسابه ربما لا يعود فلا يزعجكم ما نحن فيه وبعد فترة وجيزة خرجنا منهم وكنا نلقاهم الفينة بعد الفينة وميرغني بإنسانيته يسهر على راحتهم ولكن لم يرق في نظرهم هذا الاستسلام والرضوخ إلى الحكومة القائمة فأعلنوا عن الإضراب عن الطعام لم تنفع معهم توسلاتنا ورجاءنا واستمر الحال وساعت حالتهم الصحية والسيد ميرغني يقوم بتبليغ الأمر يومياً للسيد على بلدو مدير الاستوائية وهو يتجاهل ولما خارت قواهم وبلغوا يومهم العاشر وهم يمسون عن الطعام أمر السيد المدير بأن يرسل إلى حكيمباشي المستشفى ليزورهم ويخاطبهم للرجوع عن هذه الممارسة التي تقضي على حياتهم وإن لم يستجيبوا لطلبهم حقنوا بالأدوية والفائتمينات ليعاودهم النشاط وبعد الزيارة رجع إلى السيد

المدير وقال إنهم لم يستجيبوا لنصحه وهم في حالة إعياء شديد ورفضوا الحقن ولا يمكن استعمال القوة معهم لإجبارهم لأن حالتهم الصحية لا تتحمل أي مقاومة أو ضغط فاحتار بلدو فيما يعمل وأخيراً أرسل لنا أنا والسني محمد خير ليشرح لنا الأمر ونحن نصغى كأننا لم نعلم شيئاً وقال من المفيد أن تذهبوا لهم وتقنعوهم عن العدول عن هذا الصيام وخرجنا بعد أن وعدناه وقلبنا الأمر على وجوهه المختلفة أنا والسني وقد سبق أن قمنا في إقناعهم لكننا لم ننجح فالرأي أن نصحب معنا بعض كبار التجار فاخترنا السيد عبد السلام عثمان والسيد عمر محمد عمر والسيد عكاشه محمد احمد والسيد حسن طه وذهبنا جميعاً إلى مأمور السجن وقادنا إلى حيث يرقدون وبعد أن أشرعناهم بتعاطفنا معهم وخاطبهم السيد عبد السلام وكان رجلاً متعلماً متقفاً يجيد التحدث في كل موضوع قال ما معناه إننا نعلم أن لكم مبادئ لا تحولون عنها ولديكم فلسفة في الحياة ورسالة تعملون من أجلها بكل السبل وهذا مالا يلومكم عليه أحد ولكن سلاحكم الذي اتخذتوه سلاح الإضراب هذا فإن نتأجه عكسية ومصيره معروف فإن مات أحدكم فقد مات جندي محارب مدرب والكفاح المثمر هو ما يأتي من جندي قوي البنية وقبل أن يقولوا شيئاً قلت لهم إن هؤلاء النفر الذين ترونهم أمامكم هم خيرة تجار جوبا لهم مكانتهم في جميع الأوساط فإن لم تستجيبوا لهم وتزلوا لإرادتهم فلن تجدوا عطفاً من أحد وعقب على كلامي السيد عمر محمد عمر قائلاً نرى من واجبنا أن نتكاتف ونكون يداً واحدة وبما لنا من تجارب في الحياة لزم علينا أن ننصح بعضنا فأنا أرجو رجاء خاصاً بأن ترجعوا عن إضرابكم هذا بعدها نتعاون جميعاً في حل المشكلة إن كان هناك مشكلة فقال التجاني بعد أن شكرهم على هذا الاهتمام وتكلفتهم مؤنة الحضور إلى هنا فإنهم سيتخلوا عن إضرابهم لخاطرهم وهو سلاح في أيديهم يمكن استعماله في أي وقت شاعوا فشكرهم الحاضرون فقلت إلى السيد ميرغني أشر عليّ بنوع الطعام الذي يلائم صحتهم وهم في مثل هذه الحالة وما تقبله طبيعتهم بعد هذا الطوى قال اتركوا لي الأمر فإنني سأهني لهما الطعام المناسب تدريجياً حتى يعودوا إلى حالتهم

الطبيعية ورفض أن يقبل أي شيء نقدمه وبعد يومين دخلوا في إضراب للمرة الثانية فرجعنا إلى الوفد لنأخذ رأى سعادة المدير في ذلك دخلنا على سعادة المدير ولما علم ما جئنا من أجله انقبضت أسارير وجهه وشعرنا بالغضب يبدو على وجهه وقال كان الواجب أن تذهبوا لهم وتقنعوهم بالعدول عن رأيهم بدلاً من أن تأتوني هنا فلا شيء عندي أقوله لكم والباب مفتوح أمامكم لزيارتهم وتنصحونهم قلت قد فعلنا ذلك في المرة الأولى غير أنهم لم يستجيبوا هذه المرة وخرجنا منهم غير راضين فهمس عبد السلام في أذني قائلاً إن المدير ليس له حق التصرف في مثل هذه الأمور إنها سياسية بحتة لا يتصرف فيها إلا وزير الداخلية وهو معذور وفي الغد أرسل لهم أحد الإداريين يحمل أوراقاً يريد أن يتحرى معهم وطلب منهم الحضور لمكتب المأمور حضروا وجلس الإداري وشرح لهم مهمته فقال أحدهم من أنت وما نوع الشهادة التي تحملها والتي بموجبها يحق لك أن تحقق معنا هات شهادتك هل تحمل شهادة قاضي وفي أي درجة قال هو ضابط إداري كلف بهذا الأمر من قبل السلطات قالوا له أرجع من حيث جئت فإنك غير مؤهل فجمع أوراقه وذهب وبعد يومين طلبنا الزيارة فسمح لنا وكنا ثلاثة أنا والسني وإبراهيم أبو طربوش واصطحبنا معنا الشريف نور الله قاضي شرعي المديرية وكان تقياً ورعاً يبدو على وجهه سمة الصلاح جئنا به لنبدي النصح عسي أن نجد الاستجابة فوجدناهم قد زادت حالتهم سوءاً انتحلت أجسامهم وتقاربت خطاهم من شدة الإعياء ولما لم تثمر معهم كل وساطة خرجنا وصممنا على إرسال برقية لوزير الداخلية بصورة للسيد مدير المديرية مهما كانت النتيجة جاء فيها ليس من المروءة في شيء من يري الإنسان أخيه الإنسان وهو يموت موتاً بطيئاً وهو يقف مكتوف الأيدي لا يستطيع عمل شيء كما حصل لمعاوية إبراهيم والتجاني الطيب في سجن جوبا ودخلوا في إضراب عن الطعام منذ شهر وقد انهارت قواهم وفقدوا الحركة فإننا نناشدكم باسم الإنسانية عمل شيء يرد عليهم حياتهم ومعاملتهم كبشر ووقعنا بأسمائنا وبعد يومين جاء السيد ميرغني ليقول وصلت برقية لسعادة المدير

بمعاملتهم معاملة خاصة وطلب منا بعض الأشياء كالأمواس للحلاقة وصابون
للحمام وأشياء أخرى ولم تمض إلا أيام قلائل حتى جاء الأمر بالإفراج عنهم
وسفرهم للخرطوم .^١

رحلة إلى الكنفو

الاستعمار البلجيكي وقبضته الحديدية في فترة ركود تجاري يشعر الإنسان
بضيق من رتابة الحياة لا تنوع فيها النادي محلاً للعب الورق ليس فيه نشاط ثقافي
دور الأحزاب همها النشاطات الحزبية والدعاية واتفقنا نحن الثلاثة حمزة الشيخ
والطبيب محمد علي وأنا على أن نقوم بزيارة إلى أبا وهو مركز تابع للكنفو
البلجيكي وأقلتنا عربية بوكس وهي لا تبعد إلا بنحو ثمانية وعشرين ميلاً من يأي)
(42) مدينة سودانية على الحدود وبحكم هذا الجوار وتداخل السكان وتبادل الزيارات
لم تكن هناك رقابة على الحدود ومدينة ياي السودانية تتعامل مع الأهالي بالعمليتين
السودانية والبلجيكية نسبة لتداخل السكان ونشاط العمل التجاري والتبادل بين
الشعبين واستبدلنا بعض النقود من التجار وأخذنا طريقنا نحو أبا ونحن في طريقنا
للمدينة وجدنا طريقاً جانبياً ينعطف نحو اليمين وخطر لنا أن نأكل وجبة الإفطار
قبل دخولنا المدينة وسرنا في هذا الطريق فإذا به يدخل مزرعة غنية بشجر البن
والشاي وأشجار الفاكهة الأخرى وجدولاً يجري ماؤه رقراقاً وتحت شجرة برتقال
يتدلى ثمرها كعناقيد العنب تكاد أغصانها تلامس الأرض من ثقل الثمر فرشنا
مشمعةً وجلسنا للفطور وإذا بصوت عربية يدنوا رويداً رويداً حتى وقفت بالقرب من
عربتنا ونزل منها رجل أبيض وكان يقتفي إثر عربتنا فصاح في غضب وخاطبنا
بلغة لم نفهم منها شيئاً فخاطبناه باللغة الإنجليزية فلم يفهم هو الآخر شيئاً وصاح
آخر مردداً نفس النقمة وبعد ذلك تعطلت لغة الكلام وخاطبناه باللغة العالمية التي
يفهمها كل إنسان أصم كان أم أطرش ألا وهي لغة الإشارة وفهم غرضنا وضحك
ثم أنصرف .

دخلنا مدينة أبا وتوجهنا نحو دور الحكومة وتمت الإجراءات وأخذنا طريقنا

نحو السوق الذي لا يعدوا أن يكون في حدود أربعة أو خمسة متاجر يمتلكها البيض من بينهم اثنين من اليونان ولم نجد بها ولا تاجر واحداً من السود دخلنا أول متجر وكان ليوناني وجدنا معه أحد أبناء جلدته ويعمل تاجراً بجوبا نعرفه ويعرفنا بدت على وجهه علامة الإحراج وكاد قميصه أن يبثل عرقاً من شدة ما لقيه من إحراج والسبب معروف لدينا هو أن الاستعمار البلجيكي لا يقل عن جنوب أفريقيا من حيث التفرقة العنصرية فالأسود أو الملون لا مكان له مع الأبيض ولا يرفع ببصره لينظر في وجه الأبيض ولا يدخل في متجر من متاجر البيض .

وهو يقف لأداء التحية لكل أبيض ويخلع قبعته من على رأسه التي تكون غالباً من سعف النخيل يقف ولو لتاجر يوناني ومن حق هذا الأبيض أن يودع السجن أي من السود دون ابدأ الأسباب أو عرضه على محكمة إلى أن يرضي عنه لكن بشرط أن يدفع تكاليف أكله مدة حجزه بالسجن وقد لا تساوي القرشين يومياً ويمنع أن يحيي الأبيض الأسود أو ملون ومن هنا بدأ الحرج على وجه صاحبنا بينما هو يعلم أن الشعب السوداني له احترامه بين البلجيكين أنفسهم ولا يعاملونهم كما يعاملون الكونغوليين ولكنه كان جباناً والخوف المتأصل في نفس كل يوناني من الحاكم لا تفارقه مهما بلغ ولو تقدم واعتذر لما آخذناه على هذا التجاهل ولو بدر هذا الموقف من صاحب المتجر لعذرناه واستثناء السودانين عن تطبيق القانون لكثرة تردد تجار ياي فهم يجدوا كل احترام من طبقة الحكام ومن التجار فهم يقدمون لك القهوة والشاي ولا تميز بينهم .

اشترينا كل طلباتنا حتى امتلأ البوكس ورجعنا إلى جوبا وبعد أيام جاء التاجر اليوناني ليعتذر فلم نستمع له ولم نعره نظرة بعد ذلك اليوم حتى من التجار الآخرين الذين علموا ما بدر منه في ابا وأخذوا يلومونه على ما فعل .

رحلات صيد حول مدينة جوبا

كانت العطلة الأسبوعية في المديرية الجنوبية هي يوم الأحد ليتفرغ الجنوبي للصلاة في الكنيسة فهو العطلة الرسمية الذي تقفل فيه دواوين الحكومة

أبوإبها . أما يوم الجمعة فقد يسمح للمسلمين منذ منتصف النهار ليؤدوا الفريضة في المساجد فكنا نجد في يوم الأحد فراغاً كبيراً فنلجأ إلى الرحلات داخل الغابات بغرض الصيد وقد اقتني الكثير من التجار بنادق خرطوش وفي أمسية أحد الأيام كنت أجلس أمام دكان السيد عبد الله زيدان جاء عبد العال محمد احمد وعبد المنعم شمه وأبدوا رغبتهم بأن أهئ لهم رحلة صيد لتجربة الأسلحة التي لم يجدوا الفرصة لاستعمالها ولكي ينالوا شيئاً من دجاج الوادي فوعدتهم خيراً ووجدت من السيد مصطفى حاج الأمين التبرع بعربته اللاندروفر ويقودها محمد احمد أبو ساطور واتفقت مع أحد العمال من أصل مصري كان يعمل كرئيس طلبه لإصلاح الطرق ما بين جوبا وملكال وتركاكاً ماراً بجبل لادو اتفقت معه على أن ينتظرنا في أول معسكر في الطريق لنستعين به كخبير ومن عماله إذا ما اصطدنا حيواناً كبيراً وكان يحمل سلاحاً نارياً وجاء يوم الأحد وأخذنا طريقنا نحو المكان المعين ولما اقتربنا منه ولم يبق بيننا وبينه إلا خمسة أو ستة أميال وقد بدأ السهل المبسط بالقرب من الجبل وأعشابه الخضراء في ذلك الصباح الجديد فإذا بصوت الذخيرة وفرقعتها تدل على أن جماعة مسلحة سبقونا على دخول الغابة ووجدوا سرباً من الصيد وكنا قد لاحظنا أثر عربة تسير أمامنا فأشرت على السائق بالوقوف تحت أشجار الكوك وهو نوع من الشجر ذو حجم كبير ووجدنا أثر دجاج الوادي ومحل حفرياتة ليلتقط الحب فأشرت على أصحاب بنادق الخرطوش أن يبحثوا عن دجاج الوادي تحت هذه الأشجار ولا تتفرقوا وجدتم أم لم تجدوا وتركتم العربة الشارع وأخذنا طريقنا نحو التوج السهل المحيط فلاح لنا على الأفق غبار يدل على سرب من الصيد فاراً من صوت الذخيرة وتركنا العربة على حافته وأشرت على السائق أبو ساطور أن يجلس تحت هذه الشجرة وأن يهئ نفسه لتسلقها إذا ما كان هذا الغبار أثارة سرب من الجاموس وأسرعت في مشيتي لاعترض طريقه وهو يجري فجلست على الأرض وأعطيته فرصة المرور أمامي بنحو خمسين متراً وما أن سنحت لي الفرصة حتى أطلقت عليه النار فأصبت بقرة كبيرة فوقعت على الأرض

وكانت عجلة تجري وراءها فلما سقطت البقرة وقفت العجلة بجانبها فرميتها بطلا
أخري فجرت واختبأت في رقعة من الأرض لم تنال الحرائق منها وكانت كجزيرة
صغيرة تغطيها الحشائش الطويلة فلم اسر وراءها لكنني تتبعتها ببصري حتى
استقرت وسط هذه الحشائش وكنت أقرب حركة المصابة حتى قمت وجئتها من
ورائها ويدي على الزناد خوفاً من مكره ومهاجمته فوجدتها قد ماتت وأشرت إلى
صاحبي بالمجيء فقام من مخبئه وقد بدأ على وجهه السرور قلت أجلس هنا وأنا قد
أصبت جاموساً آخر واختفي بين هذا القش ومشيت بحذر أراقب وأنصت وأمد
البصر يمنة ويسرة حتى رأيته تقف والدم ينزف فرميتها بطلقة أخري فسقطت ميتة
ومن هنا ذهبت سكرة الرغبة والطمع وجاءت فكرة كيف رفعها فوق العربة ونحن
خمسة فقط أخذنا طريقنا بالعربة بحثاً عن جماعتنا ووجدناهم تحت ظل الأشجار ولم
يعثروا على الدجاج وبادرونا سائلين ماذا أصبتم وقد سمعنا صوت الذخيرة ثلاث
مرات قلت مسرعاً غزلان اثنين فقط هيا بنا لنرفعها فوق العربة فبدت على
وجوههم الفرحه وما أن وقفوا أمام الجاموس الميت أصابتهم الدهشة الممزوجة
بالفرحة قالوا رحلة موفقة فقال لهم أبو ساطور انتظنوا إنها الوحيدة فإن بين هذا
القش واحدة أخرى حاولنا المستحيل رفع واحدة منها لم نستطع وأخيراً بدأ لنا
الاستعانة بالأهالي وقصدنا معسكر عمال الطرق فجئنا بأربعة منهم ومعهم فؤوسهم
وسلخنا الجلود وأفرغنا بطونها من أمعاء ومصاريين وقطعناها أجزاء ليسهل رفعها
وفرشنا الجلود على أرضية العربة ورفعنا اللحم وتركنا محتويات البطون للعمال
ورجعنا إلى جوبا فالجاموس الكبير كان من نصيب تجار جوبا الذي وزع عليهم في
منازلهم أما الصغيرة فكانت من نصيب تجار نمرة 3 كانت هذه أول رحلة بعد
التمرد وفي الغد جاء رئيس العمال الذي أخلف ما وعد جاء ليعتذر وهو يتحسر
على أن مجيء الجماعة له جاء من غير وعد وأخذه معهم وهو غير راض ولم
يجيدوا الرماية ورجعنا كلنا دون أن نصيب شيئاً وكان عدد الجاموس كبيراً وعدد
الأسلحة كثيرة وكل إنسان يطلق النار وفر الجاموس من صوت الذخيرة دون أن

ننال منه شيئاً .

كانت رحلات الصيد هي سلوتنا الوحيدة التي تنسينا شيئاً من الأحزان والرواسب التي خلفتها حركة التمرد وبعد أسبوعين جاعنا محمود حاج مهدي من مريدي وهو أحد الذين اکتووا بنارها وفقد أموالاً طائلة نتيجة حرق ونهب كل المحلات التجارية في مريدي وخرجوا منها على ظهر لوري عنوة بعد تبادل إطلاق النار مع الفئة المتمردة(43) وله علاقات وصداقات مع إبراهيم أبو طربوش والطبيب محمد علي وأرادوا أن يرفهوا عليه برحلة صيد وكان أبو طربوش يملك عربة لاندروفور وبيده سلاحاً نارياً وللطبيب صلاح موزر 375 صنع إنجليزي وتم الاستعدادات ليوم غد الأحد وكان الطبيب دوماً يقول إذا التقينا يوم غد بالجاموس فاتركوا لي الأمر لأريكم كيف يصطاد الجاموس وسأعمل فيه بالقتل حتى تقولوا كفاية فكنا نضحك ونقول له لك ذلك وفي مساء السبت اتفق الرأي الجمع هنا على أن ندخل السينما لنقتل الوقت وأخذنا مكاننا بين المشاهدين وبدأ العرض فإذا بنا نشاهد على الشاشة أسراب من الجاموس وهي تهاجم الناس في أكوأهم وتعتدي على المارة والهرج والمرج يسود القرية فيفروا لرؤوس الجبال وتسلق الأشجار منظر رهيب فقال الطبيب متسائلاً ما نوع هذا الحيوان المهاجم قلنا هذا هو الجاموس الذي تتمنى لقياه في يوم غد قال إن كان هذا هو الجاموس فإني منذ الآن أعلن تنازلني على عدم منازلته والوقوف أمامه أخذنا طريقنا في الصباح بعد أن حملنا معنا وجبة الفطور كاملة وسرنا في طريق جوبا تركاكا في نفس التوج بالقرب من جبل لادو غير أننا دخلنا الناحية الشرقية من التوج بدل الغربية فلاح لنا شبح تيتل يقف على قنطور عال في وسط التوج وحيداً فتركنا العربة على حافة التوج لوعورة الأرض داخل التوج ومشينا قليلاً في اتجاه الحيوان فأمسك أبو طربوش بيدي قالاً إن التيتل يتحفز للهروب لما شعر بوجودنا فارميه بطلقة من هنا فإن أصابته نكون قد نجحنا وإن لم نصبه فنعتبره هرب ونبحث عن حلاقه فأمن الباكون ورقدت على الأرض وأطلقت عليه النار فجري جرياً سريعاً فسألوني هل أصبته

قلت نعم لكن الطلقة انحرفت قليلاً عن موقع القلب وأصابة الرئة هيا نتتبع أثر الدم ووصلنا القنطور ووجدنا أثر واضحاً كأنه ماسورة مفتوحة وفي طرف الغابة بعد التوج دخل وسط شجرة متدلية الأغصان فوجدناه يقف على مستنقع بين الدم وهو يترنح للسقوط فجلسنا على شجرة أخرى بالقرب منه نرقب تحركاته فإذا به يسقط على الأرض فتسارعنا نحوه وذبحناه وفتحنا بطنه واستخرجنا الكبد وجهازنا منها فطوراً دسماً وقبل أن نجلس حول المائدة سمعنا أزيز محرك وهو يعلو تارة وينخفض تارة أخرى مما يدل على أنها تحاول الخروج من الوحل فأبدوا الرغبة في الذهاب نحو مصدر الصوت ومساعدته لأنه ربما يكون جاء لنفس الغرض وغاصت عربته في الطين فقمنا الثلاثة بعد أن تركنا الرابع لتهيئة الطعام ونحن نسير نحو مصدر الصوت حتى وصلنا العربية ووجدنا بداخلها شخص واحد هو نائب مفتش مركز جوبا اسمه مصطفى جاء بغرض الصيد فنشلنا العربية من وحلتها وركبنا معه عربته الكومر حتى وصلنا ومد السماط وهو عامر بأنواع اللحوم المحمرة والمشوية فكان وجبة دسمة وطاب لنا المقام في تلك الشجرة الباردة وكان الشاي والقهوة نصب كلما خلا الكوب وقدمنا أخيراً للزائر نصيباً من اللحم لأنه بعد ذلك لم يجد حيواناً يصطاده حيث الشمس قد أوشكت أن تستقر على كبد السماء وكل أنواع الصيد يكون قد دخل بين الأشجار الكثيفة فقبلها شاكرًا وسرنا في طريقنا حتى جوبا .

اهتمامي ينصب في اقتناء رقعة أرض أعمل منها مزرعة نموذجية

رأيت في منطقة الاستوائية مركزاً تجارياً ينبئ بمستقبل باهر بعد رحيل المستعمر والانفتاح على الشمال ربما أجد فيه ما يشبع طموحي من الناحية التجارية والزراعية وقد انصب اهتمامي نحو الحصول على قطعة أرض أعمل منها مزرعة نموذجية متنوعة الأغراض وهذه الفكرة ليست وليدة أفكار فطيرة طارئة بل نتيجة دراسات منذ وجودي بمديرية أعالي النيل وتقدمت بعدة طلبات على عهد الاستعمار وقبضته الحديدية على الجنوب وكان نصيبها الرفض وبالخط العريض وكنت اجدد

الطلب كلما وجدت أو ظننت أن الفرصة سانحة فلم يحالفني التوفيق حتى بعد رحيل المستعمر تقدمت بطلب في مركز فنجاك وكان عل رأسه السيد فريجون مفتشاً وجئت خصيصاً لتقديم الطلب وهو عبارة عن ألف فدان تزرع ذرة حول جبل الزراف وهي على درجة عالية من الجودة والخصوبة وجوها المعتدل يبشر بمحصول وفير يساعد الذرة ليسد احتياجات بعض المراكز المجاورة وبدخول الآلات الزراعية بتلك المنطقة ما يساعد الأهالي على توسيع الرقعة الزراعية وضعت كل ذلك في الحساب وتقدمت بالطلب إلى مفتش المركز الذي أحاله إلى مدير المديرية بعد أن أوصي عليه أما النتيجة كانت الرد لا رفضاً ولا إيجاباً وتقدمت بطلب آخر في مركز الناصر ولقي نفس المصير (44) .

وعندما تخلصت عن إقليم أعالي النيل واستقر بي المقام في الاستوائية وتحصلت على رخصة تجارية وأخرى صحية لأعمل كجزار في سوق نمرة ثلاثة وقد بدأت بتجارة الحبوب التي تحتاج إلى مساعد فطلبت من الأخ حسن حمزة (45) للعمل سويًا فتولي هو الإشراف على مخازن الذرة وكان من نصيبي مراقبة الجزر ومشتري الحيوانات للذبيح اليومي مستعيناً بما لدي من خبرة سابقة في مضمار البقر وتقدير قيمتها فكنت في بعض الأحيان عندما ينضب معين سوق جوبا من الأبقار التي مصدرها قبيلة البارية أو المندرى وهي أجود الأنواع لكنهم غير مبالين إلى البيع ولذلك نجد نقصاً بالنسبة لمتطلبات المدينة ذات السوقين أحدهما في مدينة جوبا والآخر في نمرة 3 فكنت ألجأ إلى مدينة توريت في الضفة الشرقية وكلما طرأ نقص واحتجنا إلى المزيد وكنت كثير التردد إليها وسوقها يجمع بين نوعين من البقر الأول النوع المحلي يربيّه اللاتوكه وهن جيد وخال عن الأمراض أما النوع الثاني مستورد من كبويتا وهو نوعية غير جيدة وتحمل مكروب الحمي الفحمية التي هي مصدر خطر على الإنسان والحيوان وكنت أتحاشى الوقوع في مثل هذا النوع لتشديد الرقابة عليه من سلطات الصحة في جوبا وحرق اللحم في أقل شبهة في حملة لهذا المكروب معني ذلك أن توريت ليست بالغريبة علي وكنت

أري إنها مركزاً تجارياً هاماً وبعد أن فعلت الفرقة التي تمرت في توريث فعلتها بعد أن تجردت عن إنسانيتها وقتلت الأبرياء من النساء وأطفال ونهب الأموال وأحرقت بعض المتاجر وفرت من المدينة بأسلحتها وذخيرتها ولم تدخل الغابة كما هو مشاع بل اندست بين أهاليها بادئ الأمر وبدأت مناوشاتها كجماعات تهاجم القرى المعزولة هدفها المال ولما لم تجد من يتبعها أو يجري وراءها من الجيش السوداني استفحل أمرها وقويت شوكتها حتى عمت كل مراكز الجنوب وقراه وبعد عودتي من ملكال جاعني أحد معارفي ليقول إن أحد تجار توريث وهو سوري عرض متجره للبيع بعد أن خربته يد المتمردين ونهبت ما فيه من بضائع وقتل وكيله وقد عزم على ترك السودان نهائياً . ويستحسن أن نشتره فقلت أعطني مهلة يوم واحد وأتني في الغد وجاء الغد وقابلنا صاحب المحل وكان ينزل ضعيفاً على أحد التجار اليونانيين واتفقنا ودفعنا القيمة نقداً بعد أن اشترطت أن يعطيني فرصة ثلاثة أيام لكي ألقى نظرة على المكان ومبلغ الدمار الذي لحقه فهو أي صاحب الملك مقيد بهذا البيع أما أنا في حل إلا بعد انقضاء فترة الثلاثة أيام ووافق على شروط البيع وكان الطريق مطروق وتسير العربات بين توريث وجوبا بشكل لا ينقطع فذهبت على إحدى هذه العربات التجارية ونزلت ضعيفاً على الحاج مصطفى حاج الأمين وألقيت نظرة عامة على مباني السوق ومنازل التجار لم يصيبها خراب إلا هذا الدكان قد أحرق وامتدت السنة النيران وألحقت بعض الأضرار بالمنزل الذي يعتبر جزء من الدكان وهي عبارة عن بناية واحدة بني الدكان في الواجهة وخلفه بني المنزل وكانت الخسارة قليلة والتلف بسيطاً وقد وجدت بعض تجارها القدامى قد سبقوني إليها وعلى وجوههم الحزن والكآبة لا فاه يفتر ولا ثغر يبتسم لان كل شخص منهم قد فقد من ذويه عدداً من الرجال والنساء والأطفال وكان مصطفى يأخذ بيدي ويجوب بي أطراف المدينة بحثاً عن الجثث التي رمت بها تلك الأيادي الآثمة وقد عثرنا على الكثير منها بين الحشائش الطويلة وواريناها الثري أرواح بريئة ذهبت لملاقاة ربها وهي تشكو ظلم الإنسان على أخيه الإنسان(46)

وكانت حالة الطوارئ قائمة لكن من غير تشدد ولما كانت مهمتي إصلاح ما خرب من الدكان والمنزل فلا بد من استبدال الخشب الذي أتت عليه النيران وعمل رفوف وأبواب للدكان وكانت مصلحة الغابات قد أقامت نقطة بفنييها وعمالها في موقع يسمى كترى وإقامة مناشير تعمل بالطاقة الكهربائية التي تتولد من تساقط المياه من أعلى الجبال ولها دوي فبدأ للحكومة الاستفادة من هذا التيار وجاءت بالمعدات وركبت الأجهزة ودارت المناشير وألحقت بمصلحة الغابات وكانت المياه المتساقطة تكون بحيرة صغيرة على أرض حجرية وقد ساعدت هذه البحيرة في نزول قطع الخشب الثقيلة.

كانت مدينة توريت بعد عودة الحياة لها أرسلت السيد عربي عبد الباسط كأول مفتش بعد التمرد ومهما قلت عنه من شجاعة وأمانة ووطنية لم أجد من التعبير ما يعطيه حقه فهو إنسان وإداري بمعنى الكلمة محبوب بين موظفيه وطبقة التجار وأول ما قام بعمله هو إحياء النادي كمكان يجمع بين جميع الطبقات من عمال وموظفين وتجار بعد أن عين لجنة تمهيدية وقد نالني منها شرف السكرتارية وهو رئيسها كل ذلك لتلطيف الجو الذي يسوده الحزن والكآبة كنا نقضي وقتنا ونسهر في النادي بين لعب الورق على شكل اتيام متنافسة وكنت أرسل الصحف في الخرطوم بكل صغيرة وكبيرة فيما يتعلق بالأمن وتحركات الخوارج بما لدي من بطاقة صحفية كمراسل لصحيفة العلم وكانت رسالتي غير قاصرة على صحيفة العلم بل تعداها حتى شمل الرأي العام والأيام والسودان الجديد وكنت أرسل أغلبها بالتلغراف وكانت تنشر تباعاً وكنت حريصاً لإرسال صورة لمدير المديرية وكان السيد علي بلو وكنت أرسلها تحت اسم ع . نور أي عثمان نور وكنت دائماً أرسلها إلى السيد وزير الداخلية لما كثرت وتعددت الرسائل التي تنشرها الصحف عن عدم الأمن والاستقرار وأصابع الكنيسة التي تحرك بها الفتنة في ظلمة الليل مما يهدد بانفجار الوضع من جديد فإن قطع رأس الحية لا يكفي ولها ذنب يتحرك مما أضطر حكومة الخرطوم بانتداب السيد زيادة أرباب (47) وكان قد عهد له بوزارة

التربية والتعليم أرسل كمندوب من الحكومة للتأكد عما ينشر في الصحف وهل يطابق الواقع فاستبشرنا خيراً واعددنا العدة لنضع أمامه الحقائق ولما كان التعليم تابع للكنيسة وكان الطلبة منقسمين إلى قسمين قسم يؤيد الكنيسة وتتملكه روح الانفصال والقسم الثاني يعارض سياسة القسس وعندهم الكثير بما يؤيد صدق دعوهم من وثائق تثبت تورطهم في شئون السودان الداخلية وقد جمعنا حولنا عدداً من هؤلاء المعارضين ليلتقي بهم السيد زيادة وكتبنا تقريراً مفصلاً يقع في نحو عشرة صفحات وصل سعادة الوزير إلى مدينة جوبا مكث بها يوماً واحداً وبارحها نحو توريث تحف عربته عربات من الجيش والبوليس كحرس إلى أن وصل توريث ودخل منطقة الجيش وبعد زيارة قصيرة طلب مقابلة القسس وزارهم في مواقع الكنيسة بعد أن تخطى منطقة السوق ورجع بنفس الطريق إلى حيث تكتات الجيش وبعد تناوله الغداء مع قائد الحامية وضباطها مر علينا بحرسه للمرة الثانية متجها نحو كبويتا وحز ذلك في نفوسنا وشعرنا بإهانة متعمدة وإن الذين استشهدوا باعوا نفوسهم في سوق النخاسة بثمن بخس غير مقدر من الذين مشوا على جثثهم الطاهرة وداسوها بالنعل ليصلوا إلى كراسي الحكم واجتمعنا في النادي مساء ذلك اليوم ما بين ساخط ومؤنب وتجرده من الإنسانية ورمي بالخلق السودانية في قمامة التعالي والترفع وكان من واجبه كسوداني أن يتقدم بالعزاء لأسر الذين استشهدوا ويزور تلك المقبرة الجماعية ويترحم على أرواحهم ولو لدقائق لكن أبت عليه كبرياؤه أن ينزل إلى طبقة الشعب حيث يراها هو نوع من المذلة اجتمعنا وأقر الجمع على إرسال برقية تلوم الوزير في ما بدر منه ورأى البعض الآخر أنه لا يستحق حتى اللوم لأن تصرفه هذا تصرف صبياني وأرسلت البرقية في هذا المعني زد على ذلك قد أضاع فرصة الاجتماع الذي خططنا له يجتمع ببعض الطلبة ويستمتع لوجهات النظر ليرفع تقريراً شاملاً عن كل وجهات النظر لكنه اكتفى بمقابلة القسس وأهمل طبقة التجار بقصد أو بغير قصد .

ما يسمونه الوبر كلمة إنجليزية بمعنى السلك هذا السلك قائم على أعمدة قوية ينحدر من أعلى إلى أسفل وله بكرات متدلية بواسطة أسلاك بنفس المتانة وعلى أطراف سلكين منها خابور من الحديد ليغرز في جسم الخشبة وترفعه بواسطة رافعات ثم تنزل بسرعة نحو الأرض فتغوص في الماء ولها مراقبين من العمال يفكوها وينقلونها بواسطة الماء إلى نقطة معينة حيث يسهل رفعها على عربات قائمة على مجري حديد إلى داخل مبني المنشار والخشب له أفران تحت درجة خاصة من الحرارة لوقايتها من التشقق ويرص على أرض مسطحة فوق بعضه ليحفظ مستواه خوف الأعوجاج والتلوي وكان يعمل منه الكثير ، فمن شجر المهوقني تعمل الفلنكات التي تربط عليها قضبان السكة الحديد وقد اغني الحكومة عن استيراده من خارج السودان ، ويعمل من شجر يسمى المرايه ألواح ومرارين في مختلف الأحجام ومكتوب على واجهة كل فرن تاريخ قفله وتاريخ فتحه وصلاحيته للتصدير أما الأخشاب التي يصيبها شيء من التلوي أو قطع صغيرة توضع على أكوام تباع كنفايات وبأسعار زيدة وكنت أشتري هذا النوع من الأكوام أرحله بواسطة العربات التجارية وقد سبق أن زرتها قبل التمرد وكان بها تاجراً واحد هو السيد عوض الله العوض من أهالي أم دوم وقد كان أحد الذين استشهدوا في مدينة توريت رحمهم الله جميعاً وكان متجره عامراً وهو يسكن منزلاً مبني بالحجارة والأسمنت وكان المنزل على مساحة كبيرة من الأرض مقام عليها حديقة تحتوي على الكثير من أشجار الفاكهة وأماكن خاصة لأنواع الزهور المحلية التي لا تقل نضرة وشذوي عن المستورد الذي له مكانة خاصة بالقرب من بعضها ومن الغريب حقاً إنك لا تجد أثر لزير أو جرة ماء أو قلة لمياه الشرب لأن الماسورة القائمة في وسط الدار كافية لتعطيك ماء بارداً في برودة الثلج حيث أنها ممتدة من نبع في الجبل له شبكة تمتد منازل الموظفين والعمال من هذا الماء البارد وكل المواسير تجدها حتى في الميادين مفتوحة تصب ماءها ليل نهار وكانت مصلحة الغابات لها ورشة ملحقة بهذا المنشار لتصنيع الخشب كأثاثات منزلية تمتد السادة الإنجليز بكل

احتياجاتهم منها وما فاض يباع للموظفين والتجار ترددت على منشار كثرى مرات عديدة كلما شعرت بنقص الخشب لتكامل مبني الدكان وتأسيسه .

استشهاد بعض أفراد الجيش

بينما تسير العربة التي تحمل بعض أفراد الجيش من كبويتا في طريقها إلى جوبا وقبل أن تصل توريت هناك جبل صغير قائم بالقرب من الشارع فإذا بالرصاص ينهال عليها من ناحية الجبل وهم يستترون خلف هذه الصخور فردوا على النار بالمثل دون أن يروا أحد فاستشهد منهم نحو ثلاثة من رتبة جاويز فساروا في طريقهم حتى وصلوا مدينة توريت فشاع الخبر بين التجار والموظفين والعمال فتجمعنا في صعيد واحد وسرنا نحو ثكنات الجيش وبعد أن قدمنا التعازي وهنأنا الذين نجوا إلى أن وارينا أجسامهم الثري والناس قد غشيتهم موجة من الحزن وقد قرر التجار قفل متاجرهم حدادا عليهم .

وكننت أري إرسال برقية لوزارة الداخلية مكرر لإحدى الصحف لأذكرها الآن وبصورة إلى مدير الاستوائية وكانت البرقية في حدود هذا المعنى "الخرطوم لازال في نوم عميق والخوارج يتصيدون أفراد الجيش كتصيد العصافير" ونشرت الصحيفة نص البرقية ورأى السيد علي بلدو ما يمس كرامته فاستشاط غضبا وأرسل برقية للمفتش مستعجلة تحمل رغبته في زيارة توريت واللقاء بطبقة التجار والعمال والموظفين ، لا ادري مجيئه هذا بإيعاز من سلطات الخرطوم أم بناء على شعوره بالمسؤولية وأرسل للمفتش السيد عربي عبد الباسط وقد كان السيد المدير غير راض عنه وأرسل من يخلفه وهو السيد يوسف محمد سعيد وقبل أن تتم عملية التسليم وانتشر الخبر وبعد الظهر بقليل دخل المدينة تتقدمه عربة من الجيش وهم بكامل عدتهم الحربية ومن خلفه عربة محملة من قوة البوليس بهياتهم الرسمية وتوجه نحو مبني المركز وكنا قد تجمعنا أمام مكتب المفتش دخل المكتب بعد أن صافح عربي لويوسف وأخذ مقعده خلف منضدة المفتش وأمر بالدخول فدخلنا من غير نظام وامتألت جوانب المكتب ووقف السيد عربي بجانب سعادة المدير

وصادف وقوفي بالقرب من السيد مصطفى وافتتح الكلام السيد عربي ليقول إن السيد المدير جاء ليتفقد أحوالكم وأحوال المنطقة ويقف بنفسه على الحقائق من ناحية الأمن وخلافه وسكت فقال المدير قبل كل شيء أنا عايز أعرف من الذي يرأسل الصحف في الخرطوم تحت توقيع ع . نور فتقدمت خطوة وقلت أنا يا سعادة المدير واعتدل في مقعده وقال ما اسمك ؟ قلت عثمان نور ، وعملك ؟ قلت تاجر ، قال أنت ترأسل الصحف بصفتك شنو وما هو الغرم الذي أصابك وجعلك تكتب بهذه اللهجة قلت أولاً أنا اعتبر نفسي مندوباً عن جريدة العلم واحمل تفويض وأدخلت يدي في جيبتي لأقدمه له فقال لا أريد أن أراه بموجب هذا لتفويض أرسل الصحف الأخرى أما الغرم الذي وقع علي أنا لا أكتب عن نفسي إنما أكتب لصالح المجموعة وبصفتي فرداً منها ومن واجبي أن الفت نظر الشعب السوداني ككل ليعرفوا ما يدور في هذه المدينة بعد الذي حل بأهلها من قتل جماعي ، قال ما قولك في الأمن ؟ قلت غير موجود بالمرة، قال وما دليلك ؟ قلت الحال المعاش وفي كل ليل أو نهار نسمع صوت الطلقات من كل جانب من جوانب المدينة ونحن كتجار لنا فروع في القرى المجاورة يديرها بعض أبناء اللاتوكه منذ أن وقع التمرد وفرضت حالة الطوارئ لم نجد الفرصة لعمل جرد لهذه الفروع ، قال وما المانع؟ قلت انعدام الأمن ، قال أنا أرى غير ما ترون من ناحية الأمن فأذهبوا إلى أماكن الفروع ولن تصابوا بأذى ولا يعترض طريقكم ، قلت تحت مسئولية سعادة المدير ؟ قال لا ، وضحك كل من بالمكتب مما أثار غضبه ، قلت يا سعادة المدير إن الأمن غير موجود وحتى داخل المدينة وأنت لا شك عندك نفس الشعور ، قال من أين لك ذلك ؟ قلت قبل إثارة هذه البلبلة كنت أنا وغيري نسلك طريق جوبا توريت دون أن نحمل سلاح إلا العصي ولكن الآن أنت جئت بأكثر من ثلاث عربات محملة بالجنود وبكامل أسلحتهم وذخيرتهم أليس ذلك بما يوحي بأن الأرواح في كف عفريت وفي هذا الأثناء رفع علي السيد وهو وكيل محمد عثمان حاج الأمين رفع يده طالباً الكلام فأشار عليه السيد عربي وقال يا سعادة المدير أنا شاهد عيان منذ

اندلاع الشرارة الأولى وقد أصبت بجرح من طلقة وقد التجأت للكنسية بعد دخول الليل وأسعفت وتحت مسئوليتي بعض الفروع بالقرى فهل يسمح سعادة المدير بأن اصطحب فرقة من قوة البوليس لأطوف على هذه الفروع من وقت لآخر لأطمئن على سير العمل فيها ؟ قال لا يمكن ذلك فلبوليس وظيفته الخاصة ، فقال له علي السيد كيف تقول أن الأمن مستتب والحكومة لا تسمح بإعطاء التاجر قوة تساعد على مراقبة عمله التجاري ، وقال طلب أخير أعطونا قوة بوليس لنجمع هذه الفروع بما فيها من بضائع ، قال المدير ولا هذه ، فضحك الجمع ثانية فازداد غضبه فأراد السيد يوسف أن ينقذ الموقف فنادي بأحد رجال البوليس وقال خذ علي السيد واضعه في الحراسة ورفع يده أحد العمال وأعطى الكلمة وقال إن التجار غير متعاونين مع العمال وكلما أصبح الصنف قليلاً احتفظوا به لأنفسهم فالسوق اليوم خال من بصل وسمن مما أثار الضحك للمرة الثانية وأشار علينا بالخروج من المكتب وتركناه مع مفتشيه وبعد قليل خرج وركب ورجع الى جوبا ورجعنا نحن ثلاثة لننظر في أمر علي السيد ودخلنا على السيد يوسف وقلنا ما رأيك في علي السيد الذي أدخلته الحراسة قال أنا لم افعل ذلك إلا بدافع الشفقة على السيد علي بلدو (49) خشيت أن يصاب بصدمة لأنه مصاب بمرض السكر هذا من ناحية أما من الناحية الثانية إن الجدل قد طال دون جدوى فقصدت أن انهي هذا الموقف والزمن قد لا يمكنه من الوصول إلى شاطئ جوبا قبل الغروب ونادى للبوليس وأطلق سراحه .

اغتيال أحد أفراد البوليس برتبة أمباشي

سوق توريت من الأسواق التي تعتمد أساساً على الأهالي الذين يأتون من القرى المجاورة وبعد أن يقضوا حاجتهم من السوق يرجع كل فرد منهم إلى قريته وغالباً ما يخلو السوق بعد الساعة الثانية بعد الظهر وتقف المتاجر أبوابها وفيما بعد الساعة الرابعة سمعنا صوت ثلاث طلقات تأتي من الناحية الجنوبية من المدينة وهي منطقة خالية من السكان إلا مزارع صغيرة تابعة لأفراد البوليس بين الأشجار

الكثيفة مما يشجع الخوارج للتربص بأفراد البوليس الذين لا زالوا في الخدمة ويتهمونهم بالعمالة بقصد الحصول على السلاح والذخيرة والملابس الرسمية وحالة الطوارئ المفروضة تعطي الحق لكل بوليس أن يحمل سلاحه استعداداً للطوارئ وبدافع الفضول وحب الاستطلاع أخذت سلاحي وسرت نحو مصدر صوت الذخيرة وكان مفتش المركز غائباً في جوبا وحل مكانه نائبه وهو من أصل نويراوي مر علي وهو يركب دراجة وقال لي إلى أين؟ قلت إلى مصدر هذه الطلقات ، قال وما شأنك بها هل أنت مكلف بحراسة الأمن ولم تحمل هذا السلاح؟ قلت دفاعاً عن النفس ، قال تدافع عن نفسك أمام دكانك أو منزلك. شعرت بأن روح الكراهية قد بدت واضحة بين كلماته ونبراته وهو يخاطبني بكلمات استفزازية وهي بادرة لم تكن مألوفة فقلت في نفسي يجب أن أرد عليه بنفس اللهجة التي بادرني بها فقلت له قانون الطوارئ زد على ذلك حق الدفاع عن النفس وأشار إلى أن أرافقه إلى المكتب وسرت خلفه وفتح مكتبه وجلس على مقعده وأخذ ورقة من درج المكتب وقال ضع البندقية في هذا الركن قلت هذا ما لا يمكن هذا سلاحي لم ارتكب به جريمة ولم استعمله ضد أحد فأنت لك حق التحقيق معي إن كنت ترى أن هناك مخالفة للقانون وليس للسلاح دخل وبدأ يسأل الاسم العمر والإجراءات الأولية فشعرت بأن فرصتي الوحيدة هو أن اتخذ من المراسلة ذريعة بجانب التجارة ولما سألني عن المهنة قلت تاجر ومراسل صحفي فرفع يده عن الورقة وقال هل بيدك ما يثبت بأنك مراسل معتمد قلت نعم وقدمت له البطاقة فقرأها ثم ردها وقلت له إن هذه البطاقة تخول لي الدخول في ميادين الحرب وبين المحاربين فوضع الورقة جانباً ووقف قائماً وخرجت فوجدت بعض التجار قد علموا بالحادث فسألوني وقلت لا شيء وقد اتضح أمر الطلقات بأن الامباشي فلان وهو من أبناء الجنوب كان يركب دراجة ويحمل سلاحه وفي أحد المزارع القريبة من المركز أطلق عليه مجهولاً النار فأخطأه ووقع على الأرض وكان أمامه قنطور عالي فاتخذته ساتراً وزحف على الأرض ولما اقترب من القنطور فإذا بطلقة أخرى تأتي من خلف

القنطور واتبعها أخري فأصابته إصابة قاتلة وجردوه من سلاحه وملابسه وذخيرته وركب الدراجة واختفي بين الأشجار وجاء الجيش بعد فوات الأوان وقام بتفتيش المنطقة ولم يجد إلا الجثة ترقد على بركة من الدم وطريق العجلة وهو يدخل الغابة وصول السيد ميرغني عبد النور(50) ليخلف السيد يوسف محمد سعيد

السيد يوسف محمد سعيد لم تطل إقامته معنا حيث جاءه النقل لمركز كبويتا وحل محله السيد ميرغني عبد النور وهو من الضباط الإداريين القدامى الذين سنحت لهم فرصة الخدمة في جميع مناطق السودان المختلفة حتى بلغ مفتش أول وكان له شجاعة في اتخاذ القرار كسابقه عربي ويوسف ذو أخلاق عالية شريف السيد نزيه اللسان واندمج بكلية في مجتمعنا وكانت له رئاسة النادي بحكم وظيفته كما جاء السيد مصطفى حاج الأمين ليشاركنا همومنا وليأخذ نصيبه من هذا القلق ويسهر كما سهرنا وأول ما قام به اقتراح أن يكون نومنا في حجرة واحدة في منزله حيث كنا جارين ومصطفى هذا رجل كريم شجاع لا يخاف أبداً وهو الأخ الأكبر للسيد محمد عثمان حاج الأمين وكان أبوهما صالحاً يحفظ كتاب الله عاملاً بما فيه لا تفارق يده غرفة القرآن طول نهاره وله مواقف مع الإنجليز خصوصاً عندما وقف المستر بار في طريق إقامة مسجد جوبا ، وكان بار هذا قد عمل في الحرب العالمية الأولى وأصيب في عينه اليمنى فعين في السلك الإداري حتى وصل إلى رتبة نائب مدير الاستوائية وكان فظاً غليظ القلب مستعمر يحمل كل طبائع وأخلاق المستعمر وكأنه ولد وتربي في جنوب أفريقيا وبكثرة الطلبات وتحت إلحاح ومواقف أمثال حاج الأمين احمد وحاج الأمين الطيب وهم من أثرياء الاستوائية استطاعوا أن ينتزعوا الموافقة بواسطة سلطات الخرطوم وقام أول جامع في المديرية الاستوائية هذا هو والده ، وقد ورثا هو وأخوه محمد عثمان ثروته المالية وخصاله من كرم وشجاعة ومن حب الأهالي لحاج الأمين . هذا وقد كان في مركز ياي شاب من أصل جنوبي خصه الله بملكة صنع التماثيل من الطين وبني لحاج الأمين تمثالاً في حجمه الطبيعي وهو يجلس على بساط ويرتدي قميص ومن فوقه

ثوب كعادة أهل السودان ويمسك بين يديه غرفة من القرآن فمر مفتش مركز ياي على الصانع وهو يضع يده على اللمسات الأخيرة فاعجب بالتمثال إيما إعجاب ووجد في الشاب ملكة لا بد من تشجيعه فوقف بجانبه وأمره عندما ينتهي من أمر التمثال يقابله في المكتب وبعد الفراغ ذهب له وتولى أمر حرقه بالنار ليتحمل وطأة الأمطار وباشر عملية الحرق المفتش نفسه وأقام له قاعدة رفعه عليها على ارتفاع متر ونصف المتر بعد أن مسح الثياب بالجير الأبيض وأعضائه الظاهرة كالوجه والسدين والقدمين بالسواد وهو لونه الطبيعي وكان مشهوراً بالبادرابي نسبة إلى السادة الشيخ العبيد ود بدر وأولاده الذين حفظ القرآن على أيديهم إلا رحمة الله عليهم جميعاً ومد في أيام محمد عثمان وعلي السيد هذه نبذة قصيرة من حياة هذه الأسرة قضتها الضرورة ولا شك أبداً بأن محمد عثمان يحتفظ وهو الرجل المثقف بمذكراته وستلقى نصيبها من النشر في القريب العاجل إن شاء الله وهو لا ييخل بما عنده من مآثر خالدة للتاريخ .

في ليل شديد الظلمة والسحب الخفيفة تحجب ضوء النجوم ونحن ننتهياً للنوم وقد تجاوزت الساعة العاشرة مساء وقبل أن يداعب النوم أجفاننا إذا بصوت طلقات ناربية تشق سكون الليل تحمله الريح من ناحية تكنات الجيش وكنا دائماً في حالة استعداد للطوارئ فكنا ننام وعلى صدر كل منا سلاحه المحشو وذخيرته في حقيبة يد بجانبه قمنا مسرعين ووقفنا قليلاً أمام الباب المطل على الشارع نكتشف الطريق فلا حركة ولا ضوضاء وكنا نستتر وراء الشجيرات القائمة كسورين للشارع والبيت وكان بجوار المنزل وعلى الشارع الرئيسي يقوم دكان كبير مهجور ومغلق الأبواب وله فرنادات بالزنك تحيطه من جهاته الثلاثة وقصدناه بغرض إننا نجعل منه ساتراً من حيث نرى ولا يرانا أحد ففي سرعة تمكنا من الوصول إليه فإذا بمنادي ينادي من تحت البناية (قف عندك) فكانت المفاجأة والظلام يحجب المنادي عن أعيننا وهم قد عرفونا فإذا هم ثلاثة من رجال البوليس يقومون بحراسة السوق وقد أخذوا يلوموننا على خروجنا في مثل هذا الظلام وهم قد أخذهم الشك في قيام

إنسان من مرقده ليعرض نفسه للخطر وقالوا إلى أين أنتم ذاهبون؟ قلنا لمعرفة
الحاصل الذي أدى إلى إطلاق النار ونجتمع في صعيد واحد خير من نؤخذ على
غرة ، قالوا أرجعوا قلنا لابد من الوصول إلى منزل السنوسي وكان على الطريق
الشمالي من المدينة ولما رأوا إصرارنا ذهبوا معنا إلى أن وجدنا جمعاً من التجار
وقالوا كنا نلعب الورق على ضوء رتينة فلما سمعنا الطلقات أطفأنا نورها ولما لم
نسمع صوت لإطلاق النار ولا حركة من ناحية الجيش رجعنا وفي الصباح جاء
أحد الضباط ليعتذر عن الإزعاج الذي حصل على يد أحد الجنود وهو في حالة
سكر وهيأت له الخمر بعض خيالات أطلق على أثرها النار وكان التعاون بين
طبقتي التجار وضباط الجيش على درجة عالية .

النعام

يتواجد النعام بأعداد كبيرة في منطقة شرق الاستوائية لأن طبيعة الأرض
واعتدال الطقس من أهم الأسباب التي تجعله يتوالد ويزداد كثرة إذا أضفنا إلى ذلك
قلة المكان وتجمعهم في قرى وعدم انتشار الأسلحة النارية ومنطقة توريث بالذات
عامرة بهذا النوع وكلمة النعام تطلق على النوعية ككل ذكوراً وإناث ككلمة ابل
ولكن ذكر النعام له اسمه الخاص ويسمى الضليم ويتميز بسواد ريشه وبياض في
أطراف جناحه والأنثى تسمى الربداء هذه هي الأسماء العربية ثم حرفت فالضليم
ينادوه هضليم والربداء سميت ربهه ولريشه تجارة رائجة منذ مئات السنين يصدر
إلى جميع أنحاء العالم وقد اقترن اسمه باسم سن الفيل حيث كان الصنفين تتصدر
التجارة الخارجية وكان طريق الأربعين الذي يبتدئ من الفاشر حتى يصل أمدرمان
ومنها إلى مصر هذا الطريق هو طريق القوافل التي تأتي محملة من سن الفيل
وريش النعام علاوة على أصناف أخرى . والنعام جميل في مشيته سريعاً في عدوه
لا تناله الخيل ولا الجمال ولحمه يؤكل عند العامة في القرى والأرياف وقد عافه
سكان المدن المتحضرة لراحة لا تقبلها النفس . والعرب القدامى وصفوا النعام
بالجبن حتى قال شاعرهم :

أسد على وفي الحروب نعمة ربداء تجفل من صغير الصافر

ولكن عندي ما ينفي هذا الزعم ويفند هذا القول استناداً على ملاحظات اكتسبتها بطول الممارسة والاحتكاك به ومعايشتي له في بواديه وإني أرى هذا الشاعر قد ظلمه حيث وصفه بالجبن والذي عده جبناً أنا أراه حيلة وخداع فأنتى النعام عادة تبدأ في عملية البيض في أوائل فصل الخريف عندما تكسو الأرض الحشائش وتخضر أوراق الأشجار التي تضع بيضها بينه لتخفيه عن الأنظار ويجيء دور الحضانة يكون زمن الخريف قد ذهب إلا أقله ويبدأ التفقيس مع أول فصل الشتاء فتذهب خضرة الأشجار وتتبدد كثافة الحشائش فتسير في الأرض مكشوفة وصغارها تتبعها فإذا رأت إنسان يسير نحوها أطلقت ساقها للريح والصغار تجري خلفها حتى إذا ما وجدت مخابئ للصغار تركتهم وراءها وتعود للشخص المتتبع وتقترب منه وتأتي بحركات من جناحيها تطويها وتشرها وتضرب الأرض برجليها وترخي رقبتها وتمدها بغرض التخويف فان وجدت الإصرار منه لجأت إلى الحيلة فهي تمشي بالقرب منه من غير أن تتال منه وتبتعد قليلاً وهكذا تستدرجه حتى تذهب به في اتجاه معاكس من مكان صغارها ثم تعود وبسرعة الرياح وتلحق بصغارها وقد تلجأ إلى هذه الحيلة أيام الحضانة خوفاً من العثور على البيض فهو يؤكل وفارغه يباع للزينة في بيوت الأغنياء بعد أن يحلي بالخرز الملون ليضفي جمالاً على الصوالين بين ثريات الكهراء ويعطي منظراً خلاباً يدخل البهجة في نفس الزائر له شعر ناعم وجميل يعمل منه مراوح يد تستعمل في أيام الحر وكثيراً ما تغنى بجماله شعراء الأغنية السودانية كما قال أحدهم في وصف شعرها الكثيف المتدلي (هضليما زوزه ديس النيه) الهضليم سبق أن عرفناه هو ذكر النعام والزوزة مشية من مشيات النعام ما بين الجري والسير البطيء العادي مثل (الكربتة) عند الإبل فهو في مشيته هذه يرخي من جناحيه فينسدل الريش حتى يكاد يمس الأرض ويهتز اهتزازاً بايقاع جميل منتظم والريش كناية عن الشعر الغزير والنية صفة للبننت عند سن المراهقة وتكثر هذه التشبيهات والاستفسارات في إقليم كردفان بين

الشباب فاسمع ما تقوله واحدة منهم :

الصيد ورد سمعن حسه هضليم جويا ربيده كسو

بهذه الأبيات تخاطب أترابها من الفتيات اللاتي تجتمعن في الساحة التي تجمع شباب القرية من الجنسين للسمر وإقامة حلقات الرقص وقد أبطأ الفتيات قليلاً وقد سئمن الانتظار وفجأة تنتهي إلى سمعن صوت يندوا رويداً رويداً مما يوحي بأنهم في طريقهم للساحة فجاءت قريحتها بتلك الأبيات وكلمة صيد كثيرة الورد في قصائد شعراء الأغنية كناية عن الفتيات وهي تلفت نظرهن نحو الصوت وكلمة كسو معناها في لهجة أهاليها في كردفان معناها أفسحوا المجال ووسعوا من الدائرة معاني جميلة وموسيقى أجمل ووصف الهضليم والربداء ليس قاصراً على شباب كردفان وقد ذكره شاعرنا الفحل الأستاذ إبراهيم العبادي في قصيدته التي مطلعها

يا سايق الفيت أقيف سنده بالدرب التحت قصاد ديار هذا

إلى أن قال يقصد العربة في سيرها (تسابق الربداء) ومناسبة هذه القصيدة معروفة وقد أعيدت مرات ومرات بواسطة الإذاعة وهد هذه كانت تسكن منطقة سنجة وفي موقع يسمى الشلال قبل أن يرحل أهله إلى منطقة الرماش وكلا الموقعين لا يصل بينهما إلا أميال قليلة وهذه المنطقة معروفة وهي على شاطئ النيل الأرق غنية بأنواع الصيد مع كثرت النعام ولذلك ورد في القصيدة مسابقة العربة والربداء حينما نفرت من أزيز محركات العربة وصوت عجلاتها وهي تضرب الأرض فيزيد من نفور الربداء وكلما ازدادت في سرعتها زادت سرعة العربة خلفها مما أثار الغبار وقال (تسابق الربداء) .

لاغاني البنات في منطقة كردفان لون جميل غني بالمعاني والتشبيهات وتمس موسيقاها أوتار القلوب وتمتلك مشاعر الإنسان استمع إلى هذه الفتاة التي شغفها الوجد وقد كانت على موعد مع حبيبها فأبطأ فلما خامرها الشك وحرارة الانتظار تنوب في أوصالها وخشيت أن يكون لحق به أذى أو أصابه مكروه فقالت وهي تخاطب خياله الذي يداعب مخيلتها :

سحابي يا الدوديت زرقنت ما كبيت
الليلة وين أمسيت يا لرتينة ضو البيت

أنظر إلى هذين البيتين وأمعن النظر فيهما معني ومبني أليس فيهما ما
يستحق الإشادة بقائلها وما أنطوت عليه من استعارات جميلة وإيماءات ظريفة .

فتراثنا الشعبي الكردفاني جديرة بأن يدون ويستحق قائلها كل تقدير أمثال :

الغالي تمر السوق كان قسموا ما يحوق
زولا سنونه بروق في محكمه زنوق

كل بيت من هذه القصيدة يعتبر تحفة فنية ولوحة قد أبدع رسمها يد فنان
موهوب وتعبر كلماتها عن حب صادق وما تتمتع به الفتاة الكردفانية من ملكة
شعرية لا تقل روعة من أدب عمر بن أبي ربيعة ولهن أغاني باللغة الدارجية
المتفشية في منطقة الحمر والكواهلة مثل قولهن:

أبا دول سد الدور اتحاسدوا ورقدوا خلوني برا
سألت أمي قالت ما بتدري سألت أبوي قال فقير بقري
حوت البيت قعد بيكي دموعي ديل بلان صدري

وأمثال ذلك كثير وقد أدخلت هذا النذر اليسير لتكون حافزاً للمتقنين من أبناء
كردفان ليولوا عنايتهم الخاصة لهذا التراث الشعبي والذي يمثل أجيالاً مع تفشي
الأمية بينهم جاعوا بأجود أنواع الشعر فعلى عاتق أبناء كردفان تقع المسؤولية
وعليهم أن يأخذوا عهداً مع بعضهم أن يألّفوا اللجان وجمع هذا التراث الذي له
قيّمته التاريخية في كتاب أو أكثر يا حبذا لو سجل هذا الشعر على أشرطة بنفس
نغمة البنات التي لها رؤيتها الخاصة بتمديد كلماتها في صوت رخيم كما كن يفعلن
في ساحات الرقص وليالي السمر .

ولنعد إلى حيث بدأنا عن النعام هناك مثل شائع بين الناس يقول (دهن النعام
بشيله جلده) يقال عادة لمن يريد يضع الأمر في غير موضعه فيقع الفشل وليس
لدى ما يثبت أو ينفي صحة هذا المثل وللنعام شحم كشمح الدجاج بين جلده واللحم

وفي بطنه وقد يصل إلى ست من الجوالين يستعمل كعلاج للأعصاب المتصلية
يمسح على ظاهر الجلد وهو معروف بهذه الخاصية بين كل سكان السودان ويطلبوه
ويحتفوا به لهذا الغرض .

جبل نقاشوط ودخوله التاريخ

عندما يبارح المرء مدينة توريت متجهاً شرقاً نحو مركز كبويتا يطالعك جبل
عال هو جبل نقاشوط دخل التاريخ بعد أن كان نكرة وغير معروف لا يذكر إلا من
سكان المنطقة ولكن بعد انقلاب السيد إبراهيم عبود حيث نفي إليه السيد إسماعيل
الأزهري والسيد محمد احمد محبوب والسيد علي عبد الرحمن وبعض أعضاء
الأحزاب البارزين حماية للانقلاب وهو جبل عال علواً شاهقاً وعر المسالك وجوه
رطب تكاد مياهه أن تتجمد من شدة الرطوبة هذا الجبل وماله من ميزات يستحق
بدل أن يكون منفى يؤسس على سطحه فنادق سياحية يجلب كل الأجانب لجمال
الطبيعة والأرض الرملية والهدوء بعيداً عن أضواء المدن وضوضائها ومكاناً
مناسباً لقضاء شهر العسل للعرسان دون إرهاق للجيوب ولا تبديد للأموال ولهذا
الجبل ميزة أخرى لو علم بها العرسان لاموه من جميع أنحاء إن لم اقل العالم لقلت
السودان ، منها تواجد شجرة معروفة باسم (قرفة ناقشوط) تؤدى وظيفة الحبوب
المنشطة الباهظة التكاليف ، ولا غنت عن جميع المستحضرات الطبية المستعملة
في هذا المجال مما يرهق ميزانية العريس وهي عبارة عن قرفة شجر خاص ينمو
بكثرة على مساحات واسعة فوق الجبل وبأطرافه ، تجفف القرفة تحت حرارة
الشمس وتسحن سحناً ناعماً يأخذه الإنسان عن طريق الفم بأحد الوسائل التالية أما
وضع المسحوق في ملاحه أو صحن ويأخذ قطعة من اللحم تغمرها فيه (وكأنه
شطة) ثم تَأْكُل حتى تكفي أو تمزجه بقليل من عسل النحل وتأخذ منه يومياً ثلاثة
معالق صغيرة في الصباح والمساء أو بطريقة ذره على كوب الشاي أو القهوة
وتشربه وليس له خلفيات ولا رواسب تضر بصحة الإنسان وهو مجرب من بعض
الطبقات الذين اضطرتهم طبيعتهم للبحث عن علاج لهذه الحالة التي تفشت بين

الطبقات المترفة مما أرهق الميزانية وأقلق الراحة وهدد مستقبل الأسر ولو أقيمت الفنادق وتوفرت فيها سبل الراحة ووجدت الدعاية اللازمة لهذا المصيف ومما يحتوي على ميزات كثيرة لدر على السودان أكثر من 30% مما يحتاجه من العملات الصعبة (51) .

وبعد تخطيك لمنطقة ناقشوط بقليل تجد أن الطبيعة قد أصابها شي من التغيير إلى أن تصل مدينة كبويتا وقد تحول الطقس إلى جو حار جاف والأرض رملية تنمو فيها شجر الكتر واللעות والطندب والأراك نفس الأشجار في وسط السودان وتسكن هذه المنطقة أي منطقة كبويتا قبائل كثيرة منهم التبوسا وهم أكثر نفراً من غيرهم يمتازون بقوة الأجسام ولهم صبر في تحمل المتاعب ويمتهنون الزراعة وتربية الماشية علاوة على تربية الحمير ،أي والله الحمير لا بغرض الركوب أو استعمالها في حمل الأثقال لا بل تربي للاستفادة من لحومها وألبانها فهي تحلب كما تحلب الشاة وتنبج للأكل ولها أجسام كبيرة وكأنها البغال ولها رعاة وزرائب خاصة بها بجانب الزرائب الأخرى من بقر وغنم ويجاورونهم من الناحية الشرقية قبيلة تسمى (التركانه) وهم أصحاب أبل من نوع يغاير ما هو معروف عندنا في شرق السودان وغربه من حيث التكوين الجسماني فهي قصيرة القامة وعلى ظهرها سنامين ذات وبر كثيف وهم رحل بين حدود السودان وكينيا ويوغندا وأثيوبيا وجبل بوما هذه الرقعة التي تعتبر خالية شجعتهم كثيراً على قطع الطرق ونهب وسرقة المواشي ولديهم من الأسلحة النارية مما لا يوجد بين القبائل التي تسكن هذه المنطقة وهم مدربون على استعماله مما شب من الطوق فهم يجيدون الرماية ولا يخطئون الهدف مما أثار الرعب بين تلك القبائل وهم دخلاء على السودان جرهم المرعى وطاب لهم السلب والنهب بين تلك القبائل .

وهذه المنطقة المحصورة بين هذه الدول الأربعة تدل على أنها غنية بالمعادن كالذهب والبتروول وربما معادن أخرى قيمة كاليورانيوم وخلافه ولا بد من أن يأتي اليوم الذي تجد كل هذه الثروة المطمورة تحت الأرض ستتكشف بعد أن أخذت

ثورة الإنقاذ الوطني مقاليد الحكم وأخذت الأمور بجد وفتحت أبواب السودان على مصراعيه أمام المستثمر الوطني والأجنبي بالشروط التي تكفل للمستثمر حقه دون تفريط في حق الدولة وإني لجد متفائل بأن في القريب العاجل سنجد السودان قبلة الأنظار من كل دول العالم ليس في أفريقيا فحسب بل كل دول العالم لما يتمتع به من إمكانيات هائلة زراعية كانت أم صناعية وسيمد العالم إنشاء الله بكل حاجته وسيصبح السودان في سنين قليلة يابان القرن الحادي والعشرين وإن قلت اليابان ولم أقل أمريكا لأنني أرى المستقبل يشير بأصابعه نحو اليابان لأنه يمضي نحو المستقبل بخطى سريعة ثابتة مما أزعج أمريكا نفسها ولا أشك إن استمرت ثورة الإنقاذ الوطني على مبدئها هذا سيجيء اليوم الذي يخيف أمريكا وغيرها من الدول الصناعية إذا أعددتنا العدة وتوصلنا إلى التكنولوجيا الحديثة وطيعناها في زيادة الإنتاج واكتشاف ما بباطن الأرض من كنوز.

وحيد القرن يسكن الاستراحة

في طرف المدينة من الناحية الجنوبية الشرقية تقع مدينة توريت تقع الاستراحة كانت معدة لنزول الضيوف من الأجانب وكانت خالية من الرواد وبعيدة عن سكن الأهالي وكان طواف البوليس ليلاً يمر بالقرب منها فاكتشف وجود وحيد القرن يأوي إليها ويقضي نهاره بداخلها ويخرج ليلاً مع فصيله ليرعى فجاء أحدهم أشار إلى الخطر من وجوده على حياتهم أثناء أداء دورهم في الحراسة وكانت المدينة هادئة نسبياً بسبب حظر التجول وكانت الحركة قليلة إلا من حول النادي فذهبت للسيد ميرغني عبد النور المفتش المسئول وطلبت منه الإذن بقتله قال هذا الحيوان لا يسمح بقتله إلا في حالات نادرة وبواسطة سلطات عليا ولكن سأرسل برقية إلى مصلحة وقاية الحيوانات اطلب منها السماح بضربة خشية أن يتعرض أحد لمهاجمته وجاء الرد مخيباً للآمال بعدم التعرض لهذا الحيوان ولتابعه وسترسل المصلحة بمندوبها للعمل بطرده دون أن يتعرض للأذى وبعد يومين جاء أحد رجال حرس الصيد يحمل قنابل يدوية فارغة المحتوي تحدث انفجاراً مزعجاً مما يحمل

على الحيوان إلى الابتعاد من المنطقة ونفذ ما جاء من اجله وفر هارباً ولم يعد .
و أثناء وجود السيد ميرغني كنت شديد الحرص علي اقتناء سلاح ناري من
ذوات الأعيرة الكبيرة التي بمقتضاها يسمح لي بصيد الأفيال وكنت ابحث عنه في
كل مكان فعرض عليّ أحد التجار اليونانيين بندقية من اكبر الأعيرة ذات ماسورتين
ثقيلة الوزن وعرضها عليّ وبعد فحصها أعجبت بها ومن شدة الفرحة لم يخطر
ببالي بان أقوم بتجربتها على سبيل التحقق من صلاحيتها ومن حيث إصابة الهدف
الدقيق وهل ذخيرتها في متناول اليد هذا كله لم يخطر ببالي زرتة في مكتبه
وجلس علي أريكة جانبية وقلت جئت أستشيرك في موضوع قبل أن أقدم رسمياً
بطلب انك تعلم هوايتي للصيد ويدي سلاح لا يسمح لي بصيد الأفيال ووجدت عند
الخواجة بندقية عرضها للبيع وأعجبت بها وجئت أستشيرك فان وجدت عندك
التوصية على الطلب تقدمت وإلا تركت الأمر فضحك وقال هل تعلم أن الخواجة
يريد التخلص منها لأنه منذ أن وقعت في يده لم يستطيع ضرب طلقة واحدة منها
لقوة الطلقة وهو يريد بيعها بناء على نصيحتي فان اشتريتها فمن الذي يضربها لك
قلت أنا قال اسأل مجرب هل تفكر اقوي أنا أم أنت قلت أنت طبعاً قال عندما
ذهبت صيد الفيل قبل شهرين استلفتها منه وقلت طلقة واحدة منها تكفي لقتل الفيل
وقبل أن نلتقي بالفيل حاولت تجربتها على جاموس اعترض طريقنا فرميتة بطلقة
منها فإذا بقوة الطلقة أجد نفسي واقعاً علي الأرض ومثلاً آخر ما رأيك في دكتور
غلندر من ناحية القوة بالنسبة لك قلت لا توجد مقارنة قال حصل له ما حصل لي
بالضبط مما جعلنا نردها إليه دون أن نستعملها مع الأفيال ففكر في الأمر جلياً
وعلى ضوء كل ما تقدم إن كنت مصراً على شرائها فأنا في إمكاني أن أجيئ
بالأرنيك وأخذه بيدي وانتزع الموافقة من سعادة المدير فافقتعت وشكرته وانصرفت
ضباط الجيش يشاركوننا النادي ويجدوا فيه سلوتهم

كان النادي محل تجمعاتنا نقضي فيه أول الليل وكان مزودا بجميع
أدوات اللعب من اللعب بالورق وتنس الطاولة والشطرنج والطاولة والدومنا

واستطعنا أن نغري بعض الضباط بقضاء فترة من وقتهم في النادي وكان منهم السيد عبد الله الطاهر بكر وكان برتبة يوزباشي فكانوا يداومون الحضور يوميا وكنا نخرج خلسة لنصطاد الغزلان ببندقية مورش وفي الليالي المظلمة حيث كنت أجد نفسي نفوراً من أكل لحم البقر لسببين الأول كنت احمل رخصة جزر بسوق نمرة 3 بجوبا وكنا عندما لا نجد كفايتنا من الوارد المحلي من البقر أو الضان نلجأ إلى توريث وفيها نوعين من البقر المحلي المتوالد في منطقة اللاتوكة والنوع الآخر مستورد من كيويتا وقيمة النوع الأول يساوي ضعف قيمة النوع الثاني لان هذا النوع المستورد من مناطق كيويتا يحمل الفيروس المسبب للحمي الفحمية وتنتقل للإنسان عن طريق أكل اللحم وكنا نلاحظ إن سلطات البيطري تقوم بالكشف الدقيق على الحيوانات الواردة من كيويتا باستخراج غدة داخل فخذ الثور وتشقها نصفين فاقبل اشتباه بالإصابة تعرض اللحم كلها للحرق بالنار زد علي ذلك عدم جودة النوعية من اللحم عندما تضع قطعة لحم في فمك تشعر بأنك تأكل في ألياف لا طعم فيها وينطبق ذلك علي اللحم الضان المستورد منها هذا ما نلاحظه من شدة الرقابة والاهتمام بصحة الإنسان و الآن بعد أن فقدنا هذا الاهتمام فالإنسان من طبعه ميال إلى المزيد من الربح فكان الذبح في اغلب الأحيان يكون من المستورد لرخص ثمنه والتسعيرة واحدة وهامشية الفحص وعدم الاهتمام بالفحص الدقيق ومن هنا بدأ النفور فكنت اعتمد أكثر الأحيان على لحم الصيد وقد ساعدني على ذلك السيد مصطفى حاج الأمين حيث وضع عربته تحت إمرتي متى شئت وكنا نقوم برحلات أسبوعية كل يوم أحد لنصطاد الجاموس أو التيتل وفي توريث نوع خاص من هذا النوع اصفر ذهبي لامع يمتاز لحمه بالجودة .

أما نوعية الضأن في منطقة كيويتا فهو قصير القامة وقصير الذنب يتجمع شحمه حول ذنبه ككتلة واحدة يكاد يعجز عن حمله إذا ما وصل إلى درجة معينة من الشحم أما بقية لحمه فلا تجد فيها شحم ولون لحمه احمر قاني يميل إلى السواد عند وضعه على النار غير مرغوب ولا مستساغ رخيص القيمة ولذلك كنت اعتمد

على الأخ عبد الله طاهر بكر في الخروج إلى منطقة الطيارة حيث نجد أنواع الغزالان المختلفة كلما احتجنا إلى لحم وكنا نخرج في أيام الأحاد مع الأخ مصطفى حاج الأمين لصيد الجاموس وتوزيعه على بقية التجار دون مقابل وكانت أيام توريدت من احسن الأيام التي قضيتها في الجنوب إلى أن اضطررتي الظروف لتركها والتوجه نحو مريدي .

حواشي الفصل الرابع

- (1) نهاية الحرب العالمية الثانية كان في عام 1945م .
- (2) محمود وعباس حاج مهدي : اشقاء وموطنهم الكوه وهما من الاقارب ومحمود صديق حميم للوالد ورفيق صبا وظلا متلازمين بمريدي والكوه والخرطوم ، وكثير من رحلات الصيد التي سيأتي ذكرها مرتبطة به .
- (3) مريدي MARIDEI الموقع E ٤٣ - ٣٣ من المراكز الهامة بغرب الاستوائية وسيأتي الحديث عنها لاحقا .

٤٠ - ٨ N

- (4) السيدان بشير محمد خير والرشيد محمد البشير من مواطني الكوه وتربطهم بالوالد صداقة قوية وزمالة امتدت من الكوه منذ طفولتهم وتوطدت بعد ذلك عندما شبوا عن الطوق وظلت هذه الصداقة عامرة بينهم حتى انتقالا لرحمة مولاها . وكلاهما حاج بشير وحاج الرشيد أسسا أعمالاً تجارية ناجحة بمديرية بحر الغزال وبعد التمرد انتقل حاج الرشيد للعمل بامدرمان وتطورت اعماله عندما بنى مصنعاً للثلج ما زال قائماً ويديره الآن أبناء أخيه سيد احمد لان حاج الرشيد لم ينجب . وحاج بشير استقر بالكلاكله وله مجموعة من الاولاد والبنات .

- (5) الفاتح الماحي من عمراب الكوه ولد ودرس الاوليه بالكوه وتخرج من كلية غردون التذكارية والتحق بالعمل الحكومي في وظيفة بالمخازن وتزوج من الخرطوم بحري . وكان مشهوداً له بالوطنية وله مواقف ساخنة مع الاداريين البريطانيين منذ كان طالباً بكلية غردون التذكارية وكانت تربطة صداقة قوية مع الوالد . وبعد تقاعده بالمعاش جاء ليستقر بالكوه ولكن المنية عاجلته وتوفي ودفن بالكوه ، وهو عم الدكتور التجاني الماحي .

- (6) مؤتمر جوبا عقد في عام 1947م تقريباً .

(7) لعل الوالد يقصد حسن احمد عثمان وهو توأم حسين وكلاهما من مؤسسي مدرسة ابي روف ومن رواد الخدمة الوطنية ولهم مواقف مشهودة ضد الادارة البريطانية وكانا من رواد المذهب الفابي Fabian وهو مذهب من مذاهب الاشتراكية الغربية .

(8) شامبي SHAMBE الموقع E ٤٦ - ٣٠
N ٠٧ - ٠٧

(9) مية شامبي معروفة ببخيرة نو (NO) وهي المنطقة المخطط قيام قناة جونقلي بها من اجل شق قنائه لتوفير المياه ومن اثارها ربما تجف البحيرة او على الاقل يتقلص حجمها كثيراً وللمؤلف كتاب مخطوط عن (قناة جونقلي واثارها البيئية والاقتصادية) تحدث فيها باسهاب عن سليات القناة والكتاب ما زال مخطوطاً .

(10) السيد سيد أحمد بوبي من اهالي الكوه عمل فتره من الزمن في شبابه بمدينة الكوه مزاولاً اعمال الزراعة والتجارة وما لبث أن لحق باهله ومعارفه من رجالات الكوه العاملين بالجنوب وبعد تدهور الاحوال الامنية فيما بعد عاد الى الكوه لتمضية بقية ايامه حتى توفي لرحمة موله .

(11) كانت عائلة السيد عثمان فقير وهو ايضا من اهلنا بالكوه .

(12) قابلت المرحوم سيد احمد بوبي في اواخر ايامه وكان جارا لنا بالكوه ورايت اثار النمر على ذراعه وكفة يده وقص علي نفس الرواية ولكنه اضاف بان بعد سقوط النمر على الارض هجم عليه الاهالي واوسعوه طعنا بالحرا ب ، وقال لي بلهجة ساخرة خربوا علي الجلد !!

(13) الثابت علميا ان الوفاة تنتج من اثر الصعقة الكهربائية لان الصاعقة ما هي الا شحنة كهربائية عالية يتبعها تفريغ هوائي كبير يؤدي الى اعصار يقتلع كل ما يعترض طريقه . وهناك الاعتقاد السائد بان الصاعقة تحمل معها سيفا فلذلك يلجأون الى الحفر والبحث عن هذا السيف المزعوم والذي يقال بانه سيف بنار لا شبيه له .

(14) ضالة لعبة شعبية منتشرة في اواسط السودان وخاصة بين العرب البقارة فهي تتكون من عدد من اعواد الخشب الرقيقة يبلغ مجموعها حوالي اربعين عودا لكل فريق ويمكن ان يلعبها شخصان او اربعة او اكثر (36) ويعمد كل فريق على وضع اعواده بطريقة خاصة تضمن له التغلب على صاحبه كما في الشطرنج .

(15) القرموط : نوع من السمك يعيش في الاماكن الضحلة والخيران ويمكن ان يصل وزنه الى اكثر من عشرة كيلو وجلده املس ويميل الى السواد ويمتاز بخاصية العيش خارج المياه لمدة طويلة لانه يتنفس من مسام جلده اضافة الى الخياشيم ويعتبر لحمه من لحوم الدرجة

الثالثة . ولحمه خالي من الدهون وعندما يجفف يطلق عليه اسم (الكجيك) .

(16) هي في العادة اسماك لا يتعدى طولها 10 - 15 سم ويطلق عليها الحميلات والكواره والشلباية والعر .

(17) شهدت مناطق الالتماس هذه فيما بعد معارك شرسة دارت بين المجموعات العربية المسلحة من البقارة (المراحل) وبين قبائل الدينكا التي تسلحت ايضا بجانب السلاح الابيض بالسلاح الناري الذي حصلوا عليه من المتمردين فكانت الاغارة على القرى والقطعان والسبي والنهب متبادلاً بين الفرقاء . ولكن الاتفاقيات والعهود التي ابرمت بين الفريقين في السنوات الاخيرة خففت كثيراً من تلك المعارك . ولم تصبح تلك المصايف كما كانت في الماضي الذي يتناوله المؤلف او تلك الاحوال التي كتب عنها د . فرانسيس دينق في كتابه (رجل يدعى دينق ماجوك) الذي تناول حياة المسيرية بقيادة بابو نمر والدينكا بقيادة والده السلطان دينق ماجوك .

(18) البفرة : نوع من انواع البقوليات يشبه البامبي ولكنها تكون باحجام اكبر ويستخدم بدلا عن الخبز .

(19) العناقريب : وهي السراير البلدية وكان يطلق عليها (المخرطة) ونالت عناقريب واو هذه شهرة واسعة وكانت من مستلزمات الزواج والختان بأن يجلس المحتفى به في هذا العنقريب لزوم " الجرتق " .

(20) غاب ابو شنب ولعب ابو ضنب " مثل سوداني " أي عندما يغيب القط يلعب الفأر .

(21) أبَا : ABBA

(22) السيد عبد الرحيم نمر (رحمه الله) ابن خالة المؤلف وزوج شقيقته تخرج من كلية غردون وبعد فصله من الكلية اثر اضراب الطلاب في عام 1932م عمل مدرساً بمدارس الاحفاد ثم عمل مترجماً ابان الحرب العالمية الثانية وسافر مع قوة دفاع السودان التي شاركت في حرب الصحراء بليبيا بعد ذلك عمل في السلك الكتابي الى ان وصل الى وظيفة باشكاتب مديرية وبعد الاستقلال عمل سكرتيراً لمجلس الوزراء في اول وزارة وطنية برئاسة السيد اسماعيل الازهري . توفي بملكال في مطلع السبعينات .

(23) وفقاً للاحداث فقد جاء الوالد الى جوبا حوالي عام 1953م تقريباً .

(24) الصاغ صلاح سالم وهو من اعضاء مجلس قيادة الثورة المصرية وقد اوكلوا له ملف القضية السودانية ، واستطاع ان يبني علاقة متينة ووثيقة مع زعماء السودان وسلطين الجنوب .

(25) الشيخ أحمد حسن الباقوري : من خريجي الازهر وتولى وزارة الاوقاف المصرية وكان من المشايخ المقربين لقادة الثورة المصرية.

(26) عصمت عبد الجواد : صحفية مصرية كانت تعمل بمؤسسة اخبار اليوم وبنّت علاقات واسعة مع السياسيين السودانيين .

(27) الدكتور احمد السيد حمد : القطب والسياسي المعروف من رواد الحركة الوطنية ومن مؤسسي الحزب الوطني الاتحادي ثم حزب الشعب الديمقراطي اوقف حياته على العمل الوطني والسياسي منذ ان غادر السودان في العشرينات لتكميل تعليمه بمصر حيث حصل على ليسانس الحقوق من جامعة فؤاد الاول ثم فرنسا حيث نال درجة الدكتوراة في القانون من الجامعات الفرنسية واصبح السكرتير العام لحزب الشعب الديمقراطي ثم السكرتير العام لحزب الاتحادي الديمقراطي في عام 1967 م ، كان وزيرا للري عقب ثورة اكتوبر 64 - 1965 م ووزيراً للتجارة 67 - 1968 م حتى قيام مايو وتعرض لمحاكمة جائرة في عام 1969م وحكم عليه بالسجن ولكن اطلق سراحه فيما بعد وانضم الى حكومة مايو بعد المصالحة الوطنية في عام 1976 م وعمل وزيراً للمواصلات.خرج من السودان معارضا لثورة الانقاذ الوطني وكان احد اعمدة التجمع الوطني واستقر بالقاهرة ، وعاد مؤخراً للخرطوم بعد اعادة الانقاذ له منزله المصادر وبداية الوفاق الوطني شارك في العمل الوطني في كل مراحلهِ وحتى يومنا هذا (2002م) وتربطة صلة قرابة بالوالد .

(28) نسبة لما يربطنا من صلة وعلاقة حميمة مع الدكتور احمد السيد حمد وكنت في السنوات الاخيرة اتردد عليه بمنزله وفي زياراتي للقاهرة كنت ازوره بشقته بمدينة المهندسين وفي كل تلك الزيارات كنت اطالبه واحثه على كتابة مذكراته بصفته شاهد عصر . لانه باختصار السياسي السوداني الوحيد الذي لازال يعمل بالساحة السياسية وقريبا من مركز القرار منذ مطلع الثلاثينات وحتى بداية القرن الواحد والعشرين أي قرابة السبعين عاما . ولكن حسب علمي لم يكتب شيئا من هذا ، وارجو ان اكون على خطأ .

(29) الدكتور ابو عكر من الرعيل الاول من الخريجين الذين عملوا بالحركة الوطنية وقد ابحج نيران الوطنية في كل المدن التي عمل بمستشفياتها قبل الاستقلال تولى رئاسة لجنة السودنة تلك اللجنة التي قدر لها ان تستبدل الادارة البريطانية بادارة سودانية وقد نجحت في ذلك .

(30) السيد الطيب محمد علي : مسقط رأسه الدويم وتربطه بالوالد صداقة متينة وهو اخ الحسن محمد علي وبدوي وعبد الله وفضل الله ، وبعد تدهور الاحوال الامنية بجوبا عاد الى

الخرطوم ليؤسس عملاً تجارياً ناجحاً وسكن بامدرمان (حي الأمراء) وكان الوالد يزوره في عمله بالخرطوم أو منزله بامدرمان كلما جاء إلى العاصمة .

(31) انظر قارئى الكريم هذه واحدة من الخدمات الوطنية التي قدمها أبناء السودان إلى أشقائهم في يوغندا وأخيراً يأتي موسفيني ليكافئ السودان بدعم حركة التمرد وتغذية نعمة الانفصال بالنسبة للجنوبيين وينسى أو يتناسى عاماً الدور أو الأدوار والمواقف التي وقفها الشعب السوداني ممثلاً في أمثال أولئك المواطنين للحرار من أبناء يوغندا حتى نالت استقلالها وتحررت .

(32) ربما لا يكون هذا التفسير مقبول علمياً . فالزلازل تحدث بسبب تصدعات في طبقات باطن الأرض وعلى أعماق سحيقة حيث لم تستقر الأرض تماماً في بعض المواقع وتكون الصخور منصهرة فتخرج في شكل نافورات بعد أن تفجر الجبل وهو الأمر الذي نشاهده كثيراً على شاشات التلفزيون حيث تدفق الحمم كالسيل .

(33) حدث في مطلع الثمانينات هزة أرضية قوية بمدينة جوبا أدت إلى تصدع المباني وانهيار الكثير منها ومن ذلك مباني جامعة جوبا التي تعرضت إلى خراب شديد بفعل الهزة

(34) الشلن الانجليزي : كانت العملة المتداولة بالسودان قبيل الاستقلال والجنه كان به عشرون شلناً .

(35) تانجانيقا : وكانت تضم كل من زنبار وتنزانيا .

(36) ظل هذا الطقم ملازماً للوالد طوال حياته حتى بلغ الكبر وقارب المائة عام فصار الطقم أكبر من الفك بعامل الكبر وضمور الفكين . أي حوالي خمسين عاماً وفي هذا شهادة لذلك الهندي النطاسي البار .

(37) عنتيبي ANTBE

(38) معاوية ابراهيم سورج من أبناء الكوة ومن اهلنا السورجاب اعتنق المذهب الشيوعي منذ ان كان طالباً بمدرسة حنتوب الثانوية فصل منها وتعرض للسجن والمحاكمات والملاحقات ، تدرج في مناصب الحزب الشيوعي السوداني حتى وصل إلى منصب السكرتير التنظيمي واشتهر بشجاعته ومواقفه البطولية كان احد قادة الانقسام إبان فترة مايو ، توفي إلى رحمة مولاه .

(39) التجاني الطيب : احد قادة الحزب الشيوعي وعضو المكتبة المركزية وظل في قيادة الحزب حتى نهاية عام 2002م عند اعداد هذا الكتاب للطبع .

(40) السني محمد خير بدرية من اهلنا بالكوه عمل بالتجارة والأعمال الحره بمدينة ملكال ثم

انتقل للعمل بجوبا صار عضواً في المحكمة الاهلية وعضو اللجنة التنفيذية للحزب الوطني الاتحادي بجوبا كان من الشخصيات المحبوبة ولها صداقات حميمة مع القادة الجنوبيين وظل على صلة بهم حتى بعد عودتهم للشمال واستقراره بالكوه وفي اواخر ايامه اصيب في بصره توفي الى رحمة مولاه .

(41) ياي YEI الموقع E ٤٠ - ٣٠ احدى مدن غرب الاستوائية
٠٥ N - ٠٤

(42) السيد محمود حاج مهدي صديق وزميل للوالد منذ أيامهم بالكوه واستمرت هذه الصداقة حتى يومنا هذا ، والسيد محمود حاج مهدي من الجيل الثاني الذي عمل بالجنوب واستقر بالمديرية الاستوائية واسس عملاً تجارياً ناجحاً وكان من اوائل التجار الشماليين الذين حصلوا على تصديق مزرعه تقوم بزراعة البن ولكن قيام التمرد دمر كل شيء وقد كتب العم محمود تجربته تلك ونشرت بالرأي العام وهي تجربة جريئة تتم عن شجاعة وحسن القيادة فقد استطاع بقيادته الرشيدة لمجموعة التجار واسرهم ان يقودهم ويخرج بهم بلوري متهاك واستطاع ان يقاوم المتمردين ببعض بنادق الخرطوش حتى تمكنوا من الخروج ومغادرة مريدي واتجهوا نحو بور ومنها الى ملكال . وقد اختير عضواً في لجنة حصر خسائر التجار وكان ممثلاً لهم في تلك اللجنة .

(43) تحققت هذه الامنية عندما حصل الوالد على مشروع زراعي آلي بمنطقة الرنك باعالي النيل مشتركاً مع عمنا المرحوم عبد الرحيم نمر وكانت مساحته الفي فدان وعندما ترك الرنك تحت اصرارنا تقدم بطلب للحصول على قطعة ارض زراعية لتكون مزرعة بالقرب من قرية الكعاكة وهي على قطعة مساحتها حوالي أربعمئة فدان مشاركة مع ابن خالنا البروفسير محمد النصري حمزه ولكنها لم تنجح كما كان متوقعاً منها .

(44) السيد حسن حمزة وهو خالنا شقيق والدتنا كان يعمل بالتجارة والزراعة بالكوه وانضم للعمل مع الوالد بمدينة جوبا للعمل سوياً في تجارة الذرة وابان فترة التمرد تعرضت تجارتهم الى خسارات فادحة مما قادهم الى فقد راسمالهم واتعاب اخرى من الدائنين ، رجع خالنا حسن حمزه واستقر بالكوه الى ان توفي بها الى رحمة مولاه في نهاية الستينات . وكان رجلاً صادقاً وأميناً وامضيت طفولتي بجانبه بالكوه نسبة لغياب والدي بالجنوب وقد علمني الكثير وأشرف على تربيتي ، رحمه الله رحمة واسعه .

(45) كانت توريت هي بؤرة التمرد في اغسطس عام 1955م عندما تمردت الفرقة الجنوبية بها وقتل معظم ضباطها الشماليين واغتيل معظم التجار السودانيين بالمدينة مع اسرهم ويكفي ان اسرة واحدة فقدت جميع افرادها (وهي اسرة الشيخ الفزاري فقدت حوالي 22 فرداً

(وللتفاصيل انظر تقرير اللجنة الذي صدر عن تلك الاحداث وأصدرته وزارة الداخلية في ذلك الوقت واعادة طبعه " مركز الدراسات السودانية " ففيه قوائم بأسماء الشهداء والمفقودين (46) السيد زيادة ارباب تولى وزارة التربية في عهد حكومة عبود (1958 - 1964م) وربما اسفرت زيارته تلك عن طرد القساوسة الاجانب من الجنوب فالتأبث قد اصدر قرار من وزارة الداخلية السودانية في عهد حكم عبود قراراً بطرد القساوسة من الجنوب لتدخلهم السافر في شئون السودان الداخلية .

(47) كاتري KATIRE الموقع ٤٧E - ٣٢
٤ - ٠ N

(48) السيد علي بلدو كان من الرعي الاول من الاداريين الذين قاموا بسودنة الوظائف الادارية (مدير مديرية) وقد جاء إلى المديرية الاستوائية في ظروف بعد التمرد فكانت مهمته صعبة وشاقة ولكنه اشتهر وعرف بالنزاهة وقوة القرار وفي عهده اتخذ قرار طرد القساوسة الاجانب من الجنوب وكان ذلك من أخطر القرارات التي اتخذت في عهد عبود نسبة لسطوة الكنيسة بالداخل والخارج .

(49) السيد ميرغني عبد النور من الجيل الثاني من الاداريين الذين سودنوا وظائف المفتشين البريطانيين ولد بحي ابو روف بأم درمان وسكن الخرطوم اثنين وتتنقل في الكثير من المراكز الادارية بالسودان حتى تقاعده بالمعاش .

(50) نأمل ان يتم كل هذا بعد عودة السلام للجنوب واستقرار أوضاعه فالمعروف لا سياحة مع عدم الاستقرار .

الفصل الخامس

مريدي (1)

مريدي من اكبر مدن الاستوائية من حيث اتساع الرقعة وكثافة السكان تقع على بعد (250) ميلاً من جوبا وسكانها الأصليين هم الزاندي الذين يسكنون الرقعة من بعد نهر بوشري جنوب غرب مدينة واو ببحر الغزال ماراً بطمبرة وتعتبر عاصمتهم ، وانتشروا بعدها حتى مندرية وتعتبر اكبر القبائل عدداً ولهم حضارة قديمة ضاربة في القدم . هذا التعريف البسيط قد فتح أمامي نافذة للحديث عن تاريخ السودان وكنت أقول وفي كل مناسبة إن تاريخ السودان الحقيقي لم يكتب بعد فكل كاتب اعتمد ونقل عن مؤلفين لا أقول باحثين عن طبقة المستشرقين عملوا فيها خيالهم وتصوراتهم لا صلة لها بالحقيقة والذين نالوا شهادات في ما أسموه تاريخ السودان والذي اعتبر على مر السنين مرجعاً لكل كاتب ما هو إلا زيفاً وفيه الكثير من التضليل للأجيال القادمة فلنخاف الله فيهم والأمانة تقتضي أن نلقي ظلال الشك على كل ما كتب ليكون لهم حافزاً لتقصي الحقائق ولكي لا نبخس الناس أشياءهم ولنعطى كل ذي حق حقه وقع في يدي بحث للدكتور محي الدين صابر أطال الله عمره في مجلد كبير عنوانه بحث مستفيض عن اصل الزاندي (2) ومن أين جاءوا ، ومن هم الرواد الأوائل ، وقد ذكرهم بالاسم وضمنه الكثير من عاداتهم وإن استعان ببعض ما كتبه بعض الكتاب الأجانب في هذا المجال غير انه لم يعتمد عليها ولم يكتف بها إلا من النواحي العلمية ولكنه جرياً وراء الحقيقة دخل الغابات والبيوت وجلس أمام الشيوخ المعمرين جلس معهم ونام على عنقريب القنا وشرب من ماء المستنقعات واكل البفرا والبامبي واختلط معهم وتعلم لغتهم وسأل عن الكثير وخرج ببحث حقيقي مدعوماً بالصور ويعتبر هذا البحث هو اللبنة الأولى وأساساً صالحاً لكتابة تاريخ السودان فكل من لم يتكبد هذه المشاق ويبحث عن الحقائق في أماكنها فلا يحق له أن يسمى ما كتب تاريخاً للسودان بل رواية ذات فصول من نسيج خيال مستشرقين أجانب وبحث محي الدين صابر هذا يعتبر موسوعة علمية وقد قرأته من ألفه إلى الياء رغم كبر حجمه ولعدد صفحاته خرجت منه وأنا مؤمن

إيماناً صادقاً إنها الحقيقة التي لا يتطرق إليها الشك انه يستحق أن نقول أساساً صالحاً لكتابة تاريخ السودان الحقيقي . ومن هذا المنطلق وجب علي أن أناشد طبقة المتقنين الحادبين على تاريخ السودان بأن يعقدوا مؤتمراً ويكونوا لجاناً يجوبوا أنحاء السودان المختلفة بعد أن تتبنى الفكرة الحكومة وتضع لها ميزانية خاصة ويحذوا حذو هذا الرجل العظيم ويأتوا بالحقائق ويضعوها بين يدي الحكومة وعلى الحكومة أن تجمعها في كتاب بذلك نكون قد أرضينا ضمائرنا وتحاشينا لعنة الأجيال القادمة لأنه لا زال هناك بعض المعمرين على قيد الحياة فسيجدون عندهم ما يساعد على تحقيق هذه الأمنية . وأنا إذ اكتب هذا أرى من بعيد الأصابع تشير نحوي أني قد أجهت أو قللت من قيمة ما كتبوا في هذا المضمار فردي عليهم أن يأتوني بمؤلف دخل منطقة تالودي حيث يسكنها أكثر من أربعين قبيلة لكل قبيلة جبل ولكل جبل لهجته الخاصة وعاداته وهم تجمعهم كلمة النوبة ولا يفصل بين القبيلة والقبيلة إلا أميال قليلة فمن أين جاءوا من هم الجدود الأوائل وكيف تم وصولهم إلى هذه المنطقة وحدث عن بقية القبائل ولا تبالي إذا استثنينا بعض قبائل العرب التي دخلت السودان بمواشيهم طلباً للمرعى سواء كان من ناحية الغرب أو من طريق البحر الأحمر أما الذين دخلوا السودان عن طريق مصر بعد أن ضاق بهم الحال في مصر وأقاموا مع النوبيين في الشمال فأصولهم تحتاج إلى بحث خاص .

هذا ما كان يتقل كاهلي ولم أجد الفرصة للتخلص منه وهو كأمانة يجب أن يحملها غيري بعد أن وضعت يدي في مواضع الداء فعلى الشباب المتقن البحث عن العلاج اللهم إني قد بلغت فأشهد فمن أراد المزيد عن قبائل الزاندي فليرجع إلي الكتاب المذكور آنفا .

ومريدي نفسها معروفة منذ أوائل الفتح الثنائي حيث تقابلت الجيوش الزاحفة من الشمال بقيادة البريطانيين مع الجيوش البلجيكية وجهاً لوجه مع بعضها في مكان مريدي الحالي لم تقع بين الجيوش معركة وآثروا المفاوضات السلمية وبعد اخذ

ورد اتفق الجانبان بأن ترجع الجيوش البلجيكية إلى نقطة معينة نحو الغرب ولكن قبل الوصول للمكان المعين بأميال قليلة استبد بهم الطمع ونزلوا دون ذلك واصبح الحد الفاصل بين الدولتين . انتقل إليها المركز من امادي داخل حدود المورو أقلية بالنسبة للزاندي الذين تأخذهم العزة لعراقتهم وما المورو إلا بعض الرعايا فكان سلاطين الزاندي يلاقون متاعب كثيرة للوصول إلى امادي وظهر التأفف والاستياء علي وجوههم حتى وصل إلى درجة الشكوى البينة ففكر المفتش لعلاج هذه الظاهرة واستقر الرأي علي نقل المركز إلى مريدي ومما ساعده على تنفيذ الفكرة بعض العوامل الطبيعية والاختلاف الظاهر بين الموقعين أولاً موقعها الجغرافي ثم مياهها العذبة النقية التي لها منابعها من بين الصخور ، صافية وعذبة وباردة زد على ذلك نهرها الجاري الذي لا ينقطع جريانه طيلة العام الذي منبعه في داخل الكونغو - ويخترق بعض أراضي الزاندي حتى يصب في نهر النيل - يكونان رافداً من روافد النيل أرضها حجرية بلون احمر تحفها من جميع جهاتها جبال عالية دائمة الخضرة أشجارها باسقة خضراء .

عندما رحل الجيش البلجيكي عن مريدي ترك بعض المخلفات على الهضبة العالية التي كان يقيم عليها ترك بعض القطع الحربية عبارة عن مدفع كبير لقوا صعوبة في سحبه حيث يحتاج إلى قوة وجره الجيش السوداني إلى حيث مكانه الآن أمام مدخل المركز أما المدفع الصغير الذي خلفوه وراءهم لا زال موجوداً على هذه الهضبة بعد أن بنت حكومة السودان عليها استراحة هذا من الناحية الجنوبية أما الشمالية كانت تقوم قرية صغيرة اسمها بدير وكان يقيم فيها مندوب عن عربي دفع الله(1) أحد قواد جيشه عندما كان عربي حاكماً لهذه المنطقة واتخذ من مكانها الآن حظائر لبقر التجار .

سبق أن أوردنا أن البلجيك حطوا رحالهم قبل أن يصلوا إلى الموقع المتفق عليه مما تسبب عنه فصل أخوين من سلاطين الزاندي كل منهما سلطان على منطقة إلى يومنا هذا فأحدهم تابع لحكومة السودان والآخر تابع إلى الكونغو البلجيكي

والغريب في الأمر أن هذا الانفصال احدث تغيراً في تقاطيع الوجوه واللون والدم ويستطيع الإنسان أن يميز بين الكنفولي والسوداني بسهولة لكن الكنفولي اكثر نشاطاً وحيوية بما أدخل البلجيك من محاصيل زراعية كالشطة والأناس والبن والموز والبقرة وتوسعوا في زراعتها ولا يخلوا بيت من بيوتهم من جنائين من الموز والباباي والمنقا والتبليون وبمنابرتهم على العمل استطاعوا أن يستغلوا هذه المحاصيل والتوسع في زراعتها فكان عاندها كبيراً واكثر ما في السودان من هذه المحاصيل دخل عن طريق الكنفو أما استعمال المخدرات التي تزرع في مساحات واسعة في كلا البلدين غير تعاطي الكنفولي لها اقل من السودان الذين أدمنوا حتى أقعدتهم عن العمل واخذوا للراحة والخمول بسبب تأثير المخدرات . أما سكان مريدي فخليط من الأجناس فالزاندي هم سكان الأرض الأصليين والابوكاية والمنندو والباكا كل هذه الأجناس تكاد تكون انصهرت في بوتقة واحدة من حيث العادات والطباع وفي حياتهم الاجتماعية مع احتفاظ كل قبيلة بلغتها أما الزواج فالمهور قليلة قد لا تتجاوز الثلاثة جنيهات هذا بعد دخول الاستعمار أما قبله كان الزواج بالحديد كالحراب والملود والطلاق غير معروف عندهم بالمعني الصحيح بل يهجرها .

أما دفن موتاهم تحفر حفرة للميت حفرة عميقة ثم تنزوي جانباً نحو نصف المتر وتوضع الجثة ومعها ملابسه وحذاؤه وآلات التدخين وأدوات الأكل ليستعملها بعد عودة الروح إليه كما يعتقدون وتقام ليالي المأتم بعد شهور من الوفاة بعد التحضير لها من نباح وخمر ومأكّل للمعزين بعدها يضعوا الحجارة المنحوتة على القبر على شكل هرم يرتفع نحو مترين ونجد عليها لمبة غاز وأواني أكل إيماناً بعودة الروح وهم يتشاءمون من الدار التي حصلت فيها الوفاة فينتقلون إلى مكان آخر ويتركوا وراءهم مزارعهم من جنائين للفاكهة وغيرها ويسمونهم الباباية ومعرفة باسمه هذا هو السبب الرئيسي الذي جعل تكاثر أشجار الفاكهة في كل مكان من الغابات بين غابات الزاندي ومن أراد التوسع فليرجع إلي كتاب الزاندي لمؤلفه

الدكتور محي الدين صابر السابق الذكر .

ومنطقة الزاندي لا يعيش فيها البقر ولا الغنم بسبب تكاثر الذباب المهلك لهذه الحيوانات أما الدجاج فموجود بكثرة .

وهم كأفارقة يقضون معظم لياليهم في الرقص ولكل قبيلة طريقة خاصة من حيث الحركات أما الآلات الموسيقية عندهم متشابهة بعضها ما يشبه الربابة ومنها ما يشبه الاورغن وقد تكون مأخوذة أساساً منها غير إنها من صنع محلي ومن اختراعاتهم الخاصة صندوق صغير مصنوع من خشب خفيف وله جرائد من حديد تصف وتثبت على واجهته ويحمل باليد ويضرب على جرائد الحديد فترن رنيناً موسيقياً وهي تستعمل لتساعد المسافرين وتزيد من نشاطه على مواصلة السير .

أما صيد الحيوان فهو نوعان فردي وجماعي ، فالفردي يحمل حربته وقوسه وكنانته ويدخل الغابة أما الجماعي يكون غالباً بعد انتهاء فصل الخريف وتجف الحشائش يعملوا خط نار في منطقة تقرب مساحتها من عشرة أميال مربعة في أماكن تجمع الحيوانات أما بغرض المرعى أو يحتمي فيها سحابة نهاره وفي يوم محدد يجيء كل فرد يحمل شبكة مصنوعة من لحاء الأشجار أشبه بما تصنع لصيد السمك غير إنها اكبر فتحة ثم تربط على قوائم خشبية متراصة بحيث لا تترك ثغرة ينفذ منها الحيوان وعلى ثلاثة جهات وبعد عملية التسوير يرجعوا ليشعلوا النار من الناحية الرابعة وتفر الحيوانات من النار فتصطدم بالشباك وهو يتمادى عليها للخلاص منها وتعمل الحراب فيها ولكل فرد صيده ويشترك في هذه العملية الرجال والنساء أما صيد الأسد والنمر فله طريقة خاصة والذئاب أيضاً ، تقطع الأخشاب على طول مترين تقريباً وتفرز على الأرض على صفين متقاربين على قدر جسم الحيوان وكلما سار خطوة كلما ضاق وفي شكل مخروطي إلى أن يتصل الطرفان ويوضع حيوان صغير كالشاة داخل مكان مأمون لا يصل إليه الحيوان وهو يراها ويحاول الوصول إليها وكلما مشى خطوة يضيق المكان حتى يجد نفسه وهو عاجز من التخلص من هذا القيد وفي الصباح يطعن بالحربة حتى يموت .

وللحيوانات الأخرى صيدها الخاص كائزراف وأبو عرف والكتمبور والجاموس
يفتل حبل من جلد البقر أو الصيد في حجم مناسب ويربط على وسط كتله من
الخشب يستطيع الحيوان جرّها وفي طريق الحيوان تحفر حفرة صغيرة يوضع
فوقها حبل له عين ليسهل ربط الحيوان ثم يخفوه بشيء من القش أو التراب وعند
مرور الحيوان تغوص رجله في الحفرة ويتعلق بها الحبل وكلما رفس ونفض رجله
أحكمت الربط وكلما جرى جرته الخشبة المربوطة على رجليه حتى يعجز عن
الحركة وهذا النوع معروف بين كل قبائل العرب ويسمونه الضقل لكل قبائل
الجنوب مهارة فائقة في تتبع الأثر ولو مر على صخرة صماء أو اختلط بأثر آخر
كما أنهم يمتازون بحدة السمع ويمكن تمييز الصوت سواء كان مصدره حيوان أو
رياح فطبيعة العيش وقوة الحياة خلقت لهم ميزات قل أن تجدها مجتمعه في قبائل
أخرى .

وبهذه المناسبة لبعض الحيوانات تصرفات أشبه بتصرفات الإنسان فمثلاً الأسد وهو
يتتبع فريسته ويمشي خلفها بكل حذر لئلا يلتفت انتباهها فإذا وطئ قدمه عود خفيف
وانكسر وحدث صوتاً عضه بأنثابه وتتخفى نفسه حذر أن يلتفت الحيوان الآخر
ويفسد عليه خطته .

وصف الجاموس

قبل أن ندخل غابات مريدي الكثيفة ونلتقي بالجاموس يجب أن أعطيك فكرة عن
هذا الحيوان الذي لا نعرف عنه إلا القليل . الجاموس من فصيلة البقر وهو نوعان
الأليف منه ويوجد في مصر يربى داخل الحقول والمنازل وهو على ما اعتقد
مهجن لإختلاف الشكل والهيئة في كثير من التكوين ، أما النوع الآخر البري فهو
مستوحش يشبه البقر مع الفارق البسيط فالفحل منه ليس له سنكيت وله قرنان ليست
كقرون البقر ولا الجاموس الأليف لأن قرونيه لا تقوم على طرفي رأسه من فوق
الأذنين إنما تقوم على الجبهة حتى تغطيها في عرض خمسة عشر سنتيمتر أو أكثر
عريضة تغطي الجبهة كلها لا تجد بين القرنين إلا بقدر إصبعيين وتنمو عريضة

من أساسها حتى تصل إلى ارتفاع خاص تتكور قليلاً وتنسحب شيئاً فشيئاً حتى
تصير رقيقة تخترق أي جسم وقد تكبر هذه القرون إلى أن تصل نحو المتر بين
القرنين لا يخترقها الرصاص شرس الطباع حقود ماکر شجاع لدرجة بعيدة يهاجم
في إصرار يحاول دائماً أن يدخل قرنه تحت فريسته لرفعه بقوة ثم يلقاه بقرنه فإذا
ما أصاب البطن أو الصدر فتحها إلى نصفين وإن لم يجد فرصته لقرنه فهو ينهال
علي جسم الإنسان بأظلافه بكل قوته يدوسها حتى يمزق جسمه وهو يجأر ويخور
بصوت عالي ولا يترك للإنسان عضلة إلا أنماها وإذا وجد الإنسان فرصته وتسلق
أعلي الشجرة وقف تحتها وهو يراقبك وينظر إليك حتى إذا ما شعر بالجوع رعى
حول هذه الشجرة ثم يعود ليلقي عليك نظرة ولا ينتهي هذا الحصار ولا ينفك إلا إذا
اشتد به الجوع أو العطش أو جاء إليه الليل .

يختلف الجاموس عن البقر في طريقة مشيته فالبقر تمشي مطأطأة الرأس
أما هو فيمشي ورأسه على مستوي جسمه أي مرفوع الرأس وائفه مرفوعة حتى
يصعب على الصياد ضربه على جبهته بسبب القرون التي تغطي الجبهة أو بسبب
ارتفاع الرأس والأنف وعلى الصياد في هذه الحالة أن يرميه في النحر رغم أن
النحر لا تعتبر مقتل سريع إلا إذا أصاب السلسلة الفقرية أو النزيف بعد مدة قد
تطول ومن مكره إذا أصابه شخص برصاصة وجرحه أو بسهم من قوسه سقط
على الأرض لا يحرك عضلة من جسمه ويشعر كإنه ميت فإذا ما اقترب منه
وثب عليه ومزقه إرباً إرباً والذكور منها كبيرة الجسم خصوصاً الرقبة فهي تتضخم
ويكثر لحمها ولا يستطيع شخص حملها ولا يجد في لحمه مزقه من شحم أما الإناث
قد تجد في بطنها قليل من الشحم بعد أن تظلم وليدها ويشاركه في هذه الظاهرة إذا
استثنينا القرنتي ووحيد القرن .

وللجاموس خاصية قد لا تجدها في الحيوانات الأخرى إلا القليل الجاموس
مما يدل على شجاعته محاولته دائماً على مساعدة بعضه إذا ما سمع صوت استغاثة
من جاموس آخر وهو يعيش في أسر بحيث البقرة تتبعها بناتها كلها مهما بلغ عددها

إذا رقدت الأم ورقدت حولها البنات ، والبنات يرقدن حولها البنات إلا الفحول وهكذا نجد الأسرة كلها ترقد في دائرة واحدة وفي المشي كذلك فعند سماع صوت الاستغاثة ترجع البنات نحو الصوت لإنقاذه من الخطر ظناً منها أن حيوان افترسها أو جاموساً آخر عمل بقرونها فيها . أما طريقة مساعدة الأفيال لبعضها ستأتي عند الكلام عنها . لحم الجاموس من أجود أنواع اللحوم سريعة الهضم لا تشعر بتقلبه في معدتك مهما أسرفت منه لا رائحة لها كأنواع اللحوم الأخرى غير أن الكبد منه غير جيدة ولا مستساغة ولكن لسانه فهو أكلة الصياد المفضلة وللصيادين أكلة خصوصاً وجبة العشاء يساعدهم على ذلك المناخ البارد والرطوبة الشديدة التي تمتاز بها منطقة غرب الاستوائية هذا الجو المشبع بالرطوبة يؤثر كثيراً على جسم الإنسان الذي يحتاج تحت ضغط هذا الجو إلى تناول الحرارية ليعيد للجسم نشاطه ويعطيه مناعة ليتحمل مثل هذا المناخ ومن المعروف أن عسل النحل له هذه الحرارية الشيء الكثير وعسل النحل متواجد في كل الغابات منها ما هو مربى في مناخ معلقة بين الأشجار وهو ما لا يتجرأ أحد على الوصول إليه والبعض الآخر الذي يلد على القناطير أو بين أعواد الشجر فهو ملكاً مشاع لكل جان وكان العمال يجنون منه الكثير ولنا منه نصيب الأسد وكنا نأتي بقطعة اللحم المحمرة ونغمسها في العسل ونأكل منها الكميات الكبيرة حتى نكتفي وفي الصباح تجد نفسك خفيفاً كأن لم يصبك تعب قبلها .

وأنسي وأن اصف الجاموس بهذه الصفات لم اقصد إدخال الرعب والخوف في قلوب الذين يأتون من بعدنا إنما القصد أسمى من ذلك هو أن يلم الإنسان بكل ما عند هذه الحيوانات من خصال وطبائع وأن يلقاه وهو واثق من نفسه عالماً بكل شيء لئلا يؤخذ على غره ، ومن نصيحتي للأجيال المقبلة على أن لا يصطاد الجاموس كل من يملك سلاحاً نارياً إلا بعد يرافقه مرات عديدة من ذوي الخبرة بصيد الجاموس وهو كثير الحيل وعظيم المكر والدهاء .

نبح ساخن طبيعى

على الشارع الرئيسي الذي يربط منطقة الزاندي بالقرب من منطقة السلطان جامبو تجد ما ساخن ينبع من بين الصخور في ارض حجرية وترى له فقاقيع وكأنه على قدر تحته نار يقرب من درجة الغليان له رائحة كرائحة الطلع أو الزرنينج محصور هذا المنبع في مساحة لا تزيد عن مترين في مثلها وفي وسطها تمكن الإنسان من الجلوس وسط النبع ولا يستطيع الإنسان أن يدخل يده في هذا الماء من شدة السخانة وإذا كان بيدك خاتم من فضة تحول لونه إلى لون ظهري جميلاً لا يفارقه لعدة أيام فأغلب المسافرين في هذه الطريق يغتسلوا في هذه العين الساخنة وبمجرد جلوسك على الصخرة القائمة وسطها يعمك البخار وتشعر وكأنك في حمام (ساونا) وطريقة أخذ الماء منها هي أن تخطفها خطفاً وتمسح بها جسمك ومما تجدر الإشارة إليه أن الذين يسكنون بالقرب من هذا المنبع الساخن تجد أجسامهم ملساء سليمة لا أثر لجرح قديم ويتمتعون بصحة جيدة لأنهم يداومون على الاستحمام من هذا النبع ويقال أن مياهه كبريتية وكان الكثير من البريطانيين يعسكروا نحو اليومين في هذه المنطقة ليمتعوا بالحمام في هذا النبع الساخن لو وجد من يبني عليه حمامات مقفولة وهياً للزوار سبل الراحة لأمه كل المرضى خصوصاً الذين يشكون من آلام الروماتزم أو الرطوبة التي لم يتوصل الطب الحديث لعلاج ناجع لها ولأغنت الكثيرون عن السفر لحمامات حلوان وكان يقال إن جهات دنقلا قطعة أرض مشهورة باسم العقب لها خاصية في علاج الكثير من أنواع الأمراض الجلدية وأنواع الروماتيزم بطريقة بدائية حيث أن المشرفات علي العلاج نساء طاعنات في السن تحفر الحفر في الرمل على عمق الثلاثين سنتيمتر ويرقد الإنسان ويهال عليه التراب إلا رأسه من مطلع الشمس حتى نحو الساعة التاسعة صباحاً فيتصبب العرق من جسمه ويلتصق التراب بجسمه ثم يكشف عنه التراب وتبدأ المرأة في التدليك في كل أنحاء أعضاء الإنسان ثم يقدم له وجبات خاصة مغذية من بينها التمر وطبيخه وبعد أيام يجد نفسه قد تعافى . كان هذا قبل بناء السد العالي أما بعده فقد غطت مياه السد كل هذه المناطق بالمياه وبذلك فقدنا ما فقدنا منطقة علاجية

كان يشد لها الكثيرون الرجال بغرض العلاج من هذا المرض الذي اقعد الكثيرين عن الحركة ألقهم وحرهم من متعة النوم من شدة ما يجدونه من آلام ليلاً . فهل إذا تغيرت الأحوال واستتب الأمن فهل نجد من يعتني بهذا المنبع الساخن ويرقى به إلى مصاف الحمامات في مناطق حلوان للاستفادة منه وتخفيف حدة المرض الذي انتشر بين الناس ونفسي بين الرجال والنساء لدرجة اقعد الكثيرين عن الحركة ولم يجدوا علاجاً بعد أن عجز الطب الحديث .

اختيار الخبير الكفاء من أهم مقومات الرحلة

في أول أيامنا ونحن نستعد للخروج للرحلة اعترضتنا عقبة يجب أن نزيلها قبل أن نتقدم خطوة ألا وهي الخبير ذو الخبرة بالغابة ودروبها مواقع الماء فيها وبما أن محمود حاج مهدي من التجار الأوائل في هذه المنطقة وبحكم عملة التجاري اكتسب خبرة ولمّ حوله بعض الأصدقاء من الأهالي الزعماء البارزين وكانت الرحلة على أطراف نهر مريدي فأشاروا إلى رجل اسمه بتبا وكان محمود قد استهوته عملية الصيد هذه ووجد فيها من راحة البال ومتعة لا تعادلها متعة فكان مرافقي في كثير من الرحلات أخذت العربة تشق طريقها ومعنا ما يزيد عن عشرين عاملاً كلهم من قبيلة الدينكا إلى أن وقفت بنا أمام داره وكانت الشمس قد أذنت للمغيب وجاء مرحباً وشرحنا له القصد من هذه الرحلة فسر بذلك سروراً عظيماً وكان خبيراً من الطراز الأول قوي العضلات مفتول السواعد ضخمة العظام يجيد رمي السهام له ملاحظات في الصيد وأحواله اكتسبها بطول الممارسة وكثرة التجارب لا تجده في بيته إلا نادراً وهو لا يرتدي من الملابس إلا ما يستر العورة ويحمل حربة وقوساً ويتأبط كنانته حاد السمع . وفي الصباح الباكر سار بنا متتبِعاً شاطئ النهر وهو مورد كل الحيوانات فوجدنا اثر الجاموس رجع نحو الغابة بعد أن شرب من النهر واقتفى أثره حتى لحقنا به هو يرقد على الأرض ومن المعروف أن الجاموس لا يرعى بعد الساعة التاسعة صباحاً لأن هناك ذبابة سوداء صغيرة اسمها (ام بزيور) تدخل في عينيه فتقلقه ولا يفتح عينيه إلا للضرورة وهناك سبب

آخر يقال إن الجاموس لا يفرز عرقاً بسبب عدم المسام في جلده ولذلك يلجأ إلى الظل بمجرد شعوره بحرارة الشمس هذا هو الاعتقاد السائد صحيحاً كان أم خطأ ، ولما كانت الذبابة تسبب له قلقاً وهو يغمض عينيه فكيف يتقيها فجعل حرساً لا يرقد ولا ينام بل يظل واقفاً حتى إذا ما شعر بأي خطر جرى وتتبعه بقية السرب ويصل عدد الجاموس الحراس في بعض الأحيان إلى ثلاثة أو أربعة على قدر تعداد السرب فكنا نركز اهتمامنا لضرب الحرس فعندما يسقط الحرس ويهب السرب من نومه يبحث عن اتجاه الحرس ويدور حول المكان ونحن نطلق عليه النار بعد ذلك يدرك مصدر الخطر فيتولى هارباً بعد أن نكون قد تحصلنا على ما يكفي في يومنا هذا وكانت نحو ست جواميس على الأرض وكنا نمنع أي فرد من العمال أن يتحرك من مكانه إلا بعد أن يسمع الصفارة كل ذلك لئلا يتعرض شخص لخطر الجاموس وقد علمتنا التجارب الكثير من مكر الجاموس وهو أكثر الحيوانات دهاء ومكراً يتماوت وهو لا زال فيه بقية روح فكنا نأتيه من ناحية ظهره والبندقية محشوة بالذخيرة والإصبع على الزناد ونضربه بأرجلنا فإذا ما تحرك منه أي عضو أطلقنا عليه النار وفي هذه المرة بعد أن اخترنا خمسة منها وجدنا لازال يفتح عينيه ويغمضها واخذ الخبير حربته وطعنه في مذبحة وسال منه دماً غزيراً وطعنه أخرى وثالثة فإذا به يثب قائماً وكنت ومحمود نقف على رأسه من الناحية الثانية ووجد الخبير أمامه وهجم عليه وولى هارباً والجاموس من ورائه فلم نستطيع إطلاق النار عليه خشية أن نصيب الخبير وكنا نرقب الموقف باهتمام وأيدينا علي الزناد ولكن الخبير أكثر منه خداعاً ولما اقترب من شجرة اجتازها بنحو مترين والجاموس يضايقه فلف بسرعة نحو الشجرة ولم يستطع الجاموس أن يلف بهذه السرعة إلا بعد أن أخذ وقتاً تمكن منه الخبير بالتعلق بأغصان الشجرة ووقف الجاموس تحت الشجرة فرميته بطلقة فوقع على الأرض وأشرنا عليه بالنزول وقال "هو لسع ما موت ، دقوه تأني" ورماه محمود وكانت القاضية فنزل من اعلى الشجرة وهو يردد " دا كلام شنو يا ربنا " قالها ثلاث ثم أردف قائلاً " لازم في

حاجة بطل في البيت " معني ذلك تشاعم من هذه الحادث وفي المساء جاء من يقول له إن أختك في حالة خطرة وتطلب حضورك فاستأذن لزيارتها وأدنا له بعد أن أعطيناه جزء من اللحم وعاد في اليوم الثاني بعد أن اطمئن على صحتها .

الجاموس يشرب دمه

صدق أو لا تصدق فهي الحقيقة المجردة عن الفرض فقد رأيت بعيني وشاهدت بنفسي هذا المنظر وعلى بعد أمتار وسمعت بأذني صوت رشفته وامتصاصه للدم ولسانه يلحق شفثيه لما علق بها من دم بينما كنت أسير في وسط الغابة وأنا والخبير نتقدم العمال وتلفت يمنة ويسرة ونرهف السمع ونحن نسير علي ارض صلبة حجرية فإذا بجاموس اسود اللون ممتلئ الجسم وكأنه بيت من شعر يسير وحيداً ويرعى وحيداً وفي مثل هذه الحالة يطلق عليه مجازاً (دوربرا) صفة تطلق على المساجين المضمونين الذين يحق لهم السير خارج السجن دون حارس والأسباب الحقيقية التي تضطر الجاموس على الحياة منفرداً دون بقية السرب هي أساساً كبر السن عندما يبلغ الجاموس كبر السن تقل مروءته ولا يستطيع الوقوف أمام الصغار في حالة المعارك التي تنشب بينها كفحول وسط السرب وهو يشعر بالضعف أمامها فيترك المراح فينفرد مؤمناً بنظرية (البقاء للأصلح) وتكون هذه الحياة الانفرادية قد زادت طبعه حدة يهاجم كل من يعترض طريقه دون هوادة أطلقت عليه النار فسقط على الأرض ونزل الدم من جنبه وكأنها ماسورة ماء مفتوحة حتى تجمعت على جنبه بركة من الدم ولما كانت المواجهة من غير سائر ورآني أمامه وعلى بعد أمتار حاول القيام فخائنه قوائمه ووثب أخرى فعجز ووجد بركة الدم أمامه فعمد إليها وبدأ يشرب منها وينظر إليّ في شراسة ويحاول النهوض ثم يعود إلى الدم ويشرب تارة يلحق بلسانه شفثيه المتخضبة بالدم واسمع بأذني امتصاص الدم كل ذلك وأنا اعلم إن الإصابة قاتلة وكنت غير مكترث مما يأتي به من أفعال ولكن كسب للوقت أطلقت عليه رصاصة أخرى فتمطى على الأرض وكانت دهشة الخبير عظيمة وهو ينظر عن بعد هذا الحادث وطول التآني

أمام هذا الخصم العنيد وجاء يلومني على صنيعي هذا وقال " يابا أنظن انك ستنجو لو استطاع الوقوف علي رجليه " قلت: " كنت اعلم كل ذلك وأنا مقدر لكل موقف وأعطيه ما يستحق من وزن لأنني متأكد من أن الإصابة قاتلة " ولكن هذا الحيوان الذي أثار فضولي وقلت لابد أن أتابع أفعاله هذه حتى النهاية لأن هذه أول مرة أرى حيوان يشرب دمه بهذه الطريقة الملفتة للنظر وخارقة للعادة .

قوة ملاحظة الخبير

في رحلة كان معنا الخبير بتبا توغلنا في الغابة ووجدنا آثار الجاموس وقد تشابكت وتداخلت منها ما يسير نحو الشرق ومنها ما يشق ناحية الغرب واختلط الحابل بالنابل واحترار الخبير أي سرب جاء بعد الآخر فادخل إصبعه في روث لقيه أمامه قال محمود ولم ذلك ؟ قال قياس درجة الحرارة هي الدليل لقياس الزمن كلما كان بارداً يكون وقت مروره مبكراً والعكس صحيح مضى بنا مقتضياً اثر أحد السربين وبعد ساعة والخبير يقف تارة ليرسل سمعه ثم يسير إلى أن أشار علينا بالوقوف وقال الجاموس قريب من هنا أشار إلى العمال بأن يضعوا أحمالهم ويخلدوا للسكون وعدم التحدث تقدمنا في حذر مع مراقبة تغيرات الريح بما نحمل من رماد خصيصاً لهذا الغرض لان الجاموس وبقية الحيوانات حاسة الشم عندها قوة إلى أن وصلنا مرقده وبدأنا نطلق النار والجاموس يدور ويلف دون أن يعرف مصدر الذخيرة ولما أصبنا العدد الذي يكفى ليوم واحد أوقفنا الضرب وفرت البقية وكل منا يعد الطلقات التي ضربها وبعدها تكون الإصابات وبعد المرور عليها والتأكد من موتها تبين لنا أن واحد منها مفقود ربما كان جرحه غير مميت وبدأنا نبحث عن آثار الدم فعثرنا على اثر الدم وتتبعناه وإذا به يقع في شرك أحد الأهالي وهو عبارة عن سلك طابع مربوط بين شجرتين جاء الجاموس ماراً بين الشجرتين وادخل عنقه ولم يستطع الخلاص منه ولحسن الصدف جاء صاحب الشرك مع زميل له والتقينا أمام الحادث وادعى إننا ضربنا الجاموس بعد أن تعلق بالشرك ونحن ننفي ذلك واستدلينا على ذلك بأثر الدم الذي كنا نسير خلفه وأخيراً اقتنعوا

وطلبوا منا شيء من اللحم ليعودوا بهم إلى أهلهم فلم نبخل عليهم أعطيناهم جزء من اللحم أخذوه وهم شاكرين وفي اليوم الثاني خرجنا من المعسكر وكان أحد أقارب شيخ القرية لما سمع صوت الذخيرة جاء وطلب أن نعطيه لحم نظير عمل يؤديه فكان يسير ضمن العمال والتقينا بالجاموس أصبنا عدداً منه وقبل أن نقوم بالاختبار والتأكد من موتها وخوفاً على حياة العمال فإذا بالرجل يمسك حربته ويجري نحو اقرب جاموس وهو واقع على الأرض ونحن نصرخ وننادي بأن يرجع فلم يأبه للنداء وقذف الجاموس بحربته فوثب من مرقده واتجه نحوه لكنني كنت أسرع منه فرميته بطلقة أردته قتيلاً ورجع الرجل وهو يرتجف من الخوف وقام محمود وزجره وطرده الرجل بعد أن نال حقه من توبيخ ولوم لأن في ذلك مسئولية تعرضنا للمساءلة والحساب سواء من السلطات أو من أهله إذا ما تعرض للموت ولقي مصرعه .

أثر الجاموس على الصخر

تخلف محمود هذه المرة وأخذت العربة وهي تحمل العمال وبقية المواد والآلات الأخرى إلى أن ألقينا الرجال أمام دار بتبا فقصينا ليلتنا في بيته وفي الصباح سار على شاطئ النهر ليجد أثر الجاموس وهو يرد الماء ليلاً فلم يجد أثراً فشق طريقة نحو الغابة وقال ربما ورد المستنقعات والبرك سرنا طويلاً ومشينا كثيراً ومررنا بأرض صخرية مرتفعة عن سطح الأرض قليلاً وتحدرد تدريجياً إلى أن تستوي مع أرض فأمسك بيدي وقال بعربيته المكسرة "تعال شوف حاجة بتاع ربنا هو عملو كيف " معنى ذلك أنظر إلى قدرة ربنا وأخذ يسير وأنا خلفه حتى وقف أمام أثر عدد من الجاموس لا يقل عن خمسين جاموساً ترك أثر رجله على هذه الصخرة متحجراً فرأيت العجب وتتبع الأثر صعوداً ونزولاً يمتد هذا الأثر إلى أكثر من خمسين متراً على هذه الأرض الصخرية وتستطيع أن تميز أثر الصغير والكبير منه وهذا الأثر ليس بغائر في الصخور كأثره في الطين المبلل بل يبدو وكأنه حليه من سن الفيل على قطعة من الأبنوس كما يفعل الخراط بالقطع

المحلاة مما يدل على أن الأثر عندما كانت الأرض رخوة طينية ثم جاءت الرياح حاملة معها الأتربة والرمال وملأت الأثر ومرت المنطقة بفترات جفاف حتى تجمدت الأرض وكم كانت فرحتي عظيمة وكنت أسمع كثيراً وفي جهات السودان أثر لقدم إنسان على صخر جامد ويقولون عنه أنه أثر الشيخ فلان كان يتخذ هذا المكان بغرض العبادة والتسكع وها أنا أمام أثر لحيوان وليس لإنسان وكنت أتباطأ كلما أشار عليّ بالقيام وكنت أفكر كيف حصل هذا من جفاف أصاب المنطقة حتى وصل إلى درجة التحجر وهذا المشهد مرت به فترة لم تعقبه ولا مطر بسيط يزيل هذا التراب والرمل من مكانه وكم كانت فترة الجفاف أن أردنا أن نحددها السنين وكيف عاده الدورة الفلكية وجعلت هذه المنطقة ذات مطر لا ينقطع لمدة تسعة أشهر سنوياً وكنت أفكر وأقول في نفسي لمثل هذا الأشياء التي تبدو غريبة ومخالفة للعادات وغير مألوفة لمثل هذا تعلق نفوسنا بدخول الغابات وتسلق الجبال ودخول الكهوف والمغارات وركوب المخاطر ولا زال خيالي يجري وراء عدد السنين والحقب التي مرت على هذا الحادث فلم أوفق وتركت التقدير لعلماء الطبيعيات ودنا مني ولسان حاله يقول إن استهوتك هذه فهناك ما هو اعجب وخاطبني بلغته المكسرة "عاين يابا الجبل داك في راجل وماريه بتاعه قاعدين على كراسي كان انت عاينو من بعيد تقول ناس وكان جيت قريب تلقاها حجر ووراء منهم مرسوم على الحجر طيور وحيوانات " فقلت في نفسي أهى تماثيل فرعونية لتقارب الشبه بما قاله وقد نسيت الصيد ونسيت كل شيء وتعلقت نفسي بالوصول إلى الجبل المشار إليه حتى أرى بعيني وأشاهد ذلك وابني معلوماتي على أساس ليس من رأى كمن سمعا ، وخاطبته قائلاً "ففي يوم غد نمشي الجبل " وقال " إن الوصول إليه في مثل هذه الأيام ضرب من المستحيل لإنعدام الماء وليس بيننا وبينه بركة ماء ولا نهر يجري لكن الوصول إليه في مبادئ الخريف سهل وميسور وهي منطقة خالية غير مأهولة وقد هجرها الحيوان بسبب انعدام الماء وقد انحصر كل تفكير في هذه القصة التي يزويها شخص لم ير مثلها حتى إنني أقول رواية من نسج الخيال

وأشك في صدقة وما معنى الرسوم المبينة خلفهم أهى اللغة الهيروغلافية ولو استطعت أن أراها بنفسى وتأكدت عن نوعيتها وقارنت بينها وبين التماثيل الفرعونية ولو وجدت قليلاً من التشابه لتغير وجه التاريخ ولأنقلب رأساً على عقب إن لم يكن بالنسبة للسودان ربما بالنسبة للجنوب وكيف وصلت الحضارة الفرعونية إلى هذه المنطقة النائية ولا طرق وكنت مصمماً على الوصول لهذا الجبل الذي يقوم على الأفق البعيد أول هطول الأمطار غير أن حركة التمرد كانت السبب ولأن يراودني هذا الحلم إن كان في العمر بقية وساد الأمن ربوع الجنوب كما أنى مستعد أن أرافق كل من يستهويه هذا الكشف الذي له أثره التاريخي في السودان وأنى خبير بموقعة وكأنى أراه الآن أمامى وأعرف الطريق إليه فهل أجد من بين الشباب المتحمس تشجيعاً لبلوغ هذه الغاية .

هذه التماثيل المشار إليها إن صحت فلا شك إنها تماثيل فرعونية فهذه الحضارة من أين جاءت وكيف جاءت حتى وصلت لهذه البقعة البعيدة كل البعد عن العمران وهل هناك آثار أخرى في باطن الأرض تستوجب التنقيب . إن حيرتي في هذين الأمرين انساني رحلة الصيد واستحوذ على تفكيري أثر الجاموس الذي أعقبه الجفاف الذي لا أستطيع تقديره بالسنين ولنترك ذلك لعلماء الطبيعة وان الدورة الفلكية التي انقلبت رأساً على عقب من جفاف حارق إلى أمطار غزيرة لمدة تسعة أشهر في العام هذا اللغز المثير الذي لازلت أبحث له عن حل والجدير بالذكر أن الأشجار التي تنمو في بعض المناطق الاستوائية تشعر كحديثة النمو وليست كبيرة الجذوع مما يدل حقيقة على أن هذه المناطق أصيبت بجفاف أزال كل ما عليها من حياة وأصبحت أرض صحراوية لا نبات فيها ولا حيوان إنى لأنادى في علماء الطبيعة أن يولوا هذا الأمر اهتمامهم ويزوروا هذه المناطق ليكتبوا عن هذه الحقيقة وهي تعتبر من صميم حياتهم وعملهم وجزء من تاريخ السودان ليبنوا تنبؤاتهم عن المستقبل وعن الدورة الفلكية التي نحن في أول درجاتها وما سوف تتمخض عنه المستقبل القريب منه والبعيد وأنا على استعداد تام لمرافقتهم في كل

رحلة ليستفيدوا من بعض ما لدي من معلومات .

أبولو مفتش الشفخانات

جاعني محمود ذات يوم وألقى إلي هذا السؤال أتعرف ابولو قلت نعم مفتش الشفخانات وصديقك ويتردد على مكانك دائماً قال هذا صحيح لكنه هو أكثر من صديق هذا الرجل حسن الأخلاق طيب المعشر مخلص ووطني رغم انه من أبناء المورو لم ينحاز إلى حركة التمرد عندما نشبت وكان تحيزه للشماليين الذي يرى انه قد غدر بهم ولا يستحقون الموت بهذه الصورة بشكل واضح رغم الإغراءات والتهديدات وله اليد الطولى في إنقاذ حياة التجار الذين تعرضوا للحصار وكان يمدنا بالمعلومات وتحركات الخارجين ونواياهم قلت سمعت عنه في مناسبات كثيرة قال بما نكافئه قلت مهما قدمتم له يعتبر قليلاً بالنسبة إلى ما قدم كنت دائماً أفكر ما هو نوع الخدمة التي أقدمها ولو مني أنا منفرداً إن لم تكن بصفة جماعية وقد جاعني اليوم وطلب مني أن أمد له يد العون في الوقت الذي لا يملك درهماً ولا ديناراً وقد فوجئ بموت ابنه الذي كان طالباً بكلية الحقوق بجامعة الخرطوم وقد بني عليه آمالاً عراض حيث سيكون عوناً له في كبره وهو قد أحسن تربيته وكان وقع الصدمة عليه شديداً كادت أن تؤدي بحياته لولا صبره وجلده . والآن وقد قرب إقامة ليالي المأتم على حسب عادة أهل البلد والاستعداد لكل ما يلزم من التكاليف وعلى رأسها ثور يذبح غير التكاليف الأخرى ولما كان الثور في هذه الأيام صعب المنال بسبب قطع الطريق ما بين رومبيك ومريدي فرجاؤه أن تقتل له جاموساً واحداً كمساعدة وبذلك نكون قد قمنا ببعض الواجب ووافقت وبعد أيام قلائل أفلتت العربة إلى منزله الريفي في منطقة كريكا حيث موطنه الأصلي وبين أهله وعشيرته ولا تبعد كثيراً عن الشارع الرئيسي فتجمع حولنا أهله وأبناء عمومته ورجعت العربة وفي الصباح بدأ الزحف نحو الغابة وأخذ كل عامل حمله من المعدات سرير سفره ومراتب وصفائح ماء وجوالات فارغة وسكاكين وفؤوس وأنواع الأكل المختلفة والذين كانوا بصحبتنا هذه المرة أكثر من سابقاتها لان أبولو

اصطحب معه بعض أهله كخبراء وعمال ولم تمض ساعة ونصف الساعة من دخولنا الغابة ولا زالت النسمات الباردة تهب والشمس تبدو وكأنها قمر حيث فقدت حرارتها وأرسلت ضوءها وفي سهل أمامنا وأعداد كبيرة من الجاموس يرعى ويتلاعب فرجعنا للخلف دون أن يشعر بنا لنعطيه الفرصة حتى يصل محل نومه ولجأنا إلى ربوة عالية لتناول طعام الإفطار قمنا بتتبع الأثر بعد أن تجاوز السهل تفرق على أسراب وكل سرب أخذ مرقدة في شكل جماعات وقام الحراس لأداء مهمتهم في الحراسة سرنا قليلاً وأشرنا إلى ابولو بأن يجلس وتقدمت أنا ومحمود وأخذ كل منا مجلسه على مسافة عشرة أمتار ليتسنى لنا الدفاع عن بعضنا وقد انفرد كل منا نحو سرب وكان يقف أمامي ثوراً أسود كبير كأحد الحراس وصممت أن أبدأ به أولاً وجاءت الإشارة ببدء الضرب وأطلقت أول رصاصة نحو هذا الثور وهب القطيع من نومه وهو يلف ويدور ونحن نطلق عليه النار ومن كثرة إطلاق النار انفرد من القطيع نحو ستة أو سبعة وجاء يجري نحونا من غير قصد فسمعنا صوت ابولو ينادي قوموا وما بينا وما بين السرب إلا أمتار قليلة ولو قمنا كما أشار علينا لوجد فرصته لمهاجمتنا لأنه كان يجري من غير هدى فلم نستجيب وكان يتبع بعضه بعضاً كل واحد خلف الآخر ورمى التي تجري في المقدمة في نحرها وسقطت على الأرض وتعثرت بها كل واحدة فتقع على جسم الراقدة على الأرض حتى كانت كومة كبيرة من الجاموس ثم قامت وانحرفت جانباً وهربت وإنجلي الموقف بعد أن أصبنا ستة منها وأعطينا ابولو الخيار ليختار أكبرها وقد خطر ببالنا أن نقدم شيئاً من الشواء إلى ضيوفنا لأنهم استضافونا في بيوتهم والغابة بيتنا يجب أن نكرمهم وتركنا الأمر إلى ابولو فأمر بحفر حفرة عمقها خمسين سنتيمتر وملؤها حطباً وأشعلوا فيها النار ولما صارت جمرأً أخلاها منه ووضعها في قاع الحفرة وأعاد الجمر إلى مكانه ووضع عليه طبقة من التراب وانصرفنا عنه وبعد تفقدنا الجاموس الميت تبين لي أن الجاموس الأسود الذي رميته بالطلقة الأولى ليس من بين الرقود فلفت نظر محمود لهذه الملاحظة وقلت لا شك انه سيموت علي بعد

أمتار لان الإصابة قاتلة وإني لوائق منها ولا بد للبحث عنه واخشي أن انتشر العمال في الغابة لجمع الأخشاب أن يكون لهذا الجاموس بقية من رمق فيهاجم أحد العمال فلفطنا نظر العمال لهذا الأمر ومنعنا أي عامل مبارحة هذا المكان حتى نعرف مصير هذا الحيوان ونحن في حوارنا هذا سمعنا صوت قطيع آخر يرقد قريب من مكاننا وقام محمود وابولو وتوجهوا نحوه ولكني أصررت على البحث عن هذا الجاموس وأخذت طريقي في الاتجاه الذي سلكه بقية الجاموس عند هروبه وما مشيت أكثر من مائة ياردة حتى رأيت جثة جاموس يرقد على الأرض وخشيت أن يكون عنده بقية من حياة فجئته من خلفه وأنا علي استعداد ولما اقتربت منه وجدته ميتاً فأمسكت بصفارة ونفخت فيها فاستجاب محمود بصفارته وجاء ومعه ابولو وأرسلنا في طلب العمال ليجمعوه مع بقية الجواميس الأخرى وبعد أن تناولنا غداً من ذلك الشواء وكأنه اخرج من فرن فكانت وجبة لذيذة مكثنا في هذا المكان نحو خمسة أيام نخرج في كل يوم لنضيف عدداً آخر من الجواميس ولما انتهت الرحلة رأينا أن الموعد المحدد لإقامة المأتم قد قربت فمن حسن المجاملة أن نحضرها معهم وانتقلنا للعربة وأعلن رسمياً عن اليوم المحدد وبدأ المعزون في التقاطر على العربة بأعداد كبيرة رجالاً ونساء وشباب حتى ضاقت بهم الساحة وبدأ الصراخ والعيول ومن أغرب ما رأيت المرأة والبنات تقع علي أم رأسها ويصطدم رأسها بالأرض الحجرية وتتدحرج على الأرض وتقلب الهوبه وتتسقلب ثلاثة أو أربعة مرات متتابعة غير مكترثة لما يصيبها من جراء تلك العملية القاسية التي لا تخلو من خطورة من أن تصاب بكسر في العظام أو رضخ في العضلات وبعد قليل دخلوا للمكان المعد لشرب الخمر واكل اللحم ويعودوا لهذه العملية التي تستغرق يوم كامل بعدها يكونوا قد قاموا بواجب العزاء وأعطوا الميت ما يستحقه من تقدير و يبدعوا في الرجوع من حيث أتوا وعندما جاءت العربة لنقلنا إلى مريدي تقدم ابولو وشكرنا علي هذه المساعدة القيمة والتي جعلت من أهله كلهم ينظرون إلينا بعين التقدير وقد رفعت من مكانه من بينهم واعتبروها

خدمة إنسانية لا يرجو من ورائها كسب مادي وما قدمنا نحن في هذا اليوم لا يفي بحقه وتمني لهم العافية وودعناهم وبدأت رحلة الرجوع .

قصة قرد

الكثير من قبائل السودان يأكلون لحم القرد علي اختلاف مللهم وديانتهم ويصفونه بجودة اللحوم ويهتمون بصيده بشتى الوسائل وبحكم تواجد القردة وتكاثرها بين الغابات وهي مسرحه ومأواها أما رؤوس الجبال فحصنه المنيع الذي يجد في كهوفها ومغاراتها وبين صخورها ما يحمي صغاره من الحيوانات المفترسة والصيادين فإذا وجد إنسان قطيع منها تبعه متخفياً بين أشجار الغابة . ولما كانت الأسلحة المستعملة في تلك الحقبة من الزمان أسلحة بدائية هي الحربة والفؤوس بالنسبة لسكان المناطق الجنوبية وبعض جبال النوبة والحربة محدودة المدى لا يستطيع المرء أن يرمي بها حيوان إلا على المدى القريب والسهم ابعده مدى فالذين يجيدون استخدام الفؤوس أكثر حظاً ممن يستعملون الحراب . ومنطقة مريدي غنية بأنواع القردة مختلفة الأشكال بسبب تكاثر أشجار الفاكهة التي تنمو بين الغابات دون رقيب وتجد القردة المرتع الخصب والأهالي يتربصون بها ويتعاونون على صيدها .

في ذات يوم كان أحد الأهالي يتربص بقطيع يرعى أمامه ويمشي وراءها متخفياً وراء أغصان الأشجار يحبو تارة ويرقد على الأرض تارة أخرى إلى أن اقترب من واحد منها كبير الجسم وفير اللحم فانتزع سهماً من كنانته ووضعها في كبد قوسه وشده شداً محكماً ، رمي به ذلك القرد فأصابه إصابة قاتلة ووقع على الأرض وقام الرجل مسروراً لما أصاب في هذا اليوم من صيد سمين فلما اقترب منه جحظت عيناه واعترتة الدهشة عندما وجد بجانب القرد المصاب حربة صغيرة فطار صوابه وجن جنونه عندما وجد الميت إنساناً يلبس فراء من جلد القردة بعد أن احكم تفصيلها راس القرد أمامه هو نفس القرد وذيل طويل يتبعه وهو يمشي علي أربع وفي هيئته لا تداخل الإنسان شك انه قرد حقيقي ولما أفاق الرجل قليلاً ورجع

إلى صوابه انتزع طرفاً من الفراء عن وجهه فإذا هو أحد معارفه ورجع يجبر رجليه جراً من شدة الصدمة وذهب من توه إلى نقطة البوليس وشرح الحادث وقام البوليس بمشاهدة المكان على الطبيعة وعرضت القضية أمام محكمة كبرى فحكمت المحكمة ببراءته وإطلاق سراحه ورموا اللوم علي الميت .

جاموسان يتصارعان

كان حبل الأمن مضطرباً ودخول الغابة نوع من المجازفة وقد اعتدت دائماً كلما هممت أن أقوم برحلة صيد أن أتقدم لمكتب البوليس واعلم الضابط المسئول وهيئة مكتبه بأني سوف أقوم برحلة صيد في المنطقة الفلانية وأعينها فكان جوابه التقليدي " والله يا عم عثمان ليس من حقنا أن نمنعك وليس لدينا من الحق بان نصرح لك وأنت اعلم بما يجري في الساحة وحالة الأمن وتحركات الخوارج المنبثين بين القرى والغابات " وكان ردي " ما جئت اطلب إذنأ وأنا مقدر هذه الظروف ولا أريد إحراج أحد أو القي عليه مسؤولية ولكن غرضي الوحيد إذا وصل بلاغ بان شخصاً مقتولاً في هذه المنطقة فهو أنا فابحثوا عن الجثة " وكانت كلماتي مثيرة للضحك بين الحاضرين فأودعهم وانصرف وقال الضابط "إلى أين اتجاهك هذه المرة ؟ " قلت "منطقة السلطان علي مدرجي " . وشقت العربة طريقها وفي منتصف الطريق تراءت لنا عربة بوكس تسير نحونا وأشار علينا بالوقوف وقفت العربتان ونزل منها السلطان علي وبعد تبادل التحايا قال أريد أن الفت نظرك بان في الطريق جاموسان يتصارعان منذ يومين وقد تسببا في قطع الطريق خوفاً من مهاجمتها وأنا عندما اقتربت منهما أمرت السائق أن يدخل بالغابة تفادياً لما يمكن أن يحدث لنا وأنا انصح بان تتبع طريقاً وسط الغابة ولا تحاول صيدها لأنها في حالة هياج واخشي أن تعدي عليك وشكرته واخذ كل منا طريقة وقلت للسائق وهو من اصل زاندي لا تفارق الطريق الأصلي حتى أشير لك بذلك وسرنا قليلاً فرأينا الغبار يملأ المنطقة فأمرت السائق بان يقف على بعد ونزلنا وتقدمت وحدي وجئتها من ناحية الغابة واقتربت منها واصبحا علي مرمى النار وهما لازالا

يتصارعان ولم يشعرا بوجودي فأطلقت النار على واحد منها فأصبتَه فوق عُنَى الأرض وهو يخور فكثف الثاني هجماته عليه ظناً منه انه تَقَلَّب عليه فرميتَه بطلقة وأصبتَه وجرى والدم ينزف منه ولم اتبعه . واستحسننت أن انظر في أمر هذا أولاً وتقدمت نحوه في حذر شديد وإصبعي على الزناد وجئته من خلفه وضربتَه برجلي مرة ثانية وثالثة فلم أجد منه ما يوحي بان به رمق من حياة ونفخت في الصفارة إشارة التحرك فجاءت العربية وأنزلنا ما عليها من متاع ورفعنا الجاموس فوقها وكتببت جواب لمحمود ورجع لمريدي وأخذنا طريقنا وسط الغابة بحثاً عن الآخر وتتبعنا الدم فوجدناه ميتاً جاءت العربية ورفعنا الجاموس فوقها واصلنا سيرنا حتى منزل ابوقو من اصل موراي نحيف الجسم طيب القلب لكنه خبير ممتاز يعرف دروب الغابة ومواقع المياه وفي الصباح أخذ حربته ولبس لباس الغابة ومعنا كل العمال ونحن نتلفت ونبحث عن أثر الجاموس فأمسك الخبير بيدي وأشار بيده نحو قنطور تحت شجرة فرأيت ثعباناً كبيراً من ما نسميه أبردق أو ما يسموه في أوربا بالكوبرا وسمه قاتل كان يقف على ذيله على ارتفاع متر ونفخ حلقه حتى صارت كحجم كرة القدم فتناولت منه ببندقية المورس وأخرجت من جيبِي ذخيرتها ورميتَه بطلقة فوق على الأرض وهو يتلوى وحملنا عليه بالعصي حتى مات . استغرقت الرحلة نحو أسبوع وقد كان نصيبنا نحو عشرة من الجواميس رجعنا بعدها إلى مريدي ووجدت السلطان علي يجلس أمام دكان عباس حاج مهدي وجلست بجواره وقد علم بتعرضي للجواميس المتصارعة والتفت إلى عباس " يابا دا ما تخلوه يدخل الغابة براهو لأنه يضرب الجاموس وهو يجلس على الأرض مكشوفة مع الجاموس وأنا أخاف يهاجمه الجاموس " والتفت نحوي قائلاً " أنا ما منعك من لقاء الجاموسيين؟ قلت وجدتها فرصة سانحة بوجوده علي الشارع والعربة بين أيدينا كي نسد سوق مريدي بلحم طازج فكيف لا استغلها فضحك وقال ربنا كريم عليك وقلت له من الجاموس الآخر مررت على أولئك أعطيتهم جزء من اللحم قال قد علمت ذلك وأنت مشكور .

وبدأت احكي له عن نار كانت في الطريق مما أزعج السواق وتخوف منها قال كيف قلت وصلت العربية متأخرة قليلاً ولم تنتهي عملية الشحن إلا بعد المغرب وأخذنا طريقنا قبل أن نصل إلى الطريق الرئيسي رأى السواق ناراً على الطريق والفتفت نحوي قائلاً (يابا) قال رأيت تلك النار قلت نعم قال هي من عمل المتمردين يضرمونها لتلقي ضوءها على الطريق ليتمكنوا من إصابة العربية بأسلحتهم ولا شك أنهم علموا بدخولنا في الغابة فكن على حذر وأضرب في المليان فكن مستعداً والبندقية مليانه فطمأنته قائلاً انك تعلم إن رصاصتي لا تخطيء أينما وجهتها ليلاً أو نهاراً وسأضرب في المليان كما قلت ولكن المهم أنك لا تقف ولا تقل من سرعة العربية ولو أطلقوا علينا النار بل سر في طريقك لان ظلمة الليل لا تمكنهم من إصابة الهدف وكلما مشينا قليلاً يقول استعد وأنا أقول لا يداخلك الخوف ما دام أنا معك النار تقترب منا شيئاً فشيئاً والعمال من الخلف سكوت كأن على رؤوسهم الطير حتى مرت العربية بالقرب منها ولم نجد حولها إناس غير أنها موقده على شجرة جافة وهبت عليها الريح فاشتعلت قلت للسواق انت كنت خائف وليس في الامر خوارج قال أنا افكرتهم عرفوا العربية وعرفوا أنك بداخلها بعلمهم بأنك لا تخطئ الهدف ولذلك تحاشوا لقائك قال السلطان علي وهو يضحك والله الكلام دا يمكن صحيح.

مقتل السلطان صالح مدرجي

لم يمض على رجوعي من الغابة إلا سحابة ليل البارحة وفي التاسعة صباحاً جاءت عربة البوليس لتقف أمامي وينزل منها ضابط البوليس بعد أن تبادلنا عبارات التحية بعد غيبة استمرت عشرة أيام ثم قال إن قائد الحامية يطلب مقابلتك الآن بمكتبه قلت أنا بالذات قال نعم وأول ما خطر ببالي أنه علم بدخولي الغابة وأراد منعي من هذه الرحلات بقصد الحفاظ على حياتي وركبت بجانبه وسارت العربية نحو منطقة الجيش وأنا شارد الذهن أفكر في الذي حدا بالقائد أن يرسل في طلبي فإذا بصوت ضابط البوليس يقطع علي تفكيري ليقول هل سمعت بأن السلطان

صالح مدرجي اغتالوه أمس في منزله بعد أن هاجمته فئة من الخوارج قلت لا علم لي بذلك وكانت العربية قد وصلت أمام مكتب القائد والباب موصد والحرس قائم بسلاحه يمنع الدخول لما وقفت العربية خرج أحد الضباط وأمر بدخولنا ولما دخلت وجدت جمع من الضباط والقائد يجلس وراء منضدة ولاحظت وجود محمود حاج مهدي وحسين إبراهيم زيدان بين المجتمعين وفي شكل مؤتمر ومحمود وحسين من أهم تجار مريدي وأكثرهم حيوية ولهم إطلاعات واسعة ومعلومات عن الأهالي وقد شاركا كأعضاء في مؤتمرات كثيرة كانت تعقد أيام الاستعمار وكان لهم دوراً بارزاً ، كثيراً ما كان يعمل به المفتشون البريطانيون ، وجلست على مقعد خال ووجه لي سؤال قائلاً هل علمت بمقتل السلطان صالح ليلة البارحة قلت عرفت ولكن قبل قليل ونحن في طريقنا إلى هنا قال بصفتك أنك تدخل الغابات ومعرفتك التامة بدروبها ومداخلها بأي طريق سلوكه بعد أن نفذوا خطتهم قلت الشيء الذي يتبادر إلى الذهن وهم غالباً ما يكونوا من أهل المنطقة المجاورة وقد درسوا كل السبل التي تكفل لهم السلامة وليس أمامهم إلا مكاناً واحداً هي سلسلة الجبال التي تقع جنوب منطقته وهي حصينة ومنيعة وعرة المسالك متراصة لا فاصل بينها بحيث يصعب على الإنسان تسلقها إلا بصعوبة غير أن لها مدخل واحد يقع في الجنوب الغربي يفتح على غابات كثيفة وأشجار عالية وهذا المدخل للحيوانات المختلفة ووسط هذه السلسلة فسحة من الأرض تكسوها الأعشاب وبها مستنقعات ماء تحتفظ بمائها إلى الخريف الثاني ولا تجف وهي كافية للحيوان وللإنسان قال القائد كل هذه المعلومات تطابق ما قاله محمود قبل قليل وواصل حديثه قائلاً هل أنتم على استعداد لمرافقة الجيش كخبراء قلت نعم وفي أي وقت وأبديت ملاحظة في حالة نقد الجيش لا ندخل المنطقة من الناحية الشمالية بل بعد أن نترك الجبال خلفنا ونأتها من الناحية الجنوبية ونتسلق الجبال تحت ظلمة الليل ونباغتهم مع طلوع الفجر لأن الخوارج ينصب تفكيرهم في حراسة المدخل الرئيسي ويضعوا كل استعداداتهم على المدخل بين الصخور وكما قال القائل (يؤتى الحذر من مأمنه) قال إذاً كونوا على استعداد

اليوم الذي سنحدده وشكرنا على ما ألدنا به من معلومات تتبر الطريق أمام القوات المسلحة . مرت الأيام والأسابيع وأسدل الستار على الحادث ولا أذيع سراً إن قلت إن عدم تنفيذ الفكرة الجيش وليس من جانبنا رغم إننا نعلم خطورة ما نحن مقدمون عليه ولكن للقوات المسلحة عندها لأن الوقت خريف والحشائش عالية لا يمكن أن ترى إنساناً أو حيواناً ولو على بعد متر واحد والأرض كلها مبللة بمياه الخريف ووجدوا تتبع أثرهم فيه خطورة على أفراد الجيش وآثروا إرجاء ذلك إلى ما بعد الخريف وبعد ذلك حصلت متغيرات كثيرة وكثرت على الأهالي وانفرط حبل الأمن تدمير الجيش بمريدي من عدم اللحم

بعد انتفاضة أكتوبر التي أطاحت بحكومة الفريق إبراهيم عبود وجاءت الحكومة المعينة التي اختير لرئيسها السيد سر الختم الخليفة وكان بينها السيد كلمنت مבורو كوزير للداخلية وكان الهدوء في الشمال وتنفس الصعداء وانزاح الكابوس وتنسم عبير الحرية أو هكذا كنا نتوقع قام السيد كلمنت بطواف على المديرية الجنوبية لا بغرض تهدئة الخواطر وإزالة آثار الماضي وما علق بالنفوس من شوائب بل كان يلقي على مسامع الجمهور وفي الميادين العامة المكتظة بالأهالي كلمات التحريض وإثارة الفتنة وتذكيرها من جديد بصورة مكشوفة وعندما وصل إلى مريدي التقى بالجموع المحتشدة التي امتلأت بها الميادين في وسط المدينة وقام فيهم خطيباً يأتي بعبارات التحريض بكل صراحة وإن أنسى لا أنسى قوله وبأعلى صوته أنتم اليوم أحرار في وطنكم ولا يستطيع بعد اليوم أن يلحق بكم أذى فالبندقية التي في يد العسكري من الجيش مفتاحها عندي وفي جيبى هذا وأنا ذاهب به إلى الخرطوم ولن تتفجر بعد اليوم طلقة واحده إلا بإذني فما معنى هذا أليس هو التحريض المكشوف لإلحاق الضرر بالشماليين وقد نسى أو تناسى سعادة الوزير بما لديه من خبرة وطول اختلاطه بطبقة التجار والذين عمل معهم إداري في مواقع كثيرة في شمال السودان وجنوبه لا يهمهم تهديد والذين استمعوا له الآن هم نفس الذين وقفوا وقفه رجل واحد أمام المتمردين وصمدوا بكل شجاعة ولم

يستطيعوا أن ينالوا منهم نيلاً إلا من الذين شاعت مشيئته تعالى أن يستشهد قبل أن يلحق مكان التجمع وكان القصد من كل هذا الكلام وضع الفتيل على برميل البارود وعلى اثر ذلك ظهرت موجة من الاستقزازات من بعض الشبان المتعصبين أما طبقة الأهالي فلم يؤثر فيهم قوله وكانت الأعمال تسير سيرها الطبيعي ولكن كلامه أثر على بعض النفوس المريضة وقطعت طريق رومبيك مريدي وهو طريق يغذي مريدي بالبقر الذبيح اليومي مما فرض شبه حصار على منطقة الزاندي ككل مما جعل الرعاة عرضة للضرب ونهب الأبقار مما سبب أيضاً ندره أو انعداماً لهذه السلعة الحيوية وكانت الضائقة أكثر وقوعاً على جنود الفرقة المربطة في مريدي وهم من عرب كردفان ومعهم عوائلهم مما سبب أيضاً قلقاً للقادة والمسؤولين .

وفي يوم من أيام رمضان كنت أجلس أمام دكان الأخ عباس حاج مهدي جاء السيد حسن محمد الأمين قائد الحامية بعربته وجلس بيننا يبدو على ملامحه شرود الذهن والتفكير العميق في شيء يخيفه في صدره ولما لم يجد بداً من الإباحة به التفت نحوي وقال يا عم عثمان فالتفت إليه بكليتي أستمع إليه انك تعلم أن كل أفراد الحامية الموجودة هنا من العرب فيهم من هو أعزب ومنهم من هو رب أسرة تقيم معه وأطفاله والفريقين صياماً ولا يخفى عليك أن شهر رمضان يحتاج إلى الكثير من الزيادات في المأكل والمشرب عن المعتاد في بقية الشهور ونحن الآن فقدنا أهم عنصر يساعد الجسم على تحمل الصيام ألا وهو اللحم وإنني لأشعر بوجود تضرر بين صفوف الجنود مما يقلقني ويلقي عليّ مسؤولية هذا النقص والنساء الأطفال في حالة عدم رضا مما سبب ضغط على الرجال وهم عاجزين عن عمل شيء إلا الشكوى وأنت تعلم أن وزير الداخلية أصدر أمراً بمنع أي طلقه تضرب مهما كانت الظروف وجئت أطلب منك خدمة بسيطة هي أن تضرب لنا جاموس واحد رغم انك صائم وكان محمود في إجازة قلت خدمة بسيطة لا تكلف شيئاً قال متى قلت في أي وقت تشاء قال انتظرني حتى استشير المفتش ، وكان وجاء في الغد ليقول استعد ليوم غدٍ في الساعة الخامسة صباحاً وفي الوقت المحدد

جاءت عربتان واحدة كומר بها سواق وجاويش أما الثانية بها أربعة والسائق بأسلحتهم وسلكننا طريقاً جانبياً يسير بين القرى قصدتها لأنها غنية بالجاموس وفي أثناء مرورنا على أحد الكباري وعلى بعد خمسين ميلاً تقريباً وتقوم على أعمدة من الخشب لاحت لنا ورقة على خشبه تحركها نسيمات الضحى ونزلت عن العربّة وأمسكت بالورقة مكتوب عليها باللغة الإنجليزية (من فضلكم عودوا إلى بلادكم وأقتلوا صيّدكم وأتركونا مع صيدنا) ولما شرحت إلى الجاويش محتواها قال أعطينيها لأقدمها للسيد قائد الحامية وقلت لهم سنجد هذا الكبري عند عودتنا محطماً لكنه لن يعوق سيرنا لأن أرضه صلبه وسهل العبور ولم نسير إلا قليلاً التقينا بالجاموس فنزلت عن العربّة وتقدمت خطوات وأطلقت عليه رصاصة فوق المصايب وفر بقية السرب تركت أمره للجماعة ليقوموا بعملية السلخ وتقطيعه قوائم لأننا لا نستطيع رفعه فوق العربّة ومشيت وراء السرب وحدي إلى أن أدركته ورميت آخر فوق وعلى سماع صوت الذخيرة جاء الجاويش ووجد الجاموس الثاني فقلت هل لكم في ثالث قال لا لأننا نحن أقلية وفي حالة صوم فرشنا الجلود على أرضية العربّة ووضعنا كمية اللحم فوق بعضها وأخذت العربّة طريقها نحو مريدي ومررنا بالكبري فوجدناه سليماً وبوصلونا لمنطقة الجيش اتجهنا نحو منزل القائد وخرج على اثر صوت العربات ورأى من كمية اللحم ما انشرح له صدره وانطلقت أسارير وجهه فأمر الجاويش أن يضعها بين ثكنات الجيش ويقوم بتقسيمها على الأسر وقفت العربتان وسط الثكنات في ميدان واسع بين صفوف المعسكر وشاع الخبر بين النساء فخرجن من منازلهن وهن يزغردن والتف حولي عدداً منهن والزغاريد تملأ جوانب الميدان يبشرن بأيديهن وأنا في انتظار عربّة تقلني إلى السوق وجاء القائد ليقول للجاويش التقسيم يكون على أساس للعازب كوم وللمتزوج كومين وضج المكان بالزغاريد مرة أخرى وأخيراً أقلتني العربّة إلى مريدي وانفجرت أزمة اللحم وكنت كلما سمعت الزغاريد أمتلئ انتفاخاً أمتلئ صورة الأسد لعلمي أن النساء تأخذهم الفرحة والتقدير لكل من يقوم بصيد حيوان مفترس كالأسد

والفيل والجاموس .

مهيد ورخصة الفيل

تسلمت خطاب من أحد معارفي يعمل بالتجارة برومبيك أحد مراكز بحر الغزال يرجوني فيه أن اقدم خدمة إنسانية لصديقه السيد بانقا الذي يعمل مديراً لمدرسة رومبيك الابتدائية وقد تحصل على رخصة فيل وقد تم نقله للشمال بعد أن قضى فترة عمله في الجنوب ونحن بما لدينا من ثقة نطلب حضورك لمرافقته في هذه الرحلة لأنه لأول مرة يمنح مثل هذا التفويض بعد الفراغ من قراءة الرسالة طرحتها جانباً ورأيت فيه طلب غير معقول واستكثرت حتى الرد عليه بلا أو نعم وبعد الظهيرة وفي موعد الغداء جاء محمود وعباس يسألاني عن رأيي في الخطاب الذي جاءك من رومبيك قلت هل من المعقول أن أرافق شخصاً في رحلة كهذه احتمال الخطر فيها أكبر من فرصة السلامة وبعد حوار لم يطل أفتعتهما بالرفض ولا مجال للعودة للكلام في هذا الموضوع وسوف لا أكلف نفسي مؤنة الرد عليهم لئلا نفتح باب الأخذ والرد وبعد أيام قليلة فاجأنا السيد مهيد ونزل ضيفاً على الأخ عباس حاج مهدي وفي اليوم الثاني من وصوله جاء محمود وعباس وثالثهم مهيد ودخلوا عليّ حيث أسكن وبدأ الحديث في موضوع الرحلة وأنا أرفض في إصرار وقلت لهم هل يشرفني أو يشرفكم إذا أصابني مكروه في هذه الرحلة أن يقال أنني كنت مستأجراً ويقولها كل من لا يعرف الحقيقة زد على ذلك ما هو موقف أولادي بعد نعي أليم يكن هذا الحادث سبة لهم وعار عليهم فاتركوني وأبحثوا عن غيري فمنطقة مريدي عامرة بالصيادين المتفرغين لمثل هذا العمل ولما لم يجدوا استجابة انصرفوا غير راضين وفي مساء اليوم نفسه رجعوا ليعيدوا نفس النعمة وأنا أرفض وهم في توسلاتهم وأخيراً لجاء محمود لحل وسط أن أرافقه كمدافع في حالة مهاجمة الفيل وهو لم يألف مثل هذه المواقف وحديث عهد بالوقوف أمام هذا الحيوان وكل مهمتك الدفاع عن حياته وقد لا تستغرق الرحلة أكثر من أسبوع وتحت الضغط الشديد قبلت مكرهاً وقلت له إن منطقة مريدي في هذه الأيام خالية

عن الأفيال الكبيرة لأنها نزحت نحو الكنفو فمنطقة شمال يامبيو أغنى خصوصاً ونحن في موسم المنقا التي نقصدها من جهات الكنفو ومناطق أفريقيا الوسطى المتاخمة لحدود السودان . وفي يوم غد أخذنا طريقنا نحو يامبيو ونزلنا ضيوفاً على السيد إبراهيم أحمد رحمه الله وعمنا بكرمه المعهود وأشار علينا أن نقصد قرية برقو ووصلناها في وقت العصر ووجدنا بها تاجرين أحدهما من أبناء كردفان أما الآخر فلاتي من الذين استوطنوا مدينه واو فقابلونا بالترحاب وشرحنا لهم المهمة التي جئنا من أجلها وطلبت منهم أن يعينوننا بخبير ذو كفاءة عالية ومعرفة تامة بتحركات الأفيال ومواقع المياه وجاءوا به وفي الصباح اتجهنا نحو الغابة وكانت الغابات كثيفة ملتفة الأغصان يجد الإنسان صعوبة المرور من بينها فإذا بالخبير يستوقفنا وينصت قليلاً ويشير نحو أشجار كثيفة فإذا بحركة أفيال تتلاعب وسط نهر صغير يجري مياهه وهنا المحك فتقدم نحوي مهيد وقال أصارحك القول وما كان لي أن أقول ولكن الظروف قضت بذلك أنا لأول مرة أدخل الغابة لملاقاة حيوان مفترس وأخشى إن تقدمت مع قلة خبرتي بمتطلبات الموقف من حيث اختيار سير الريح أو الوصول إلى نقطة إطلاق النار أو مكان مقتل هذا الحيوان الكبير وأقل خطأ فسيعرض الرحلة للفشل وقد وانتنا الفرصة فلا تدعها تفلت من بين أيدينا فخذ البندقية وأنا أمشي خلفك فوجدت نفسي في موقف غاية الحرج فامتثلت للأمر تحت توسلاته وأخذت منه السلاح وكانت البندقية من عيار كبير ولها ماسورتان فأشرت إليه بالرجوع إلى الجماعة وكان من بينهم أحد رجالات الفلاته كان يسير معنا من باب المجاملة ويهيئ نفسه لتسلق أطول شجرة إذا نفرت الأفيال بعد سماع الطلقة الأولى لأنها تهرب وتنتشر في الغابة طلباً للنجاة وتقدمت قليلاً ثم أخرجت كيس الرماد من جيبي ونثرته في الهواء لأتبين اتجاه الريح ووقفت على شاطئ النهر وجدت ثلاث أفيال صغيرة ووزن السن أقل من السعر القانونية انسحبت قبل أن تشعر بوجودي وقلت إنها صغيرة ولا تستحق قال نحن في حالة اضطرار بالنسبة للوقت كنت تضرب واحد منها قلت إن القانون صريح وسيعرضك للمحاكمة

ومصادرة السن ولا لزوم للاستعجال وإن أنت مصر على قتل واحد منها فلا زالت الفرصة أمامنا متاحة هيا خذ البندقية وأنا أحملك فاعتذر وقال هيا نبحث عن غيرها في أثناء حوارنا سمعت على البعد الفلاتي يقول همساً (انه خاف) فأسررتها في نفسي ولم أجب وارتفع النهار قليلاً وبدأ الطقس يتغير ويميل إلى الحرارة وهو الوقت الذي تنشط فيه الذبابة التي تزعج الحيوانات وتدخل عيونها بأعداد كبيرة مما يضطر الحيوان للجوء داخل الخمائل المظلمة ونحن نسير فإذا بدرب فيل كبير يعترض طريقنا وتتبعنا الأثر ودخل بين أشجار متلية الأغصان وسط حشائش عالية فأوماً الخبير بيده نحو شجرة أمامنا وأشرت عليهم بالرجوع وتقدمت ووقفت أمام الشجرة ولكن لظلمة المكان وتدلي فروع الأشجار لم أستطع التمييز بين الرأس والذنب وهو على بعد عشرة أمتار فقط وأنا أقف وأنظر إلى جسم الحيوان ولم أجد الضوء الكافي لأتبين الرأس وهم يشيرون علي بالضرب وأنا امسك بالسلاح وعلى أهبة الاستعداد وانحصر كل اهتمامي نحو هذا الجسم الهائل وكميات الذباب تجبره ليغمض عينيه ولم تمض إلا دقائق حتى بدت منه حركة تبين لي أنها أذنه فأطلقت عليه النار في داخل ثقب الأذن فسقط على الأرض ثم وثب قائماً وجرى وجاعوا يسألونني هل أصبته قلت نعم وأشرت على الخبير أن يتتبع الأثر وتستجد الدم في طريقه فلما وصلنا لم نجد أثراً مما جعل الكثيرون يتغامزون وأنا أشعر بهذه الحركة غير مكترث بما يقولون ومشينا ما يقرب من المائة متر فإذا به وسط أشجار عالية خالية أرضها من الأعشاب وتقدمتهم قليلاً ورفعت البندقية لأرميه فإذا هو يترنح للسقوط فأمسكت ووقع على الأرض فصفت للجماعة تصفيقاً حاداً متواصلاً فإذا به يثب قائماً فبادرته بطلقة أردته قتيلاً فجاء المهنئون والكل يشد على يدي ويد السيد مهيد فلما سكنت جوانبه مشيت وحدي أختبر موته فوجدته قد فارق الحياة ولما كانت الرحلة طويلة لم نصطحب معنا عمالاً واعتمدنا على العمال المحليين أرسلنا للتجار خبر هذا الانتصار العظيم وأخذت النفاقير تضرب الفيل مات الفيل مات لأن الزاندي لهم طريقة في إرسال الأخبار بأسرع من التلغراف فمثلاً

للمفتش إذا قام من مكان يقصد مكان آخر فله ضربة خاصة في النقارة يعرفها كل من يسمعها وللليل ضربته الخاصة وللجاموس ضربة خاصة وبعد قليل بدأت النقاير تضرب والناس تتقاطر نحونا وكل شخص يحمل من الثمار الموز والأناس والمنقا والبفرا والمشروبات بأنواعها واستطعنا نزع الأسنان وحشوها بالتبن منعاً من أن يصيبها التشقق ومكثنا نحو أسبوع في هذا المكان بعد أن جف اللحم وربطناه في شكل حزم وجاءت العربية ووصلنا مركز يامبيو وبعد إتمام الإجراءات القانونية من دفع المبلغ حسب قانون الصيد وتم وزن السن وضع عليها الرقم وتمت الرحلة بسلام .

رحلة الخطر مع أبوقو

رأيت أن منطقة أبوقو قد وجدت الفرصة الكافية من الهدوء حيث لا إزعاج بالنسبة للحيوانات . وقفت العربية أمام داره فرحب بمقدمنا وقال كنت قد عزمت أن أذهب إلى مريدي وأدعوكم لزيارة المنطقة وقد بدت الدار نظيفة وأشجار الفاكهة خضراء يانعة وثمارها تتدلى وكأنها الثريات من شدة صفارها مع خضرة الأغصان يكسبها لوناً جذاباً وجنى لنا منها الكثير وقد بدت على وجهه علامات الفرح والسرور حيث سيصيب من هذه الرحلة كمية من اللحم مما يغطي له احتياجات أطول مدة ممكنة ليتفرغ هو للزراعة وكنا نحسن معاملته وطيب معشره لا نبخل عليه بشيء ونعطيه أكثر مما يجب وفي الصباح حمل رمحه وأمسك بقوسه ونفض الغبار عن كنانته ووضعها على نراعه وسلك بنا طريق الغابة ونحن والعمال نسير خلفه واقتربنا من المكان الذي كان يقصده وهو أرض منخفضة تحتفظ بقدر من الماء ثم تجف تدريجياً وتتمو الأعشاب فيها مما تجد الحيوانات مرعاها ولما دنونا منه أشار للعمال بالوقوف وتقدمنا في حذر وعلى طرف منه رأينا قطيع من الجاموس يرعى فتوجهنا نحو العمال وتحت شجرة وارفة الظل بعد أن أزالوا عنها الأعشاب وعيدان الخشب جلسنا تحتها وتناولنا وجبة الإفطار وما تبعها من قهوة وشاي إلى أن حانت الساعة العاشرة وكانت فترة كافية ليصل إلى مكان نومه

والذباب يفعل فعلته في عيونه فيغمضها رغم أنفه وتتبعنا أثره ووجدناه قد أخذ مرقده في أرض قوز رملية متماسكة الذرات وفي مساحة تعلوها الشجيرات المتناثرة والجاموس يرقد في شكل جماعات وقد غفلت الحراس عن أداء مهمتها حيث جئنا عكس اتجاه الريح ونمشي في حذر شديد دون أن نبدي حركة وكان الكلام قاصر على الإشارة فتركته يقف حيث هو وتقدمت قليلاً وأطلقت النار الطلقة بعد الأخرى فوجد فرصته بعد أن أمسكت وخلف وراءه خمسة من الجواميس وكنا دائماً لا نقلل منها إلا بالقدر الذي يستطيع العمال إنجازه فعلى قدر عدد العمال وإمكاناتهم نقدر عدد القتلى والعمال ينقسموا إلى جماعات منهم من يقوم بعملية السلخ ومنهم من يقوم بتمديد الجلود على الأرض وبأوتاد صغيرة لئلا تتكمش ومنهم من يقطع الخشب وهكذا وتحت شجرة وضع السرير المفروش وحوله صناديق المأمرية وبدأ الطباخ يعد عدته لتهيئة الغداء وأمرت ابوقو بأن يأخذ صفيحة فارغة ويأتينا بماء نظيف إن كان هناك ماء نظيف فعلق قوسه وكنانته على فرع شجرة قريبة وحمل رمحه والصفيحة وغاب عنا قليلاً وعاد هرولة ليقول إن قطيعاً من الجاموس يرقد على مقربة من هذا المكان فقلت إن الذي بين يدينا يكفي بالنسبة للعمال قال نضغط على أنفسنا وأنا بنفسى سأعمل معهم ولا ضرر إذا زدنا العدد باثنين فقط فحملت السلاح ومشينا فوجدنا القطيع واقفاً وتبدو عليه علامات الانزعاج من فرقة الذخيرة وكانت في المقدمة بقرة تمشي نحونا فرميتها بطلقة فأصابت النحر فجرت والدم يسيل غزيراً وقصدت مكاني يتبعها عدد من الجاموس فرميتها برصاصه أخرى ووجدت نفسى أمام موقف لا يجدي معه إطلاق النار وأي حركة تبدو مني ستشعره بوجودي والبندقية بها ثلاث طلقات فقط وعدد الجاموس كبيراً وضعت البندقية فوق رجلي بعد أن تربعت دون أن أبدي حركة وقعدت وكأنني عود من خشب وساعدني على ذلك اللبس الكاكي ولونه يقرب من لون الأرض ومر القطيع على يميني وعلى بعد متر واحد ولما كانت اثنتين منها مصابة إصابة مباشرة ونزف الكثير من الدم كانت تجري مغمضة الأعين وبقية القطيع كان

عندما يمر بجانبني ويشعر بأني إنسان ينط ويرفع رجله الخلفية بغرض إصابتي كما تفعل الحمير تعمل رجلها بالرفس حتى ذرات التراب المتطايرة من هذا الرفس تصل إلى وجهي فلا أتحرك وكان ابوقو يقف بجانبني عند بداية الضرب ولما تخرج الموقف وشعر بمهاجمة الجاموس زج بنفسه في شجره كبيرة يابسة واقعة على الأرض وحشر نفسه في داخلها بحيث لا يصله الجاموس المهاجم وبعد قليل خرج من بين الأغصان وقد نال جسمه بعض الخدوش وابتعد الجاموس وخرج ابوقو ووقف أمامي وهو يضع يديه على صدره وينحني نحوي وأنا ما زلت أجلس على الأرض وأخذ يتلمس أعضائي عضو عضو ويقول (يابا انت فيّ ، يابا ربنا كريم) ويعمل بيده كالمروحة فوقفت على قدمي وقلت هون عليك أنا بخير وهدأت من روعه ومشينا نحو موقف الجاموس فوجدنا الاثنين قد ماتت وأشرت عليه أن يمشي نحو مكان الماء وأنا أحرس الجواميس من الصقور لئلا تنهشها أو تعدو عليها الذئاب ويأتي ببعض العمال لنقلها إلى هناك . كان الحقيقة الموقف رهيب الجاموس يجري نحونا من غير قصد والمصاب منها مشغول بإصابته يجري ليجد مخرجاً ويحاول الابتعاد عن منطقة الخطر يجري وهو مغمض العينين ولو فتح عينيه لرآنا ولدارت بيننا معركة ما كنا سنسلم منها أبداً أما بقية السرب كان يجري تبعاً لأمه المصابة ولم يظن أن الخطر محقق بها فمر الموقف بسلام .

رحلة على نهر مريدي

كان علينا أن نغير اتجاهنا ولا نكثر من التردد على منطقة واحدة واستحسننت أن تكون الرحلة على نهر مريدي نزلنا في بيت الكبيته رئيس فئة محدودة من أهله ووجدت انفتوا وهو يعمل كرئيس طلبة لتصليح الكباري ولما كان الجسر على نهر مريدي قد أصابه التفكك أو التصدع من شدة ضغط مياهه الجارية وهو يقوم على أعمدة من خشب وقوائمه من خشب أيضاً جاء مع جماعة كعمال ليصلحوا هذا الجسر قبل أن ينهار وكان يحمل بندقية عيار 375 مقم حيث كان يعمل في قوة البوليس على عهد الاستعمار ولما تم مدته القانونية أعطي تصديقاً

ليشترى هذه البندقية وعين رئيساً للعمال كمكافأة له على خدماته اتفق صاحب المنزل الذي جئنا من اجله ليرافقنا في هذه الرحلة فوافق دون تردد ولما علم انفتوا غرضنا وأصبحنا ونحن نتهياً للخروج للغابة فإذا به جاء يحمل سلاحه يريد أن يشاركنا هذه الرحلة وعلى مورد من موارد النهر وجدنا آثار الجاموس وقد ورد الماء ليلاً ودخل الغابة انه قريب من هنا واقتفينا أثره فقلت له أي لانفتوا صاحب السلاح فلنفرض إننا التقينا مع الجاموس فكيف تكون طريق الضرب فأجاب بضرب سويًا ونقتسم لكل منا جاموساً قلت أنا لا أوافق لكني أنا أعطيك الفرصة الأولى تضرب إلى أن تكفي فقلت أم لم تقتل بعدها ستكون الفرصة لي ولكل منا ما أصاب فلم يرضيه هذا الحل وقبله على مضض وبينما نحن نسير فإذا بالجاموس ينقسم إلى قسمين واتجهت كل فرقة طريقها المغاير وقال اختار أحد الطرفين واخترت ما انشق نحو اليمين وسألت شيخ الحله وأعطيته الخيار هل هو مرافقي أم سيرافق انفتوا فاختار انفتوا فقلت كان الأجدر بك أن ترافقنا نحن لأننا ضيوفك ونحن نحتاج إليك لترشدنا إلى مكان المياه ودروب الغابة فأبى وقال بعض العمال نحن لا نحتاج إلى مساعدة أحد وقد سبق أن زرنا هذه المنطقة وعرفنا فيها كل مكان فأتركه يمشي مع زميله وافترقنا وسار كل منا نحو الأثر الذي اختاره ولم نذهب بعيداً حتى أدركنا السرب وهو يرقد على الأرض وتقدمت بعد أن هيات لكل جماعة منهم موقف بالقرب من الأشجار لتسلقها في حالة انتشار هذا المراح الكثير العدد ربما يجد أمامه بعضاً منهم فتهاجمه وقصدت أحد الحراس رميته فوق على الأرض وهو يجأر فهب المراح من نومه وأخذ يجري ويلف وأنا أطلق عليه النار وأصبت ستاً منها وكانت كافية لعملا اليومى فأوقفت الضرب وأعطيته فرصة للهروب وتأكدت من موتها جاءوا مسرعين ووجدوا الظروف الفارغة لا زالت متناثرة في مكان الضرب وخاطبني قائلاً من هذا المكان كنت تضرب الجاموس أجبت بنعم قال بممارستك هذه ستجد نفسك في يوم من الأيام وأنت على قرن جاموس قلت وان كنت أنت مكاني ماذا كنت فاعلاً قال نصعد إلى أعلى الشجرة ونضرب من هناك

تقدياً لأخطاره قلت هذه طريقتكم وطلبوا مني بعد الاعتراف بالغلطة التي ارتكبوها شيئاً من الكبد فلم أعاملهم بالمثل وأعطيتهم من كبودها ورأسين وجانباً من الضلع فأخذوها شاكرين ورجعوا عنا ونحن نمارس عملية الصيد هذه يومياً إلى أن وصلت إلى ثلاث عشر جاموساً وعبأنا اللحم في الجوالات ورحلناها مع الجلود إلى بيت الرجل ونحن في انتظار العربية التي نقلنا إلى مريدي فكان يضرب كفاً بكف ندماً ويلعن حظه العاثر الذي رماه مع انقنوا وهو ينظر إلى نصيب العمال من اللحم والعظم الشيء الكثير وهو يتحسر والحقيقة أنا قصدت أن أعامله بمثل ما عالماً به لأن نواياه كانت سيئه لما تجاهلنا وفضل الذهاب مع أحد بني جلدته وكنت أتوقع أن يختار مرافقتنا لأننا سبق أن زرنا هذه المنطقة وكان نصيبه من اللحم ما جعله يشكرنا وتركناه وهو يعض بنان الندم وأخذ درساً قاسياً ربما لا يقع في مثله مرة أخرى .

في ليلة تهب نسماؤها الباردة وعلى مائدة عامرة بأنواع المشروب منها ما هو مستخلص من عصير العنب ومنها ما هو مستخلص من البلح وأنواع أخرى وكان حولها محمود والطيب محمد علي ونجم الدين أبو طربوش وقد كنت رابعهم ولحم الجاموس المشوي يأخذ مكانه من المائدة وتلاعبت الأهواء وسكتت الأصوات إلا من رنين الكؤوس وفعلت فعلها في الرؤوس وأنا أنظر واضحك من بعض تصرفاتهم لأنني لم أنق طعمها في حياتي وإذا بالطيب يقترح أن نقوم برحلة صيد إلى نهر سوى نقضي على شواطئه بعض الأيام واختمرت الفكرة ووجدت تجاوباً وتأييداً وأتفق الرأي على أن يقوم الطيب بقيادة العربية اللاندروفر لما كان الطريق طويلاً أمامنا والشارع معبداً ويقوم بتعبيده وإصلاحه طائفة من العمال الذين يقيمون على أطرافه في شكل معسكرات وعلى رأسهم شيخ ، والعربية تسير بأعلى سرعة لها ونحن مشغولون في حديثنا كلمة من هنا وكلمة من هنا حتى وصلت العربية إلى منعطف في الطريق فإذا بعربة أخرى تأتي من الطريق المضاد وتسير بسرعة فائقة وتواجهت العربتان فإذا بالطيب ينحرف نحو الشمال في زاوية حادة ليتقادي

التصادم ولكن وجد نفسه أمام حفرة على عمق أربعة أمتار وعلى طول عشرة أمتار حفرت بواسطة عمال الشارع ليأخذوا ترابها لردم الطريق وفي قوة ضغط على الفرملة وأمسك بفرملة اليد ووقعت العربى عل حافة الهاوية ولم يبق بينهما إلا نحو اثنين سننيمتر فقال الطيب مسرعاً أنزلوا لو رفعت رجلى من الفرملة أو حركة فرملة اليد ستتدحرج العربى إلى الهاوية أنزلوا وأتركوني وحدي ونزلنا وأمسكنا بصندوق العربى من الناحية الثانية لنعيد إلى العربى توازنها فاستطاع أن يعيد سيطرته عليها وخرج بها من هذا المأزق وعادت العربى الأخرى بمن فيها من ركاب ووجدوا الموقف سليماً لم يصدقوا ما رأوه وبعد تبادل عبارات التهاني بالسلامة صرحوا بأن مجيئهم كان بغرض نقل الجثث والمصابين فمنهم من يقول نرجع بهم إلى لبرنقو وآخر يقول أحسن نقلهم إلى سرسيو حيث المستشفى الكبير ليسعف من كان حياً أما واحد منا أصر على نقلهم إلى مريدي حيث يوارون الثرى مع نوبهم واثنوا على الطيب ومهارته فى القيادة ولولا ذلك لتردت العربى فى الهاوية لم ينج منكم أحد وكان لنا أن نصل إلى مدينة طمبرة أولاً ثم نأخذ طريقنا نحو سوى لم تبق بالمدينة أكثر من نصف ساعة وكانت كافية لمقابلة التجار وشددنا الرحال نحو سوى وهو نهر جارى وقادنا الطريق إلى الاستراحة التى بناها السادة الإنجليز على شاطئ النهر وهى مبنية من الطين وسقفها من القش وبها نملية قائمة على جنبين تفك ليلاً والذباب نهراً نظيفة وعليها حارس وبيده دفتراً وقلماً ليسجل عليه الزائر اسمه كاملاً وهو يقوم بخدمتك فى كل ما تحتاج إليه من دجاج أو بيض أو سمك ويمدك بالحطب وإشعال النار وماء الحمام كل ذلك نظير خمسة قروش عن كل ليلة وفاتني هنا أن أذكر السيد سليمان شمس أطل الله عمره كان قمندان بوليس يامبيو وكان من الرجال الأفذاذ فى أخلاقه ومعاملاته لا تشعر أبداً أنت أمام موظف أو قمندان بوليس متواضع للحد البعيد وطني يضحى بأى شئ إذا تعارض مع وظيفته محبوباً من جنوده ومن جميع طبقات الشعب كان يسند إليه وظيفة ضابط مباحث فى القضايا الغامضة وبمهارته يستطيع إظهار الحقائق وهذا قليل من كثير

فقضينا ليلتنا في منزله وكانت تربطه بمحمود والطيب صداقات قوية في الصباح سلمنا خطاب لأحد السلاطين هناك وبوصولنا سلمناه الرسالة وأعطانا بعضاً من أهله ليرافقونا ويقوموا على خدماتنا وقضينا ليلتنا بالاستراحة والنسمات الباردة تأتي من كل اتجاه وصوت خرير الماء المنساب بين الصخور وتكسر الأمواج على الصخور في صوت هادئ والنوم يداعب عينيك تعطيك متعة خاصة وإحساس بالنشوة وأصبح الصبح فأخذنا أسلحتنا أنا ومحمود وتركنا الطيب ونجم الدين بالاستراحة وكنا نتسلق الجبال تارة ونسير على سفوحها تارة أخرى فلم يصادفنا فيها شيء من الصيد وقد انتصف النهار وجلسنا تحت شجرة لناخذ قسطاً من الراحة وعلى مقربة من الجبل فإذا بجماعة من القردة كبيرة الأجسام تتواثب على الصخور القريبة وعلى مرأى منا وقف أمامنا أحد المرافقين وحيانا تحية عسكرية وبعد أن ضرب رجله على الأرض انتباه ووضع كفه فوق جبينه كأنه أمام رئيسه وقال يا أفندي اقتلوا لنا واحد منها وكان يجلس أحدها وكان كبير الجسم على صخرة عالية وهو يرسل ضحكات وقهقهة فتناول محمود بندقية المورس ورماه بطلقة فأصابه في رأسه فوق من على الصخرة والدم يتساقط من مكان الطلقة وجروا نحوه ففرحوا فرحاً شديداً وجاعوا به ووضعوه أمامنا لتصرف فيه فقال لهم محمود هذا لكم وللسلطان فازدادت فرحتهم صعدنا الجبل بعد أن تركوا أحدهم لحراسة القرد وفي منتصف الجبل دخلوا بنا في مغارة أو كهف من الكهوف فإذا نحن داخل صالون واسع يقوم على صخرة كالأعمدة في تنسيق جميل أرضه رملية بارد كأن به مكيف هواء وله فوهة على سطح الجبل مفتوحة ترسل الضوء داخل الصالون ووصلنا الفوهة فإذا بها مفتوحة على سطح الجبل وعلى ميدان واسع مستوي وعلى جانبيه أثر حفر صغيرة وكأنها مراحيك للغلal فسألناه عن سر تواجدها بهذه الكثرة وتزاحمها جنباً إلى جنب قالوا إن هذا المكان ملجأ لكل سكان هذه المنطقة يلجئون إليه أثناء الغارات التي تشنها العصابات بغرض السلب والنهب فيجتمعوا بهذا الجبل ويسكنوا أياماً حتى ينجلي الموقف وهذه الفتحة التي في أعلا السقف ينفذ إليها

الحراس عما يجري حول الجبل وسبب علوه يجعل الأرض تحته مكشوفة إلى أبعاد بعيدة وسط الجبال رجعنا للاستراحة ولم نجد أثر لحيوان وفي اليوم الثاني تتبعنا النهر ووجدنا حوله معسكرات عديدة على شاطئيه وهم يجمعون السمك بعد تقديده ولهم طريقتهم في صيد السمك وهي عبارة أقفاص مصنوعة من الخوص بطريقة فنية وهي من طبقتين واحدة داخل الأخرى توضع بين الصخور ويجري الماء من بينها فيدخل السمك في الطبقة الثانية وتتسع كلما ضغط السمك حتى يدخل ولا يستطيع الرجوع كما أن لهم نوع من الشباك صغيرة تثبت بين الصخور وتجد الواحد منهم يقفز من صخرة إلى أخرى ليراقب الشباك ويستخرج ما علق بها من سمك هكذا عمله ليل نهار مكثنا نحو ثلاثة أيام وقد سدنا ما علينا من أجرة الاستراحة وكتبنا ملاحظتنا عن الاستراحة والخفير ليقدمها للمفتش عندما يأتي المنطقة .

هذه أول رحلة نعتبر فاشلة مادياً غير إننا اكتسبنا متعة روحية ومعنوية لا تقدر بقيمة وتمتعنا بأكل السمك الذي كان يعمر مائدتنا في كل وجبة لأن نهر مريدي فقير من هذه الناحية وكان على أواخر أيام الاستعمار قد فكر في إقامة أحواض لتربية السمك على شاطئ نهر مريدي وفعلاً عمل أول تجارب له ونجحت غير أن الذين جاءوا من بعدهم لم يعطوا الأمر أهميته ونامت الفكرة ولم تجد من الاهتمام القدر الكافي .

السلطان على مدرجي يتعرض للاغتيال

السلطان على مدرجي هو أحد سلاطين المورو ورث هذه الوظيفة القيادية عن أبيه وكان مسلماً وقد ورث أبيه عقيدته الدينية كما ورث مكانته الاجتماعية كما كان في أخوه صالحاً اغتالته الخوراج في بيته وهو يؤدي عمله كسلطان في منطقة أخرى كما سبق أن بينا في غير هذا المكان أما على مدرجي لا يخفي إسلامه وقد أخذ الطريقة الأحمدية الإدريسية عن الأستاذ هاشم الإدريسي الذي التقى به وهو في طريقه من الخرطوم إلى جوبا وحفظ عنه أورادها ومن أوائل السلاطين في الإقليم

الاستوائيين الذين طلبوا المساجد وتزويدها بالأئمة والمدرسين لتعليم الأهالي مبادئ الدين الإسلامي وكان ذلك على أيام السيد علي بلدو عندما كان مديراً لهذا الإقليم وقد بنيت المساجد وبدأ بداية طيبة وقد بني له مسجداً بالقرب من منزله وقد جذب بعض الأهالي وكانوا يتعلمون المبادئ الإسلامية في عصر كل يوم حتى جاء التمرد الأخير بقيادة جون قرن وقد خرب كل هذه المساجد منها ما حوله إلى محل بيع الخمور البلدية رغم معارضة بعض السلاطين ومحاربة الكنائس لمثل هذه المؤسسات الدينية قد شهد التاريخ للكثير منها وفي مختلف الدول التي ارتدت بعد إسلامها كإسبانيا مثلاً وغيرها كثير . وهناك ملاحظة يجب الوقوف أمامها طويلاً وهي لماذا هذه الاغتيالات موجهة ضد المسلمين من السلاطين فهناك أصابع الاتهام تشير نحو مؤسسات خاصة لها ضلع في هذا التوجيه بغرض إضعاف الحركة الدينية التي بدأت تتشط من جديد والخوف الشديد من أن يدخل في قلوبهم وللسلطان علي مقررین أحدهما بين أهله وعشيرته وهو الرئيسي والآخر بالقرب من مركز مريدي يأوي إليه عندما يتطلب الأمر وجوده للعمل في حالات عقد الاجتماعات أو استمرار المحاكم لعدة أيام وفي أثناء تواجده في هذا المقر هجم عليه الخوارج ليلاً وأشعلوا النار في القطية التي هو بداخلها فلما انتشر الضوء وملأ الساحة فتح باب القطية وانهاهال عليه الرصاص وقد أدرك حقيقة الأمر وما هو فيه من خطر فوضع نفسه في الظلام وعلى الباب بحيث يرى ولا يرى وبدأ إطلاق النار من الجانبين وكان يحني ظهره ليرى تحركاتهم على ضوء النار لقصر باب القطية فإذا برصاصة تصيبه فوق كتفه وتسير بين الجلد الخارجي واللحم حتى استقرت في آخر السلسلة الفقرية دون أن تمسها فلم يلقى لها بالاً وصمد مكانه وهو يرقب تحركاتهم فتربص به أحد الخوارج وباغته من الخلف وهو يدب دبيباً ولما كانت فوهة البندقية خارج الباب وقد غمرها الضوء فإذا به يقبض عليها بكلتا يديه وينتزعها منه فوثب عليه من داخل القطية التي لا زالت تعمل فيها النار ليمسك به فوقعت يده على بندقية كان يحملها المتمرد فجذبها منه فوجدها بندقية خرطوش

ويتخرج الموقف هو يملك بندقية بدون ذخيرة وهم بيدهم بندقية بدون ذخيرة وأصبح بين نارين وكلاهما الموت المحقق فان بقى داخل القطيه مات محترقاً وان خرج مات أما بحراب أو من سلاح ناري آخر وبينما هو يفكر في أحد الأمرين فإذا بالفرج يأتيه ترسله العناية الإلهية وتظهر أنوار عربات الجيش وهي تحمل النجدة بعد أن سمعوا دوي الرصاص الذي شق سكون الليل وفر الخوارج وأخلوا الساحة لما شعروا بنور العربات تتجه نحوهم وصل الجيش وأنفذ الموقف ووجد ثلاثة من الخوارج قد لقوا مصرعهم ونقل السلطان إلى المستشفى حيث أجريت له عملية سريعة لاستخراج الرصاصة من ظهره ولما كانت منطقة السوق قريبة من مكان الحادث استيقظوا من نومهم على صوت إطلاق النار وقد أمسك كل تاجر بسلاحه ووقفوا صفاً في اتجاه الصوت استعداداً للطوارئ وأصبح الصباح وانتشر الخبر وقمنا نسير نحو داره لنرى الحاصل دون أن نعلم أنه نقل إلى المستشفى وفي الطريق تبين لنا ذلك وعرجنا نحو المستشفى ووجدناه بحالة جيدة ورجع البعض إلى السوق أما أنا فذهبت إلى الدار مباشرة وتفقدت مكان المعركة ومكان جلوسهم وأخذت التقط بعض الظروف الفارغة لمعرفة نوع السلاح الذي كان يستعمله الخوارج فوجدت منها ظروف من عيار 303 عيار سلاح الحكومة والبعض خرطوش عادة وفي أثناء تجولي بين حديقة المنزل وجدت نقاط من الدم فتتبعتها حتى قادتني إلى شخص يلقي مصرعه بين شجرة موز وشجرة برتقال فناديت بعض أفراد أسرته وأشرت إليه والدم حوله لم يجف بعد وهو جثه هامدة وكنت أزور السلطان علي في المستشفى كثيراً مع بقية التجار إلى أن تم شفاؤه وكانت تربطني به صداقه مركزها الغاية وسببها الجاموس .

الصاعقة تهشم الشجرة التي نحن تحتها

للمرة الثانية نشد الرحال نحو برقو والتي سبق أن زرتها في رحلة سابقة وكان موقعها الطبيعي الغني بالأشجار الباسقة وخضرتها الياقة ومياها العذبة تجعل ذكرها عالقة بالأذهان وكانت غاباتها غنية بالأفيال لموقعها بالقرب من زائير ويسكنها قبيلة البنقو وهم يتكلمون لغة قريبة الشبه بلغة الشلك كما أن هناك من يقول إنها بطن من بطون الشلك وهم قوم مسالمون يمتاز طبعهم بالهدوء والتسامح وقد يسأل سائل عن السبب الذي جرننا لقطع كل هذه الأميال وما ميزتها عن سائر القرى الأخرى أقول الأسباب كثيرة التي بموجبها اخترنا برقو منها موقعها بالقرب من حدود زائير وانفتاح الطريق بينهما مما جعل رحلة الأفيال آمنة ومطمئنة وقلة رواد المنطقة لصيد لهذا الحيوان وتكاثر النوع الكبير منها وتجد حمايتها وسط الأشجار الكثيفة ومرعاها وبسبب وعورة المسالك والأحراش والخيران وجبالها الحمراء التي تتخللها خضرة الأشجار فالذي يقصدها لا يقصدها بغرض صيد الفيل فحسب بل للمتعة النفسية التي يشعر بها الإنسان ولا يجدها إلا من أعطي ذوقاً سليماً وشعوراً رقيقاً تجد أن الأجانب يشدون الرحال ويركبون الطائرات ويعبرون المحيطات للوصول للسودان ينشدون هذه المتعة التي يجدونها في أنواع الحيوانات التي تملأ الغابات وهي حرة طليقة بين هذه الطبيعة الجميلة ولا يوزنونها بميزان كم كلفت وكم أتعبت فهي فوق كل ذلك فما بالنا نحن الذين حباننا الله بهذه النعمة والمتعة ونحن نحرم أنفسنا وهي في متناول اليد وننظر لها دائماً من منظار ضيق وهي من الناحية المادية والمادة في حياة الإنسان ليست هي كل شيء ولما كانت الرحلة طويلة ولا تخلو من مشاق وفي أرض تختلف طبيعتها عن مريدي فرأينا أنا ومحمود أن نقوم وحدنا ونترك العمال ما دام يمكن الاستفادة من العمال المحليين إذا أصبنا شيئاً وصلنا يامبيو ونزلنا ضيوفاً على السيد إبراهيم أحمد رحمة الله عليه وهو غني عن التعريف بعد أن زودنا ببعض المعلومات وأخذنا طريقنا وبعد أن بارحنا أنزارا وتركنا أزو خلفنا أخذنا طريقاً جانبياً متجهاً نحو الشرق وعلى بعد خمسة عشر ميلاً تقريباً وقفت العربية أمام دكاني عبد الله ونوح ووجدتهما كسابق

عهدي بهما وقابلونا ببشاشتهم المعهودة وضمرونا بكرمهم وأفردوا لنا مكاناً خاصاً لراحتنا الكاملة طلبنا منهم أن يزودونا بخبير نو إمام بالغابة وكان النهار يمر بطيئاً ونحن نشأتاق إلى دخول الغابة وتم اختيار الخبير وعرضنا عليه أن يأتينا في الصباح وجاء الخبير وقد ارتدينا لباس الغابة بنطلون طويل من الكاكي وقميص منه يحتوي على أربعة جيوب بزرابير لوضع الذخيرة وجرابات صوف طويلة وكبك وغطا للرأس من الصوف لها فتحه أمام العينين وتتدلى حتى تغطي العنق إلى الصدر لتقي الإنسان من البرد ارتفعت الشمس قليلاً وتساقطت قطرات الندى من على الأغصان والحشائش وانفثع الضباب قليلاً الذي يحجب ضوء الشمس تقدمنا الخبير ونحن نسير نحو الغابة نلتمس الفيل مظانه ومحلات تواجدته فيدخل بنا بين أشجار كثيفة متشابكة الفروع والأغصان ولم نجد بداً من الحبو على الركب ولا وجود لضوء الشمس ظلال متصلة وكنا من باب الحيلة نحمل معنا صباغات من الطباشير الأبيض لنصبغ به الضبانة من البنديقية من اسود إلى ابيض ليسهل رؤيتها تحت هذه الظلمة أما كيس الرمل فهو رفيقنا في كل رحلة لم يتخلى عنا ولم نتخل عنه لأنه عدتنا في اختيار اتجاه الريح وبين هذه الأشجار ظهر أمامنا ميدان خفيف الأشجار وعلى جانب منه يجري نهر صغير يفيض في زمن الخريف حتى تغطي مياهه هذا الميدان مما يساعد على نمو نوع من القصب من فصيلة البوص أجوف البطن ذا قشره صلبة تحدث فرقة إذا ما وضع الإنسان قدمه عليها وتكسرت وتحت شجرة طويلة تقف ثلاث أفيال وعلى مسافة مائة من الأمتار فكيف التقدّم قليلاً نحوها وهذا القصب يقف في طريقنا والأفيال حادة السمع والشم غير أنها قصيرة النظر وأقل فرقة من هذا النبات سيلفت نظرها وتهرب ولما لم نجد وسيلة لتفادي هذه القصة ولو أردنا تغيير الاتجاه فالريح تشكل عقبة أخرى وقفنا قليلاً للتشاور فاستقر الرأي على أن نطلق عليها النار من مكاننا هذا والمسافة ليست ببعيدة بعد أن نختار أحد الثلاثة نرميه بطلقتين وكانت اثنتين منها متساوية من ناحية الجسم وحجم السن وقد اخترت أحدها غير أن محمود اختار الآخر فانقدت لرأيه

واختياره وأطلقنا عليه النار فسقط على الأرض واتجهت الاثنان نحونا تجري نحونا فأطلقنا النار في الهواء بغرض التخويف فغيرت اتجاهها وتقدمنا نحو المصاب فإذا به يعبر النهر ولم نجد صعوبة في عبور النهر حيث كانت بالقرب منا شجرة طويلة قد جرفها تيار النهر مما جعل منها جسراً يصل بين الجانبين فعبرنا النهر فوقها ومشينا حيث يرقد الفيل ولما كنا على مقربة منه شعرنا بأنه لا زال به بقية من روح فبادره محمود بطلقة على أم رأسه فارتعش هذا الجسم الهائل ثم سكن ووجدنا من سوء الطالع أن أحد سنهيه مكسور منها قدر النصف غير أننا لم نصب بخيبة أمل لان السن الأخرى سليمة وكبيرة والجزء المتبقي من المكسورة لا بأس به وبعد خمسة أيام بعد أن نجحنا في مهمتنا بقي علينا تنفيذ وصية إبراهيم أحمد بأن نضرب له فيلاً إذا صادفنا حتى يلحق بنا بعد أسبوع وكنا نرى أن من حقه علينا أن ننفذ وصيته لأنه صديق ورجل ذو مروءة وكرم دخلنا الغابة من جديد يتقدمنا الخبير وكلما سمعنا حركة أفيال وجدناها صغيرة لا تستحق فتتحاشاها وإذا بالقدر يرمي في طريقنا فيلاً كبير الجسم طويل السن داخل شجرة ملتفة الأغصان وكأنها عرين الأسد يقابلنا بوجهه فرميته بطلقة عند بداية الخرطوم مما يلي الرأس وهذا المكان يعتبر مقتل لقربه من مكان المخ ويسمونه العرب (الكبايه) فوقع على الأرض ثم هب قائماً وجرى قبل أن أتمكن من رميه بأخرى لان البندقية ذات ماسورتين من عيار كبير وأخذ يجري والدم يسيل غزيراً ونحن نسير على أثر الدم والدم يزداد أثره على الأرض مما يمني النفس بأنه سيقع قريباً ويزداد نشاطنا ونحن نقف الأثر دون الشعور بالتعب إلى أن شعرنا بأن الشمس قد أدركها المغيب مما يجعل اقتفاء الأثر تحت هذه الظلمة غير ممكناً فاستحسننا المبيت على الأثر لنتبعه في الغد وكيف المبيت ونحن في حالة جوع شديد فاستسلمنا للواقع وافترشنا الأرض وأضرمت النار لنجد من ضوءها الرطوبة والبرد وتعطينا قليلاً من الدف فما مست أجفاننا منة من النوم حتى بدأ الجو في التغير والسحب تتراكم والبروق تتوامض واسود الأفق وبدأ المطر في النزول وكأنه أفواه القرب وما زجر رعد من ناحية إلا تجاوب معه

آخر من الجهة الأخرى وابتلت ملابسنا وسرى البرد أوصالنا والنار التي كانت تشتعل قد أصبحت في خبر كان بفعل الماء المنهمر ولا واقعاً لنا من ضربات المطر إلا جذع شجرة نقف تحتها ونسند ظهورنا عليها وهي طويلة الساق ذات فروع وأغصان قليلة على رأسها تعطي منظر النخلة غير أن ساقها أرق وقد خيم علينا السكون فإذا بالبرق يضيء الأفق ويجعل من ظلمة الليل نهراً ساطعاً أعقبه صوت صاعقة تصم الآذان وتزلزل الأرض تحت أقدامنا والشجرة التي نسند ظهورنا عليها تتلوى وتهتز ونسمع منها صرير وخشخشة وكأنها أفعى تسعى فابتعدنا عنها قليلاً وبدأ هطول المطر يخف تدريجياً حتى توقفت وقمنا بمحاولة لإشعال النار من زناد كنا نحمله لأن الكبريت لا يعمل هناك لشدة الرطوبة. وبعد جهد جهيد استطعنا أن نتغلب على الطبيعة بما أصاب الحطب والأعشاب من بلل حتى المناديل التي كنا نحملها أبت أن تعمل فيها النار ولكن وجدنا في فروع الأبنوس خير معين لأنها صماء ولا مسام فيها لتمتص الماء وجلسنا حول النار حتى جاء النهار وكننتيجة لهطول الأمطار قد انمحي أثر الدم المتبوع وتبخر الحلم الذي كان يراودنا ووجدنا الشجرة قد تشققت من أعلاها إلى أسفلها وكأنها ثوب مبتل أحكم لفه ليتساقط منه الماء وأصبحت هامدة وانكمشت أوراقها من وقع الصاعقة عليها واتجهنا نحو الأماكن المأهولة ودخلنا دار رجل كبير السن وله بنات وجلسنا تحت ظل مظلة ونحن نغلب الجوع والتعب جاعتنا المرأة وهي تحمل صحناً عليه كمية الموز الكبير الحجم يطلق عليه سن الفيل لكبر حجمه غير أنه أقل حلاوة من الأنواع الأخرى وبعد أن أخذنا قسطاً من الراحة شكرناهم وأخذنا طريقنا نحو برقو ووجدنا إبراهيم أحمد وصل وكانوا قلقين عندما سمعوا إننا ذهبنا على اثر الفيل المصاب ولولا المطر لعثرنا عليه .

تهيأنا في اليوم الثاني بعد أن غيرنا الاتجاه نزولاً على رغبة الأهالي وسرنا وسط الحشائش العالية التي لم تمتد إليها يد النيران فإذا بحركة تصدر من جانب من وسط غابتها فتبين لنا انه قطيع من الأفيال تسير وسط هذه الحشائش فتصديت لواحد

يمشي على طرف من القطيع فرميته بطلقة فجرى خلف السرب وتبعنا السرب ولما كان السرب كبير الحجم أضاع منا أثر الدم ونحن نسير خلفه وكلما طالعنا حركة نظن إنها صادرة من الفيل المضروب إلى أن دخلنا حدود زائير من غير قصد فسمعنا حركة أفيال ترعى قلت لمحمود وإبراهيم أقيما هاهنا حتى أنظر في أمرها حتى إذا لاحت لنا فرصة وجود فيل كبير سأرجع لكم لنرميه رمية رجل واحد لنقضي عليه وتقدمت نحو الصوت فكانت الأشجار متشابكة الأغصان وخلصت منها فإذا بي أمام فيل أنثى يتبعها فصيلها وعلى بعد عشرة أمتار تقريباً فشخصت عيناها وجحظت حتى كادت تخرج من محاجرها ورفعت أذنيها وقد شعرت بعملها هذا بأنها ستهاجمني لا محالة وكنت أمام أمرين لا ثالث لهما إما أن أقتلها وإما أن تقتلني فأثرت بأن آخذ بأخف الضررين فأصبتها في رأسها لم يغب عني أن عقوبة قتل أنثى الفيل الغرامة أو السجن أو الاتنين معاً مع مصادرة السلاح وسقطت على الأرض ووجدت الفرصة سانحة لانسحب من موقعها وأبتعد قليلاً، تفادياً للخطر ورجعت إلى رفاقي وقلت (شيلو شيلتكم لقد ضربت فيل أنثى لما لم أجد بد من الخلاص منها) وجئنا لنراها إن كانت قد ماتت حقيقة وكنا نتمنى ألا يكون ذلك تفادياً للمسؤولية ولما رأتنا مقبلين نحوها وثبت قائمة فأطلقوا النار عليها دفعة واحدة فسقطت وفارقت الحياة ونجا فصيلها وعلى أثر صوت الذخيرة تجمع حولنا بعض الأهالي والأفيال تتصارخ وتجري هنا وهناك وتتعرش في بعضها وهي في حالة خوف وفزع وأمرنا الأهالي بالابتعاد عنها حتى يجيء رجال وقاية الحيوانات وكان بيته بعيداً عن هذا المكان وداخل حدود السودان وجدناه في بيته وشرحنا له الموقف وجاء معنا لمكان الحادث ووجد أثر موقع قدمي من مكان إطلاق النار ومكان مصرعها وأخرج شريط متر وقاس المسافة فوجدها أقل من عشرة أمتار بقليل وكان الأهالي ينتظرون منا أمراً عما يفعلوه باللحمة فقلنا لهم نحن لسنا بأصحاب حق بل الحق في يد هذا الرجل وأصدر أمره بتقسيم اللحم على الأهالي ويحتفظوا له بحقه بعد أن أمر عليهم أحد أقاربه ثم اقتادنا نحو نقطة البوليس في

برقو وفتح بلاغ ضدنا أنا ومحمود وقد أشرنا على إبراهيم احمد أن يأخذ طريقة ليامبيو ولو أشرنا إلى إبراهيم احمد بأنه الضارب وصاحب الرخصة لاعتبروه عمل الجريمة وهرب وهذه قضية أخرى فتحملنا التبعة أمام البوليس وقد كتب في تقريره بعد أن ثبت على الأرض بعض الأوتاد الخشبية على آثار الجريمة وبوصولنا برقو وجدنا إبراهيم اخذ طريقه ليامبيو حيث كان قد تورمت رجلاه بسبب الحشائش ولإنقاذ الموقف وأصبحنا أنا ومحمود مقبوض علينا وبعد قليل جاءت عربة لوري في طريقها إلى يامبيو وركبنا العربة تحت حراسة أحد البوليس وصلناها بعد الساعة الثامنة مساء ذهب اللوري مباشرة إلى نقطة البوليس ووضعنا في الحراسة أمام الحارس وقد كلفنا السائق بأن يبحث عن إبراهيم أحمد ويعلمه بالخبر وبعد قليل جاء إبراهيم أحمد يرافقه مفتش المركز وضابط البوليس وهم يضحكون فقال وهو يخاطب مفتش المركز أن بوليس برقو أخطأ في تصرفه هذا لأنهم لا صله لهم بالحادث أنا صاحب الرخصة وأنا الضارب وفتحت في مركز البوليس بلاغ باني أنا الضارب فما ذنب هؤلاء وأمر المفتش بإخلاء سبيلنا بكفالة مالية ليوم غد الساعة التاسعة صباحاً وفي الوقت المحدد عرضت القضية أمام نفس مفتش المركز وبحضور ضابط البوليس كممثل اتهام وبعد الاستجواب اللازم لإبراهيم أحمد كمتهم ونحن كشهود لصالح إبراهيم شطبت القضية واعتبرها القاضي دفاع عن النفس وأرسلت أوراق القضية لمدير الثروة الحيوانية مع السن للنظر في أمر السن وكان السيد محمود أبو سنينة مديراً للثروة الحيوانية بجوبا فأيد الحكم مع مصادرة السن لصالح الحكومة .

ناباتقا وحمامة السلام

ناباتقا تقع في الجنوب الغربي من مركز مريدي ولها موقعها الاستراتيجي لموقعها الحدودي بين زائر والسودان وكل سكانها من قبيلة الزاندي وهي من المناطق التي شطرها الاستعمار وفصل بين أبناء العمومة الواحدة وجعل طائفة منهم تابعة للكنغو البلجيكي والأخرى تابعة لحكومة السودان كما بينا سابقاً ويمتهنون الزراعة والصيد علاوة على اهتمامهم الخاص بتربية النحل إن لم تكن هذه التربية بطريقة علمية مدروسة لكنهم يقومون بتهيئة الجو المناسب لتوالد النحل بعمل حظائر من لحاء الشجر في طول متر أو أكثر ثم يغطي طرفها من نفس اللحاء وله ثقب يمكن ذبابة النحل من الدخول والخروج في سهولة تامة وتمسح باطنها بقليل من العسل رائحته الذبابة فيدخلها بعد أن تعلق على رؤوس الأشجار وتثبت بين الأغصان ولذلك كانت تمتد سوق مريدي بأجود أنواع العسل وكدت على وشك السفر في إجازتي السنوية فلا بد من شيء من العسل وكمية من البن على قدر فترة الإجازة وكان بها أربعة من التجار الشماليين ونقطة بوليس برئاسة أمباشي كما أن بها فرقة من الجيش تحت قيادة ضابط برتبة يوزباشي مهمتهما حراسة الحدود والمحافظة على الأمن فكان الكونغو في حالة فوضى بسبب الحرب الأهلية الدائرة هناك بعد موت الزعيم بترس لوممبا وكان كل الثوار الموالين للرئيس لوممبا يعسكرون على الحدود السودانية وهم يكونون للسودان ولشعبه العداء ويعتبرون أن السودان بتخاذله أو تباطئه مع جهات أجنبية كانت لها أثرها الفعال في عدم خلاصه من معتقله وإنقاذ حياته كان هذا هو الاعتقاد السائد بين جميع الثوار وهم يرون أنفسهم بين حربيين حرب معلنة بينهم وبين جنوب الكونغو وأخرى غير معلنة وهي بينهم وبين السودان وكان دخولهم للسودان بطريقة فردية ليجدوا ما يحتاجون إليه كالدواء وأنواع الأقمشة وكان يأوون إلى أحد التجار اسمه عبد الله الفكي يتكلم لغة الزاندي كأحد أبناءها وكان يجيدها كتابة بأحرفها اللاتينية وكثيراً ما تصله خطابات منهم بواسطة نساء منهم وهن يدخلن خلصة ويخرجن خلصة دون أن

تعلم سلطات الجيش أو البوليس ومثلهم في ذلك مثل من قال :-

ومن نكد الدنيا على المرء أن يرى عدواً ما من صداقته بد
كنت أجلس أمام متجر عبد الله الفكي دائماً لما تربطني به من علاقة القرى
وفي ذات يوم وقف أمامه شاب على دراجة وتصافحا وطالت المحادثات بينهما بلغة
الزائدي وأنا أستمع إلى حديثهم كأنه لغة الطير لا أفهم منها شيئاً وأخيراً التفت إلى
عبد الله وقال هذا الشاب من ثوار الكنغو المرابطين على الحدود في معسكرات
كبيرة وكثيراً ما يعتمدون عليّ في قضاء احتياجاتهم وكثيراً ما اقترحت عليهم
دخول نابانقا بطريقة علنية وسوف لا تجدون معارضة من جهة السلطات لكنهم
رفضوا والشاب يقف أمامنا صامتاً فقلت لعبد الله قل له إذا وجدتم إذن من السلطات
هل انتم داخلون فرد قائلاً هذا موضوع لا أستطيع البت فيه إلا بعد أن أعرضه
على القادة هناك قلت لعبد الله أكتب له خطاباً بهذا المعنى وننتظر الرد . غداً حمل
الخطاب وجاء الرد بالموافقة وتوجهت فوراً إلى قائد الحامية وشرحت له الموقف
وما سيحملونه معهم من بن وسن الفيل ومصنوعاتها الأخرى وأشياء كثيرة ستعود
بالفائدة علينا جميعاً فوافق بشرط واحد على ألا يدخلوا المدينة بأسلحة بعد أن
وجدت الموافقة من قائد الحامية أن آخذ رأي البوليس فعرضت عليهم الفكرة
ووافقوا بعد يومين جاءت عربة صغيرة تحمل أربعة من الثوار من ذوي الرتب
المتوسطة كطليعة وقفت العربة أمام دكان عبد الله . وكان في الطرف الجنوبي من
السوق وقابلناهم مقابلة جميلة وأكرمنا وفادتهم بعد ذلك ذهبنا سوياً إلى نقطة
البوليس الذين رحبوا بهم بدورهم كما لقوا نفس الترحيب من قائد الحامية وذهبنا
جميعاً إلى السوق وكان لحسن الصدف أن أحد التجار يضع صورة للزعيم لوممبا
على واجهة الدكان فلفت نظر عبد الله قلت له قل لهم إن الشعب السوداني يكن كل
الاحترام للزعيم لوممبا وكان من امتنانه أن يعيش لوممبا ليحرر الشعب الكونغولي
من دول الاستعمار وأكبر دليل على صدق ما قلته هذه صورة الزعيم تضعها على
واجهة المتجر كذكرى لهذا الوطني الغيور والمناضل وفقده ليس خسارة على شعب

الكونغو فحسب بل هو فقد القارة الأفريقية كلها حيث كانت تنتظر على يده الشيء الكثير ولما رأوا الصورة جثوا على ركبهم أمام الصورة ودخلوا في صلاة من أجله ثم قاموا خاشعين قال بعضهم ما كنا نعتقد أن في السودان من يعرف هذا الزعيم حقه وإنما نعتقد خطأ أن للسودان ضلع في موت هذا الرجل العظيم والآن وبعد أن علمنا ما يكنه الشعب السوداني من حب لثورة الكونغو بقي علينا من جانبنا أن نزيل كل الرواسب التي علقّت في نفوس الثوار وسوف تتحسن العلاقات في القريب العاجل وفي الغد سيدخل المدينة عدداً من الثوار وهم يحملون الكثير من السلع وفي الغد جاءت عربة لوري محملة بالبن وبهذا فتحت التجارة بين الشعبين واشترينا الكثير من سن الفيل المصنعة والخام ونشطت التجارة وكان التعامل بالعملتين ولكن بـتحفظ ولما كانت الأمانة تقتضي إعطاء كل ذي حق حقه ولا نبخس الناس أشياءهم فإن ما قام به الأخ عبد الله الفكي من دور يمثل حمامة السلام وفي يده غصن الزيتون يلوح به لإصلاح ذات البين وإزالة الرواسب ما بين الثوار الكونغوليين والشعب السوداني دون أن يقول له أحد وليس أقل من الدور الذي قام به الدكتور عثمان أبو عكر في خدمة القضية اليوغندية وبذل من ماله الخاص ما بذل لا ينتظر من وراء ذلك جزاءً ولا شكوراً وكان الغرض أسمى بكثير وأقيم هو تحرير الشعوب من ربة الاستعمار وتسلط الإنسان على أخيه الإنسان وسعيه الدؤوب على إذلاله واحتقاره لهما رسلا سلام لكل هذا المفهوم وكانا يعملان في هذا الظلام ولم يجدوا حتى الآن من يسلط عليهما الأضواء الكاشفة ليظهروا أمام الشعوب كرسلا سلام وتكتب اسميهما في سجل العظماء الذين ساهموا في استتباب الأمن وإزالة الجفوة بين الشعوب المتجاورة والعيش بسلام فلهم مني ومن عرف لهم هذا الجميل المقدر آلاف التحايا وعلى الله حسن الجزاء .

المنجم والكهف المهجور

في ليلة صافي السماء إلا من بعض السحب المتفرقة والجو معتدل يميل إلى البرودة كلما مضت ساعة من الليل كنا نجلس أنا ومحمود في فناء الدار وأمانا

جهاز الراديو نوجهه للاستماع للإذاعات الخارجية مرة ونعيد ذكريات أيام مضت وتقادم عليها العهد ولم يتطرق إليها النسيان وقف بجانبنا تاجراً يونانياً مؤجراً لأحد دكاكين محمود وقد جاء لتوه من مدينة جوبا جلس بيننا قليلاً ثم استأذنتني بأنه يريد التحدث مع محمود منفرداً فأذنت وقاما ومشيا قليلاً ثم وقفا مدة طويلة تقرب من ساعة كاملة عاد بعدها محمود إلى حيث نجلس وانصرف الخواجة فسألته هل هناك حدث غريب فقال نعم قلت أي سر هذا الذي اختصك به قال هو سر وغير سر قال إن الخواجة عندما كان بجوبا وهو يتعشى مع الخواجة كوستى يمانز أحد التجار البارزين في مدينة جوبا من أصل يوناني سأله إن كان يعلم أو يسمع عن مكان منجم للذهب يستغله أحد البريطانيين مع بعض الأعوان من أجناس أخرى ومن المشاع انه في ضاحية من ضواحي مريدي ولما كنت حديث عهد بمريدي لم استطع الجواب عليه ووعدته أنني سأتيه بالحقيقة في أسرع فرصة ممكنة وسأتصل ببعض التجار الذين لهم معرفة بتاريخ هذه المنطقة ولم أجد من بين التجار أعرف منك وبتقتي فيك وقاطعته قائلاً وبماذا وعدته أجاب وعدته بأنني سأبذل قصارى جهدي وأتيه بالنتيجة لأنني أنا شخصياً لم أسمع بشيء من هذا القبيل فضحكت وقلت معقّباً تبذل قصارى جهذك في هذا الموضوع ليستغله لمصلحته وهو الأجنبي الذي مصر دم هذا الشعب منذ أكثر من أربعين سنة حتى وصل إلى هذا الثراء الفاحش أما كفاه ذلك حتى يسخرنا لخدمته ويقعد على القناطر المقنطرة من الذهب والفضة على حسابنا وينظر لنا من عل وكأننا خدماً له هذا الخواجة المتغطرس الذي عمل مع الاستعمار فان فعلت هذا تكون ارتكبت أكبر حماقة في التاريخ وما الذي يمنع أن بحثنا عنه لنستغله لمصلحتنا ونحن أولى بثروات بلادنا من أن نقدمها هدية للأجانب قال أنت على حق وقد جال بخاطري كل ما ذكرت وما شرحت لك ذلك إلا لأخذ الرأي وبماذا تجيبني وأنا مقتنع من أول وهلة بأننا أولى منه .

مضى نحو أسبوع ومحمود يبحث عن الرجال الذين عاصروا ذلك العهد وأخيراً شاروا عليه بأن فلان يسكن أبا كان شاب يعمل معهم كساعي للبريد وأبا لا

تبعد أكثر من ستة وعشرين ميل أخذنا عربية وسألنا عن الرجل والتقينا به وسألناه أسئلة كثيرة تتعلق بالموضوع وقال هو لا يعرف طبيعة عمل هؤلاء الناس ولا يعرف شيء اسمه الذهب بل كنت أودي عملي كساعي على ظهر دراجة أحمل الرسائل من وإلى مريدي وهو لا زال يذكر مكان معسكرهم وقلنا له هل أنت مستعد لتذهب معنا إلى هناك قال لا مانع قلنا لا تتعيب وترقب مجيئنا وكن على استعداد عدنا ونحن نتكلم على الخبر مستترين تحت رحلة صيد اعتيادية ولكن حسين زيدان صديق لنا جميعاً ارتاب من تحركنا من أبا وإلى أبا على غير العادة وخامره الشك في أن تكون رحلة عادية لا بد أن في الأمر سر نخفيه فصارحناء بكل شيء فأصر على أن يرافقنا في هذه الرحلة ولأول مرة فجمعنا عدداً من العمال وعدداً من الصاجات وبعض الفؤوس وأخذنا طريقنا بعد أن مررنا بأبا وأخذنا الرجل وسلكت العربية طريقاً جانبياً وقطعنا مسافة تقدر بنحو مائة وخمسة وعشرون ميلاً أشار علينا بالوقوف وقفت العربية بعد أن أفرغت حمولتها حمل كل عامل حملاً وأمرنا السائق بالرجوع إلى مريدي ودخل بنا الغابة بين الجبال والأشجار وبين صخور زرقاء كالكل في شكل ملفت للنظر وسألت محمود قال إنها تحمل خام الحديد فيها ومن أجود الأنواع وكثيرة تغطي مساحات كبيرة هذا ما هو بادياً على ظهر الأرض أما الذي تحت طبقات الأرض لا شك انه أغنى بكثير يتواجد بكثرة وثقيلة الوزن مما يوحي بأن نسبة الحديد فيها كبيرة وكما هي لامعة تحت أشعة الشمس اعترضنا نهر جاري وعلى شاطئيه تقف الأشجار شامخة خضراء تغطي ماء النهر مما تكسب ماءه برودة وصفاء وعلى بعد أمتار يقوم جبل صغير وتحت قاعدته نفقاً محفوراً لا يزيد عن متر واحد وعرضه متر ونصف المتر تقريباً وحططنا الرحال بعد أن أشار إلينا الخبير بذلك كنا ننظر إلى هذا الأخدود الذي ترقد بداخله تلك الثروة العظيمة التي تنتظرنا وكم نالوا منها هؤلاء الأجانب انتهزوا بدائية السكان ونهبوا ثروتهم هذه علامات تدل دلالة واضحة بأنه مكان المنجم ، هذا الحفر الذي كلف الكثير من الأموال واستغرق الكثير من الوقت وموقعه من شاطئ

النهر لهي علامة تؤكد هذا المكان المعني وبعد فترة راحة قصيرة قمنا نتجول حول هذا الجبل وقد وجدنا حفريات أخرى في أماكن متعددة وعلى صخور صماء أشبه بالآبار غير أن الأمطار والسيول قد ردمت ما يقرب من نصفها مما تحمله من تراب وغطاء السيل وقد فتحت أمامنا مجالاً أوسع للتفكير هل هذه الحفريات عملت للتقريب وأخيراً وجدوا ضالتهم داخل هذا الجبل وركزوا على هذا الحفر حتى بلغ هذا المدى عدنا وجلسنا أما المدخل وقلت لصاحبي سأدخل هذا النفق وأنظر ما بداخله فرفض محمود وقال هل تعلم أن هذه الحفرة كم من السنين قد مرت عليها وهي مهجورة وهي تحمل في جوفها عدة مخاطر منها انعدام الأوكسجين أولاً وثانياً ربما تكون مأوى للأسود أو النمر أو الذئاب والحيات الأخرى كالأصلة والثعابين الكبيرة التي تحمل بين جنبها السم القاتل لهذه الأسباب مجتمعة أنا لا أسمح بدخولك أبداً ولو أدى الأمر إلى فشل الرحلة قلت يا محمود ألم يخطر على بالك قول أبو القاسم الشابي:-

ومن لا يحب صعود الجبال يعيش أبد الدهر بين الحفر

ومثل مصري يقول (ما فيش حلاوة من غير نار) ومثل ثالث (ان الشهد دونه ابر النحل) قال أعلم ذلك ولكن لسنا في حاجة لركوب مثل هذه المخاطر وقد فاتك قول المصري (أبعد عن الشر وغني له) وبعد أن فندت آراؤه الواحدة تلو الأخرى قلت له إن احتمال وجود حيوانات وحيات صحيح وفي سلاحه علاج ناجع لها ونور البطارية التي تحمل في جوفها خمسة حجارة تعطيني الضوء الكافي لتحيل ظلمة الكهف إلى نهار فالعقبة الوحيدة هي احتمال انعدام الأوكسجين وهذا لا يكون إلا على أبعاد بعيدة داخل الجبل وليس هناك ما يجبرنا إلى أن نصل إلى تلك الأعماق ولي رجاء واحد هو أن تسمحوا لي بالدخول لبعض الأمطار بغرض التعرف على طبيعة الحجارة ونوعها وسأنبئكم ببعضها للاختيار وبعد جدل استطعت أن انتزع الموافقة بشرط إن لا تزيد على خمسة أمتار وكان المدخل على ارتفاع متر واحد مما لا يسمح للإنسان بالمشي على قدميه إلا على الركبتين

فحشوت سلاحى بالذخيرة وأمسكت بالنور الكاشف وسميت الله ودخلت وما تقدمت قليلاً إلا سمعت محمود ينادي ارجع كفاية وأنا أقول أنا لا زلت أتأمل جدران الحائط ولم أبدا السير إلى الداخل وأنا أمشي يتقدمني النور الكاشف ومحمود ينادي وأنا أجيب حاضر خلاص سأبدأ في رحلة العودة وكنت قد قطعت نصف الطريق لأن النور الكاشف قد وصل نهايته وأصبح الكلام في مسمعه كأننا في أعماق البئر وقد أزعجهم هذا التماذي وعلى أثر الضوء المنبعث من النور أحدث بعض الحركة في آخر الحفر وأيقنت أن هناك كائناً حياً في آخر الحفرة واستعدت قول محمود وهل هذه الحركة صادرة من حيوان مفترس يقضي سحابة نهاره ويخرج ليلاً إذن إن الأوكسجين موجود وبدأت أفكر إن كان حيوان مفترس وأطلقت عليه النار فكيف يجد طريقة للخروج والمسافة لا تعدو وأن تكون متراً واحداً أو أزيد بقليل إذاً الحذر ، كما يجب التدقيق في الرماية لتكون الرمية قاتلة وتقدمت قليلاً والحركة تزداد ولما وصلت على بعد عشرة أمتار من مكان الحركة تبين لي إنها حركة الطوطاء يتطاير هنا وهناك فعدت أدراجي وكان طوله حوالي ثلاثين متراً وبدأت عبارات اللوم على فعلي هذا ووجدت أطراف هذه الحفرة من الصخور الهشة وتعطي لمعة عند تسليط الضوء عليها فقلت في نفسي هذا هو خام الذهب وما نسميه في العربية (بالتبر) أخذت فأساً وعدت إلى داخل الحفرة أهدم جدرانها وجئت بكمية منها وأخذ محمود وحسين بعملية تكسيرها وذهبوا إلى شاطئ النهر وأخذوا في تخليصها من الحجارة فجاءوا بكمية كبيرة منها ذات لون أصفر براق لكنه خفيف الوزن وأخيراً تبين لنا إنها (مايكة) قلت في نفسي هذه خطوة أولى ولا بد من البحث عن نوع آخر من الحجارة لنضعها تحت الاختبار وجئت بكمية أخرى ومن جهة أخرى فوجدنا إنها مادة (مايكة) أيضاً وأعدنا الاختبار مرات وكانت النتيجة واحدة فأصابتنا خيبة أمل وتبخر الحلم الذي كان يراودنا .

وما دمننا قد فشلنا في سعيينا وراء الذهب فلنطوعها إلى رحلة صيد وتركنا العمال على شاطئ النهر وسرنا مع الخبير وصلنا إلى أرض صخرية ذات نتوءات

حجرية وعلى جانبيها تتجمع أشجار غزيرة خضراء خرج علينا جاموساً وحيداً أزرق اللون كبير الجسم وقد تلطخ جسمه بالطين فزاده سواداً على سواده فاستوحشنا عندما رآنا أمامه ووقف قليلاً فلم أمهله حتى رميته بطلقة وأردفتها بأخرى خوفاً من أن يهاجمنا لقرب المسافة بيننا فكانت طلفتين متجاورتين قضين على حياته بعد أن سقط على الأرض والدم ينزف وكنا نحمل معنا آلة تصوير صغيرة أخذنا له عدة صور استمرت الرحلة نحو أسبوع وقد أصبنا عدداً من الجواميس غطت معنا تكاليف الرحلة .

عدنا إلى مريدي ولا زال شغلنا شاغل هو موقع المنجم أو قل الكنز المفقود ونحن لا نألو جهداً عن البحث وشعارنا هو قول حكماء العرب (لو تعلقت همة المرء بالثريا لنالها) بدأ النشاط من محمود من جديد وكثرت اتصالاته بالرجال المسنين وجاء لي في يوم من الأيام ليقول بأنه أمسك بطرف الخيط آخر ربما يقودنا إلى المكان الحقيقي لهذا المنجم وفي مكان آخر أفلتت العربية ونزلنا ضيوفاً على أحد التجار وقابلنا مفتش المركز وشرحنا له الموضوع وما جئنا من أجله وكان من أبناء السودان العاملين مثقف ثقافة عالية فأرسل عربته وجاءت بسلطان المنطقة وبعد بعض الاستفسارات قال كنت في ذلك العهد صغير السن وكان أبي هو السلطان وكانوا هؤلاء النفر يزورون أبي من وقت لآخر يحملون بعض الأكياس الصغيرة إلى أن يصلوا المركز وكان أبي لا يعلم محتويات هذه الأكياس ثقيلة كان بداخلها حجارة أو حديد وهذا المكان معروف عندي ويمكن أن أذهب معهم إلى هذا المكان . سألتنا عن سبب توقف العمل هناك وأين ذهب القائمون بالأمر قال كبيرهم مات بسبب جاموس هجم عليه بعد أن أصابه بطلقة بغرض توفر اللحم للعاملين معهم ولهذا السبب توقف العمل وقد عزمنا على زيارة المكان فاتفق الرأي على أن نتحصل على تصديق مبدئي فشكرناهم جميعاً وعدنا إلى مريدي وتقدمنا بطلب واستمرت المكاتبات بيننا وبين وزارة المعادن ووصل التصديق المبدئي وأن نعطيهم المساحة وربطها بمعلم ظاهر لا يتحزح كجبل مثلاً أو نهر جار أو ما

شابه ذلك ، وقبل أن تكتمل الإجراءات قام التمرد الأخير وازداد العنف وما كان ذلك بمشيئتنا عن عزمنا لولا أن السيد حسن محمد الأمين الذي كان قائد الحامية بمريدي في مجلس بعيد عن الرسميات حلف لو تحركتم شبر واحد بغرض دخول الغابة أو الخروج من منطقة مريدي لحددت إقامتكم بما لدي من سلطات وعلى أثر ذلك توقف نشاطنا في هذا المضمار نترك الأمر إلى الذين سيأتون من بعدنا لتكملة الإجراءات وإننا إذ نحفظ بهذا السر الذي أشرنا إليه بطريقة غامضة ولا نريد أن نقوم بتوضيح أكثر من ذلك لأن لنا الأمل في أن يسود الجنوب الأمن والاستقرار ونتابع بقية الإجراءات وإن لم نكن نحن بالذات فلمن يأتون بعدنا .

صالح وعزه

من الأشياء التي تسترعي اهتمام الزائر لمنطقة مريدي خاصة وكل جزء من مناطق الزاندي ويلفت نظره الأسماء العربية بين أوساط النساء كعزه وزلفى وستنا ونفيسة وحبيبة وكل أسماء النساء عربية خلافاً لما نسمعه بين الرجال فالأسماء العربية قليلة ولا شك أن انتشار هذه الأسماء له أسباب منها دخول العرب ومنذ أقدم العصور واختلاطهم ومشاركتهم السكنى في تلك الأماكن الوعرة التي تعتبر بحق من مجاهل أفريقيا وإذا سألت من هي عزة هذه لا يعدم من يجيبك بأنها زوجة صالح الذي كان نائباً لعربي دفع الله الذي فرض حكمه على هذه المنطقة لفترة طويلة ولا زال هناك جبل وسط الجبال الأخرى معروف بجبل صالح وله زوجة تمثل دور الملكة وقد أعد لسكناها بين غابات كثيفة وأخذت هذه الغابات شهرة عظيمة خصوصاً بين سكان منطقة مريدي وزاد من شهرتها وجود شجر البين المنتشر بين الغابات في مساحات واسعة ولما كانت النفوس ميالة بطبعها على معرفة كل غريب بدأ الشوق ينازعني لزيارة هذه المنطقة فعرضت الفكرة على الأخ محمود لما له من معرفة بتاريخ هذه المنطقة وسمع عنها الكثير فوجدت عنده نفس الرغبة.

كانت العربية تنهب الأرض نهباً عندما وجدت الطريق أمامها سهلاً معبداً لا نتوء

فيه ولا شروخ وهي تسابق الريح ويسابقها ، والسائق يبذل الكثير من الوقود ليزيد من سرعتها في جو غائم لطيف يميل إلى البرودة وأفكاري تسابقها لذلك المكان وأنا أمني النفس بتلك المتعة الروحية التي تنتظرني على سفح جبل صالح وفي أواسط غابات عزة متعة روحية من نوع آخر حيث نشاهد الآثار التي خلفها هذا البطل العظيم وهو يعسكر بجنوده وسط هذه الجبال وبين الغابات التي تملأ جوانبها كل أنواع الحيوانات المفترسة ونحرز قصب السبق وننال شرف الأولوية من بين التجار الذين سبقونا بعشرات السنين وكان بجانبني صديق الغابة ورفيق الرحلات الأخ محمود وهو يتغنى بالأشعار المناسبة كلما مر بغدير ماء أو مستنقع أو منظراً خلاباً فسقته يد الطبيعة وما أكثرها ونحن في شرود الذهن وتشبّيت الأفكار نعيد ذكريات الماضي البعيد ونتصور ذلك القائد العظيم الذي هجر وطنه وأهله يجوب كل هذه الفيافي ويخوض التيجان والمستنقعات متحملاً كل المتاعب في سبيل غايته ويختار هذا المكان ليكون مستقره ومأواه مع جنود من أجناس مختلفة أغلبها من المرتزقة وفجأة تقطع علينا تفكيرنا صوت ضربات خفيفة من على ظهر العربة ليقول قد وصلنا مشارف الجبل فلتقف العربة وترجع إلى مريدي أفرغا العربة من حمولتها من عمال ومتاع وحمل كل عامل ما يستطيع وتقدم الخبير القافلة ونحن من وراءه على حذر وأسلحتنا محشوة بالذخيرة تحسباً لأي طارئ وآثار الحيوانات تغطي الأرض تسير واذاننا صاغية وأحاسيسنا مرهفة ويسود السير صمت رهيب حتى وصلنا جبل صالح الذي يقع وسط جبال أخرى متناثرة حوله وكانت الساعة قد تجاوزت الواحدة ظهراً واخترنا موقعاً مناسباً لإقامتنا وقام العمال بعملية تنظيف المكان وإزالة الأعشاب تحت الأشجار الكثيفة استعداداً للمبيت وبعد أن أخذنا قسطاً من الراحة قمنا بجولة حول الجبل بحثاً عن القلعة التي يكون قد بناها هذا الرجل العظيم ليحمي نفسه وجيشه من غارة مفاجئة من عدو متربص طال البحث فلم نجد أثراً إلى تلك التكنات التي قضت عليها السنين المتعاقبة وعفت الأمطار علي كل اثر . لم نعثر علي قطعة من حديد ولا بقية لإناء من فخار فالمطر الغزير والسيول

المنحدرة من أعلى الجبال لم تترك أي أثراً حتى لقبور الموتى وقد عاودنا الأمل من جديد بعد هذا اليأس بأننا سنجد شئ ولو القليل في يوم غد عندما ندخل غابة عزة وحل سكنائها وهي في ابهتها وعظمتها وبين حشمها وخدمها أما قصرها المشيد من الحجارة والصور العظيم الذي يقوم حوله أو هكذا كنا نتخيله وبزغت شمس الغد وملاأت الأفق بأشعتها و أخذنا طريقنا وهي لا تبعد كثيراً وتقع من الناحية الجنوبية من جبل صالح وكان كل من حوله غابة كثيفة ظلماء إذا افرد الإنسان إصبعه لم يكدر يراه من شدة الظلمة وقد استوطنتها الحشرات والبراغيث والأفاعي والحيات الكبيرة أما الحيوانات الأخرى فتنتشر على أطراف الغابات . أما ما يلفت النظر وجود مجري على سفح الجبل وعلى شاطئيه أشجار عالية متصلة الأغصان من أعلاها مما يدل على انه كان نهراً جارياً يمد صالح وجيشه بماء الشرب ثم توقف عن الجريان بسبب عوامل طبيعية ومن اثر ذلك وجود شجيرات صغيرة في وسط هذا المجري الذي لا يزيد طولها عن خمسة أمتار وهي حديثة النمو مما يدل على توقف جريانه لم تمر عليه إلا عشرات السنين ، أما غابتها فغنية بأنواع الأشجار المفيدة منها شجر البن وشجر الكمبه نوع يستعمل مع القهوة بدل الهبهان وشجر الخيزران الذي كان يصنع منه كراسي الجلوس والمناضد وهي تتسج من أغصانه المرنة وكان مصدر رزق الكثيرين من أبناء الزاندي وبقية القبائل المجاورة حيث يقومون بصنعها وبيعها في الأسواق بأعداد كبيرة ولا بد من وقفة أخرى أمام شجرة البن فمن جاء به ومن أين دخل المنطقة وكثرت التساؤلات ولم نجد جواباً شافياً أو مقنعاً إلا مجرد تخمين وظن فمنهم من قال إن صالحاً لما كان يعسكر هو وجنوده وأعوانه يكثر من شرب القهوة فالحبوب المتساقطة قبل أن تمسها النار بدأت في النمو عندما حل فصل الخريف ، وساعدها على ذلك التربة والطقس الملائم ، ولما تبين ذلك لصالح وأعوانه اخذوا في بذر المزيد من البذور وتعهدوها حتى وصلت إلى ما وصلت إليه الآن . وهناك قول آخر بان البن دخل السودان عن طريق الكنغو وهذا اقوي الاحتمالين . هنا ملاحظة هامة يجب

الوقوف عندها يقول علماء النبات أن شجرة البن يصيبها العقم أو يقل إنتاجها إذا لم تقلم فروعها بعد ست سنوات من تاريخ ثمارها فكيف ينطبق ذلك على غابات البن داخل منطقة عزة الذي فرض عليها المفتش البريطاني حظراً لا يدخلها أحد وأي شخص يجدوا معه كمية بن أو الكومبه أو الفلفل وهي من الأشجار التي تنمو بكثرة وجنوا منها الأهالي فوائد كثيرة ببيعها في الأسواق، فمن وجد عنده شيء منها يعرض نفسه للعقوبة ، وسبب هذا الحظر وجود الذبابة التي تحمل فيروس مرض النوم وهي لا تعيش إلا في الأماكن الرطبة المظلمة وهذا الجو هو نفس الجو الذي ينمو فيه شجر البن والكومبه في غابات عزة مما يضطر الأهالي لدخولها بغرض جني محصول هذه الأشجار لبيعه في الأسواق فيعرض للسعات الذبابة التي تحمل مرض النوم وقد تظهر أعراضه في تضخم بعض الغدد حول الرقبة وهو في طور الحضانة الأولى التي يمكن التغلب عليها أما المرحلة الثانية هو لجوء المريض إلى النوم العميق دائماً وفي هذه الحالة يكون نسبة الشفاء منه تقدر بخمسين في المائة أما في أطواره الأخيرة التي لا يجدي معها علاج هي دخوله في نوم عميق يشبه الغيبوبة وفقدان الشعور بكل ما يحدث حوله وذويه هم الذين يطعمونه بوضع الطعام في فمه وهو يزرده دون شعور منه ويعطوه الشراب بهذه الطريقة إلى أن يؤدي بحياته وقد أنشئ مستشفى خاص لعلاجها في الأطوار الأولى بمدينة سرسيبو بالقرب من انزار وبذلك منع الأهالي منعاً باتاً من هذه الأماكن وقد جندت وزارة الصحة أتيام تمر على جميع مناطق الزاندي للكشف عن المصابين وكنا نمشي مختارين كلما وجدنا تيماً ونعرض أنفسنا للكشف مع الأهالي لأننا نحن أكثر تردداً ودخولاً في مثل هذه المناطق خلصة عند فصل جني الثمار فيقلعوا فروع البن ويحملونها بعيداً عن أماكن الحظر ويلتقطوا الحبوب خوفاً من أن ينال منهم القانون كما يتفادون لسعة الذباب ويعملهم هذا أي تقليمهم لفروع البن يجدد البن نشاطه ونموه بصورة أفضل .

ومن الأشجار الأخرى أشجار المنقا والموز بأنواعه والبرتقال والليمون والأناناس

بنوعيه النوع الأول هو النوع المستورد من مناطق الكنفو المختلفة وهو أكبر حجماً وأكثر حلاوة وأغني نكهة وقد نجحت زراعته في مناطق جنوب السودان المختلفة حتى في منطقة بحر الغزال وفي مدينه واو حيث حددت له مساحة واسعة وانشأ له مصنع تحت اسم مصنع تعليب الفاكهة وقد بدأ بداية حسنة لكن عيبت به بعض الأيادي فلحقه التخريب وتوقف عن الإنتاج أما النوع الثاني وما يسمى بالبلدي فهو يخلو من الحموضة لا يساوي شيئاً إذا ما قورن بالنوع الآخر وقد أهملت زراعته في السنين الأخيرة وتوسعوا في زراعة النوع الآخر .

وفيها أنواع من الأشجار الأخرى التي يمكن توظيفها لعمل الأثاث المنزلية من حيث اللون والنعومة ونسيج طبقاتها وتماسكها في أطوال متفاوتة لا اعوجاج فيها ولا نتوءات .

ومن أشجارها المفيدة البقدي محيط جذعه قد يصل إلى أكثر من مترين كان الأهالي في عهودهم الأولى يصنعون منه ملابس كأردية وقمصان بطريقة حز لحاء الشجر من جوانبه الأربعة ثم تدق دقاً خفيفاً لتتساقط عنه تلك القشرة الخفيفة العالقة على سطحه الخارجي يكون بذلك قد تحصل على قطعة قماش قابلة للتفصيل والخياط بالإبرة والخيط من القطن ويعطيك لون الكاكي وقابلة للغسيل ولا يصيبه التلف أو الانكماش مرنة لطيفة في الملابس .

وهناك أشجار أخرى تفرز صمغ اللبان لا يختلف عن المستورد كما توجد أنواع أخرى في بعض جهات السودان المختلفة كمنطقة جبال النوبة وغيرها وقد تفنن البعض في طريقة الاستفادة منها كبخور دون أن يحتاج إلى وجود جمر ومبخرة فهم يصنعونه على هيئة شمع الإضاءة بعد أن يتوسطه خيط من القطن لإشعال النار فهو يعطيك الضوء في الحجرة كما يؤدي وظيفة البخور .

في مناسبة قبل ذلك ذكرت أن سكان منطقة غرب الاستوائية لا يموت الفرد منهم إذا ضل طريقة وسط الغابات الكثيفة من أثر الجوع لان كل غاباتها غنية بأشجار الفاكهة كما انه لا يموت عطشاً حتى وان لم يصب ماءً جارياً أو مستقراً فهناك

نبات متسلق يتمدد على فروع الأشجار في شكل حبل يصل سمكه إلى ستة سنتيمتر ويحمل في جوفه كمية من الماء ما لا تجده في أي نبات آخر لا رائحة فيه ولا يشوبه لون كماء الأنهار عذبا صافيا يصلح لعمل الشاي والقهوة والشرب أيضاً وطريقة استخراج هذا الماء هي أن تعمل جرحاً بأله حادة على هذا الفرع وعلى بعد واحد متر من هذا الجرح تقطع هذا الفرع وتضع تحته إناء فارغاً فتتساقط المياه وتتقاطر إلى أن تجد كفايتك .

كما توجد بغابات عزة نبات خلوي على شكل نبات البامية شكلاً وثماراً لكنه لا يحمل في جوفه حبوباً حمراء تشبه حبوب الرمان وله طعمه وطعم الكركدي غير انه أكثر حلاوة من النوعين .

فغابات عزة رغم ما تكتنفها من ظلمة وكثافة في أشجارها المتشابكة الفروع والأغصان وجوها الرطب وتكاثر أشجار الفاكهة بأنواعها المختلفة تغري الكثير من الحيوانات إلى اللجوء إليها حيث تجد أمنها واستقرارها .

دخلنا الغابة ونحن نمشي على حذر خوفاً من الأفاعي والحيات الكبيرة كالأصلة وأبو درق من الثعابين وقد تجده ملفوف تحت جذع شجرة أو بين حجرين وأول ما التقينا ونحن في أول الغابة سلطان القروود وهو أسود اللون ناعم الشعر يتحلى ببياض بين كتفيه متواجد بكثرة وهو يميل إلى تسلق الأشجار من أن يمشي على الأرض وله طريقته إذا ما أراد أن ينتقل من شجرة إلى أخرى فهو يلف ذيله الطويل على غصن الشجرة ويرمي بجسمه معتمداً على ذيله ثم يميل شمالاً وجنوباً ثم يثب نحو الشجرة الأخرى فيتعلق بأغصانها وهو قادر على عمل هذه العملية ولو كان يحمل صغيره الذي يمسك بأيديه على بطن أمه إن كان صغيراً وإن كان كبير فهو يركب على ظهر أمه ومن أسباب تجمعاته في مثل هذه الأجواء قلة الرواد من الصيادين بسبب المنع المفروض ثم تواجد أشجار الفاكهة وفي متناول صغاره كما يجد في أشجارها العالية حمايته وحماية صغاره من الحيوانات المفترسة كالنمر والذئب وهذا الحيوان هادئ الطبع لا خطر منه جميل المنظر ضحوك يداعب زائره

ففي غير خشونة ولا شراسة وهو من الحيوانات المحظور قتلها لقلة النوع وندرته والخوف على انقراض النوعية .

وغاية عزة عامرة بالنمور غير إنها لا تظهر للعيان بسبب كثافة الغابات ووعورة مسالكها وهو من طبعه ميالاً إلى صيد القروذ لان آكلي لحم القرودة يصفونه بأنه أجود أنواع اللحوم وألذها وربما النمور تفضله عن غيره لما وجدت فيه بعض الخصائص ولذلك كلما وجدت منطقة عامرة بالقروذ أعلم إنها عامرة أيضاً بالنمور ، والنمر نوعان نمر الفروع وهو شديد البياض وشديد السواد فاحمه وتكثر فيه النونات (حرف ن) المستقيمة جميل الهيئة خفيف الحركة في وثباته يميل إلى تسلق الأشجار والاحتماء بأغصانها ليسهل مراقبة فريسته للانقضاض عليها وهو يقع على فريسته من أعلى الشجرة ويعمل فيها بأنيابه ومخالبه الحادة مما يجعل الإنسان يعمل له ألف حساب أثناء مروره تحت الأشجار وهو يرفع سن الرمح فوق رأسه خوف مهاجمة النمر ، أما النوع الآخر يسمى نمر الدكة وهو أكبر حجماً من نمر الفروع ولون بياضه يميل إلى الصفرة وقلة نوناته المستقيمة يميل إلى الاختفاء بين أغصان الأشجار المتدلية على الأرض أو بين الحشائش الطويلة لا يميل إلى تسلق الأشجار بسبب كبر جسمه ويختفي في بعض الأحيان في الحفر المهجورة وكلمة دكة معناها كوم التراب وهو شرس الطباع يميل للغدر والحيلة ومن أكثر الحيوانات حذراً يفر من سماع أي صوت أو يختبئ من طبعه الخوف ولذلك تجد القطيع من القروذ لا يرعى إلا إذا أقام حراساً لمراقبة الجهات الأربعة هذه الخصلة لا توجد عند الحيوانات إلا الجاموس والقرودة فعلى الحارس الحراسة بعين ثاقبة وعند شعوره بالخطر سواء كان مصدره إنساناً أو حيواناً صاح بأعلى صوته وجرى فتنبه القطيع . أما لو غفل عن أداء مهمته وأصاب القطيع شيئاً من مكروه فالويل للحارس تقلم فروع الأشجار وتنهال عليه ضرباً وهو يصيح ويستغيث حيث لا مغيث ويلقى عقابه على ما فرط .

قلنا إن كل شئ في غابة عزة تجد فيه اختلاف عن نوعه في الجهات الأخرى

فدجاج الوادي مثلاً يختلف عن ما بغابات عزة فالمعروف في جميع مناطق السودان تجد لونه الأسود ودوائر بيضاء أما في عزة وبعض مناطق الزاندي يختلف فالسواد يأخذ لون ظهري جميل لامع أما الدوائر البيضاء مشربة بخضرة على لون ظهري جميل لامع وعلى رأسه ريش كريش النعام أسود لامع أما لون الرأس وما حول عينيه دوائر رمادية مشربة بخضرة لبنية بهذه الألوان المتجانسة تقودك إلى الاعتقاد ان هذه المخلوقات خلقت لزينة الأرض قبل أن تخلق للأكل والعبث بها . تمر بك هذه الأسراب وتسترعي انتباهك بجمالها وهي تحمل هذه الألوان الزاهية .

الببغاء السوداني

الببغاء طائر معروف لدى جميع الأوساط السودانية بأنه له ملكة تقليد الإنسان وترديد بعض الجمل الكلامية في نبرات يفهمها كل من يسمعها كما توحى نغمات الموسيقى أو صوت الزنبارة وتقنتيه بعض الطبقات العليا والأثرياء من الناس ويحتفظوا به في أقفاص جميلة ويهيئوا له الجو المناسب ليؤنسهم ويؤنس الزوار وهي تقوم بترديد ما يغنون من عبارات على أيدٍ مدربين ويتواجد عندنا في السودان من هذا الطائر بين غابات برقو وبندلا من الناحية الغربية المتاخمة للحدود الكنغولية مع اختلاف في اللون فالمستورد منه يحمل اللون الرمادي أما الموجود عندنا فهو أخضر زرعي ربما اكتسب هذا اللون من تأقلمه وتأثره الموجود عندنا بالطبيعة التي حوله والبيئة التي يعيش فيها حيث كل الذي حوله أشجار خضراء وهي السمة الغالبة على الطبيعة طيلة أيام السنة وربما تغير لونه إلى رمادي إذا عاش بعيداً عن الغابات والمناطق الخضراء مثله كمثل دوبيه قريية الشبه بالتمساح بعد خروجه من البيضة شكلاً وحجماً وتسمى الحرباء وهي بطيئة الحركة أقل كثيراً مما توصف به السلحفاة في سيرها وقد تتعرض إلى كثير من الأذى بسبب هذا العجز ولذلك أعطيت هذه الخاصية لتستطيع تغيير لونها على لون البيئة التي تعيش فيها وكنا نحن لا زلنا صغاراً نداعبها ونأتي بالأوراق الملونة ونضعها عليها ففي دقائق محدودة نجد إنها قد تلونت بلون الورقة ونكرر المشهد مرات ومرات .

كما إننا نشاهد بعض الطيور المهاجرة التي تدخل السودان في أوائل فصل الشتاء كالبطائر الذي نسميه أم قيردون تأتي بلونها الأخضر الذي يميل إلى صفرة ولما يمضي عليها أسبوع أو نحو الأسبوع حتى يتغير لونها إلى رمادي وبعض السواد في أجنحتها وبطوق أسود على عنقها والأمثلة على ذلك كثيرة فالببغاء الذي يعيش بيننا لم يجد من العناية والتدريب حتى نتمكن من الحكم إن كان هناك فارقاً بين النوعين من حيث استيعاب ما يلقي عليه وهل هو يملك نفس المقدرة أم لا ولكن بحكم معاشتي لها بين غاباتها وتفننها على الأغصان لا أرى فارقاً بين النوعين إذا وجد المدرب الكفاء الذي يوليه العناية مع إن من بين شبابنا الآن من يهوى تربية الطيور والعناية بها لكنه لم يجد فرصته ليلقى التجارب على هذا النوع لأسباب أمنية حالت دون الوصول إلى تلك الأماكن في وقتنا الحاضر .

بندلا - واستدراجنا إلى الوقوع في الفخ

بموجب الرخصة الممنوحة لمحمود والتي تخول له بمقتضاها صيد ثلاثة من الأفيال فكنا نختر الوقت المناسب ونقيسه بمقياس الزمن بالنسبة إلى موسم الهجرة ففي منطقة مريدي لا تخلو من الأفيال ولكن لكثرة الرواد من حملة الرخص الذين يضعوا في الحسبان قليل الربح مع الراحة خير من الكثير منه مع التعب ولما كان هذا ليس من طبعنا وما كان لنا أن نقيس بمقياس الربح والخسارة ولكن كنا نهتم بالمتعة الروحية قبل كل شيء وبعد أن جمعنا مجلس شورى وأنا ومحمود ووضعنا أمامنا خريطة مريدي والأماكن التي دخلناها سواء وراء الجاموس أو وراء الأفيال فلم نجد بينها ما يمكننا من قتل الثلاثة وبالحجم الذي نريده فاستبعدنا منطقة مريدي ووضعنا أمامنا خرطه يامبيو فاستبعدنا بعض جهاتها وأخيراً وقع الاختيار على منطقة بندلا حيث نجد الفيل بنوعيه ، نعم هو نوعان نوع يسمى العربي وهو متوسط الجسم تمتاز نوعية سنه بالبياض ناعمة النسيج مما يجعلها تزيد من قيمتها الشرائية ب 20% من غيرها أما النوع الثاني فهو الكنغولي كبير الجسم سنه رفيعة وطويلة يميل لونها إلى الصفرة خشنه النسيج جافة عرضة للتشقق إذا ما تركت في

العراء ولم تغطى بالقش وما دمنا في موسم المنقا فخير مكان نراه مناسباً هي بندلا التي تقع على بعد خمسة وأربعين ميل شمال مدينة طمبرة وفي الطريق الرئيسي المؤدي إلى مدينة واو وبموجب جواب زودنا به الأخ إبراهيم أحمد عليه رحمة الله معنون باسم رمضان عبد التام التاجر الوحيد بالمنطقة ومن أبناءها يتكلم اللغة العربية وهو صديق لإبراهيم أحمد وسلمناه الخطاب وكنا محل رعايته واهتمامه وطلبنا منه أن يختار لنا خبير من أهل ثقته ليسيّر بنا نحو تواجد الأفيال ونحن نقدم له الأجر المناسب في نهاية الرحلة فجاءنا برجل كبير السن وتم الاتفاق معه على ما سيتقاضاه من مال . جاءنا في الصباح الباكر وهو يحمل معداته كاملة وسلك بنا الطريق الرئيسي لمسافة سبعة أميال حتى وصلنا إلى جسر على نهر صغير واتجه ناحية الغرب وتجولنا في الغابة فلم نجد أثراً لفيل رجعنا بعد أن أدركنا الغروب ونحن نقف على رأس الكبري فقضينا فريضة الصلاة ثم سلكنا الطريق الرئيسي والذي لا زال أمامنا سبعة أميال ونحن نجر أرجلنا جراً من شدة ما لقيناه من تعب فحملنا أنفسنا فوق طاقتها من صبر وجلد حتى وصلنا الدكان ولما شعر رمضان بما لدينا من تعب هياً لنا حماماً ساخناً بعدها تمددنا على الأسرة وشعرنا ببعض الراحة فسألنا هل لقيتم الفيل فأجبنا بالنفي فبدت علي وجهه علامات الدهشة والاستغراب وفي اليوم الثاني عجزنا عن الخروج للغابة وفي اليوم الثالث خرجنا وعدنا بنفس التعب ونحن نحمل خفي حنين وكاد اليأس أن يأخذ منا مأخذ . وفي أحد الأيام جاء رجل في مقتبل العمر مفتول العضلات وجلس أمامنا وبدأ يهمس بكلام علي قدر ما يسمعون خشية أن يسمعه أحد وقال لما رأيت كثرة ترددكم علي الغابة وتعودوا صفر اليدين وقد أخذتني الشفقة بكم لأنني اعلم نية هذا الرجل يعمل علي تضليلكم لأنه يحمل سلاح ناري فكيف يقودكم لمكان الأفيال وأنا أقول لكم الحقيقة إن أردتم الأفيال فما هي من هنا ببعيد فان رضىتم بي خبيراً واتبعتم نصيحتي فإنكم ستجدون أنفسكم أمام الأفيال قبل الساعة الثانية عشر منتصف النهار وجهاً لوجه فبادره محمود قائلاً إن صدقت فيما قلت لتتال منا مائة وخمسون قرشاً مكافأة

لك كلما أصبنا فيلاً أما إن لم نصب فضحك وقال سأكون معكم حتى النهاية
وستجدوني غداً أمام داري التي تقع على الطريق الرئيسي على بعد ميل ونصف
الميل من هنا وسأنتظركم على الطريق وكان هذا المبلغ المعروض يعتبر مبلغاً
كبيراً يسيل إليه اللعاب . قمنا في الصباح ووجدناه في انتظارنا وسلك بنا شرق
الشارع على العكس بما كان يمشي بنا الخبير الأول ولم يطل بنا المسير حتى
سمعنا حركة الأفيال ، وتقدمنا قليلاً فإذا بها تمشي متراسة خلف بعضها ، فتباطأنا
في مشينا حتى وقفت الأفيال تحت شجرة وكشفنا اتجاه الريح. وتقدمنا وتركنا الخبير
وراءنا ولما وصلنا نقطة معينة وقفنا لإختيار واحد منها وتم الاختيار وأرسلنا
طليقتين في وقت واحد فخر أكبرهم صريعاً وانقسمت البقية على فريقين ثلاث منها
اتجهوا نحونا فأرسل لها محمود طلقة تحذير فغيرت اتجاهها واتجه الفريق الآخر
نحو الجنوب وتقدمنا نحو المصاب وخوفاً من أن تكون له بقية على حياة بادره
محمود بطلقة في أم رأسه فارتعش رعشة عظيمة سكن بعدها وكانت القاضية وأقمنا
معسكراً في المكان نفسه وكان في النية أن لا نمشي وراء الأفيال الاثنين إلا بعد أن
ننتهي من تجفيف اللحم وتخزينه عند رمضان مكثنا في هذا المكان نحو خمسة أيام
أخذ محمود السنين إلى الدكان على أن نجمع بقية اللحم لنقوم برحلة جديدة بحثاً
وراء الفيلين المستبقين . جاءني خطاب من محمود يطلب مني أن اجمع كل شئ
والحضور إلى بندلا بأسرع فرصة ممكنة وتعرض إلى موضوع الأمن بعبارات
مقتضبة من غير توسع والخوض فيها بعبارات صريحة مما جعلني اشعر بان
شئ قد جد في الموقف الأمني جمعت كل شئ وأخذنا طريقنا نحو بندلا فوصلناها
قبل منتصف النهار وبدأ في تفصيل الحادث الذي اضطره لطلب حضوري بهذه
السرعة بعد قيامي منك جلست في هذا المكان إذا بعربة لوري تجاري يمر بالقرب
مني في سرعة جنونية وتقف على بعد عشرة أمتار نزل منها سائق شمالي ومشي
نحوي فقممت وصافحته وقال لي ماذا تفعل هنا قلت في رحلة صيد قال ألم تسمع
بحادث بشري قلت لم اسمع شيئاً قال جاء إلى نقطة بوليس بشري جماعة في زي

الأهالي وقالوا للامباشي أن أحد الأهالي قد ارتكب جريمة قتل في منطقة قريبة من هنا والجاني رفض أن يسلم نفسه وطلبوا منه أحد البوليس بسلاحه ليساعدهم على إلقاء القبض عليه ، ساروا جميعاً يتوسطهم البوليس فلما حانت لهم الفرصة وثبوا عليه وثبة رجل واحد وقتلوه وجردوه من سلاحه وذخيرته حتى ملابسه أيضاً وتركوه ملقي على الأرض وقال لي السائق هيا بنا اركب معنا وشكرت له مروءته واعتذرت بحجة إن لي أخ ولا زال بالغابة ولكن لي مطلب واحد بأن تأخذ مني مكتوباً وتسلمه لإبراهيم احمد يدأ بيد وسألته أين يبيت ليلته هذه قال يامبيو نفسها وكتبت له الخطاب وربما تصل العربية صباح الغد قلت له هذا الرجل صادق في أقواله لأننا لو قارنا بين أقواله وكلام (م) الدينكاوي الجنسية الذي ابعد عن عمله ربما يكون بسبب نشاطه السياسي وعدم ولائه وإخلاصه ومما يدل علي ذلك اختياره للعمل التجاري في هذه المنطقة بالذات لبعدها من أعين الرقباء مع التباين الظاهر بينه وبين الأهالي من قبيلة البنقو وهو من الدينكا وليس فيها من العمل التجاري ما يغري ففي مدينة واو أوسع مجالاً وأكثر راحة إن كان غرضه تجاري ولا تربط بين القبيلتين أي علاقة لا في الطباع ولا في العادات ولا اللغة ولو نظرنا لكل هذه الاعتبارات ونظرنا إليها نظرة فاحصة يتراءى لنا من خلالها أشياء غامضة ومؤامرات تدبر وهو مكلف بتنفيذها من جهات لا تريد الظهور على المسرح وربما زيارته لنا من قبل أيام تدخل ضمن هذا المخطط بغرض استدراجنا ليوقع بنا في فخ لما سمع بأننا في رحلة صيد الأفيال وفشلنا في الوصول إلى غايتنا لمدة أسبوع كامل فانتهزها فرصة وعملاً بالمثل القائل (يؤتي الحذر من مأمنه) ظنا منه إننا سنستجيب إلى هذا الإغراء حيث قال إن الأفيال في منطقتنا ترعى على مرأى منا ونحن نجلس أمام الدكان ومما زاد في طمعه وحرصه علي جرننا لمنطقته ما معنا من أسلحة هي عبارة عن ثلاث بنادق رصاص وأخرى مورييس ونحن اثنين وكانت الفرصة أمامه سانحة أما أن يقدم لنا خدمة ويعطينا اثنين من أعوانه ليحملوا عنا السلاحين أو أن يقول اتركوها في الدكان ولا لزوم لحملها معكم وفي

كلا الحاليتين خطر على أرواحنا وإلا ما معنى أن يقطع كل هذه الأميال مشياً على الإقدام ليدعونا للصيد في منطقته وهو يحمل سلاح ناري 375 مقم يصالح لصيد الأفيال وإذا قدر له أن يخلص منا ويستولى على هذه الأسلحة إضافة إلى سلاحه كافية لقطع الطريق ما بين طمبرة و واو بعد أن تجمع حوله عصابة من المرتزقة وينال منه مرتبه من رؤسائه ربما يمدونه ببعض السزج من الأهالي ولو أسلحتهم قوساً وسهاماً قال محمود وقع في خاطري كل ما ذكرت في نفس الوقت الذي كان يعرض فكرته مع إصراره الشديد مما يوحى بان وراء كلامه هذا خطة مدبرة كلف بها أو من بنات أفكاره لكنه قد غابت عنه أشياء لم يضعها في اعتباره هي أولاً يعلم مدة وجودي بين هؤلاء الناس أكسبتي كثيراً من الخبرة من ناحية نواياهم واعرف حسن نية المرء منهم وسوءها مجرد أن يفتح كلامه أما الفخ الذي نصبه وكان يعتقد إننا من السذاجة بمكان حتى نصدق فيزدرنا لقمة سائغة كما غاب عنه اعفته الغابة لم يضع في حسابه أننا خرجنا من دائرة المدن وقطعنا مئات الأميال ودخلنا الغابات وهي موطن الخوارج والمتمردين واضعين نصب أعيننا المواجهة المحتملة في أي لحظة ونعلم تمام العلم إننا هدفهم المقصود وضالتهم المنشودة ننام الليالي الطوال في العراء بين الأحراش معتمدين على الله سبحانه وأسلحتنا وعزيمتنا وهذا شأننا منذ أن قامت الفتنة وامتألت الغابات بالخوارج والمرتزقة لا نتهيب اللقاء بهم ولا نخشاه بما اكتسبنا من مهارة في الرماية تمكننا من إصابة الهدف ليلاً كان أم نهاراً فهم الذين يعملون لنا ألف حساب قبل أن نعمل لهم حساباً واحد فقللت يكفيه انه ذهب وهو يجر جر ثوب الندم وبعض أصابعه من الحسرة إذا وجد نفسه أمام من لا تلين شكيمتهم ولا ينفادون وراء الوعود البراقة . هذا وقد جاءت العربية و أقلتنا إلى مريدي . ووجدنا الخبر قد شاع وملاً المدن والقرى وقد قابلونا بالتهاني وبدعوا يسألونا كيف كان سفركم فقلنا الأمر جد بسيط لأننا كنا نتوقع مثل هذا الموقف في كل رحلاتنا فما كنا نشعر بشيء غريب.

حواشي الفصل الخامس

1- مريدي MARIDI الموقع E ٢٨ - ٢٩ من مراكز غرب الاستوائية
٤ - ٥٥ N

2- كتاب الزاندي هي رسالة الدكتوراه التي أعدها الدكتور محي الدين صابر ونال به درجته العلمية بالجامعات الفرنسية في علم الانتروبولوجيا . وقد ترجمت الرسالة إلى اللغة العربية وأضاف إليها المؤلف بعض المباحث وحذف بعضها لتناسب القارئ العادي. والدكتور محي الدين صابر المدير السابق للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وتولى أيضاً وزارة التربية والتعليم وهو فوق ذلك عمل بالصحافة بجريدة الزمان وسياسي دخل البرلمان عن الحزب الوطني الاتحادي بدوائر أهله النوبيين بشمال السودان وهو من رجالات الحركة الوطنية وصاحب نشيد المؤتمر " صرخة أروت دمي " تقاعد مؤخراً واستقر بمنزله بالصافية بالخرطوم بحري (توفي لرحمة مولاة) .

3- عربي دفع الله من التعايشة وتربطه صلة قرابة بالخليفة عبد الله التعايشي وكان من أمراء المهديّة ثم عين أميراً على الاستوائية ومركزه الرجاف عام 1890م خلفاً لأبي قرجه وقد دافع عربي دفاعاً قوياً عن حدود السودان الجنوبية إبان غزو البلجيك بقيادة أمين باشا ولكنه هزم في عام 1897م وتراجع إلى دارفور وإنضم إلى قوات علي دينار واستمر معه حتى عام 1916م وسقوط مملكة الفور وقتل بها .

الفصل السادس

البلبل

كنت مستلقي على فراشي في حوالي الساعة الخامسة صباحاً وقد انتشر
ضوء الفجر ونحن على سفح جبل صالح لفت نظري صوت طائر يغرد بين
أغصان الشجر وتذكرت قصيدة احمد شوقي أمير الشعراء في مطلعها :-

صداح يا ملك الكنار ويا أمير البلبل

قد فزت منك بمعبد ورزقت قرب الموصلي

قرأت عن البلبل وسمعت عنه الكثير دون أن أراه أو أن اسمع تغريده الذي
يوصف بأنه يلعب بالألباب ويأخذ بمجامع القلوب وأنا على ما أظن الوحيد الذي لم يجد
فرصته للتمتع بهذا اللون من التغريد الذي ذكره الشعراء والأدباء والعشاق في
أشعارهم وبالغوا في إطرائه والثناء عليه وعلى ما أظن أن البلبل لا وجود له في
شمال ووسط السودان بسبب جفاف الطبيعة وصحاريها الرملية مما يخالف بيئته التي
تلائم حياته ووضعت كل اهتمامي بان أراقبه حتى طلوع الشمس لأرى هيئته فتبين لي
إنها طيور تعيش في شكل جماعات فحجمه كالقمر رمادي اللون لامع الريش يميل
إلى زرقه لامعة يجر وراءه ذيلًا طويلاً وهو يعيش بين أشجار الفاكهة ويقابل الصباح
بالتغريد في موسيقى هادئة حالمة وفي نغمات شجية فما سكنت مجموعة إلا وجاءتها
مجموعة أخرى ولها مواقف ومقاطع تقف عندها قليلاً تبدأ من جديد مما يزيد من
روعة الإيقاع لا ادري إن كان هذا هو البلبل المعني أو من أشباهه من حيث التغريد
والنغمة فان لم يكن هو فهو جدير بهذا الوصف إن لم يكن بالاسم وقد ورد ذكره في
كثير من شعر الغزل أو شعر السادة الصوفية حيث قال أحدهم :

أما تنتظر الطير المقفص يا فتى إذا ذكر الأوطان حن إلى المغنى

يفرح بالتغريد ما بفؤاده ويطرب أرباب العقول إذا غنى

وهي إشارة إلى البلبل غير خافية ونعته له بهذا الوصف لا ليذكره بمجالس الطرب
والغناء بين الخرد الغيد وهم يعاقرون بنت الكرم بل هم فوق ذلك وابتعد بل غرضهم
من هذه الذكرى ذكرى مجالسة مع ليلاه التي يراها في خياله ويسهر من أجلها

الليالي الطوال عله يجد منها نظرة تفرح عنه ما يلاقي من شوق وهيام وما ليلاه إلا
الذات الإلهية ، هذا وقد سمع من الطير الحبيس بين أفاصه بما سمع فكيف لو سمع
منه وهو حر طليق يتغنى كما شاء وبما شاء بين الأغصان اليناعة والمروج
الخضراء وهي تسحر الألباب وتأخذ بمجامع القلوب ربما طار صوابه وخرج عن
كليته ودخل وادي الهيام وجادت قريحته بقول قد يتخطى حد المعقول كما قال
شاعرها :

ولا تلم السكران في حال سكره لقد رفع التكليف في سكر عنا
فهو لا يقصد السكر الذي ينتج لتعاطيه الخمر المعروف لدينا فلا شك انه أي من
المخمور مطالب ومؤاخذ بكل عمل يأتيه أما السكران نتيجة خمر وهمية معنوية
تجرده من معقوليته ويقع في ما تراه أو تحسه شيئاً يستحق المؤاخذة فهو يرى أن
هذا العمل لا لوم عليه قد يراها البعض من الناس إنها حالات فيها الخروج من
الدين ويراها البعض الآخر إنها مرتبة عليا من مراتب الدين قد قصر دونها من
يقول بالرأي الأول .

نساء يدخلن التاريخ

إن أبواب الشهرة أمام المرأة العربية أو المستعربة كانت موصدة منذ أقدم العصور
بسبب وضعها الاجتماعي حيث مجالها المحدود ويقتصر دورها في إدارة البيت
ورعاية الأسرة والعناية بالزوج وتربية الأطفال وقد حافظت على هذا المستوى
راضية أو مكرهة كان ذلك قبل أن يعرف القرن الواحد والعشرين الذي أطل برأسه
وهو يحمل في طياته مدنية غريبة استهواها بريقها وأحدث الكثير من التعديلات في
حياة المجتمع فوجدت فرصتها في التعليم والظهور في كافة الميادين وقد عم كل
دول العالم ، منها ما دخلته راضية ومنها ما دخلته مكرهة فالسودان كجزء من هذا
العالم المتغير دخل هذا المعترك فيما بعد النصف الأول من القرن العشرين أما
النساء اللاتي نلن الشهرة قبل ذلك يعتبر عمل اقتضته الضرورة كالحروب الأهلية
والقبليّة عندما كان حكم الغاب هي السمة الغالبة علي حياة الناس وكان دورها

تشجيعي وحث الرجال على الصبر عند ملاقات العدو أمثال مهيرة بت عبود وبت مسيمس أما دور تاجوج كان عاطفي وكاد جمالها أن يوقع القبيلة في حروب ، هنا لا بد من الإشارة إلى الملكة آمنة حيث كان دورها قيادي بحكم إنها زوجة الملك خوجلي أحد ملوك الفونج على جبال جنوب شرق وسط السودان وكانت تشاركه إدارة المملكة ولها مقابلات ولها مكانتها في مجلس الشورى وهذا الدور الذي لعبته إبان حكم زوجها مما أوجب اعتقالها في عام 1918م إن لم تخوني الذاكرة على يد الاستعمار وقد حملتها باخرة كانت مخصصة لمديرية النيل الأبيض وقد أُلقت مراسيها في رصيف الكوة وقد شاع الخبر بأن الملكة آمنة جئ بها في هذه الباخرة وكنت يافعا في السنة الأولى الابتدائية من كلية غردون لعب حب الاستطلاع دوره فصممت على أن أراها ودخلت الباخرة وكانت تجر معها صندلاً وبالقرب من الدرجات التي تؤدي إلى أعلى الصندل شاهدت امرأة تجلس على سرير وبين يديها صبي تداعبه امرأة أعطيت شئ من الجمال متوسطة الطول غير بدينة تمسك في يدها سبب من الزراف أو من ريش النعام له مقبض من الذهب الخالص تستعمله لطرده الباب لم أجد حولها إلا خادمة واحدة .

وبعد أن قدمت هذه النبذة اليسيرة عن بعض نساء شمال الوادي وجب علينا أن نعطي المرأة في جنوب الوادي حقها فلنبداً بمديرية أعالي النيل عندما تسير بك الباخرة أو المركب الشراعية نمر على ارض رملية نظيفة يسكنها خليط من الشلك وقبيلة سليم وأولاد حميد كانت كاكا البلد معروفة لدي التجار منذ العهد التركي عندما كانت التجارة على ظهور المراكب الشراعية فما هو دور كاكا المرأة دورها الحقيقي إجادتها للغة العربية وما تحمل هذه المراكب من بضائع مختلفة منها الحديد المصنع والأقمشة والخرز والملح وأشياء كثيرة أخرى وسكان المنطقة من الشلك فمن هنا برز دور كاكا حيث تقوم بدور المترجم ولما كان البيع عن طريق المقايضة فلا بد من اخذ ورد حتى يتم الاتفاق فكانت تقع على عاتقها مسئولية كل ذلك خصوصاً في فض المنازعات وتهدة الخواطر وتلطيف الجو بين الشلك

والتجار القادمين حاول الاستعمار كثيراً لتغيير هذا الاسم العربي لكنه لم يفلح ولما عجز أضاف إليها كلمة التجارية فكانت تسمى كاكّا التجارية وسرعان ما تلاشت كلمة التجارية وأصبحت كاكّا مجردة.

وهناك امرأة أخرى اسمها نصره وكانت تسكن على شاطئ نهر سوبات مع بقية أسرته ولما كانت المراكب الشراعية المحملة بالبضائع تمر عباب النهر حتى تصل إلى حيث تسكن نصره لتؤدي دورها كمتريجة في منطقة يسكنها النوير ، ولما النوير يعرفون بالأنفة والشعور بعزة النفس ولا يرضى الضيم فكانت هي لمكانتها عندهم لقيامها بحل المشاكل وتتدخل في حالات البيع والشراء لكن لم يبين لنا التاريخ من أي قبيلة هي أو من أين جاءت ويغلب عليّ الظن إنها من اصل شمالي وربما ترجح بعض الروايات إنها من صعيد مصر وبعد انتهاء مدة خدمته جاء بها إلى وطنه ولما جاء الحكم الثنائي ووجد هذا الاسم الذي حاول أن يحويه لما يحمله من اسم عربي وجد في ذلك صعوبة لكنه استطاع أن يبدله من اسم التانيث إلى اسم التذكير فأطلق عليها اسم الناصر وهو المركز المعروف للآن .

خور زينب

عندما دخل الاستعمار جنوب السودان ولا أريد بجنوب السودان ككل إنما أشير إلى منطقة أعالي النيل إذا استثنينا منطقة الشلك الذي أذن لحكم الدخيل حيث من طبعه المسالم واختلاطه من اقدم العصور بالشماليين أما المستعمر فقد لقي صعوبة في إخضاع النوير فكانت طبيعة حياتهم لا ينقادون إلى حاكم ولا لرئيس قبيلة فكل رجل هو الحاكم في أهله كلما كثر أبناؤه فهو سيد الموقف ومهاب . ولما كانت قبائل النوير في فوضى تسيطر عليها شريعة الغاب القوي يأكل الضعيف والإنجليز يعرفون كل ذلك ولا حيلة لهم ولا يريدون أن يضحوا بأحد من رجالاتهم فيتصلوا بالتجار ليؤدوا دور كبش الفداء فيعلنوا عن منطقة كذا قد أصيبت بمجاعة وتحتاج إلى كمية من الذرة لإنقاذها من المجاعة أو تخفيف وطأتها فعلى كل تاجر يريد أن يقوم بهذه المهمة الإنسانية أن يتقدم لسلطات المديرية بطلب مبيناً ما لديه من ذرة

والحكومة غير مسئولة عن حياة التاجر أو ممتلكاته وبعد أن يؤدي التاجر دوره المحفوف بالمخاطر فمنهم من تحلو له الإقامة ومنهم من يرجع وفي العام الثاني يصل المفتش المعين بعد أن وجد الاطمئنان هذه باختصار عملية الاستدراج التي تتبعها الحكومة فان قتل التاجر مثلاً اتخذتها السلطات ذريعة للتدخل في حملة تأديبية كما يسمونها وان استطاع التاجر عيشة بسلام جاء المفتش ليقول للتاجر بكل عنجية (دا البلد بتاعي وأنا عايزك هنا) .

ولما كانت لغة النوير غير منتشرة بين أوساط التجار بسبب نفورهم من هذا الدخيل وتقوقعهم على أنفسهم فلا بد لمتحدث ليقوم بدور المترجم . وفي مرة ظهر الإعلان الكيدي يشير إلى منطقة حوض نهر الزراف وبما أن حوض نهر الزراف واسع وسكانه من قبيلة النوير ولهذا النهر رافد يخترق المنطقة متعرجاً بين قراها وحلالاتها هذا الرافد يحمل اسم خور زينب ولا زال يعرف بهذا الاسم هي حلقة الاتصال بين التجار والنوير الذين يعيشون على بدائيتهم لا يعرفون كلمة واحدة عربية فكانت زينب خير رسول تؤدي وظائف عده والى وقت قريب كانت المراكب الشراعية هي الوسيلة الوحيدة لنقل البضائع عبر هذا الخور قبل انتشار العربات .

إقليم بحر الغزال

هناك ميناء على نهر الجور يطلق عليه اسم مشرع الشول لهذا المشرع تاريخه القديم وزاد من شهرته عندما مر به الزبير باشا في العهد التركي وأعوانه أمثال كركساوي وعربي دفع الله وغيرهم ممن بسطوا نفوذهم على تلك المناطق حتى حفرة النحاس وديم زبير في أقصى الجنوب الغربي من مدينة واو ولا زالت ذكراهم وأثارهم شاهدة لهم بالدور الحضاري الذي قاموا به وانتشار اللغة العربية ودخول الإسلام في تلك المناطق يرجع الفضل في كل ذلك إليهم ولما جاء الاستعمار وأراد تشويه سمعة هؤلاء الرجال عمد إلى إلصاق تهمة تجارة الرقيق بهم وأضاف إلى اسم المشرع كلمة الرق وسماه مشرع الرق هذا الاسم لم يخطر على بال أحد من الشماليين وإنما هو من عند المستعمر الذي أراد تشويه دور

الشماليين ويقلل من عملهم البطولي والحضاري الذي نقلوه إلى تلك البقاع النائية إذن هي كيد الاستعمار والاسم الأصلي المعروف به هو مشروع الشول وكانت محل احترام كل زائر ودورها هو دور المترجم بين قبائل الجور والدينكا والبنقو .

نساء يدخلن التاريخ في منطقة مريدي

أما في إقليم الاستوائية فدور المرأة يختلف عن دور اللاتي سبق أن تحدثت عنهن وكان دورهن قيادي وهو من أصل زاندي والذي حصل يعتبر انقلاب وتطور غير معهود بالنسبة إلى ما كان عليه وضعها الاجتماعي في سابق عهدها وهذا الحديث يجرنا للبحث عن أصل الزاندي وهذا ما ليس في استطاعة أمثالي لأن مثل هذه البحوث علم قائم بذاته يدرس في الجامعات ويحتاج إلى مؤهلات خاصة وله ما وراءه من شقاق ومتاعب وقد تعرض الدكتور محي الدين صابر لكل ذلك أثناء بحثه عن تاريخ هذه القبيلة ودخل الغابات ولا شك أن مهمته كانت شاقة وعسيرة وأول عقبة تعترضه جهله باللغة وثانيها حياته المعيشية في مجتمع بدائي يأكل لحوم الفئران ولحوم الميتة وهو الرجل الذي قضى حياته طالباً في السودان ومصر وفي خارجها في البلاد الأوروبية التي تختلف اختلافاً بيناً في حياة الغابة وقد قابل كل ذلك بعزم الرجال وذل كل الصعاب وتعلم اللغة وضحى بالكثير من ماله ووقته واتصل بالرجال المسنين واستسقى معلوماته وبنا عليها بحثه على أصول ثابتة وان استعان ببعض المراجع الثبوتية من بعض ما كتب في هذا الشأن على أيدي أجنبية حتى خرج البحث مستوف لكل ما يحتاجه طالب علم أو طالب بحث أو طالب بحث تحت اسم.

فأنا بدوري الفت نظر القارئ الكريم لهذا الكتاب إن أراد الاستزادة ولي الحق أن أقول انه الشخص الوحيد من السودانيين والأجانب⁽¹⁾ ممن كتبوا عن تاريخ السودان بحق حيث استقى معلوماته من مصادرها الحقيقية مدعومة بأدلة وبراهين لا يتطرق إليها الشك ولم يطلق عنانه للخيال أو التفكير في إدخال شيء ليس له صلة بالموضوع أو وقع في المظان ولذلك أقول انه كتب جزء من تاريخ السودان أما

الذين تطرقوا لهذا الأمر وأسموه مجازاً تاريخ السودان وما هو بتاريخ السودان وكان من رأيي أن يسموه مراحل الحكم في السودان أو حياة الشعب السوداني منذ العصور القديمة فتاريخ السودان لازم يبدأ أولاً بعلم الأجناس وكيف تواجدت وكيف اتحدت وكيف كونت لغتها الخاصة ومعاملاتها مع جيرانها وعاداتهم وأنا إذ أورد هذا نتيجة حيرة عندما أفكر في سكان السودان الأصليين وممن سكن منهم الجنوب خاصة ، فإن أردت أن أشرك القارئ معي في هذه الحيرة خذ مثلاً سكان جبال النوبة منطقة تالودي وهي تعتبر مركز تجمع أكبر عدد من قبائل النوبة وهم يسكنون جبال متقاربة من بعضها وقد اختلفوا في العادات واللغة وطرق حياتهم فما معنى ذلك هل كل جبل جاء من منطقة مغايرة وجاءوا بعاداتهم وبلغتهم ومن أين جاءوا ومن الغرائب إن الكثير من هؤلاء الأجناس يبدأ اسمهم بحرف الكاف (2) مثلاً (كندرمة - كروراك - كلكده) وغيرها كثير وبعد رد هذه الفروع إلى أصولها بالبحث الدقيق هي وغيرها من بقية القبائل يمكن أن نقول هذا هو تاريخ السودان .

أظن القلم قد استرسل وانحرف ناحية ودخل في متاهات وهو لا زال يريد التادي غير أنني أثرت كبح جماحه والرجوع إلى ما نحن بصده عن نساء في الجنوب يدخلن التاريخ . كان المقر الأول لمملكة الزاندي نسميها مملكة لأن كلمة سلطان خلقها الاستعمار على طمبرا وهو الجد الأول الذي استقر في المنطقة المعروفة بهذا الاسم جنوب واو وكان كلما ولد ولداً وبلغ مبلغ الرجال جعله والياً على منطقة ولها حدودها وإداراتها الخاصة وهو المسيطر على كل جزء منها يحكم فيها بما شاء وعلى ذلك كل السلاطين في هذه المنطقة هم من سلالة العائلة المالكة التي مقرها طمبرا إلى يومنا هذا وعندما جاء الاستعمار لم يستطع أن يغير من هذا النظام أو أن ينال منه وعندما وجدت المرأة حريتها بعد أن كانت كما مهماً تنفست الصعداء وبدأت تنظر إلى الحياة نظرة تختلف عما كانت عليه المرأة في عهودها السابقة وتطلعت للمزيد رغم أميتها وعدم تعليمها فقد دخلت في أول تجربة لها عندما خلا كرسي الرئاسة في منطقة المندو بوفاة السلطان سعيد خلفه ابنه السلطان مزينة

مكث فيها مدة من الزمن ثم وافته المنية عرض المنصب بعد ذلك إلى أخيه الذي كان يشغل وظيفة حكومية فرفض التخلي عن وظيفته الحكومية فاختاروا أختاً لهم تسمى بثينه وعينت سلطاناً وهي الآن تقوم بمهام الرئاسة خير قيام تترأس المحاكم وتصدر أحكامها من غير خوف ولا وجل وهي محبوبة من شعبها ورؤسائها ورصفائها من السلاطين الآخرين ولما لم يمر على تعيينها كسلطانة إلا شهور قلة حتى خلا منصب آخر بموت السلطان موسى الذي خلف أباه السلطان انجيما الذي كان سلطاناً على هذه المنطقة المسماة باسمه وهي تبعد كثيراً عن مركز مريدي وبعد أن وافت المنية السلطان موسى اختار الشعب بالإجماع أخته سكينه لكرسي الرئاسة وهي تؤدي عملها بكل حزم واقتدار وأثبتت أن المرأة جديرة بأي عمل يوكل إليها ولا تقل عن الرجل بحال من الأحوال وإجماع الرجال على اختيار المرأة لقيادة الرجال وتوليها وظيفة حكومية كهذه إنما يدل دلالة واضحة على الوعي الكامل الذي انتشر في أوساط الجنوبيين .

الهجليج

قبل أعوام بثت الإذاعات المختلفة من جميع دول العالم المتقدمة في مجالات العلم المختلفة وجندت كل وسائل إعلامها المرئية منها والمسموعة والمقروءة بأن هنالك خطراً يحيق بجميع الدول النامية من مجاعات قد تقتك بالإنسان والحيوان والغرض من هذا كله لفت نظر الدول المعنية لتتلافى هذا الخطر المحدق مما حدا ببعض الدول لمنع قطع الأشجار والمزيد من غرسها وزيادة الرقعة المزروعة من الأرض كغابات وتشديد الرقابة عليها وصونها مما يعوق نموها ومما لا شك فيه أن السودان يعتبر في مقدمة الدول النامية المعنية قبل كل شيء بأن تفتح أعينها لترى ما يهدد كيائها ويعمل بجد واجتهاد لدرء المخاطر المتمثلة في الزحف الصحراوي مما اضطر الحكومة لعمل تجارب حول مدينة الخرطوم وغرس نوع من الأشجار ليقى المدينة من الأتربة والأعاصير التي تهب فتقلق سكان العاصمة فأقاموا ما أسموه بالحزام الأخضر لكن القائمين بأمر هذا المشروع لم يعيروا نوعية الشجر

المغروسة أهمية ربما اعتمدوا على الخبراء الأجانب ولم يكن للعلماء من أبناء السودان دور فيه لأن لو لعلماء السودان يد أو كلمة مسموعة لاختاروا شجر الهجليج كبديل لهذا النوع الذي يؤدي وظيفة واحدة هي تلطيف الجو ومنع تحركات الرمال وبقليل من التفكير لو استبدل بشجر الهجليج وما يحويه من فوائد قد لا نجدها في أي شجرة تنمو محلياً أو مستوردة فشجرة الهجليج كلها فوائد فماذا تعلم عنها ، امسك أولاً ثمرة اللالوب وقد دلت التجارب وبعد أن خضع للتحليلات اللازمة ووضع تحت المختبرات العلمية اثبت انه علاج للبهارسيا في أطوارها الأولى وقد بدأ الاستعمار اهتمامه بهذه الشجرة وأمر بعدم قطعها والتوسع في زراعتها كان ذلك على أيامه الأخيرة وكانت البهارسيا من الأمراض المستوطنة مثلها مثل الملاريا خصوصاً في منطقة الجزيرة المروية وشواطئ النيل الأبيض والأزرق لتواجد القواقع والمحار الذي تعيش عليه هذه المكروبات وتساعد على انتشاره الذي أودى بحياة الكثيرين من شباب هذه المناطق مما اضطر الحكومة بإقامة مستشفى أبو عشر وزودته بمصل الانتيومون ولثمر اللالوب فوائد أخرى تجمع الطبقة الحمراء ووضعها في قربة تباع في الأسواق الشعبية بواسطة العرب الرحل الذين يقومون بجمعها وحفظها وتسمى (السرنا) وأكلها يساعد كثيراً في عملية الهضم ومن المليينات لطبيعة الإنسان كما انه علاج لمرض الدسنتاريا بعد بل كمية منه في الماء ومزجها ويشرب منقوعها في الصباح ، ويقتل الكثير من أنواع الديدان في المعدة هذا ما يتعلق بثمرة اللالوب من خارجها فلننتقل لداخلها بعد كسر قشرتها الصلبة وغلافها السميكة نجد حبه أشبه باللوز أو حبة الفول السوداني يطلق عليه اسم الدملاج ولهذا الدملاج فوائد منها علاج يسميه الطب بقرحة المناطق الحارة أو ما شابهها وكل قرحة في الجسم يصعب برؤها بأن يحرق كمية منها ثم تطحن إلى أن تصير عجينة وغسل الجرح بالماء الساخن ثم وضع العجينة عليه فلم تمر فترة حتى يبرأ الجرح تماماً ، ومن فوائده بعد غليه علي النار لإزالة المرارة التي يحتويها لان مرارته كمرارة الترمس وهو يؤدي نفس وظيفة الترمس بعد غليه

يعرض على حرارة الشمس ليجف ويؤكل كتسالي سريع الهضم ويساعد كثيراً في إزالة سوء الهضم وتنشيط المعدة خصوصاً إن أكله مع البلح يعطيك وجبة كاملة ولهذه الحبة فائدة أخرى أكبر مما ذكرنا وهي احتوائها علي كمية من الدهن مما يزيد عما تحتويه حبة الفول السوداني بجميع أنواعه ويستخرج زيتة في وقتنا الحاضر بطريقة بدائية وهو حرق كمية منه حيث يصل إلى درجة حرق البن في استعمال القهوة ثم يطحن حتى يصير عجينه ثم ينزع الزيت بواسطة اليد هذا الزيت رغم تعرضه للتلوث والأتربة يعطيك زيتاً حقيقياً يمكن استعماله في جميع اوجه الطبخ ويقال انه من أجود أنواع الزيوت المستخرجة من الحبوب الزيتية إذا استثنينا زيت الزيتون أو السمسم فهو أجود بكثير من زيت الفول أو زيت البذرة . أما لو وجد العناية الكافية واستخرج زيتة بواسطة المعاصر الحديثة لأصاب الكثير من الزيوت بالبور المنتج محلياً أو مستورد وسيأتي اليوم الذي يجد فيه الدملاج سوقاً رائجة مادام أوجدت معاصر حديثة لاستخلاص زيت عباد الشمس فدور الهجليج سيجيء قريباً ونكون قد وصلنا إلى درجة الاكتفاء الذاتي واستغنيا عن استيراد الزيوت المستوردة بعد أن نوظف بعض الأنواع لصناعة الصابون وسنجد من مشتقاتها نوع من السقدة كعلف لتسمين الماشية وبعد ذلك لابد من إلقاء نظرة علي الشجرة الأم ما فيها من منافع فمن خشبها تصنع الكراسي التي يطلق عليها كراسي الخيزران وهي لا تمت إلى الخيزران لا من قريب أو من بعيد ولازال هذا النوع صامداً أمام هذا التحدي بعد أن عملت المصانع علي هيئته من الحديد والبلاستيك ولو القينا نظرة عامة علي أثاث المنزل الحديث تطالعك الأسرة والترابيز والطاقاطيق المخروطة وفي أشكال جميلة وكلها من خشب الهجليج وهي تحف فنية تغني عن المستورد وأنا لا أفي لهذه الشجرة حقها إذا لم اذكر إن اللحاء الخارجي من هذه الشجرة تؤدي وظيفة الصابون في غسل الثياب وقد كانت تستعمله العرب الرحل حيث لا يتوافر الصابون وهو يقوم بتنظيف الثوب مهما علق به من مواد دهنية ويغير لونها من كثرة تراكم الوسخ حتى تصل بلون الثوب إلى درجة السواد

ولا يحتاج منك لكبير عناء بل تفصل قطعة اللحم وتضعها في إناء تصب عليها الماء المطلق وبعد قليل ينظف الثوب وليس لديه رائحة كريهة كما لبعض الصابون الذي تخرجه مصانعنا والرائحة الذي تلازم الثوب مما تشمئز منه نفس الكثيرين وكان يسمونه (صابون الفقاري) أي في متناول يد كل فقير وقد يقول قائل انك قد أطنبت في ذكر هذه الشجرة ووضعتها فوق كل أنواع الأشجار الأخرى فهل من مزيد أقول نعم إن صفقة الناعم الذي ينمو عند مبادئ فصل الخريف يصلح لعمل ادام للعصيدة ويقوم بوظيفة الملوخية والبامية وتعطيك طعم لذيق كما انه يقول من ثمر اللالوب يستخرج أجود أنواع الخل الذي له دوره في الموائد بين الطبقات الميسورة الحال وأنا لا أدعي بان ما رويته هنا عن هذه الوصفات نتيجة أبحاث علمية بل اعتماداً على التجارب ومن وصفات الدواء التي يقدمها الطبيب البلدي .

أظنني قد أعطيت هذه الشجرة حقها على قدر المستطاع من الناحية المادية فالواجب يقضي أن ننظر إليها من الناحية الروحية فيما اغلب سكان السودان يتبعون الدين الإسلامي علي تعدد طوائفه واختلاف مشاربها وتعدد المشايخ الصوفية كل علي حسب اجتهاده وتفقهه في الدين يهيء السالك في السير علي الطريق القويم بذكر ما يسميه الأساس في الطريقة بأعداد معينة صباح ومساء ومنها القيام بالليل ودخول الخلوات والتفرغ للعبادة والوسيلة الوحيدة التي تقوم بضبط الأعداد هي المسبحة الألفية ووجدوا في اللالوب ما يضعونه بأنه سريع الإجابة مما ذكره الكثيرين من شعراء الصوفية وجعلها اقرب المسالك لبلوغ السالك مراده و أطنب في مداها وعلو كعبها بالأخذ بيد السالك نحو غايته ومراده وقد تبوأ منهم كرسي الولاية العالية بسبب هذه اللالوبة .

وفائدة أخيرة أضيفها هي الغلاف الصلب الذي يضم البذرة وبعد استخراجها ففي هذه الأجسام الصلبة تصلح وقوداً لعواسة الكسرة بدل الخشب والفحم .

أما الحث على التوسع في زراعة هذا النوع من الشجر لهي ضرورة تقتضيها المصلحة العامة بعد أن كان تخلو بعض الأقاليم بعد أن كانت عامرة بهذا النوع

واختفت عن الوجود بسبب سوء الاستعمال وفي غفلة من مصلحة الغابات .
وأنا أرى بعلمي هذا قد تطاولت كثيراً على حقوق هيئة الغابات التي هي جهينة الحقائق لم تترك شاردة ولا واردة إلا بحثتها بحثاً وأصدرت توصياتها وملاحظاتاتها لكنها لا زالت حبيسة الأدرج وعلى أرشيف المصلحة لم تجد فرصتها لترى النور لا تقصير منهم في واجباتهم وإنما لأسباب أخرى خارجة عن إرادتهم وأنا إذ عمدت لهذا الشرح المستفيض لهذه الشجرة وخلافها لا شيء إلا إثارة حفيظة بعض القائمين على هذه البحوث للرد على ما كتبت في أي خطأ ارتكبته ووصف وحقيقة دون قصد لتصحيح المسار وتعميم الفائدة .

ولا يفوتني هنا أن أذكر هذه الواقعة في عام أو أعوام أقيم معرض زراعي بمدينة تالودي بعد أن أعلن عنه بمدة كافية ليأت كل مزارع بمنتجاته الزراعية ورصدت له جواز مالية لكل فائز واشتركت كل مناطق جبال النوبة التابعة للمديرية واسهم كل مزارع بنصيب فمنهم من جاء يقود ثوراً بذل له العناية حتى أصابته السمنة ومنهم من جاء بعنزة حلوب أو شاه سمينه ومنهم من جاء بالكدروك وتكاد بطنه أن تمس الأرض من السمنة وهكذا في كافة الميادين وفي ميدان واسع خطط لهذا الغرض وأقاموا رواكيباً للجلوس تحتها لعرض المنتجات وكان معرضاً رائعاً تحت إشراف وزارة الزراعة والغابات وكان لمصلحة الغابات جناحها الخاص عرضت فيه جميع أنواع الحبوب الغذائية والزيتية وقد جئت خصيصاً لمشاهدة المعرض وكنت أسير بين المعروضات التي جاء بها الأهالي إلى أن وصلت الجناح الخاص بالمصلحة وكان يقف أمام كل صنف خبيراً زراعياً ليشرح لكل زائر كل ما يتعلق بالصنف المعروض بالتفصيل ويجب عن كل تساؤلاتك وقفت أمام معرض الحبوب الزيتية وكانت أنواع الفول السوداني كثيرة لكل صنف مكاناً خاصاً وعليه ديباجة مكتوب عليها اسم الجهة التي جيء به من خارج السودان كيوغندا وزائير ونيجريا وكينيا وما جيء به من مناطق السودان المختلفة كالزاندي مثلاً وكردفان أو شرق السودان وغرب الإيستوائية على العموم كل مناطق السودان التي تهتم بزراعة الفول

السوداني فكنت أسأل وهو يجيب إلى أن تطرقت إلى سؤال بأن أمامي أنواع كثيرة من الفول السوداني هل يمكنك أن تعطيني فكرة أيها أغنى زيتاً من غيرها فلم يجد جواباً حيث قال إنها أنواع كثيرة مستوردة من خارج السودان ولدي من المعلومات وفكرة زرعها كخبير زراعي ونموها والتربة الصالحة لكل نوع والمدة التي تستغرقها لغاية الحصاد والتي تفيد المزارع وأن يختار الصنف الذي يصلح مع تربة أرضة ونحن نزوده بالنصح والإرشاد والبذور اللازمة غير أننا لم نضعها تحت الاختبار من ناحية محتوياتها الزيتية ولكن بالنسبة إلى الصنف المزروع عندنا في السودان يمكنني القول أن أكثرها زيتاً هو ما يزرع في منطقة كردفان مع صغر حبته يليها ما يزرع في مناطق دارفور يلي ذلك محصول الزاندي أما في الطبقة الرابعة هو الكنگولي قلت شكراً . لي سؤال أخير ما رأيك في زيت اللالوب قال هذا أول سؤال أسأله لم يتطرق إليه غيرك قال زيت اللالوب من أجود أنواع الزيوت وزيته أكثر بكثير عما تحتويه حبة الفول لكنه لم يتواجد بالكميات التي يمكن عرضه في الأسواق لتغطية احتياجات المستهلك ولو وجدت له معاصر حديثة لأقبل عليه الجمهور دون غيره من زيت البذرة أو زيت الفول فشكرته للمرة الثانية وأردت الانصراف فاستوقفني ونادى زميلاً له وقال إن هذا الأخ استحق الجائزة عن أحسن سؤال يطرح الغرض منه المصلحة العامة واستحقها بسؤاله عن زيت اللالوب فناولني قفص يحتوي على دسسته من البرتقال فأخذته وانصرفت شاكراً.

البن

عرف البن منذ أقدم العصور واختلفت الروايات في أول من اكتشف البن وجعل منه مشروباً عمّ المعمورة ولعدم المصادر بين أيدينا التي نعتمد عليها تجاوزنا هذه المرحلة واكتفينا بدخوله السودان ومما لا شك فيه كان دخوله عن طريق مصر وقد جاء به الأتراك ولما كان العرب الرحل من الجزيرة العربية قد دخلوا السودان عن طريق مصر جاءوا معهم بهذا المشروب وكان قاصراً على الطبقات العليا من رؤساء وحكام وأغنياء بعد أن توفر في الأسواق أخذ العامة في استعماله كشراب

منعش يزيل الكسل وترتاح له النفس يفتتح به كل بيت يومه مع إشراقة كل صباح جديد لما في اعتقادهم انه يجلب الفال الحسن اعتماداً على بعض الروايات تروى عن الولي الصالح أبو الحسن الشاذلي لا ندري مدى صحتها أم هي مجرد دعاية لهذا المشروب على أيامه الأولى ففي بعض المزاعم ما الصق به من اسم (قاضي الحاجات) ومن هذه الدعاية نال درجة عظيمة من الأهمية وقد بدأت في تعاطيه الأغلبية من سكان السودان أسوة بسكان العالم ومن هنا برز دوره في اقتصاد الدول المنتجة له فتوسعت في زراعته وبدأت في تصديره وكان من الممكن أن يكون السودان من بين الدول المصدرة لو وجد الرأس المفكر والعقل النير وبدأت زراعته محلياً في المنطقة المحصورة ما بين ياي بالقرب من مدينة جوبا حتى مدينة طمبرة هذه الرقعة من الأرض على سعتها وتقدر بملايين الأفدنة من إقليم غرب الاستوائية صالحة لزراعته وزراعة الشاي والكاكاو وشجر المطاط والبنجر وقصب السكر وجميع أنواع التوابل التي نستوردها من الهند وجزر الهند الشرقية إذا أضفنا إلى ذلك جودة التربة ومناسبة الطقس ووفرة الأمطار التي تستغرق تسعة أشهر من العام ومنها ما يكفي للري دون اللجوء إلى ري صناعي كما لنا مساحات أخرى واسعة في مناطق شرق الاستوائية في المناطق المتاخمة إلى حدودنا مع يوغندا - كينيا وأثيوبيا وفي بيان أعم أقول إن نصف مساحة السودان صالحة لنمو البن وخلافه والتجارب القديمة تدل على ذلك ولقد وجد في غابات عزة وجبل صالح بالقرب من مريدي وعدم زراعته يعزى لأحد سببين أما العقل المفكر أو الإهمال والتقاضى في عهد الاستعمار والحكم الثنائي فلو فكر محمد علي باشا عندما كان والياً على مصر وركز اهتمامه على زراعة هذا المحصول بدل التنقيب عن الذهب على سفوح جبال فازو غلي والانقسنأ وأسس المنشآت وجند الجنود واستجلب الرقيق وبعد خسارات كبيرة ومتلاحقة في الأرواح والأموال أصيب بخيبة الأمل حيث لم يجد منه حتى ما يغطي التكلفة فلو بذل هذا المجهود وركز على الزراعة واستفاد من تجارب عزة لكانت مصر والسودان من أغنى دول العالم ولكانت حظنا اليوم

وإنتاجنا منه يفوق إنتاج البرازيل وأثيوبيا وعندما جاء الاستعمار الثنائي تباطأ عن قصد أو عن غير قصد عن فتح هذا الباب واكتفى بزراعة القطن وهو لا يقل عن عائده من مشروع الجزيرة وقد يكونان معاً مصدراً رئيسياً يعتمد عليه اقتصادنا ويبدو لي إن الشركة القائمة في حكم السودان لها أثرها في هذا التقاضي والإهمال لأن نوايا الحكومة البريطانية التي تخفيها وتعمل له جاهدة في الخفاء هو استبعاد الحكومة المصرية عن حكم السودان ليصبح مستعمرة بريطانية خالصة لما فيه من كنوز ومعادن وارض صالحة لكل شيء ومصر تتشبث به خوفاً من السيطرة على مياه النيل ومنابعه أن يقع تحت سيطرة المملكة المتحدة فتسيطر على مقدرات مصر والنيل هو شريان الحياة بالنسبة لمصر والسودان وبريطانيا تنتظر في اناه مشوبة بالقلق حتى بدرت أول بادرة في عام 1924م بعد أن قام بعض السودانيين بحركة انتماء إلى اللواء الأبيض ووقع ما يشبه الثورة فاتخذت منها ذريعة لإبعاد كل مصري عن السودان ولما كان لها ما أرادت شعرت ببعض الارتياح وبدأت تفكر في تحسين حالة الجنوب وأنشأت محطة أبحاث في أنزارا لزراعة البن في مساحات ضيقة حول أنزارا نفسها وتراخت عن هذا الحماس بمجرد نشوب الحرب العالمية الثانية وهب السودان على أيدي أبناءه المخلصين وأخذوا يعملون على ترحيل المستعمر ولما انتزع استقلاله من بين أنياب الأسد البريطاني كانت التجارب قد اكتملت وظهر نجاحها وعلى أيام الحكومة الوطنية فتح باب أمام الرأسمالية الوطنية والشركات لتدخل الجنوب لزراعة البن واستبعدوا الطلبات الفردية وقد تم التصديق لبعضها لكنها في مساحات ضيقة نسبياً كانت نقاط الأبحاث تدمم بالشجيرات فبدأ المزارعون اهتمامهم ونشاطهم ومنهم من جاء بخبراء أجانب ليتولى إدارتها ويرعى نموها بطرق علمية مدروسة ومنهم من باشر عمله بنفسه وكان التوسع يزداد كل عام وقد اكتمل نمو بعض هذه الأشجار واتت أكلها وأنتجت محصولاً يبشر بمستقبل باهر حتى اشتد أوار نار الفتنة وعاث الخوارج في الأرض فساداً فأحرقوا المزارع وقتلوا الحراس وزهد الأجانب وانهوا عقود اتهم المبرمة ورحلوا إلي أوطانهم وبهذا

الرحيل فقدنا خيرات كثيرة يقوم بها بطريقة عفوية في اكتشاف بعض أشياء لم يدر بخلدنا إنها ذات قيمة أو تحتوي على منافع أخرى ، خذ مثلاً كان أحد الأجانب قد أبرم معه اتفاقاً على إدارة مزرعة الأستاذ خضر حمد رحمه الله فأول ما بدأ به بجانب شجيرات البن أخذ يزرع على أطراف المساحة المخصصة لزراعة البن أشجار الباباي الفاكهة المعروفة وهذا النوع من الأشجار سريع النمو وجيد المحصول وفى عام واحد وجد أمامه مزرعة واسعة من هذا النوع وأتت بثمر بكميات كبيرة فجاء بمشط حديدي كالذي يستعمله شبابنا في ترجيل وتمشيط شعره وأخذ يغرز أسنانه في جسم الثمرة التي تشبه الشمام فيسيل منها مادة بيضاء تشبه اللبن يضع تحتها لوح من الزجاج وهذا السائل سريع الجفاف فعندما يمتلئ اللوح أزاحه ليضع بدله لوحاً آخر ويضع هذه الألواح وما علق به من لبن في مخزن له رفوف صنعها خصيصاً ثم يمر على السائل بسكينة تقطع هذا السائل ويضعها داخل أكياس من النايلون ويحكم ربطها ويرسلها إلى وطنه بطريق الجو خارج السودان فسأله أحد أصدقائه من الشماليين عن هذا اللبن فأجابه باقتضاب انه يدخل في صناعة العقاقير الطبية وفي اعتقادي إن هذه الإجابة للخروج من المأزق أو ما نسميه في لغة الجرائد (للاستهلاك المحلي) فان صدق في قوله هذا أم لم يصدق فان لهذا اللبن فائدة غائبة عنا ونحن أمام هذه التجربة التي أفسحت لنا المجال وأتاحت لنا الفرصة للتعرف على محتويات هذا اللبن والسودان مليء بهيئات البحوث ومراكزه المتعددة وعلماءه المشهود لهم بالكفاءة في هذا المضمار أشير إليهم ليضعوا هذه الثمرة تحت المجهر وأن يخضعوها للتحليل الدقيق وينشروا نتيجة هذه التحاليل للاستفادة منها ومع تواجد هذه الأشجار بأعداد كبيرة ويمكن التوسع في زراعتها في بعض مناطق الجنوب .

وبعد أن تبينا زراعة البن وأهميته بما يوجب التوسع بقدر الإمكان لكن كيف التوصل إلى ذلك وأماننا عقبات منها ونحن نسمع وتطالعنا الأخبار عن مؤتمرات تبثها الإذاعات المسموعة والمرئية والمقروءة بأن هذه المؤتمرات التي اختير لها

الصفوة المتعلمة والمتقفة من أبناء السودان لعلاج مشكلة الجنوب والعمل على حلها حلاً سلمياً وبعد المداولات والمناقشات المستفيضة التي اتسمت بالصرامة كما يقولون استقر الرأي بما يشبه الإجماع أن يكون نظام الحكم هو التقسيم إلى ولايات (الفيدریشن) أو الفدرالي أو سمه ما شئت هو أنسب الحلول الذي يمكن أن يؤدي إلى سلام دائم حيث يرضي جميع الفرقاء فهل هذا هو حقيقة الحل الذي يصلح أساساً لحل شامل وكامل ينشر الطمأنينة والاستقرار في نفوس السودانيين مع اختلاف عاداتهم وثقافتهم وأعرافهم ترضى عنه جميع الفرقاء فالجواب على ظاهره نعم أما الخبراء ببواطن الأمور يجيبون بلا لما يساورهم من شكوك بحكم المعاشة الطويلة والتغلغل في أوساطهم ومجتمعاتهم وعرف الكثير من نواياهم وعاشتهم ما يقرب السبعين عاماً وأنا لست متشائماً ولا أريد أن أسبق الأحداث فمن مما لا شك فيه أن التخريب الذي شمل بعض ما شمل معصرة الزيوت التي أنشأت في مدينة يروول عاصمة منطقة البحيرات أقيمت هذه المعصرة لتوفير الزيت لسكان المنطقة واستيعاب محصول السمسم وبأسعار مجزية تجلب للمزارع فائدة كبيرة وكل ذلك لمصلحة سكان المنطقة خاصة والجنوب عامة .

ثانياً حرق وإتلاف كل الآلات والمعدات والمنشآت التي استجلبت لحفر قناة جونقلي وهي المؤسسة الاقتصادية التي خطط لها منذ ما يقرب من مائة عام أو تزيد .

ثالثاً التخريب الذي أصاب مشروع أنزارا وملحقاته من مصانع وورش أبحاث ومصنع نسيج بعد أن أغرق الجنوب بالدمورية المتينة التي فاقت جودتها المستورد رابعاً حرق مزارع البن في كل من أنزارا ومريدي بعد أن آتت أكلها وهي تبشر بمحصول جيد وعائد كبير وقد نزع أهلها وخلفوها ورأوهم تحت ضغط التمرد .

خامساً الضغط على الخبراء الأجانب الذين يعملون في التنقيب عن البترول وتعطيل عمليات التنقيب في الكثير من مناطق البترول بالجنوب حتى اضطر الخبراء للرجوع إلى أوطانهم بسبب اضطراب الأمن والتهديدات التي تصابحهم وتماسيهم.

سادساً التسبب في تعطيل المعامل البيطرية في مدينة ملكال وما يؤديه من خدمات

لصالح الثروة الحيوانية في جميع مناطق الجنوب بعد أن ازدهر وأصبح يكفي حاجة السودان من الأمصال الواقية للحيوان والأمثال على ذلك كثيرة .

فالسؤال الذي يفرض نفسه هو (هل الرؤوس المفكرة من أبناء الجنوب الذين انتمناهم اليوم هل تغيرت نظرتهم نحو أبناء الشمال) هذا السؤال ليس من السهولة بمكان أن يجيب عليه شخص مثلي محدود الثقافة لم يدخل معترك السياسة ولكن الخبرة المكتسبة من التجارب يدخل في نفسي شئ من الريبة والتشكك في إخلاص النية حتى لو قام نظام الولايات واخشي ما أخشاه أن يكون قبولهم لهذا النظام قد بيتوا النية لإستدراج الشماليين ليكونوا اللبنة الأولى والأساس للانفصال ولو إلى حين ونكون ذلك قد فرطنا وأخذنا علي غره وتصيينا لعنة الأجيال القادمة ويتهمونا بالغفلة وعدم النظرة البعيدة التي خطط لها المفاوض الجنوبي ونكون بذلك قد فرطنا ومن باب الاحتياط لكل ما سيجد في المستقبل يجب عند كتابة الدستور أن يكون صريحاً حاوياً وبكل ضبطه بحيث لا يجد حكام الولايات ثغرة يتعدون بها إلى العبث بالسودان الواحد ، وأن ينص في الدستور أن تكون الأرض لمن يفلحها لا فرق بين شمالي وجنوبي وما تحتويه الأرض من كنوز بباطنها سواء كانت مناجم أو بترول نكون خاضعة للحكومة المركزية لا تدخل ضمن اختصاصات حكم الأقاليم ويكون حل المنازعات في الأراضي المملوكة للشماليين بواسطة الحكومة المركزية لضمان حق المستثمر الشمالي من تطاول الحاكم الجنوبي وأن تكون الإدارة مشتركة في الشمال وفي الجنوب على حسب الكفاءة وأن يفتح الجنوب أبوابه أمام العرب الرحل سواء كان بغرض الرعي أو الاستيطان أمثال الرزيقات والحرر والحرر المسيرية وخلافهم ليحصل التمازج بين المواطنين سواء كان بالمصاهرة أو بخلافها ليعيشوا كإخوان في قطر واحد هذا قليل من كثير مما يجب الاحتراس منه والنظر للمستقبل البعيد بعين الاعتبار .

ومن أهم ما يجب الإشارة إليه هي إشراك الحكومة المصرية بمندوب عنها عند وضع الدستور لأنها هي الأخرى لها تخوفها من أن ينص الدستور عن أشياء نراه

ليس من مصلحتها إذا ما وجد الجنوب ثغرة في الدستور ليعمل على الانفصال وبما أنها أمة عريقة سبقتنا في ميادين العلم والحضارة فالواجب الاستفادة من علمها وخبرتها وبعد نظرها إلى المستقبل البعيد ولا تخضع إلى احتجاج من يحتج بإبعادها بحجة إنها مسألة داخلية ليس لدولة أجنبية ليس لدولة أخرى حق التدخل فيها وما استفحال دور قرنق وأعوانه إلا بسبب إلغاء معاهدة الدفاع المشترك بيننا وبين الحكومة المصرية فليس لبقاء لدولة تعتمد على إمكانياتها الخاصة والعدو يتربص عليها بالمرصاد.

الأسد

من منا لا يذكر في فترة دراسته الأولى أو فترة ما بعدها انه قرأ في كتب المطالعة أو في غيرها من بطون الكتب بما يفيد بأن الأسد ملك الغابة والمسيطر عليها وفي بعض الأحيان يقال انه ملك الوحوش هذه التعابير أصبحت صفة ملازمة كلما ذكر اسمه وصار متداولاً بين الناس حتى ألفوه ووصل إلى درجة التسليم بصحته عند الكثيرين منهم ولم نجد من ينكرها أو يتطرق إلى تفنيد هذه المزاعم أو تعرض إلى تحليلها تحليلاً دقيقاً بعد أن أخذها الناس باعتبارها قضية مسلم بها فهل بعد ذلك في إمكان المرء أن يأتي بجديد مغيراً لهذه النظرية التي طغت على مفاهيمهم ورسخت في أذهانهم مهما قدم من أدلة وبراهين لشذوذه عن القاعدة وللناس عذرهم بسبب عزلتهم في ديارهم بعيداً عن دنيا الحيوان ولكن الحق يقال أن المسؤولية تقع على عاتقنا ومن الأمانة أن نقولها قبلت أم ردت استناداً على أحقيتنا في إبداء الرأي بعد أن دخلنا الغابة وتجولنا في جنباتها والتقينا بكل ساكنيها من وحيد القرن والفيل والجاموس والأسد وبقية الحيوانات الأخرى وقد تغيرت عندنا هذه النظرة وتبين لنا أن الأسد ليس أشجع من فيها ولا أقوى ساكنيها فمن أين له هذه الصفة ومن منحها إياه فلو أمعنا النظر واتقنا التفكير تبين لنا أن مصدرها الجزيرة العربية وبحكم طبيعتها ومناخها الصحراوي من محيطها إلى خليجها لا توجد بها غابات تصلح لسكنى الأجناس التي لا يهناً لها العيش إلا بين الغابات كالفيل مثلاً لأن حياته تعتمد

على أكل فروع الأشجار الخضراء ووحيد القرن يعيش على الأعشاب الخضراء والجاموس لا يطيب له العيش إلا في الغابات ليستظل بوارف ظلها ويرعى فيها ولكن الأسد تستوي عنده الحياة بين الغابات والصحاري وأين ما وجد الحيوان لأنه يعيش على أكل اللحوم وهي في متناول يده على الصعيدين ولذلك ذكر الأسد في الشعر العربي ووصفوه بالشجاعة وبالغوا في الوصف ولم نجد ذكراً لوحد القرن ولا الجاموس لسبب واحد هو خلو المنطقة من هذه الأنواع وبذلك حق لهم أن يصفوا ويبالغوا ولم نجد من يقلل من شجاعة الأسد غير بيت واحد نجد فيه أن الشاعر يشير إلى أن الأصله أشجع منه ولنا في هذا الزعم ما يفنده إحقاقاً للحق والبيت لشاعر عربي :-

تغدو الذئاب على من لا كلاب له وتخاف صولة المستأصل الأسد
وللبيت معنى ظاهر لا يحتاج إلى شرح إلا كلمة (المستأصل) اشتقت من اسم الأصله وهي نوع من الزواحف أشبه بالحيات والتعابين لكنها كبيرة الجسم وطويلة قد يصل طولها إلى أربعة أمتار أو أكثر فالشاعر أورد هذا البيت موضحاً أن الذئاب تخشى الكلاب وتخافها أما الأسد فهو أيضاً يحجم عندما يتعرض للأصله أو لكل إنسان نال شجاعة الأصله مما يضفي على الأصله صفة ليست من طبعها وحتى هذا البيت الذي اشتهرت به عندي ما يفند قوله هذا إن ليس للأصله شجاعة يتقيها الأسد أو يخشاها ونحن الذين التقينا بها بين الأحراش وعلى شواطئ الأنهار وعلى ضفاف المستنقعات التي محل سكنها واكتساب قوتها من صيد غافل أو شاه ساقها حظها العاثر أن تمر بالقرب منها فتتقض عليها وتلف جسمها الهائل حول جسمها الضعيف حتى تفقده حركته ثم تضغط عليها حتى تختلف أضلاعها وتموت ثم تبتلعها شيئاً فشيئاً وكانت تفر من أمامنا إذا ما تقابلنا وجهاً لوجه ولم نحاول مرة واحدة الصمود أو الدفاع أو إبداء مقاومة وكثيراً ما وقعت بين أيدي أفراد ويقتلونهم بالفؤوس ولم نسمع أي فرد وقع فريسة لأصله أو أصيب بأذى من جراء تعرضه لها لأن جلدها قد ارتفعت قيمته ارتفاعاً جنونياً فاصبح يطلبها كل من عثر على أثر

لزعجها ليعمل فيها بفأسه .

وللأسد طباعه الخاصة يعرفها كل من له صلة بالغابة ، منها عدم تعرضه للإنسان أن تركته تركك إلا في حالة الجوع الشديد وهو من أكثر المخلوقات صبراً على الجوع وقد تمضي عليه قرابة الأربعين يوماً لا يجد ما يقتات به ففي هذه الحالة يجد نفسه مضطراً للبحث بما يقم به أوده وفي فترة الستينات وما قبلها من هذا القرن وأنا في مدينة رومبيك بمديرية بحر الغزال ترد لنا الأخبار من قرى الدينكا بأن أسداً قد اقتحم منزلاً في أثناء الليل واختطف طفلاً بين أحضان أمه وآخر افترس رجلاً وامرأة من المسنين . إما إذا تعرضنا إلى تصرفات أثناء التي نناديها باللبوة وهذه لهجة محلية أما اسمها بالعربية (اللباءة) فهي مغرورة متغطرسة شرسة الطباع حمقاء تحاول كثيراً مهاجمة الإنسان إذا اعترض طريقها خصوصاً إن كانت تقود أشبالها خوفاً عليها من السطو وبهذه المناسبة لا بد أن نورد هذه القصة والتي بطلها الحارذلو شاعر البطانة يقال إن أحد الرجال مر بشبل من أشبال الأسد وهو في حالة صغره وفي غفلة من أمه أخذه بين يديه وذهب به إلى السوق ربما لبيعه أو لتمتع عامة الناس بالنظر إليه فمر به الحارذلو واستنكر هذا العمل وضمن شعوره هذين البيتين :-

جابوك في المدن ساكت وضبعه أمك في الحريم ماها السهوك سميحه

نترت ناس أبوك اللي الرجال لويعة وانت كان كبر جنبنا تقلب البيعه

وفي رواية إن الحارذلو لم يكن مع وفاق مع الخليفة عبد الله إبان حكمة وكثيراً ما سمع الخليفة عن إنكاره ومعارضته للمهدي عبر عنها في أشعاره فاحتال عليه فلما تمكن منه وضعه تحت الإقامة الجبرية أي ما يسمونه ملازمة الفروه بمعنى انه يلزم الصلوات في المسجد تحت أعين الرقباء مثله كمثل بعض رؤوس قبيلة الشكرية وفي أثناء ذلك جاء رجل بشبل ووضع أمام الخليفة فتذكر الحارذلو وأراد أن يمتحن شاعريته فأرسل في طلبه فلما مثل بين يديه خاطبه قائلاً صف هذا الشبل بأبيات شعرية فقال الأبيات السالفة الذكر . فان صحت هذه الرواية أو تلك فلا

خلاف على الأصل ولا يغير من مضمون القصة وتعتبر هذه الأبيات من أحسن ما قيل في وصف الأسد في شعرنا القومي ولها معاني سامية لو تذوقها الإنسان ولا بأس من أن نتعرض لشرح بعض الكلمات العامية التي وردت فيها إتماماً للفائدة وتقريبها من أذهان القراء فكلمة (درادر) معناها شدة التعب (ضبعه) من الضباع بخروجه من عرينك مما يسبب هلاكك (سهوك) المرأة التافهة (سميعه) المرأة التي تتقبل النميمه ممن تتقلها إليها بعض النساء (النثرة) هي النهرة (لويعه) من اللوعة وهي شدة الخوف (جنباً) معناها صعباً (تقلب) ترد (البيعة) ولها معنيين منها ما يكون بين شخصين بائع ومشتري ورد السلعة المباعه إذا ظهر فيها عيباً وهو حق مشروع ، أما البيعة الأخرى هي إجماع الناس لمبايعة الأمير أو الوالي أو رأساً للقبيلة فالرجوع منها من أصعب الأمور ولا يستطيع الإنسان نقضها بعد هذا الإجماع أو يقف في طريقها إلا من له مكانة اجتماعية وسنداً جماهيرياً يأتمر بأمره ويضحي من أجله وهذا ما عناه الحارثي في شعره .

ومن صفات الأسد الملازمة له عزوفه وترفعه عن أكل الميتة التي لم تكن من ضرب يده إمعاناً في عزة النفس وهو يستعمل يده اليسرى بعد الاعتماد على يمينه وبها سمي (الأعسر) فإن أصابه ما يعوق استعمال يسراه لجأ إلى الحيلة وللتخفي بين الأعشاب لينقض على صيده ويعمل بها أنيابه وها نحن قد قدمنا بعض خصائصه وإن كانت لا تخلو من محامد وتسامح لكنها لا تغير من نظرنا في معارضتنا على هذا العرش انه بوجود وحيد القرن الذي دلت التجارب ومواقفه الجبارة انه أشجع وأقوى سكان الغابة وهو أحق بالملك منه يليه في المرتبة الثانية الجاموس أما الأسد نفسه فمكانه الدرجة الثالثة ونترك الرابعة للفيل وبهذا السلم المتدرج لم نأت به اعتباطاً ومن عندياتنا إلا بعد مواقف وممارسات هي حصيلة نصف قرن من الزمان أو أكثر بقليل مع الحيوانات في غاباتها وبين الأحرار مع هوامها ونحن إذ نضع هذه المعايير إثباتاً للحقيقة التي لم يتطرق إليها غيرنا مع إن الكثيرين ممن وصلوا إلى درجة صياد يؤيدوننا ويؤمنون بصحة وجهة نظرنا لكنهم

لم يجدوا فرصتهم لإبداء رأيهم أو تدوين ملاحظاتهم وإني لمدرِك وأحس بأن هناك من يخالفنا ويعتبرنا أننا نعوم عكس التيار بسبب هذا الخروج عن القاعدة فإن يصفوننا بالقدم والعموم عكس التيار خير لنا من أن يصفوننا بأننا (إمعة) وما قدمناه من أدلة وبراهين ليست نقلاً عن أفواه ولا ظناً إنما هي مشاهد ومواقف وقفناها فمن أصدق قولاً ممن يقول إني شاهد عيان وقد أدم هذا القول بدليل آخر قد شاهد الكثير من الناس أثناء زيارات فرق أجنبية وصلت السودان تعرض تعرض أكروباتها ومنها ترويض الأسود وهو فرد واحد يسوق أمامه قطيع من الأسود وفي يده صوتاً يخيفها به وللأفيال مثل ذلك رأيناها كما تدعن لأمر المروض فهل يستطيع أن يأتيها بأحد حاول ترويض قطيع من وحيد القرن أو سرباً من الجاموس هذا ما لم يحدث حتى الآن فإني أهيب بكل من رأى رأيها هذا أن يسعى جاداً في تصحيح المسار لينير الدرب أمام الأجيال القادمة لئلا تقع في ما وقع فيه عامة الناس من خطأ .

التمساح - (1)

التمساح يعتبر من فصيلة الزواحف لتوافقه لكثير من الزواحف من حيث التكوين والطباع والعادات ولا يمكن رده إلى فصيلة الحيوان رغم كبر جسمه وحياته التي تشبه حياة الحيوان وقد خصته الطبيعة بأن يعيش برمائي لحماية صغاره ولا تجد فرصتها لتعيش على صغار السمك قبل أن يقوى على ممارسة ومطاردة وافتراس الإنسان والحيوان ثانياً كعادة الزواحف ولجئها إلي التخفي في طريقة اقتناص فريستها وليس في مقدورها باستعمال القوة كالحوانات المفترسة الأخرى ولذلك وجدت في الأنهار والمستنقعات خير معين لها ويكثر تواجده في حوض النيل الأبيض والأزرق وروافدها من المنبع إلى المصب وكانت قبل سنوات قليلة مصدر خطر وإزعاج على كل وارد ماء إنساناً كان أم حيوان فلا يأمن الوارد على حياته ويخشى وهو في عقلية أن يجد نفسه بين فكي تمساح كثير ما يميل إلى الحيلة والغوص في الماء في أماكن الورد في انتظار الوارد فيهجم عليه وهو عنه غافلاً

ولا يعمد إلى مطاردة فريسته على اليابسة إلا في حالات نادرة إما بسبب الجوع الشديد أو أن يكون قد قويت بنيته واشتد ساعده أو أن يظفر بقطيع من الغنم قد تخلف عنه راعيه أو بعيداً عنها أو شخصاً ينام في العراء على مقربة من الشاطئ فيضطر للجري وراء فريسته حتى يدركها ويبطش بها كان ذلك قبل سنوات قليلة وقبل أن تحل بها الكارثة عندما وجدت جلودها سوقاً رائجة وتجارة رابحة وفتحت الدول الغربية أسواقها واستقبلتها المصانع وتلاقفتها الأيدي وفتحت الحكومة أمامها أبواب التصدير وكانت تجارتها وفقاً على اليهود الذين نزلوا الأسواق بنقلهم وصرفوا الأموال وبذلوا بسخاء فأول من اهتم بها هم الفلاتة وجندوا أنفسهم وما لديهم من إمكانات من مراكب صغيرة وجابوا عرض الأنهار وشواطئها في الليالي الظلماء مستعملين الأنوار الكاشفة حتى هجرت الأنهار عندما اشتد عليها الضغط وشعرت بالخطر وقد يظن البعض إن هذا القول على سبيل المبالغة لكنها الحقيقة التي شأهت وأنا أكثر الناس تجوالاً بين الغابات وقد شأهدها غيري الكثير والآن وبعد أن خلت الكثير من مناطق السودان من هذا النوع ولم يبق منه في بعض المناطق إلا القليل النادر وهو يسير بخطى واسعة نحو الانقراض ومن هنا يبرز سؤال أوجهه إلى الجمعيات والهيئات التي أوقفت نفسها للمحافظة علي البيئة قبل الحكومة والسؤال هو (هل خطر التمساح علي الإنسان والحيوان بالدرجة التي تبرر إبادته بهذه الطريقة وهو مخلوق كسائر مخلوقات الله خلق ليعيش وإني لست مبالغاً في القول إن قلت أن بعد أعوام قليلة تساعل الجيل القادم عن ما هو التمساح وكيف كان يعيش ولا يجدوا ذلك إلا رسمه في الكتب والأوراق فعلى هذه الهيئات أن تقف بحزم وتلفت نظر الحكومة لوقف هذا العبث والفساد المستشري وما حاق بالثروة البيئية والطبيعية وان تحميها بسن القوانين الرادعة وتطبيقها على كل من يبعث بها.

وللتمساح خصائص قد لا تجدها في الكثير من أنواع الزواحف الأخرى فمثلاً تصرفاته وإلهاماته في أوقات البيض والتفقيس فأنثاء تسمى الصغيرة لأن لونها يحمل

الطابع اللامع مما يجعل الإقبال علي صيدها اكثر من ذكورها التي تسمى اللدر وهو يميل لونه للسواد وجلده خشن الملمس والتماسيح من المخلوقات التي تعمر طويلاً كالنصور والعقبان والحيات والأفاعي والأفيال ومن خواصه انه خلق من غير لسان ولا أضرار وله أنياب حادة وموضوعة بطريقة خاصة يدخل كل ناب منها بين نابين ويسمي عاشق معشوق في لغة التجارين وتسبب له مضايقات كثيرة عندما تتقدم به السن لأنه هو الوحيد من بين المخلوقات الذي يحرك فكه الأعلى وان سائرهما يحرك فكه الأسفل فكلما تقدم التماسيح في السن غلظت أنيابه فتضيق المسافة بين الأنياب بعضها عن بعض هذا من ناحية أما الناحية الأخرى إن راس الناب يكون حاداً ورقيقاً فيحفر حفراً على الفكين بسبب اشتداد الضغط فتتشابك الأنياب وتلتصق بعضها ببعض فيتعذر معها فتح الفم إلا بصعوبة ولا يتسنى له ذلك إلا بعد أن يصطدم بجسم غليظ كالحجر أو جذع شجرة تساعده علي ذلك وقد يفقد فرصته في بعض الأحيان بسبب ذلك التشابك للنيل من فريسته ويعجز من فك أنيابه وعرزها في جسمها وتجد فرصتها في النجاة وفي مثل هذه الحالة يلجأ إلى طريقة أخرى ضرب الفريسة بذيله الطويل حتى تفقد وعيها وحركتها على المقاومة فيضعها تحت إبطه ثم يغوص بها في الماء حتى تموت إن كانت ضعيفة الجسم أما إن كانت من الأنواع الكبيرة الجسم كالبقر وغيرها فانه يعمد إلى الركوب على رأسها كي يغرقها في الماء فهو عندما يقوم بكل هذا المجهود يسلم تماماً إن ما اصطاده ليس ملكاً له ولا ما غنمه يضمن أن يأكله لأن في جوف الماء من هو أقوى منه فكثيراً من الحالات ما تعترض طريقة شلة من أبناء جنسه وتحاول أن تنتزعها منه فيدخل في معركة قوامها اكثر من واحد وكثير ما شاهدنا مثل هذه المعارك في عرض النهر بين ثلاثة أو أربعة منها وهي في حالة حرب مع بعضها فهذا يهجم وذاك يفر وذاك يغوص وذاك يطفو وتستمر هذه المعركة لأكثر من ساعتين وقد تنتقل المعركة إلى اليابسة مما يعطي الفريسة فرصة النجاة إن كان بها شيء من الحياة لاشتغالها ببعضها إلى أن يتحقق المثل القائل (البقاء للأصلح)

ويكسب المعركة ويفوز بالفريسة ويأخذها ويذهب بها بعيداً ويخفيها بين الأعشاب ثم يعود لها بعد تفرق الجمع وله في الأكل طريقة خاصة فهو يقطع قطعة من جسمها ثم يهرسها بين أنيابه لتتكسر العظام ويهزها هزاً شديداً حتى تتناثر العظام وتتطاير حوله ثم يرميها إلى أعلى ويتلقاها بفمه ثم يزدردنها هكذا إلى أن يأخذها ويأخذ كفايته منها ثم يخفي ما تبقى منها ليعود إليها في الغد .

وكنا نعتقد ونحن في حداثة سننا مما نسمعه من حكايات الحبوبة التي تكون عادة ليلاً عندما نأوي إلى الفراش وتكون من وسائل جلب النوم بإراحة الجسم من التعب الذي يلقاه أثناء النهار وكانت تقول إن الكلب هو الذي سرق لسان التمساح فكنا كلما رأينا كلباً يرد الماء نادينا قائلين (سيد اللسان جاك) فيترك الماء ويولي هارباً وهو يتلفت في جرية ولكن الحقيقة إن هروبه بسبب صياحنا عليه وتلفته خشية أن يجري الأولاد خلفه ويرموه بحجر .

أما طريقة وضع الأنثى للبيض فهو العجب فالأنثى عندما يحين وقت البيض تخرج وتتجول في الأماكن القريبة بحثاً عن الأرض الصالحة وتبدأ بتجاربها في أكثر من موضع حتى تجد ما يلائمها من التربة فتحفر حفرة نحو ستين سنتيمتر عمقاً وخمسين عرضاً وتفرغ كل ما بداخلها من بيض واحدة تلو الأخرى ثم تدفنه دفناً محكماً تعود بعدها إلى النهر وكنا نرى إن بعض الحفر التي تركها هي من باب التمويه والتعمية والتضليل خوفاً أن يعثر علي البيض أحد لأن بعضهم يأكله ولكن الاعتقاد السائد هو عدم صلاحية التربة بعد فراغها من هذه العملية فهي لا تعود إليه ولا ترجع إلى مراقبته ويكون عادة في الأسبوعين الأخيرين من شهر يونيو من كل عام فهي تنتهز فرصة الأمطار والأعاصير التي تسبق الخريف ليساعدها علي محو آثار أقدامها وتسوية الأرض التي وضعت فيها بيضها وتسويته بالأرض حتى تحين ساعة التفتيس وتكون غالباً في أواخر شهر يوليو فتعود إليه دون أن تضل طريقها ومن هنا يأتي العجب الذي يعجز العقل البشري عن أدراك كنهه ولا يجد حلاً لهذا اللغز المحير ولا تفسيراً ولا تأويلاً غير الرجوع إلى قدرة الخالق العظيم

الذي احسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين وكما يقول بعض الصالحين (إن الله قادر أن يضع سره في اضعف خلقه) والغريب في الأمر هو أنها أي أنثى التمساح قد قضت أكثر من شهر بعيدة عن مكان بيضها ثم تأتي في الوقت المناسب بالساعة والدقيقة في الوقت الذي يكون قد آن أوآن خلاصه من ذلك القفص ليبدأ حياة جديدة فتجئ الأم وتحفر هذه الحفرة وتكشف عن غطائها من رمال وتراب وتسمع طقطقة البيض وهو يتفتح عن صغارها وهي تراقب الموقف وتساعد الذي وجد صعوبة للتخلص من قشرة البيض حيث تخلصه ويعتلي ظهرها وتسير بحملها في بطن شديد حتى لا تتساقط عن ظهرها حتى تصل شاطئ النهر ويدخلوا الماء ويعيش من الوهلة الأولى على كسب قوته من صغار السمك فكيف أحصيت الليالي والأيام لمدة أكثر من شهر بقليل وجاءت في الوقت المعين لوقت التفقيس وصغارها في انتظار عودتها لتخرجهم من هذا القبر ليشقوا طريقهم في الحياة وهذه الظاهرة تجعلنا نؤمن بأن لهذا الكون خالقاً ومديراً يسيره في خط وطريق مرسوم لا إرادة لإنسان فيها ولا تحكم فإله وحده هو المسيطر فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر .

والتمساح يبيض مرة كل عام ويتراوح عدد بيضه من عشرين في أول بلوغه ثم يتزايد العدد كل عام حتى يصل إلى أكثر من ثلاثين بيضة وبيضه يؤكل وهو في حجم كرة الطاولة ابيض يميل إلى الحمرة وكما إن القبائل الأفريقية والعرب الذين يقطعون شواطئ الأنهار يأكلون لحمه خصوصاً لحم ما يسمونه الوزيره أو العكوه وهو أول الذيل مما يلي الأرجل الخلفية يقال أن لحمه يعطي الجسم مناعة ومقاومة ضد مرض الرطوبة ووجع المفاصل كما يسميه بالعامية فان القينا نظرة فاحصة علي سكان الجنوب والذين يعتبر غذاؤهم الرئيسي لحم السمك والتمساح نجد إن هذا الاعتقاد لا يخلو من الصحة لأنك لا تجد من بينهم من يشكو من هذه الأمراض مهما طال به العمر أو أدركتهم الشيخوخة فهو لا يعاني ألم المفاصل ولا رطوبة تقعده عن الحركة فما رأي الطب الأطباء والباحثون.

ليس خاصية البيض والعودة إليه بعد مدة تطول أو تقصر ليست قاصرة علي التماسح وحده بل هناك ما تشاركه في هذه الخصوصية السلحفاة فهي تضع بيضها بنفس الطريقة ثم تعود إليه بنفس الإلهام والشعور فتجده وقد دخلته الروح وهو يتنازع الخروج وتعود بها إلى النهر أما الورل فهو المشارك الثالث الذي يتابع بغريزته نفس الطريقة وبمناسبة ذكر الورل ووروده هنا وجب علينا أن نصحح بعض ما علق بأذهان الناس ونرد كل شئ إلى أصله مبينين نقط التوافق بين النوعين ونقاط الخلاف بينهما وللان الكثير من يعتقد أن الورل هو ابن التماسح الخاسر الذي خالف طبيعة جنسه وانف دخول الماء وآثر الحياة البرية حتى أصبح مضرب مثل لكل شخص ينشق عن اخوته ولم يصادف نجاحاً في حياته فيقولوا عنه (بقى ورل) لكن الحقيقة أن لكل من التماسح والورل نوعية ولكل منها جنس قائم بذاته له حياته الخاصة فالتماسح يكبر جسمه حتى يصل إلى ثلاثة أو أكثر قليلاً من الأمتار بينما الورل لا يزيد عن المتر الواحد كما إن التماسح يحرك فكه الأعلى وهي من خواصه التي لم يخصص به الله من خلقه حيواناً أم إنساناً بخلاف الورل الذي يحرك فكه الأسفل كما أن التماسح خلق من غير لسان وجعل للورل لسان ذا شعبتين ليثني له الأطباق علي فريسته ويضعها بينهما في شكل كماشة لئلا تفلت من قبضته كما انه لا يستطيع العيش داخل الماء والورل نوعان نوع يحلو له العيش بين الغابات والأشجار ويكتسب اللون الأغيش ولحمه يؤكل كما أن هناك من يقول إن هذا النوع يوجد في الجزيرة العربية ويخرج لصيده الملوك والأمراء بغرض لحمه بتغيير في الاسم حيث ينادونه (الضب) أما الضب المعروف عندنا الذي يسكن المنازل ويتسلق الحيطان فهو (الوزع) كما أن في السودان له ما يأكلونه أما النوع الثاني فهو ما يسكن بالقرب من الأنهار والمستنقعات ويكتسب اللون الأخضر على لون الحشائش التي يعيش فيها وغير مستساق اللحم لا يؤكل إلا للضرورة ومن بعض القبائل . ومن الملاحظ أن التماسح عندما يخرج من الماء ويرقد على اليابسة يفتح فاه لمدة طويلة فكان الظن انه يشرب الهواء ويخترنه بين رثتيه ليستفيد

منه أثناء عومه في الماء ليملك أطول مدة ممكنة ولكن بعد طول المراقبة والملاحظة وجدنا الحقيقة غير ذلك وقد سبق أن ذكرنا أن أنيابه الحادة تعمل حفراً في الفكين الأعلى والأسفل وتمتلى هذه التجاويف بفضلات اللحم مما يسبب تعفنها وديداناً صغيرة تعيش بين أنيابه فتزعجه مما يضطره لفتح فاه وهناك نوع من الطيور صغيرة تدخل بين فكيه وتلتقط الفضلات وما معها من ديدان فيجد في ذلك راحة فهو لا يؤذيها ولا يتعرض لها وهي الطيور الوحيدة التي تربطها معه معاهدة حسن الجوار وعدم اعتداء كما يقول السياسيون ونحن قد بينا أوجه الخلاف بين النوعين نرى من الواجب أن نذكر بعض نقاط التي يلتقي فيها أو يتفقوا عليها وهي قليلة محصورة في طريقة البيض والتفقيس والهيكل الخارجي .

أما طريقة صيد التمساح في عصور ما قبل انتشار الأسلحة النارية بواسطة البدينقة وهي مستعملة الآن بين القبائل النيلية انظر الشكل نمرة وعلى أيد أشخاص معروفين وذو خبرة اكتسبوها بطول الممارسة والمران فعندما يفتك التمساح بإنسان أو حيوان أو يكثر تردده على موارد المياه و يخشوا الناس خطره يرسلوا في طلب أحد هؤلاء المتخصصين فيتعرف أولاً عن مكان نومه أثناء ساعات النهار ووقته الذي يخرج فيه ويأوي إليه ويراقبه ويمهله حتى ينام فيزحف الصياد على بطنه دون أن تصدر منه حركة تنقظه إلى أن يقف بجانبه إلى أن يقف وهو ممسكاً بالبدينقة على يده وينهره قائلاً (جر) كما يقال للكلب فيقوم فرعاً فيبادره بطعنة تغوص في لحمه ويهرب نحو النهر وهو يجر حبل البدينقة خلفه والعمود مربوط بطرف الخيط فكلما غاص في أعماق الماء فالعمود طاف يدل على مكانه ثم يتبعوه بمركب ويمسكوا بالحبل فكلما طفى على وجه الماء طعنوه بأخرى وهكذا حتى يموت هذه إحدى الطرق . أما الطريقة الثانية إن كان التمساح جوالاً لا يستقر به قرار ويمر على الكثير من موارد المياه يربط له سخل صغير من الماعز لأنه عادة كثير الاختفاء ويختبئ الصياد بالقرب منه فعندما يشعر التمساح بوجود السخل يشق طريق ليفترسه فعند خروجه من الماء يجري مسرعاً نحوه فيعترضه الصياد بطعنه

بالبدينة فيرجع إلى النهر والصيد يتبعه بنفس الطريقة الأولى وهذه اشد خطراً على الصيد من الطريقة الأولى . أما الطريقة الحديثة التي كان أول من استعملها الفلاته بواسطة البطارية يجوبون طول النهر وعرضه يرسلون ضوءها شرقاً وغرباً في الليالي المظلمة وهم على ظهر مراكب صغيرة فبمجرد ما سطع النور على عيني التمساح تبدو حمراء كالنجم أو كضباب من نار فيسلط عليه الضوء والمركب يتقدم نحوه ببطء والنور الكاشف قد اخذ ببصره حتى يدنو منه فيطعنه بالبدينة ثم استبدلت البدينة بالفأس يضرب بها على أم رأسه فيموت في الحال وبهذه الطريقة السهلة أصبح المقتول منها في الليلة الواحدة قد يصل إلى أربعة أو خمسة فأخذ عدد الصيادين يزداد يوماً بعد يوم ولما كانت أسعار الجلود قد إرتفعت إرتفاعاً جنونياً إستهوت الكثير من أولاد البلد فدخلوا هذا المعترك واخذوا في إستعمال الأسلحة النارية (بنادق الخرطوش) بدل البدينة والفأس ودخلوا الأنهار والمستنقعات في رحلات بعيدة تستغرق أياماً عدة حتى كادت أن تخلو منه الأنهار ومياه المستنقعات بسبب الفوضى وغفلة الحكومة وإني إذا أدق ناقوس الخطر بكلنا يدي لان انبه الحكومة من غفلتها وان تقوم بمسئوليتها وتشعر بواجبها وتتمسك بحقها وتفرض حمايتها علي هذا النوع من المخلوقات حفاظاً على البيئة وتنقذ ما يمكن إنقاذه بعد ما أصابه من قتل وتقتيل وكثير ما خطر ببالي وأنا أفكر في هذا المصير الذي ينتظره وهو الإنقراض لا شك كنت أقول (هل خطورة التمساح سواء كان على الإنسان أو الحيوان ما يبرر قتلته وإزالته من الوجود) وما أظن ذلك ، فهو مخلوق مثله كمثل الحيوانات المفترسة الأخرى ويجب حمايتها ومن حقها أن تعيش وإني لأرجو من الهيئات التي جندت نفسها لحماية البيئة أن تتضمن بصوتها أو أن أضم صوتي مع صوتها وإني لمؤيدها دون تحفظ في مهمتها الإنسانية حتى تستجيب الحكومة وتعمل على إنقاذاها وليس هذا النداء الصارخ من جانبنا بقصد حماية التمساح فحسب بل يشمل كل الحيوانات البرية الأخرى التي تعرضت للفتك بعد الفوضى التي حلت بالجنوب .

وللتماسيح حيل كثيرة لصيد فريستها منها في العشرينات من هذا القرن وأنا في مدينة ملكال تعرض أحد الأشخاص اسمه (جنا فروه) اسم اشتهر به وهو يعمل حمال في السوق من قبيلة الشلك أطلق عليه هذا الاسم من الشماليين اشتقوه من لباس أمه للفروه . وفي ذات يوم نزل الماء ليستحم فاخطفه التمساح وكان هذا التمساح كبير الجسم يتعرض لكل إنسان يرد الماء حتى أصبح مصدر خطر فشكوا الناس إلى مفتش المركز فاتصل بقائد الحامية واختير أحد الجاويشية المهرة في الرماية واخذ سلاحه وهو يجوب ويؤم المشاريع لثلاثة أيام لم يظهر له أثر وفي اليوم الرابع بعد الساعة العاشرة صباحاً شعر بشيء من العطش فوضع سلاحه علي الأرض ودخل الماء ليروي ظمأه فما أن وصل الماء ركبته حتى هجم عليه التمساح وشق طريقة في عرض النهر يحمل فريسته(3) .

الحنظل

التعرض للتعريف بمثل هذه الأشياء الصغيرة التي يعتبرها البعض غير ذات موضوع فقد يراها البعض الأخر ضرورية لإتاحة الفرصة أمام من لا يعرف ، فان بعض هذه الأشياء ذات منفعة خاصة للإنسان والحيوان لان الحيوان جزء من حياة الإنسان ويجب العناية به ومن هذه الأشياء نبات الحنظل وهو معروف من قبائل العرب منذ اقدم العصور وله فوائد كثيرة .

فالحنظل نبات يشبه نوع من البطيخ الذي نسميه الخدج او العليج من حيث الأوراق والثمار والحجم أما اللون فهو ذو خطوط يميل إلى الصفار كلون البطيخ الروسمان ينبت كثيراً في القيزان الرملية من جهات كردفان ودارفور وبعض قيزان النيل الأبيض وهو مر المذاق لا يعادله في مراره إلا المر الحجازي أو الصبر السفطري وهي مستحضرات طبية يليه من مجموعات نباتات ذات مرارة والحنظل يضرب به المثل للدلالة على ذلك ما ذكره عنتره بن شداد في شعره :

لا تسقني ماء الحياة بذلة	بل فاسقني بالعزة كأس الحنظل
ماء الحياة بذلة بجهنم	وجهنم في العزة أطيب منزل

وكما ذكرته المغنية الكردفانية في قولها :

اسمك ثقيل يافلان زي حنظل القيزان

هذه المغنية تتحدث بلسان أجيال ما قبل غزو المدينة الحديثة التي غيرت الكثير من المفاهيم تحت شعار المدنية كما غيرت في الكثير من عاداتنا عندما كانت المرأة تتحاشى أن يرد ذكر اسم حبيبها أو زوجها على لسانها وإن مرارة الحنظل أهون عليها وأكرم من يجري اسم الزوج المحبوب على لسانها إحتراماً وتقديراً وقد تتاديه في حالات الاضطراب باسم ولده يا أبو فلان أو ببنته أبو فلانة ، ولا انسي حادثاً وقع وأنا لا زلت في سن الخامسة والعشرين من عمري عندما تشاجر زوجان وبلغ الخصام نروته ويأس الأجاويد من إصلاح ذات البين طلبت الزوجة الطلاق فرفض الزوج وعادت الأجاويد مرة أخرى ليجعلوا حداً لهذا الخصام بالطلاق فلم يفلحوا ولم يستجيب الزوج وفي جلسة جمعت الكثير من أهل الطرفين وقفت المرأة وقالت بصوت عال سمعه الجميع (يا مصطفى أنت داير مني شنو) فمصطفى هو اسم الزوج فاعتبرها أكبر إهانة وإساءة لحقت به أن تتاديه باسمه أمام الجميع وقال (انت قنعت حقيقة) فطلقها في الحال .

ومن خصائص الحنظل وهو نبات يتمدد علي وجه الأرض ويغطي مساحة كبيرة ويظل يحتفظ بخضرته طيلة فصل الخريف وحتى نهاية فصل الشتاء مما يجعله يحافظ على صفات التربة يمنع تحرك الرمال الذي تزوره رياح الشتاء العاتية مما يسبب الزحف الصحراوي الذي نشكو منه ونخشاه وللحنظل فوائد أخرى في علاج الكثير من الأمراض كالأورام الخارجية من لبابة وفي علاج بعض الأمراض الباطنية كما هو علاج لكثير من الجروح التي تصيب الإنسان وبهذه المناسبة أقول قد أصيب أحد أصدقائي بحكة في ساقه يظهر على شكل بثور خفيفة وتسبب له أكله فيهرشها بأظافره فيسل منها ماء بسيط وفي اليوم الثاني تتطور إلى قرحة وعرض الحالة على الأطباء واستمر الكشف والعلاج فلم يجد فتيةلاً وأخيراً قرروا أن الإصابة نتيجة عدم وصول الدورة الدموية لهذه المنطقة من الأرجل وجاء طبيب

بلدي وبعد الكشف أمره باستعمال القطران بعد غسل الجروح بماء ساخن وتنظيفها جيداً ثم مسحها بالقطران بقطعة نظيفة أو خرقة من قماش ولما كان القطران يسبب آلاماً قد لا يتحملها المرء فلا بأس من تخفيفه بإضافة كمية من زيت السمسم ولم تمر فترة أسبوع حتى ظهر تحسناً على الجروح واستمر في التحسن حتى جفت وبرئت نهائياً والقطران علاج معروف عند جميع قبائل العرب منذ القدم عندما تصاب الإبل بالجرب وهو مرض فتاك تنتقل عدواه بواسطة الاحتكاك فيعدي الأجرى السليم حتى يعم كل القطيع مما يفتك بالكثير منه إن لم يجد العلاج وطريقة علاجه سهلة فيؤتى بالبعير الأجرى ويعقل من قوائمه الأربعة وهو بارك على الأرض على شاطئ النهر أو الغدير ويصب عليه الماء ويؤتى بطوبة حمراء وحجر خشن ويحك به مكان الجرب حتى تسيل دماؤه ثم يمسح عليه بالقطران ولما كان القطران شديد الألم مع الجروح يحاول البعير أن يرقد على الأرض ليحتمل بها ففي هذه الحالة يربط على صدره عود من الخشب يمنعه من الرقاد فيظل قائماً تعاد هذه العملية مرتين أو ثلاثاً فيتم الشفاء وقد ذكره الحارثي شاعر البطانة المعروف بقوله :

الليل والنهار واحد علي العميان واللوم والشكر واحد علي السجمان

عز الراس دهن عز الحريم وليان عز الخيل لحم عز العرب قطران

ضمن الحارثي هذه الأبيات من الحكم ما تستحق الوقوف عندها طويلاً فلا شك أن الليل والنهار سيات عند الأعمى الذي فقد بصره لأنه يعيش في ظلمة لا يميز بين النهار و الليل مادام فقد حبيبته والسجمان هو الشخص الذي يعيش على هامش المجتمع المتبدل الشعور والإحساس راض بالمدلة والهوان وهو عكس الطموح وعز الرأس دهن إشارة إلى أن الشعر عندما يجد حاجته من الدهن الذي يغذي بصيلاته فينمو نمو حسناً يزيد من غزارته ويمنعه من التساقط فيصبح سلساً لامع السواد وهو ما يزيد من جمال المرأة وكثير ما تغني الشعراء به ، أما قوله عز الحريم وليان فهي ابلغ حكمة وأجمل إشارة لإختيار الزوجة الصالحة المثالية عندما تكون

مطبعة لولي أمرها من الرجال الذين من حولها والقائمين على تربيتها على النهج الصحيح وكثيراً ما نسمع من الخاطبين عند إجتماعهم مع أهل الفتاة يقولون (نحن ما جئنا نخطب امرأة فحسب بل جئنا نخطب رجلاً) لأنهم هم الملجأ والملاذ والرجوع إليهم إذا ما وقعت جفوة فالمرأة التي تحترم أولياء أمورها تعمل ألف حساب لأي خطوة قبل أن تخطوها احتراماً وتقدير لهم كي لا تضر بسمعة ولا تقلل من مكانة أولياءها الاجتماعية هذه هي المرأة التي أوتيت من راحة العقل الشيء الكثير الذي ستجد ثوابه عند الله والناس .

أما قوله عز الخيل لجم وهو جمع لجام فاللجام بالنسبة للفرس شئ لابد منه ليكبح من جماحه لأن الخيل تعد من اقوي الحيوانات أقواها شكيمة وأصعبها مراساً ولذلك كانت اللجم هي الإدارة الوحيدة التي أذلت من كبريائها وقللت من غرورها واستطاع الإنسان أن يجعل منها حيوان ذللاً يسيره وفق إرادته .

أما المقطع الأخير من البيت الأخير هو عز العرب قطران له معناه ومغزاه بحكم عملهم بتربية الحيوان وتوفير سبل الراحة له ولو على حساب راحته هو فهم يفضلون مجاورة المرعى وقرب الكلاً ولو بعدت موارد المياه فالماء يمكن توفيره بواسطة حمله على الدواب ففي حالة الورود بواسطة الجمال تعمل له قرب من جلود البقر وتسمى السقاء كلمة عربية فصحي لأنها اكبر وتناسب حمل الجمل أما إن كانت الوارد حماراً فيعمل له قرب من جلد الشاة وإن كان الوارد إنساناً ولا يستطيع حمل القرية فله السعن وهو ما يصنع من جلود صغار الضأن أو المعز وفي كل الحالات الثلاث لابد من مسحها بالقطران لأنه يقوم بترطيبها ويجعلها مرنة لئلا يكون عرضة للتكسير إذا جفت ويجعل منها أكثر تحملاً وأطول بقاء وللقطران نكهة محببة لدى شارب الماء .

بقي علينا أن نعرف كيف يستخرج القطران ومم يستخرج القطران يستخرج من كل الحبوب الزيتية كحب البطيخ والسينان وبذرة القطن والقرطم والحنظل وهو أجود الأنواع يليه ما يستخرج من القرطم في الدرجة الثالثة ما يستخرج من بذرة

القطن أما طريقة استخراجه فهي طريقة بدائية مستعملة منذ اقدم العصور وهي عبارة عن برمتين من الفخار توضع الحبوب في واحدة منها وتوضع على فتحته قطعة من الفخار مخرمة الوسط تكون كمصفاة ثم يؤتى بالبرمة الأخرى الفارغة تكون من اسفل وتوضع مقلوبة أي ملاقة الفوهتين بالطين بطريقة محكمة ثم توضع داخل حفرة ثم توقد النار سواء كان خطيفا حطباً أو روث البقر فتحترق الحبوب وينساب زيتها داخل الإناء الفارغ وبذلك تكون قد حصلت علي القطران ويطلق عليه اسم الركاب .

التيلبون

في بعض الأحيان ينتابك شعور بان الاستعمار البريطاني إذا القينا نظرة عامة على العناية التي أولاها الاستعمار البلجيكي وسعيه الحثيث نحو تقدم مناطق نفوذه كإدخال بعض المحاصيل الزراعية كأشجار المنقا والباباي والأناناس والبقرة والقشطة والتيلبون وغيرها كثير وكل هذه الأنواع دخلت السودان عن طريق الكونغو البلجيكي دون أن يكلف الاستعمار البريطاني نفسه للعمل لإدخال شئ واحد لتحسين وضع الفرد أو يزيد من دخله إذا استثنينا سلعة القطن وكان غرضه من ذلك تشغيل المصانع الإنجليزية بتوفير مادة الخام جرياً وراء مصلحة المملكة المتحدة غير ملق بالاً على فائدة السوداني فالتيلبون الذي موضع حديثنا اليوم هو دخيل جاء به البلجيكي وهو شبيه بما نسميه عندنا في السودان بأم أصابع نوع من النبات يحمل حبوبه بين أفرع تشبه أصابع اليد ومن هذا الشكل إتخذ إسمه ، يتواجد هذا النبات (أم أصابع) في الخيران والأماكن المنخفضة ولها حبوب تشبه حبوب الجرجير من حيث الحجم أو أدق وبنفس اللون يؤكل ويعمل كعصيدة خصوصاً عند حلول المجاعات وله تأثير كبير علي انفراج الضائقة وإسمه عندنا (الكوريب) والتيلبون هو نفس الفصيلة غير انه يمتاز بكبر الحبة وهو يزرع أما النوع الأول فهو نبات بري لرعي الحيوان . والتيلبون يزرع في جميع مناطق الاستوائية وبعض مناطق بحر الغزال ويحصد بكميات كبيرة ويعتمد عليه سكان المنطقة كغذاء رئيسي كالذرة

وهو ذا قيمة غذائية عالية ويضعونه في مرتبة الدخن من الناحية الغذائية أما قشه فلا قيمة له نسبة لعدم وجود الحيوان أما لو استطعنا أن ندخله في شمال ووسط السودان كعلف للبهائم وتسمينها في الأماكن التي تروى رياً صناعياً لاغنانا عن زراعة أبوسبعين أو البايونير الذي نستورده بالعملات الصعبة فقيمة التيلون الزراعية عالية بالنسبة للإنسان وله قيمة لاشك للحيوان ،وما تحتويه هذه الأصابع من كميات من الحبوب لا يستهان بها ومن هذا المنطلق يجب أن ارفع يدي مشيراً نحو هيئة البحوث الزراعية لتعطني الكلمة لأقول لو استتبطن من التيلون هذا كما تفعل بالحبوب الأخرى أستتبطن منه ما يلائم طقس وسط السودان ثم نثره بالطائرة أو بطريقة أخرى علي أرض البطانة بدل ما طالعنا به وزارة الإعلام قبل سنتين بأن الحكومة الأمريكية بصدد جلب بذور الأعشاب الخلية ونشرها على أرض البطانة ونحن بين أيدينا البديل الذي لا يكلف خزينة الدولة ولا الحكومة الأمريكية إلا بما اقل من ربع التكاليف زد على ذلك أن قصب أبوسبعين أو البايونير لا تأكله أو تأتي على القصة كلها إلا البقر والحيوانات الكبيرة أما الضان والماعز فإنها تأكل أوراها فقط لصلابة عودها أما التيلون فتأكله كل أنواع الحيوان دون استثناء وبذلك يكون اعم فائدة من غيره واصح للتسمين وفي زيادة كميات اللبن عند البهائم .

كما يمكن لتعميم زراعته وريه بواسطة الطلمبات الصغيرة عن طريق الحش المرة بعد المرة ويروى لينمو من جديد كالنجيلة بعد أن تكون حبوبه فوق طور اللبنة ليزيد من قيمته الغذائية .

وللتيلون فوائد أخرى في مناطق إقليمي بحر الغزال والاستوائية وهو يصلح لعمل مشروب يسمى (البنقاره) وهو يشبه لحد كبير مشروب العسلية(4) المعروف عند سكان وسط السودان وهو مسكر إذا اختمر ومغذي في أطواره الأولى وفيه من المواد الغذائية وما يحتويه من سكريات ما للعسلية والمشروب الآخر الذي نسميه (الحسوه) وطريقة عمله هي نفس طريقة عملية العسلية يغلي علي النار ثم يصفى

بواسطة مصافي من القماش بعد ملئها وتعليقها علي عمود ويوضع إناء تحتها بتقاطر من خلال مسامها على الإناء ولها أوعية خاصة إذا أريد تخميرها للحصول علي نشوة السكر وقيمتها بالنسبة للبيع فهو اغلى قيمة من (الكني مورو) وهو اسم للمريسة واكل من قيمة زجاجة الخمر العادية أقول العادية لأنها نوعان فالعادية هي ما تخرج من التقطير المباشر من مختمر الذرة أو التبليون أو الموز وأنواع أخرى من الحبوب أما الذي نحن بصدده يسمى (خمسة علي واحد) بان تعاد خمسة زجاجات من النوع الأول إلى قدر آخر على النار للتقطير لاستخلاص زجاجة واحدة وهذه الزجاجة تصبح كحول صرفه إن لم تكن اقوي وأخف من البيرنو لا تقل عنه هذا النوع من الاستنباط لم يكن معروفاً عند الأهالي إنما جاء به أحد الغربيين الذين استوطنوا منطقة غرب الاستوائية كتجار ربما يكون يوناني الأصل ثم انتشرت الفكرة حتى عمت مناطق بحر الغزال وغيرها وقد رأيت بعيني استعمال هذا النوع من الخمر لتطهير الجروح الدامية بدلاً عن السبيرتو وأنواع المطهرات الأخرى وللجماعة الذين يتعاطون هذا النوع لهم أساليبهم في اختيار النوعية من حيث الجودة يصب قليل منه على قطعة قماش ثم يشعل عليها النار فهي تحرق كل اثر لهذه الكحول إلى أن تخدم ولا تمس القماش أما إذا لم تلتهب ردوه إلى البائع تحت حجة (هو موية) .

متنوعات

عندما خطر لي أن اكتب هذه الذكريات وما اعترض حياتي من أحداث وأشياء غريبة كنت قد آليت علي نفسي أن أتوخى الصدق وان لا أميل إلى المبالغة والمغالة في الوصف وان أنمق الكلام وأطوع الرواية لأقم عليها بطولة صناعية هي من نسج الخيال كما يفعل بعض الروائيين وهذا ما اتبعته وتقيدت به لكن هناك بعض الملاحظات لا بد للقارئ الكريم أن يفتن إليها أو تخطر بباله والكتاب قد شارف إلى نهايته فيقول فيم قضى نصف قرن بين الغابات والأحراش أفي هذه الرحلات القليلة الذي أثبتتها في هذه الصفحات فجوابي له ليس هناك تناقض بين

العنوان والدافع وقد قلت أني لم اقدم على تدوين كل الرحلات التي قمت بها طيلة نصف القرن هذا إنما اختصرت على تدوين المواقف والحوادث ذات الشأن التي تستحق الذكر التي يجد فيها القارئ الكريم متعته ولو أرسلنا القلم على سجيته وأطلقنا له العنان حتى فيما سطرت لملا حيزاً من الورق ومدة من الزمن ولا زال في الذاكرة شرحاً أوفى واعم ولكن أثرت في الوقت الحاضر أن اكتفي بما قل ودل وبما أن هناك بين الغابات حيوانات أخرى لها خطورتها لابد من أن اذكر منها شيئاً تعميماً للفائدة مثل كلب السمع وهو من الحيوانات الشرسة ولها هيئة الكلب من حيث الوجه والأرجل والوجه الطويل غير أن لونه كلون الذئب يسير في شكل جماعات يتصيد الغزلان والتيل والكتمبور وبين هذه المجموعات القليل منها اللاحق أما البقية تعيش على حسابه وعالة عليه وقد يجد فرصته بعد نزول المطر تبتل الأرض فيجد الصيد صعوبة في الجري بعد ابتلال الأرض فتغوص أظلافه في الطين فيجد كلب السمع فرصته لانقضاض عليه وهي يكون مجموعة تعاونية بمعنى الكلمة فمن خواص المجموعة حمايته من المطر بالوقوف فوق كل كلب سريع ليجد نشاطه بعد أن قامت المجموعة بحاميته من المطر والبرد فالسريع منها يقتل ولا يأكل بل يقتل ويتركها وراءه ليلحق بأخرى وهكذا من ورائه تأكل المجموعة . أما خطره على الإنسان عندما يلقاه منفرداً وهو في حالة جوع فأول ما يعتمد عليه هي إثارة التراب ليملأ عينيه ثم ينقض عليه وبعمله هذا يشبه عمل الذئب.

وما دمت قد ذكرت كلب السمع لابد من ذكر حيوان صغير في حجم الهر وهو أبا دريان حيوان أحمر شرس اسود اللون شجاع يهاجم الإنسان قبل أن يهاجمه خصوصاً إذا وجدته مع أنثاه في وقت اللقاح فانه لا يفارقها غيوراً عليها وإذا مرت الأنثى بغصن شجرة أو قشة في الطريق لا مس جسمها رجع إليها وقطعها بأسنانه الحادة تخافه كل الحيوانات الصغيرة آكلة اللحوم أو آكلة القش ويتجنب الإنسان لقاءه لأنه يعمل جاهداً للوصول إلى كعب الرجل يعمل على أسنانه في عصب الرجل الخلفية ، من خواصه أن جسمه لا تخترقه الأسلحة النارية والبيضاء

كالحربة والسكين ولا تميته إلا العصا في أم رأسه ولذلك يتحاشى المرء ملاقاته وكما انه ليس من الحيوانات التي يؤكل لحمها .

أبو شوك

وهو نوعان نوع صغير يطلق عليه اسم القنفذ وهو معروف يعيش في كل مناطق السودان ويأكل العشب يتكور وينطوي علي نفسه بعد أن يدخل رأسه ورجليه ويصبح كره من شوك عندما يشعر بأي خطر مداهم وله عداوة متأصلة مع الثعابين فما وجدنا ثعباناً إلا وتعرض له.واخذ يتمرغ عليه بشوكه حتى يدمي جسم الثعبان وينشر السم في جسمه فيميته .

أما ما يسمونه نعجة أبو شوك فهو اكبر حجماً من النوع الأول يكثر ويعيش داخل الجحور مع أولاده ولا يخرج للرعي إلا ليلاً يحمل فوق ظهره شوكاً طويلاً قد يصل طول الواحدة إلى ثلاثين سنتيمتر زاهية الألوان حادة الأطراف وهو يتحكم فيها يطلقها كالسهم تغوص في الجسم ومؤلمة ويصطادونه بالكلاب المدربة لان بعض الكلاب تخاف نباله أما الذين يمارسون صيده من الأهالي فهم يلبسون فراء الحيوان للوقاية من هذه السهام فهي لا تقى إنما تخفف من وطأتها وهو بطئ في جريه يمكن للإنسان اللحاق به ويصطادونه من اجل لحمه الذي يصفونه اكثر الناس إنها من اللحوم المفيدة للإنسان خصوصاً أمعاؤه لان حياته تعتمد علي أكل عروق الأشجار وهي تغنيه عن طلب الماء طول فصل الصيف ويقال أنه إذا جففت أمعاؤه بما تحتويه من فرث تشفى الكثيرين من الأمراض الباطنية بعد غليها وشربها وتزِيل كثير من الأورام الخارجية بطريقة لبخها فوق الأورام أما لحمه من ألد اللحوم ويصل وزنها إلى خمسة كيلو .

ويتواجد في كثير من أنحاء السودان وفي الأماكن الهادئة البعيدة عن العمران وفي المناطق الزراعية ليتغذى من مخلفات المزارع من حبوب متساقطة وغيرها ويتوالد بكثرة بمعدل خمسة أو ستة للأنثى الواحدة ولا تخرج صغاره للرعي معه إلا بعد أن ينمو شوكها وتجد القدرة والسيطرة عليه في حالة الدفاع عن النفس ويعتمد في

عيشه على الأبوين حيث يأتي بما يحتاجون إليه من غذاء.

البطيخ

قد يتبادر إلى الذهن ونحن نضع هذا العنوان إننا نستهزأ بعقول الناس باعتبار أن البطيخ شئ معروف عند كل سكان السودان يقومون بزراعته ويبيع في أسواقهم فما هو الجديد الذي غاب عن عقول الناس منذ آلاف السنين ويحتاج الآن إلى تعريف وأنا إذا اكتب عن البطيخ لم اقصد هذا النوع المعروف عندنا ويعتبر من الكماليات وليس له مكانة في حياة الناس إنما اعني نوع آخر يزرع في إقليم كردفان في مساحات واسعة ويحصد ويختزنه الأهالي للاستفادة منه طيلة فصل الصيف عندما ينضب معين الماء وتجف مياه البرك والمستنقعات ويقل مخزون الماء من شجر التبليدي فأني أنواع البطيخ هذا انه نوع خاص يسمى الكردفاني يلعب دوراً هاماً في حياة سكان تلك المناطق عند حلول فصل الصيف وتتباعد موارد المياه . وقشرته الخارجية قوية وسميكة ذات خطوط خضراء تميل إلى السواد وصفرة في بقية الجسم بين الخطوط لبه أبيض يميل إلى الصفار عند النضوج حلو المذاق قد تفوق بعض أنواع الفاكهة حتى قصب السكر والعنكوليب ويعتمد عليه سكان القرى عندما يصعب الحصول على الماء وفي هذه الحالة يلجئون لإستعمال هذا البطيخ وله قوة احتمال للتخزين بسبب قشرته السمكية وهو يحتفظ بكيوننته دون أن يتعرض للتلف أو التمزيق لا في أجزائه ولا في محتوياته وهو يحمل بين لبابه كمية كبيرة من الماء الحلو يكفي لشخصين أو ثلاثة على حسب حجمها يأكلون لبها فتزيل عنهم ألم الجوع والعطش ويشربون ماءها لتزيل عنهم حرقة العطش وينتفع بقشرها كعلف للدابة وطريقة استعمالها لا يقطع بالسكين كشرائح كما هي العادة في المدن بل يقطع على نصفين ويقدم كل نصف أمام شخص أو اثنين ، وتستعمل الأيدي بغرز الإنسان أصابعه في لبها وينتزع جزء منه ويضعه في فمه من هذه العملية تتساق المياه غزيرة ترسب في القاع وبعد الفراغ من عملية أكل اللب تتوفر كمية من الماء يشربها إما طريقة التخزين فهي لا تحتاج إلى ثلاجات ولا آلات حديثة بل يوضع

على سيداب أو على الأرض مباشرة في شكل هرمي فوق بعضه تظله قطية من القش لتغطية حرارة الشمس وتغطي بسياج من القش أيضاً لتخفف عنه تأثير غلواء ربح السموم .

وإذا أوردت ذلك ليس لأهميته في حياة الكردفانيين فحسب بل قصدت به أيضاً وسيلة لأتوصل بها إلى غاية أضعها في شكل سؤال أمام هيئة البحوث لا لأنال بها أسبقية ولا مبادرة بل سؤال من يجري وراء حقيقة أو جاهل يريد أن يتعلم لا أكثر ولا أقل والسؤال هو بعد أن تأكد عندنا وجود كمية كبيرة من مادة السكر في هذا النوع فهل من الممكن استخلاصه من هذه العصارة بعد تنقيته من الشوائب العالقة به وإيجاد طريقة لانتزاع وتبخير الماء الزائد للحصول على نوع من العسل يصلح كنوع ثان مع عسل القصب ، أو نوع من المربة وإعطاء الاعتبار اللازم لمسألة التكليف . وهذه مناسبة طيبة ذكرتي اختصاراً وقع أيام حكومات ما بعد الاستقلال كان السيد منصور محبوب يشغل وظيفة وكيل أول وزارة التجارة وكان مكتبه قبل نقلها إلى مكانها الحالي يقع بالقرب من المسله على تقاطع شارع الجامعة وعلى عبد اللطيف بالخرطوم تطل واجهته على الشارع الرئيسي وكنا نسير مع الأخ المرحوم عبد الرحيم نمر طيب الله ثراه وكانت عقارب الساعة تقترب من الساعة السابعة مساء لفتت نظرنا الأنوار المضاءة والنوافذ المفتوحة تدل على وجوده فدخلنا البناية واستأذنا للدخول فأذن لنا ووجدناه يجلس وأمامه علبة من الصفيح يفحص محتوياتها ويكتب علي أوراق أمامه فقدم لنا هذه العلبة وهي مليئة بمسحوق ابيض ناصع جميل طلب منا نتذوق طعمه فإذا هو سكر قال هذا السكر مستخرج من ذره الفيتريته المعروفة استخلص في مصانع خاصة بعد أن طلبت الوزارة ذلك وأرسلت كمية من ذره الفيتريته وكانت النتيجة وجود سكر يمكن استخلاصه لكنه كثير التكلفة لا يصلح معها طرحه في الأسواق وبيعه للجمهور بأسعار مناسبة ولذلك صرفت الحكومة النظر عن التفكير في طريقة الاستفادة منه في هذا المجال فإننا نحمد للحكومة موقفها هذا وتفكيرها في إيجاد بدائل أخرى لاستخراج السكر

من غير قصب السكر والبنجر الذي سيجيء دوره بعد أن يستقر الجنوب وتزرع المساحات منه ويمكن الاستفادة منه كنوع آخر لاستخلاص السكر خصوصاً في منطقة غرب الاستوائية حسب صلاحية المناخ والتربة تتيح الفرصة أمام الحكومة أو المستثمرين الأجانب فرصة الاستفادة منه دون تكلفة تذكر نسبة للأمطار التي تستمر تسعة أشهر متوالية ولا يحتاج إلى ري صناعي وبذلك قد تساعد قلة التكلفة في انخفاض الأسعار بالنسبة للمستهلك إن لم يصلح لشرب الشاي يمكن الاستفادة منه في صنع أنواع المربة أو كعسل لتقينا عن استيراد هذا النوع وغيره بواسطة العملات الصعبة ونكتفي ذاتياً من مواردنا المحلية .

حب العروس

لا يختلف اثنان بان الذهب معدن نفيس غالي القيمة وقد ارتفعت قيمته في السنوات الأخيرة أضعاف أضعاف ما كانت عليه قبلها ولذلك وضع له ميزاناً خاصاً شديد الحساسية يتأثر بالكبيرة والصغيرة ليعطي كل ذي حق حقه بائعاً كان أم مشتر فإذا ما جئت للصائع وعرضت عليه قطعه من الذهب وضعها على الميزان قائلاً إنها تزن نصف أوقية إلا ثلاث حبات مثلاً فما هي هذه الحبات وما وزنها ما جعلها تلازم وتتدخل في وزن الذهب وتعتريك الدهشة لو عملت إنها حب العروس حمراء اللون بها دائرة سوداء على رأسها وهي ثمرة نبات متسلق من فصيلة اللوبيا وينمو في الأرض الطينية التربة المخلوطة بالرمال وفي الأجواء التي تميل إلى الرطوبة ويكون معدل الأمطار فيها فوق الوسط كمناطق اعالي النيل والاستوائية ومناطق بحر الغزال وهذا الحب له خاصية لا تجدها في كل أنواع النباتات الأخرى من حيث الاحتفاظ بشكله ووزنه لان بعض النباتات الأخرى تتأثر في حالة وجود كفايتها من الري فتحافظ على مستواها من النمو فيأتي ثمرها محتقلاً بشكله ووزنه وفي حالة عدم الري الكافي تضمر الثمار وينقص مستواها من حيث الوزن . أما حب العروس هذا لا يتأثر بقلّة مياه الري ولا بكثرتها وهو في كلا الحالتين يحتفظ بوزنه وحجمه ولذلك أصبح ملازماً لأوزان الذهب كما انه يستعمله المشعوذون

ففي أبخرتهم التي تنارة عن اللبان والقرض والشب بطرد العين الشريرة والجدير بالذكر إنني لم أجد ولم اسمع عنه انه يؤكل رغم انه من فصيلة اللوبيا ولم اجرب مقدرة النار على التأثير فيه إن استعمل كبليلة .

من هو الصياد

للوصول إلى مرتبة الصياد لاشك إنها شاقة وعسيرة وليست بسيطة ميسورة كما يتصورها البعض بل تحتاج إلى مؤهلات خاصة منها ما هو مكتسب بعامل الممارسة الطويلة والتجارب المريرة ومنها ما هو من جيلة الإنسان كالشجاعة والصبر وسرعة البديهة وحضور الذاكرة فما كل من يجيد الرماية أو إصابة الهدف يسمى نفسه صياداً لأن مواقف الصيد كثيرة ومتعددة ولكل موقف يتطلب شجاعة خاصة وقلب خاص فالقلب الذي معك وأنت أمام الدورة المثبتة لتتعلم عليها الرماية يختلف عن القلب الذي تواجه به حيوان كلبى عرف وهو حيوان يشبه الحصان قوة وجسماً والقلب الذي تلافى به بقية أنواع الصيد الأخرى يختلف عن القلب الذي تواجه به الأسد وهذا السلم المتدرج مثله كمثل الطالب الذي يبدأ حياته التعليمية بالروضة ثم يتدرج إلى أن ينال الدكتوراه وبما أن المثل القائل (لكل مقام مقال) فهو ينطبق على الصياد فكل موقف يقفه الإنسان أمام الحيوان له قلبه الخاص خذ مثلاً قال الشاعر :-

أفاطم لو شهدت ببطن خبت لقد لاقى الهزير أخاك بشراً

في قصيدة طويلة كنا نحفظها ونحن في السنة الثالثة كتاب وكان يصف موقفه مع الأسد وكيف صال وجال معه وهو على ظهر فرسه فلما رأى أن الفرس ربما يصيبه شيء من الوهن أو الخوف ترجل عنه ووجد الأرض اثبت منه ظهراً وبتصرفه هذا برهن عن شجاعة فائقة . وقال شاعر آخر ربما يكون أبو الطيب المتنبي :-

وما أنا بصياد الأرانب مثلهم ولكني على حياتهم ألح الفقرا

اثبتت في قصيدته هذه ما يقيد أن صيد الأرانب يختلف عن صيد الحيوانات التي

تسكن القفرا مثل السباع والأفيال والجواميس البرية ولي هنا ملاحظة لابد أن أبدىها مع اختلاف الزمن واختلاف نوعية الأسلحة المستعملة في العصور الوسطى كالسيف والرمح والسهم هذه هي الأسلحة التقليدية التي تستعمل في الحروب وفي الصيد فإذا قارنا بين من يلاقي الأسد بالسيف أكثر شجاعة من ممن يلاقيه بالرمح فالمواقف تختلف فالأول ليس بينه وبين الأسد إلا متر واحد وهو طول السيف ، أما موقف الذي بيده الرمح ففئة الرمح في حدود أربعة أذرع وهو يعلم إذا أصاب فريسته لا يمكن الوصول إليه لان الحيوان كلما حاول الوصول إليه فسنان الرمح يغرز في جسمه وأما رامي السهم فموقفه كالرامي بالسلاح الناري في العهد الحديث وهذا التباين في المواقف الثلاثة لا يجعل الفارق كبيراً في درجات الشجاعة كما إننا لا نريد أن نقلل من درجة الشجاعة بعد ظهور الأسلحة النارية الحديثة ولكن التفاوت في الدرجات لازال موجوداً يشعر به كل إنسان .

وهناك بعض المؤهلات التي يجب أن يكون سلاحه محشواً بمجرد أن أطلق رصاصته الأولى بطريقة تلقائية وان يصغي للصدى الذي ينعكس من إصابة رصاصتك للحيوان وأن تعرف إن هي كسرت عظماً أو اخترقت اللحم ولكل حالة صوت يعرفه الصياد بحكم ممارسته الطويلة وحضور الذاكرة كل ذلك قبل أن يسمع انفجار البارود وخروجه من فوهة السلاح وهذه حالة لا يعرفها الكثير من الصيادين ويروا في ذلك مبالغة قد يؤدي إلى للكذب لكنها الحقيقة التي لا مرأى فيها وقد لا تجد بين كل عشرين صياد واحداً منهم عرف مثل هذه الحالة أو شعر بها وهناك حالة أخرى معروفة ومشاهدة لكنها بين طبقة معينة من الصيادين هي وقوع الحيوان على الأرض قبل انفجار البارود وحالة ثالثة هو أن تنظر إلى الحيوان وينكمش أو يرتعش جسمه قبل انفجار أيضاً هذه الحالات المذكورة قد لا يدركها إلا من أوتي قدراً من حضور الذاكرة ورباطة الجأش وحدة السمع .

في حالة مهاجمة الحيوان سواء أصيب بجرح أو أخطأته الرصاصة فلا تتحرك من مكانك ولا تطلق النار عليه أثناء جريه نحوك إلا بعد أن يقترب منك ولا تقم إن

كنت جالساً مع السيطرة على أعصابك فان أي حركة منك تفقد الكثير من السيطرة عليها وعلى الموقف وأي رجة تصيبك تجعل رمايتك خبط عشواء ودون جدوى فتقع في الخطر .

اعلم أن للصياد كمبيوتر طبيعي وفي لحظات قصيرة ويختصر الوقت ويعطيك النتيجة لتتصرف بمقتضاها أسرع بكثير مما أنتجت المصانع الحديثة ولنا تجارب في ذلك كثيرة ، منها بينما كنا نسير أنا ومحمود والخبير نقفي اثر جاموس أصابته طلقة لم تبلغ منه مقتلاً وكان الخبير في المقدمة ومحمود خلفه وكنت أسير خلفهم مر الخبير أمام شجرة قائمة على طرف الشارع تتدلى أغصانها حتى تلامس الأرض وتتمو تحتها أعشاب طويلة تتشابك أطرافها مع أغصان الشجرة ومر عليها محمود وجاء دوري فلما جاوزتها بنحو عشرة أمتار تقريباً ونحن نمشي مطمئنين مادام الخبير يمشي وراء الدم لكن الجاموس بمكره وحيله بعد أن تجاوز الشجرة وابتعد عنها قليلاً قفل راجعاً واحتمى بأغصان الشجرة المغطاة بالأعشاب الطويلة كل ذلك للتمويه والتعمية ليجد فرصته في مهاجمة متتبعيه قبل أن تصلنا الإشارة من الخبير بأنه غير اتجاهه لنزداد حذراً سمعت وقع أظلافه يندفع ورائي في سرعة شديدة والتفت ورائي فإذا هو يهاجمني من الخلف واشتغل الكمبيوتر الطبيعي ومر بذاكرتي شريط الحادث وأوحي إلي لو ضربته وهو مقبلاً نحوي فأصيبه في نحره وهو مكان غير مميت ولكن لا بد من عمل شيء يغير من اتجاهه فليس مكاناً يمكن أن يثنيه عن مهاجمتي إلا الجبهة ولعلمي أن الجبهة مغطاة بالقرون وضع طبيعي واختراق الطلقة لهذا القرن ضرب من المستحيل فأطلقت النار عليه فأصبت قاعدة القرن وقوة الصدمة كانت كافية لتغيير اتجاهه فانحرف نحو اليمين ودخل بين الأعشاب انظر إلى الزمن الذي مر على حيوان يجري وراعاك ما بينكما إلا نحو عشرة أمتار وبين النتيجة التي توصلت إليها عن طريق الكمبيوتر الطبيعي وكم اختصر من الزمن وأعطى النتيجة وتصرفت بوحي منه ولو اختلف أو تأخر علي قدر نصف الثانية لكانت النتيجة موتاً محققاً.

وعلى الصياد أن يتحاشى ضرب الأفيال إن كان القطيع كبيراً لسببين أولاً إذا أصبت فيلاً وهو وسط السرب يجد مساعدة منها فتتقدم الأفيال لمساعدته بان يضعوه بين فيلين يسنده كل واحد من ناحية ويجروا به المسافات الطويلة ولا يتخلوا عنه إلا إذا عجز عن الحركة من شدة الإصابة أما الثانية ففيها خطر على حياة الصياد نفسه لأن الأفيال وهي في غفلتها أثناء رعيها إذا فاجأها صوت إطلاق النار لا تعرف مصدره فتجري على غير هدى وتدور في محيط ضيق وربما يجدك ويعثر على مكانك فتهاجمك وقل أن تتجو منها وفي ذلك أمثال كثيرة ، منها كان لنا أخ صديق معروف بشجاعته يحمل سلاحاً نارياً 375 عادة وكانت على تلك الأيام أن سلطات الثروة الحيوانية لا تمنع من إعطاء حاملها رخصة لصيد الفيل واسمه عبد الله كرار وخرج نحو غابات نهر السوبات بعد أن تحصل على الرخصة اللازمة وكان معه جماعة من الأهالي يستعين بهم في مهمته فوجد سرباً من الأفيال على أرض خالية من الأشجار إلا القليل المتفرق منها واتجه نحو أقرب واحد منها ورماه بطلقة فهاج السرب وماج ولا يدري إلى أين يذهب فإذا بفيل يجري من غير هدى فوجده أمامه ولما شعر عبد الله بالخطر الذي داهمه من الخلف رمى السلاح بعيداً لئلا يكسرها الفيل بخرطومه ووضعته على الأرض واخذ يعمل فيه برجليه وخرطومه حتى أصبح قطعة من اللحم لا عظم فيها وتركه وانصرف مع بقية السرب ووصل الخبر ونقل إلى مئواه الأخير ألا رحم الله عبد الله كرار .

كما إنني أحذر من التعرض لأنثى الفيل عندما تمشي مع صغيرها فهي شديدة الحرص عليه فهي تهاجم بشراسة كل من يعترض لطريقها خوفاً على صغيرها .
كما إن الصياد لا يتعجل الوصول إلى الحيوان المصاب إلا إذا تأكد من موته لأن من طبع بعضها المكر والخداع .

أن يصحب معه زناد (ولاعة) لأن الكبريت لا يعمل في الطقس الرطب وان يكون بين معداته صفارة ليستعملها للفت نظر مرافقه .

وان يحمل معه كمية من الرماد ليعرف به اتجاه الريح وهذا قليل من كثير لكنها

تعتبر مبادئ أساسية من ضروريات الصيد .

رخصة الصيد

استطعت في عام 1926م أن انتزع من بين فكي الأسد البريطاني الموافقة لمشتري بندقية رصاص رغم أن الجو السياسي كان مليئاً بالغيوم ولم تمضي على أحداث 1924م إلا سنه واحدة وبضع شهور ولا زال المستعمر يجد مرارتها في حلقه وعندما عقدت العزم على تنفيذ ما كان يداعب خيالي من اقتناء هذا السلاح شعرت بأن هناك بعض العقبات قد يتخذها المستعمر ذريعة لرفض هذا الطلب منها حداثة السن حيث كنت لم أتجاوز العشرين عاماً إلا بأشهر قليلة وخشيت أن يضعوا في الحساب سوء استعمال هذا السلاح فأقع في المحذور ثانياً لتوقيت حركة 1924م لازالت عالقة بالأذهان ثالثاً خلافاً للعادة المتبعة وهي أن تطلب بندقية خرطوش أولاً بحجة ضرب الطيور لاستعمالك اليومي وأنت بعيد عن المدن وضعت كل هذا في الحساب وكنت أتوقع الفشل أكثر من فرصة النجاح رغم كل هذا لم تتنني عن عزمي وتقدمت إلى مفتش مركز ملكال بطلب رسمي وسلمته يد بيد ولم يحتاج الأمر إلى حوار طويل فواجهني بأول سؤال عن طبيعة عملي فأجبت وكيلاً لأبي المقيم بسوق ملكال وعملي هو التجول بين قري الأهالي ثم قال ولم تطلب هذا السلاح قلت لان عملي التجاري يقتضي أن أسافر علي ظهر دابة وكما تعلم ان الغابات والأحراش كلها مليئة بالذئاب والأسود والنمور مما يسبب خطراً على حياتي وحياة الدابة التي اركبها فأمسك بورقة وكتب عليها قد تصدق إلى فلان الفلاني بمشتري بندقية رصاص ووقع عليها بإمضائه وناولني إياها وقال عندما تجد السلاح احضر معك هذه الورقة فكنت لا أصدق وبهذه السهولة خرجت من عنده وأنا أكاد أطير فرحاً متي اصل السوق لأخبر الأصدقاء وبهذه المغنم وأنا أباهي به من هم اكبر مني سناً ولقد كانت هذه الواقعة حديث الناس في مجتمعاتهم حيث كنت اصغر تاجر يملك بندقية رصاص وقد فشل الكثيرون في اقتنائها وكانت أمنية الكثيرين ممن سبقوني ولم يحصلوا عليها وكانت رخص الصيد غير معروفة في

تلك الأيام ولا يوجد حرس للصيد لأن قانون رقابة الحيوانات لم يصدر إلا بعد عشرة سنوات بعد ذلك حيث ظهر إلى الوجود 1935م وعندما انتقل عملي التجاري إلى الليري بجبال النوبة لم يظهر القانون وكان الأهالي يمارسون عملية صيد الحيوانات البرية دون رقيب وانتقلت بعلمي التجاري إلى مديرية بحر الغزال فكانت أكثر فوضي رغم صدور القانون حيث كانت الرقابة قاصرة على الحظائر التي تقوم بحراستها أفراد حرس الصيد أما في الأماكن الأخرى فلا تجد رقابة ولكن عندما انتقلت إلى إقليم الاستوائية فكان الضبط والربط وكثرة التجنيد لحماية الصيد وفي كل غابة وفي كل قرية تجد مسئول ولذلك لابد من استخراج رخصة صيد وهي ثلاث درجات أ-ب-ج .

فالأولى غالباً ما يقتنيها حملة الأسلحة ذات العيار الكبير لتكون نواة لاستخراج رخصة لصيد الفيل وتسمح السلطات لحاملها بأعداد كبيرة وكثيرة على حسب ما يحتويه الجدول وقيمتها ست جنيهاً أما حرف ب- غالباً يختارها الأجانب لقلّة حيواناتها لكن تحتوي على بعض حيوانات نادرة وقيمتها جنيهان . أما الحرف ج- فهي الأكثر تداولاً بين الصيادين لأن حيواناتهم أكثر خصوصاً في أنواع الصيد الصغيرة كالغزلان بأنواعها وقيمتها جنيهاً واحداً .

هذا بالنسبة إلى بقية الصيد الأخرى أما بالنسبة إلى الأفيال فإن لها رسوم خاصة يدفع بعضها فور استخراج الرخصة الخاصة ويدفع الجزء الباقي بعد قتل الفيل وبعد وزن السن وإعطائها نمرة وبذلك تصبح جاهزة للبيع وهذه الإجراءات تعمل كاحتياط لئلا يلتبس الأمر على المسؤولين من أن هذه السن مرت بمراحلها الاعتيادية رغم وجود الوصل المالي توضع على السن بطريقة ختمها بالنار على ظهر السن .

أما الأسلحة التي تمنح بموجبها رخصة الفيل وعلى حسب ما شهدت في الأقاليم الجنوبية فهي تبدأ من 375 مقم عادي 375 مقم هولاند آند هولاند وهذا الأخير من أجود الأنواع التي أخرجته المصانع البريطانية ويحمل في جوفه خمسة طلقات ثم

404 وهو يختزن في جوفه خمسة طلقات أيضاً غير أن هذا السلاح قد أوقفت الحكومة تداوله بين أفراد الشعب حيث جعلته وقفاً على حرس الصيد بعد ذلك وجب أن نذكر 450 و550 وهذين النوعين ذو ماسورتين أشبه ببندقية الخرطوش ولا يسع إلا لطلقتين فقط وهنا تقتضي الأمانة أن ابدي ملاحظة في غاية الأهمية لينتفع بها من الذين يأتون من بعدنا أن كتب لهذه الثروة أن تنمو بعد ما لحق بها من قتل وتقتيل حتى يكاد أن يصل إلى درجة الإبادة وأنا ابدي هذه الملاحظة إنما هي نتيجة ممارسات طويلة من حيث طبيعة الحيوان وأماكن تواجده ووجدت لزماً عليّ أن ألقى نظرة على هذه الأسلحة فمن المعروف أن كل ما كان العيار كبيراً معناه أن الطلقة اقوي تأثيراً على الحيوان وهي التي صنعت خصيصاً لتتاسب هذا الحيوان الضخم غير اختلاف البيئة وطبيعة الأرض لها تأثيرها مما يجعل بعضها لا يصلح استعماله فمثلاً أن كل أنواع الأسلحة المذكورة أعلاه وغيرها صالحة في إقليم أعالي النيل وإقليم بحر الغزال وإقليم شرق الاستوائية لان هذه البقاع ليست بها غابات كثيفة تحجب عنك رؤية الصيد فيمكنك أن ترمي الفيل على بعد مائتين ياردة أو أكثر وفي حالة مهاجمة الفيل يمكن وان تستعمل سلاح ذوات الماسورتين عندك فرصة لتحشو سلاحك وتزوده بطلقتين وتنتظر المهاجم لان الوقت كاف لديك وهو يجري نحوك أما في مناطق غرب الاستوائية فالموقف يختلف فالغابات كثيفة ولا تستطيع أن تجد فرصتك لرؤية الفيل الأعلى بعد خمسين ياردة على الأكثر ففي حالة هجوم الفيل لا يعطيك الفرصة لحشو سلاحك إن كان من ذوات الماسورتين لقرب المسافة مما يسبب خطراً عظيماً على الصياد فكلما كان السلاح يختزن في جوفه أربعة أو خمسة طلقات يعطي صاحبه فرصة للدفاع عن نفسه في غابات الاستوائية، وأنا إذا ابدي هذه الملاحظات لأضعها بين يدي الهواة الذين يمارسون هذا العمل بغرض الهواية لا للكسب المادي أما الذين همهم المال أو الشهرة فعليهم أن يصطحبوا من جنود حرس الصيد ليكون عوناً لهم في حالة الهجوم لان الهاوي يجد لذته ومتعته في التصدي للحيوانات بنفسه لا يميل إلى مصاحبة حرس الصيد .

صورة لرخصة الصيد

اورنيك مالي إيرادات نمرة 16

وزارة الثروة الحيوانية

مصلحة الصيد والأسماك

رخصة صيد عادية

صادرة بموجب قانون رقابة الحيوانات البرية سنة 1935م

الاسم

العنوان

محل الإقامة

حامل البندقية نمرة

ماركة

عيار

نمرة رخصة السلاح

منصرفة من مديرية

مصرح له برخصة اعتيادية حرف

وبهذا صرح له لصيد وقتل الحيوانات وفي نفس الأماكن كما هو موضح بالجدول

الأول من قانون رقابة الحيوانات حسب المسموح له به في حدود درجة هذه

الرخصة

الرسم البالغ قدره جنيهاً

تحصلت بالإيصال نمرة تاريخ

توقيع

مدير الثروة الحيوانية والأسماك

فرصة لن تعود

حرفي (لو وليت) للتمني وهما الحرفان الملازمان للإنسان في جميع أعماله

وتصرفاته ولا يستطيع الفكك منها ولا التخلي عنها في حالتي النجاح والفشل وفي حالتي الغنى والفقر ففي حالة الفشل يقول لو فعلت كذا لكان النجاح اكبر مما أصبت وفي حالة الفشل يقول لو فعلت كذا لكان الفشل اقل مما حدث وهي من طبيعة الإنسان التي خلقت معه ويرجع ذلك كله إلى الطمع وحب الخير وعدم الرضى بالقليل أو بالذي أصاب ومن حكم الشيخ فرح ود تكتوك في هذا المعني وفي حالة زراعة السمسم قال (اب نقاة هدم السواه ندم الخلاه) قالوا كيف ذلك قال إذا زرعت وأصبت وفرة في المحصول تقول لو توسعت في الزراعة لأصبت الخير الكثير وفي حالة الفشل تقول لو لم ازعه لسلمت من هذه الخسارة الفادحة أما معنى قوله (أب نقاة هدم) عادة السمسم عند حصاده يربط على شكل مجموعات متراسة رؤوسها إلى اعلي وبعد الجفاف وتفتح اللابوة التي بداخلها حب السمسم يؤتي بمشمع أو ثوب من الدمورية وتقرش على الأرض ليصبوا عليه السمسم معنى ذلك انه لا نقاه له كالذرة ولا يدق بالعصي فهذا المثل ينطبق علينا تماماً ولم نشعر بالندم إلا بعد فوات الأوان وبسبب ضيق ذات اليد وعدم توفير الإمكانيات وصعوبة الحصول على آلة التصوير السينمائية منها والعادية ومما يحتاجه الموقف من إجراءات تبعاً لذلك أقول ضاعت الفرصة ولن تعد نحن الذين تسلقنا الجبال الوعرة ودخلنا الغابات المظلمة وعاشنا الحيوان في مرعاه وداهمناه في أماكن نومه وعرفنا الكثير عن عاداته وتحركاته فان كنا نملك آلة تصوير سينمائية وقمنا بتسجيل كل هذه المواقف التي حوّاها هذا الكتاب لكان إثباتاً بالدليل القاطع الذي لا يتطرق إليه الشك أو طبع علي شريط سينمائي لكان لدينا الآن رصيذاً يعتز به السودان وللفت نظر الدول العربية وغيرها ولقصده الملوك والأغنياء والسياح بغرض الترفيه لما يحويه من مناظر طبيعية خلابة وحيواناته كالأفيال وكيف تعيش وسط الغابات وكيف تجمعاتها على شواطئ الأنهار والمستقعات وهي حرة طليقة وكيف يساعد بعضها البعض في حالة تعرضه للإصابة سواء من جراء إصابته بنيران الصياد أو مرض ألم به وكيف يتعاون بني جنسه معه للبعد به من منطقة

الخطر وكيف يسعى الصياد بين الغابات المظلمة والمتشابكة الأغصان للوصول إليها ومواقفه معها في حالة الهجوم وكيف كان التخلص منها وفي حالة تتبع الجاموس وكيف يعيش في أماكن رعيه وكيف التجمع في أماكن نومه وكيف تجمعاته في شكل اسر كل أسرة ترقد متجاورة وكيف تحمي بعضها بعضاً في حالة إصابة واحد منها وكيف تستجيب لنداء الاستغاثة من واحد منها وكيف يتعرض إلى الأسد إذا ما فتك بأحد صغارها وكيف ينقض عليه بقرونها الحادة رد على ذلك ووحيد القرن من حيث ندرته وبتواجده في بعض مناطق بحر الغزال وقد لا تجده في بعض مناطق أفريقيا وكما أن السباع والنمور والذئاب وبقية أنواع الصيد الأخرى التي كانت تعج بها غابات جنوب السودان أصبحت اليوم خالية تماماً بسبب القتل والتقتيل لغير ضرورة حتى تعرضت بعض أنواعها إلى درجة الإبادة لكثرة الأسلحة النارية التي دخلت جنوب السودان بعد الفوضى التي عمته الذي كانت إحدى نتائجه إفلات زمام الأمر من يد الحكومة وعاثت الخوارج في الأرض فساداً ولم يسلم منها حتى الحيوان فقد عملوا فيه بالقتل والتقتيل إلا ما هاجر منها إلى الدول المجاورة بحثاً عن الأمن هناك ولا أذيع سراً إن قلت أن هذه الحالة قد تسببت في خسارة كبيرة على السودان بفقدانه هذه الثروة الحيوانية البرية ويحتاج بعد ذلك ما لا يقل عن عشرين عاماً لتستعيد مكانته في عالم السياحة بشرط أن تصدر كل الأسلحة النارية التي دخلت الأقاليم الجنوبية إبان هذه الفترة وتجريد الأفراد منها وإعدام ذخيرتها ومنع صيد الحيوان مع زيادة حرس الصيد ومراقبة الغابات مع منع دخول أي ذخيرة إلى مناطق الجنوب وبذلك نستطيع حماية ما تبقى منها ليجد فرصته في النمو والتوالد وأنا عندما بدأت باللائمة على نفسي على ما فرطنا لأسباب كثيرة فما عذر الحكومات الوطنية المتعاقبة أو الاستعمارية بعد أن بقيت جائمة على صدورنا نحواً من الخمسين عاماً أو تزيد قليلاً والتي كانت لديها الفرصة لتقوم بتصوير هذه الحيوانات وترصد تحركاتها في أفلام سينمائية بغرض الدعاية إلى أماكن السودان المختلفة الغنية بمناظرها الطبيعية وحيواناتها لكانت

ثروتنا منها اليوم لا تعادلها ثروة بسبب إقبال الملوك والأمراء والأغنياء لتتمتع بهذه الطبيعة والسياح والأجانب ولكن عائدها من العملات الصعبة أكثر بكثير من بقية مواردنا الأخرى ونحن نرى أن الفرصة قد ضاعت بالنسبة لنا في هذا المجال إلى الأبد غير أن الفرصة أمام الدولة لازالت سانحة لتعيد ما فقدت إذا اتبعت الطريق الصحيح في حماية الحيوان وتشديد الرقابة عليه وإنزال العترة الصارمة على كل من تسول نفسه بالعبث أو أن ينال منها خصوصاً حيوان الزراف الذي من طبعه يكاد يكون البقاء ولذلك يكون سهل المنال واخشى ما أخشاه أن يكون قد عبثت به يد الخوارج ووصل إلى درجة الإبادة هذا ما حدى بي إلى دق ناقوس الخطر ولفت نظر الدولة إلى ما حاق بهذه الثروة من فتك وتقتيل وسبق كتب لها النجاح من هذه الحيوانات فقد أخذت طريقها إلى الدول المجاورة بحثاً عن الأمن والاستقرار ولا أذيع سراً إن قلت أن هذه الحالة أضرت كثيراً في موقف السودان السياحي الذي كان قبلة الأنظار من السياح الأجانب ولن تجد الدولة فرصتها في إعادة مكانتها إلى عالم السياحة ألا باتباع الآتي :-

مصادرة كل الأسلحة التي دخلت جنوب السودان بطريقة غير مشروعة إبان فترة الحرب التي شنتها قوة الخوارج وإبادة الذخيرة وإعدامها ومنع رخص الصيد لمدة اقلها عشرين عاماً حتى يجد الحيوان فرصته واطمئنانه للتوالد والتكاثر كما اقترح بتجنيد اكبر عدد ممكن من حرس الصيد لحراسة الغابات التي تؤمها الحيوانات البرية واعتبارها حظائر مقفولة لا يسمح بالصيد فيها ولا في غيرها ولا بالقرب منها .

وان يكون حرس الصيد هذا خاضعاً لسلطة السلطان أن يوافيه بالتقارير نصف شهرية وان يرفعها السلطان بدوره لولاية الأمر في المراكز وباشرارك السلاطين في المسؤولية بأخذ الأمر طابعاً جدياً ولا يجد إنساناً الفرصة في التلاعب ولا التحايل على القوانين وان تمنع إشعال النيران الموسمية التي تأتي على الكثير من الزواحف والحيوانات الصغيرة كفأر البوص وأبو جماعات والغزلان وتسبب في قتل كثير من

ذبابة النحل علاوة على تعطيل نمو الغابات كما تمنع استعمال الشباك بسببها تشعل النيران بغرض الصيد هناك ملاحظة لو سأل سائل أين يجد إنسان الزاندي الذي يعيش في الأرياف أين يجد حوجته من اللحم بعد هذا الحصار الذي فرضته الضرورة أقول صحيحاً إن رجل الزاندي يحتاج لشيء من اللحم إن لم يكن يومياً فهو أسبوعياً على الأقل أقول على الحكومة أن تدخل الأغنام في المناطق التي لا توجد فيها الذبابة أمثال منطقة امادي والمورو وجهات مريدي وداخل منطقة يامبيو وما حولها وكل مناطق طمبرة وإن تؤخذ هذه الأغنام من مناطق بحر الغزال وأعالى النيل وهي سريعة التأقلم بسبب تقارب الطقس وملائمة التربة كما يجب على الحكومة مساعدة الأهالي في تربية الدجاج بأعداد وفيرة ولو وجدت الدولة فرصتها بأن تستورد الأرناب الأليفة لتلك المنطقة تكون قد ساعدت كثيراً في حل المشكلة المؤقتة أما مناطق جنوب النيل الأزرق والمناطق المتاخمة لحدودنا من جهة أثيوبيا فلا حوجه لأحد اللحم في قتل الصيد إن حيث وفرته في الأسواق وقد حوجته من الأسماك من الأنهار والخيران في هذه المناطق تفرض أمام كل شخص يحمل سلاح ناري كما يطبق هذا القانون على مناطق غرب كردفان وكل إقليم دارفور وليس هذا كل شيء وما هي إلا ملاحظات أرى على ما عندي من تفكير ضيق قصدت به لفت نظر المسؤولين دون أن أتطاول وادعي أن المسؤولين في وقاية الحيوانات أو بالثروة الحيوانية قد أهملت هذا الجانب ولم تضمنه تقاريرها وتوصياتها ولكن من باب (إيد علي إيد تجدع بعيد) أي أريد أن أضم صوتي إلى أصواتهم المنادية بشن الرقابة والقائمين على المحافظة على البيئة وأمثال السيد محمود أبو سنيينة الذي هو جهينة الخبر والذي قضى في هذه المصلحة مما يكسبه خبرة بالكثير عن الحيوان وقد نجده عنده كثير من الأفكار والمقترحات ويا حبذا لو زودته الحكومة وردوه إلى العمل في الجنوب لرئاسة هذا الجانب لما له من خبرة اكتسبها من دخول الغابات ومراقبة الحيوان في أماكنه وما كان ميالاً إلى الراحة والتراخي في مكتبه بل كان دائم الحركة وإن توضع بين يديه أكثر من عربة ينتقل

بها وحرسه من موطن إلى موطن لوقاية الحيوان وملاقة المارقين والمخالفين فهو عالم ومرجع في كل ما يتعلق بالحيوان ولديه الملاحظات ولا شك انه دون مذكراته ومقترحاته وضمنها علاوة على التقارير المصلحية فلا شك أن لديه مذكرات خاصة يحتفظ بها فأمثال هؤلاء الرجال يجب أن لا ينتهي عملهم ببلوغهم السن القانونية لأنهم يحملون أفكاراً ومعلومات قيمة علاوة على تجربتهم وتحملهم مشاق العمل داخل الغابات مما لا يتوفر لدى الكثيرين من موظفي هذه المصلحة وعلى الحكومة أن تأخذ بيده فننشر مذكراته للاستفادة منها ويكون كمكافأة على ما بذل وضحي في سبيل هذه المصلحة التي كانت على أيامه في الجنوب رياضاً وجناناً وكان الربط والنظام أولى مبادئه .

الخاتمة

ليس في مقدور إنسان يأتي عملاً ما ويظن انه يرضي ذوق كل الناس مهما أتقن أو بذل من جهد في سبيل ذلك بسبب اختلاف الأمزجة والتفاوت في درجة الثقافة ومن حيث التفكير

و النظرة وتباين الرؤى فمن بينهم من يستحسن هذا العمل وقد يستهجنه آخرون وفي المثل القائل (زينة قوم شينة آخرين) يأتي هذا مصداقاً للواقع المعاش وهي من طبيعة البشر فأمام الإنسان والحالة هذه طريقان الإقدام والإحجام فان اعتمد على الشجاعة وجعل من اللامبالاة دينه وسلك الطريق الأول وبنى ملكة على التفاؤل وترك الحكم للجمهور وهم أصحاب الحق في تقييم العمل فقد أصاب نجاحاً ولو لقي بعض الفشل وان يضع نصب عينيه الحكمة القائلة (إن الفشل هو أول درجة في سلم النجاح) وقد عودنا التاريخ في الكثير من الحالات بأن يكتب المؤلف كتاباً اليوم في موضوع ما وقد لا يعجب الكثير من القراء وقد نال إعجاب آخرين يرون انه إرتقى به إلى قمة البلاغة والبيان فتتلقفه الأيدي ويعتبر من احسن ما كتب في هذا الموضوع أما أن اختار لنفسه الطريق الثاني هو الإحجام واثّر السلامة فقد جنى على نفسه وحكم على عمله بالفشل خوف النقد والتجريح وهذا ما

لا يسلم منه حتى عباقرة الرجال من أدباء ومفكرين وشعراء وقد أوشكت أن أقع في هذا الخطأ وكما سبق أن أوضحت قبل ذلك لكن الأبناء قد كان لهم القدر المعلى في تبديد المخاوف ولا أنكر للأصدقاء دورهم في الضغط على ومن بينهم الأخ محمود الحاج المهدي الذي كان رفيقي في الكثير من هذه الرحلات كان يقول من باب التشجيع (نحن لا زلنا نعص بنان الندم على ما فرطنا وتركنا الفرصة نقلت من بين أيدينا لسبب أو لآخر ولم نقوم بتسجيل كل هذه المواقف في صور فوتوغرافية عادية بعد أن عجزنا عن الحصول على آلة تصوير سينمائية لتتير الطريق أمام أجيالنا المقبلة وأجيال ما بعد الاستقلال نضع بين أيديهم صورة حية وتسجيلاً كاملاً لكل هذه المواقف فلم إذن هذا التواني والتعاس عن تدوين الذكريات وتضمينها كتيباً يكون نبراساً يهتدي بنوره كل من جاء بعدنا وقد رأيت الإشرقة إلى الظلمة أليس في ذلك ما يثير اهتمامك وإني وقد نلت ما فيه الكفاية من اللوم على التباطؤ والآن بعد أن عقدت العزم على النول تحت رغبتهم وبعد أن شارف الكتاب على نهايته وقبل أن أضع القلم واطوي صفحاته وجب عليّ أن أبين ما قصدته بعملتي هذا غاية بعيدة كل البعد عن الكسب المادي كما يتصوره بعض الناس لقد نشأت والكل يعلم نشأتني بين أسرة ميسورة الحال بحمد الله لم أذق مرارة العيش ولا قسوة الحياة لما أصاب والدي من نجاح في عمله التجاري مما شجعتني على ممارسة هذه الرياضة بدافع الهواية وقد توفرت عندي من أسبابها منذ الصغر وقبل أن يصل إلى مداركي إنها رياضة الملوك والأمراء وأغنياء العالم وهي غريزة أصلية في نفسي وطبع كل عربي منذ القدم حتى جاء الإسلام وأقرها ولم ينكرها إلا في أوقات خاصة كقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وانتم حرم) صدق الله العظيم.

وقد ذكرت بعض هذه الأسباب وأوعزت ذلك لوجود السلاح الناري وفي متناول يدي والتسامح معي في شبيه مواقفه حتى صارت هذه الرياضة جزء من حياتي بجانب عملي التجاري أمارسها في أيام العطلات وفي أوقات الفراغ وتحكم

مقتضيات هذه الرياضة لا تخلو من مخاطر ومواجهة مع الحيوانات المفترسة أثناء التجوال وكانت تجري ذكراه في مناسبات على لساني أو على لسان أحد الشهود فيصفها السامع بأنها تراث شعبي عظيم وذكريات قيمة يجب أن لا تضيع بسبب الإهمال وفي جمعها فوائد عظيمة تستفيد منها الأجيال القادمة .

فنزولاً عن رغبتهم قصدت بهذا العمل المتواضع فتح الباب على مصراعيه أما من يريد التوسع في هذا المضمار حيث لم تتوفر هذه المعلومات لسوداني غيري وان وجد فهي حبيسة الأندراج والاضابير لم تر النور لسبب أو لآخر وان كان بعض الأجانب قد تطرقوا لهذا الموضوع في كتيبات بلغة أجنبية لم تجد من ينقلها إلى اللغة العربية للاستفادة منها .

وبحكم ممارستي لهذا العمل الذي اكسبني خبرة وتجمعت لدي معلومات ومما لاقيت من مواقف مثيرة مع الكثير من الحيوانات فليس إثباتها بهذه الطريقة بقصد التعريف بشخص والمباهاة أو التفاخر والذي وصل بعضها إلى درجة التهور وكان بعضها محل لوم وعتاب من معي من الرفاق فليس من طبعي هذا التفاخر لكنها الحقيقة والصدق الذي إلزمته وكنت أرى أن دوري هنا دور المعلم أو المرشد يضع الحقائق أما الطالب ويحذره من مغبة الكل وعدم الاهتمام لا ليخفيه ليزهد في التحصيل بل ليعلم أن الدرب طويل شاق ويتطلب منه مثابرة وعناية وإني وان لم اكن معلم اليوم ومرشده فللغد وليس الغد بعيد وللأجيال القادمة وسيجدون أنفسهم في أمس الحاجة لمثل هذه المعلومات ليأخذوا منها العبرة والدرس ولينتفعوا من تجارب الآخرين قبل الدخول في عالم مجهول وأنا إذا ركزت على الأجيال القادمة لان هذه الأجيال التي لازالت على قيد الحياة فقدت فرصتها فخلو الساحة من صيد وصياد في تلك الرقعة الواسعة التي يصل مساحتها مساحة دولة من دول أوربا إلا وهي جنوب السودان الذي كان موضع فخرا واعتزازنا مما كان عليه من ثروة حيوانية وكانت نظرة العالم له كمنطقة سياحية قبلة الأنظار ومجل اهتمام العالم والسياح الأجانب وقد تلاشي ذلك الحلم الذي كان يداعب مخيلتنا وضاعت الأماني

بعد أن دوت طلقات المدافع واشتركت معها أصوات الرصاص من بنادق سريعة الطلقات تحصد الحيوان حصداً وعاثت في الأرض فساداً قتلًا وتقتيلًا من غير ضرورة فنفق أكثرها إلا من حيوان كتبت له النجاة وفر نحو الدول المجاورة ينشد الأمان والطمأنينة فان استطعنا أن نسكت هذه الأصوات وأخلينا الساحة من هذا السلاح وهي من أوجب واجباتنا في الوقت الحاضر لاشك أن الحيوان عائد بسبب اختلاف طبيعة الأرض بين السودان والدول المجاورة والفارق الكبير والتباين الظاهر فانتساع الرقعة وقلة السكان والطبيعة التي توفر ساحة لينمو ويتكاثر ويتوالد فان وفرنا له المناخ المناسب فسترد الأرض زينتها وتعود الحياة إلى ربوعها من جديد وسيجيء اليوم الذي تعيد الأرض مجدها وتعود للغابات رونقها وبهاؤها فتعني بلابلها ويصيح كنارها على أغصانها اليبانة ويختلط زئير الأسد وعواء الذئب مع غناء الشاه إن استطعنا أن نقوم بواجبنا نحو حماية هذه المخلوقات التي يحق لها أن تعيش وبذلنا في ذلك أقصى الجهد وجندنا كل طاقاتنا المادية والبشرية نكون قد حققنا إنسانيتنا وكنا أهلاً للخلافة في الأرض وحملناها أمانة على عاتقنا ونحن مؤمنون بأداء الرسالة يجد وإخلاص .

أيها القارئ الكريم إن هذا الكتاب الذي أضعه بين يديك لم يضم بين دفتيه كل الرحلات والانطباعات فهي كثيرة وكثيرة جداً وقد تجاهلت الكثير منها لأنها رحلات عادية لم أجد فيها يستحق الذكر وقد تجاوزتها خوف التكرار الممل وأدخلت مكانها بعض الطرف والحكايات بغرض إدخال السرور والبهجة في نفس القارئ الكريم كوسيلة للترويح للنفس بعد عودته من عمل مضم أو شغل شاق وقد ضمنته أيضاً بعض الوقائع التي في ذكرها ما يفيد الأجيال القادمة أو أجيال ما بعد الاستقلال الذين لم يجدوا فرصتهم لزيارة الجنوب وهو في قصة جماله من حيث الطبيعة الفاتنة والماء المنهمر الذي يجري صافياً من ينابيعه وهو زلالاً عذباً وناهيك عن حيواناته التي تختال زهواً بين أبناء جنسها فيضيف للأرض جمالاً على جمالها وزينة على زينتها .

والآن بعد أن نضب معين الذاكرة وبخلت بالمزيد وأنطوت على بقايا تحتاج الغوص وتغليب رأينا في ذلك مضيعة للوقت فأثرنا الوقوف حيث نحن إلا إنها لم تبخل بالقليل على قدر ما يفني ديناً أغرقنا فيه كرم رجل مريدي الفذ ألا وهو عباس الحاج المهدي شقيق محمود الذي قاسينا معه كل هذه المتاعب التي كنا نعتبرها متعة لا تعادلها متعة ووقفنا بجوار بعضنا عن النكبات فليس غريباً أن يكون كفرسي رهان من حيث الشجاعة والكرم وتقاسما كل خصلة حميدة .

كان عباس من ابرز تجار مريدي بيته كعبة كل ضيف ودكانه قبلة كل زائر يحمل بين جنبيه قلباً رحيماً يعطف على العجزة والمساكين طلق اليد كثير البذل طيب المعشر حسن الخلق وله الفضل الأكبر في نجاح هذه الرحلات ومن أولى أياديهِ علينا وضع عربته وسائقها وما تحتاجه من وقود تحت امرنا طيلة سنوات عدة أقولها من غير مبالغة ولا محاباة وقد تصل بعضها إلى ما يزيد عن المائتين من الأميال في الرحلة الواحدة دون أن يتقاضى مليماً واحداً بقصد تشجيعنا فأنى لنا المقدرة على الوفاء لمثل هذا الدين الذي غمرنا به من رأسنا إلى أخمص أقدامنا وأمام عجزنا هذا رأينا أن نحيله إلى من وهبه هذا الكرم وحسن الخلق أن يتولى عنا الجزاء ونرفع أيدينا في حضرته يديه اكف عن الضراعة بأن يجزيه كل الخير وبما هو أهله وان يلبسه ثوب الصحة والعافية ويشفيه(5) مما ألم به انه السميع العليم وبالإجابة جدير ونعم المولي ونعم النصير قال الشاعر :-

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس
وأقول في الختام بسم الله وبسم الله اختتمت وعلى الله توكلت حسبنا ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم واصل واسلم على سيدنا محمد وعلى آله واتباعه في كل لحظة ونفس عدد ما وسعه علم الله .

عدت على التو من صلاة المغرب ووضعت المذياع على منضدة أمامي لاستمع إلى نشرة الأخبار وكنت حريصاً على متابعتها لئلا يفوتني شئ من قرارات مجلس ثورة الإنقاذ الوطني وقبل أن أدير مفتاحه سمعت طرقةً بالبواب ودخل الزائر فإذا هو السيد

السر عمر مدير المدرسة المتوسطة للبنات ورئيس لجنة التنسيق للاحتفال بالعيد الرابع والثلاثين للاستقلال فابتدرني قائلاً إني موفد من قبل لجنة الاحتفال لا نقل إليك قرارها القاضي بتكليفك بإلقاء كلمة نيابة عن الرعيل الأول لأنك ممن عايشوا تلك الأحداث وذلك في الساعة الثامنة من صباح يوم بعد غد أمام الحشود وجموع المسيرة بعد طوافها بشوارع المدينة ابتهاجاً بهذه المناسبة الحبيبة وبعد نهاية المسيرة سيخاطبها السيد الضابط الإداري بالإنيابة ونيابة عن مجلس قيادة الثورة يعقبه السيد ديومة ليقول كلمة المدينة ومن ثم يجي دورك لتقول كلمتك .

فاعذرت لسببين الأول لضعف الذاكرة والثاني لتتجمع أحداث طال عليها القدم وعفت الذاكرة عن الكثير من أحداثها فهلا سمحتم واخترتم غيري قال هذا قرار اللجنة ولا يمكن الرجوع عنه فلا بد من مساهمتك بقدر المستطاع ولا تثريب عليك ولما لم أجد مناص من أن أجيب لهذا المطلب وكانت أخيراً هذه القصيدة التي أوردتها هنا لتكون خاتمة لهذا الكتاب رغم إنها لم تكن من الجودة بمكان ولكن جهد العقل والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق .

بسم الله الرحمن الرحيم

1990/1/1م

قفي يا أخت عاصم وأصغ لشاديها

واعلمي الفكر إمعاناً في مراميها

ولا تلقي القول على عواهنه

فالأمر بالخواتيم رهن أو بعض ما فيها

يا أخت عاصم نحن اليوم في عرس

دفع آباؤك المهر غال يساويها

عروس ابنا النوق العصافير مهرا

وارتضيت الروح أو دم يروي أراضيها

هي الأوطان في دم كل حر ضريبتها

حين الفداء أو نادى مناديهـا
تواثب بنوها كالأسود في كل فج
لينقذوا وطناً من ويلات يقاسيهـا
وتصدي لها الأزهرى يحمل أمانتهـا
وحوله فتية شرعوا سمرأ عواليهـا
ثورة الحديد والنار أحلى مظاهرهـا
فما تقاعست فواطمهـا وما توانت هناديهـا
عقدوا العزم والقوا. الحلف بينهم
الأوطان تحميها وتعادي من يعاديها
ما كلت عزيمتهم يوماً ولا وهنت
والموت ينهال من جنباتها وحواشيهـا
ما ناموا ولا هنيء الدخيل بنومه
وزلزلوا الأرض حتى مادت رواسيهـا
وتنادوا للحرب واستلوا سيوفهم
ومن دم الأعادي ارووا صوديهـا
ومن مؤتمر الخريجين أولى شرارتها
كلما خبت اعدوا لها ما يزكيها
أحرقنا ما حولها واشتد أوارها
وعمت البلاد أقاصيهـا أدانيهـا
أبلو بلاء حسناً في سبيل نصرتهـا
والحسنين شعاراً فاز من يلاقيها
ولما لم يجد الدخيل غير الرحيل بدأ
أمام عزم الرجال في قراها وبواديها
رحل عنا وهو يداري وجهه خجلاً

من هزيمة لحقت به نكراء يعانيها

أنزلت رايات الذل وهي منكبة

وأخذت مكانها راية العز في سواريتها

مرت الأيام على مر الجديدين دوره

تمخضت عن رجال همهم موقع كراسيها

عمت الفوضى واستشرى الفساد ضحى

والأمن مزعزع الركن في كل نواحيها

وأطلت المحبوبة برأسها في كل مرفق

هذا ابن أخت وصهر واختالوا بها تيهها

بلا علم ولم يأخذوا من الأيام تجاربها

غيران الوزير من أقاربه وهو حاميتها

وضاقت الأرض بساكنيها بما رحبت

وضج الشعب من فوضى وكل من فيها

تسير البلاد نحو هاوية لا قرار لها

وقاب قوسين أو اقرب كان ترديها

نستجدي الشعوب هم دوننا كرمأ

يتعالوا ونطاطئ الرأس نداريها

بعنا ماء الوجوه كمن بارت تجارته

وضاعت ارومتا فمن كان يدانيها

وما بخلت سماءنا يوماً ولا

الأنهار جفت في مجاريها

فما معني المجاعات التي تلازمنا

شغل الولاة بخاصتهم من معانيها

والأرض تأكل قوتاً مخزوناً بباطنها

وفي الجنوب موتى لم نأخذ بأيديها
يد التخريب قد نشطت معاولها
هدما الأرض والعمر أيضاً مبانيتها
واليوم تصايحت بومات من خرائبها
وأخريات من جنبات الوادي تتناغيها
فأظلمت الدنيا في وجه كل أبي
عزيز النفس جاء بعد اليأس راعيها
من بين صفوف الجيش انبري عمر
وصحب له اختارهم للهوجاء حاديها
تجمع الشعب وطغت فرحة كبرى
تعالى صوتهم (اخذ القوس باريها)
انزاح كابوس اقلق مضاجعنا
حزبية ضعفيه هي من صنع بانيها
وفي كل يوم يد بيضاء تطالعنا
بإصلاح جديد لما أفسدت أيد باغيها
بذلوا خوفنا أمانا والفساد نزاهة
والحرب سلماً وهو جزء من مبادئها
يا أخت عاصم أخت في الجنوب تتادي
هل لك أن نجيبني أو أن تواسيها
قد عضها ألم الجوع وناء بكلكل
بعد ضعف الضلوع شبت تراقبها
تبكي صغاراً لها والموت يحصدهم
بكاء الناكلات وما جفت مآقيها
قولي لجون إن كنت من عيسى وملته

فما المانع أن تكون من حواريتها
والسلم اصل في الملتين دون مري
ولن تجد منقذاً إلا في تأخيرها
نحن نبني للسودان مجدا أنت تهدمه
وعلى النقصين أيان تلاقىها
إننا جنحنا للسلم فاركب سفينتنا
وأنت آمنة قبل أن تطوي مراسيها
واعلم أن للسلم دربا نحمي مسالكه
وللموت حوضاً ترده فتنهشك عواذيتها
ونحن أبناء قوم طابت ارومتهم
لا أسد تخيفها ولا يخشوا صواريخها

الاسم	عن طريق	عدد الأميال
جوبا - مريدي	السلطان جامبو - الشارع الرئيسي	250
جوبا - مريدي	عن طريق ركن	190
جوبا - ياي	طريق فرعي	100
ياي - أبا	أول مركز للكنغو	38
مريدي - رومبيك	عن طريق مامبولو	235
مريدي - يرول	عن طريق مامبولو	126
مريدي - شامبي	عن طريق راس أولو	35
مريدي - أنقا مندي	عن طريق ياي جنوب مريدي الحدود بين مريدي والكنغو	14

22	طريق فرعي جنوب غرب مريدي	مريدي _ باكندو
36	انجيما شمال غرب مريدي	مريدي _ السلطان
40	عن طريق مندرية (قرية أبولو)	مريدي _ كريكا
46	عن طريق نهر مريدي (قرية يتبا)	مريدي _ أنجيما
16	علي مدرجي شمال غرب مريدي قرية أبفو	مريدي _ السلطان
40	كليسو جنوب شرق	علي مدرجي _
21	نهر مريدي _ بور طريق فرعي علي مدرجي	مريدي _ كييري
26	الطريق الرئيسي مريدي انزارا غرب مريدي	مريدي _ يبا
50	جنوب غرب طريق فرعي	مريدي _ نابانقا
120	السلطان عثمان بروكا شمال غرب	مريدي _ نافورا
عدد الأميال	عن طريق	الاسم
137	87- انزارا 15 برقو 35	مريدي _ يامبيو
195	150 سوى شمال طمبرا بندلا 45 طريق رئيسي	مريدي _ طمبرا
35	وعزة جنوب شرق طريق فرعي	مريدي _ جبل صالح

ملحوظة :-

كل المقاسات في الجنوب على أساس الميل المقاسات نهاية وقوف العربية بعدها يبدأ السير على الأقدام والتجول داخل الغابة وقد يستغرق الأميال الكثيرة .
بعض هذه المناطق قد تكرر زيارتها مرات كثيرة في العام الواحد .

أصوات الكلمة العربية

توجد بين قبائل العرب في منطقة الليري بعض كلمات عربية لا يستطيع الإنسان فهمها لما أصابها من تحريف وهي متداولة وفي جميع أوجه الحياة أذكر منها على سبيل المثال حتى يمكن فهمها إذا ما وجد بعضها بين هذه الذكريات :

الكلمة	معناها
التلمه	الأرض البور تزرع للعام الثاني
سارايا	الأرض تزرع سنوياً
الكلنكي	الحد بين زرعين
الشوبتيه	الملود
الجرايه	الملود أيضاً
الكمبله	ربطه السمسم
العرانه	القفه أو النطع
الحجله	كلمة عربية فصحي معناها الستر وجمعها ستاير
الحجيل	تصغير حجله فصحي
حربره	نوع من القش يلون بالثقتة
الجنقو	الثوب القديم
الهميده	قطعة من برش قديم
الرهابه	الهبابه لتوليع النار
السفين	سرج الثور
التاشه	اللبدة للثور من اللحاء
الكلول	البرمه
التكول	بخسه صغيرة واسعة الفم
التبريب	الحوض لسقاء البهائم
الرنبويه	الدلو من القرع

أم صنفلويه	الكيس من القماش
التكره	من جلد لحمل الزيوت
الكوزي	محل سكني الرحل
الكوز	محل مبيع اللبن
التكه	حفرة الدجاج الذي يبيض فيها
أم جماديه	أرض تحتها ماء تغوص رجلك مجرد وطئها
أم سابو	الصمغ عندما يبتل بالماء ويجف ثم يعرض للبيع
النزعه	ضفيرة من سيور الجلد
القنجه	ثوب الدمور البلدي
المانجير	الملح كان يعمل على هيئة قمع السكر
اللوكدايه	الراكوبه
الكلب	شعبه توضع على مدخل الدار لئلا تتخطاها البهائم
المقرح	طريق بين جبلين
الشغال	الشرقوق من أدوات القهوة
الضرابه	الويكه
الدوال	الركاب للخيـل
الفاعوص	لجام الخيل (بلدي)
العلكه	شمع العسل
الكنراكه	الدملوج مستخرج من اللالوب
الدندور	عيدان شجر الدوم يحمل السقف
النجاج	زعف ملفوف ينسج به العنقريب (السرير البلدي)
أم كجيجي	مجموعة من أعشاب ذات ريحة تستعمل كدهان للشعر
ام درناحه	العنتت (حشرة معروفة)
شاكدين	لكن

بحين	من الصباح أو مفاجأة
انتحن	أصابته المحنة أو الحيرة
اللدينه	بعد بكره
السويبه	مخزن المحصول
الشلكاية	الحربة
طرين	أي سنين حاد
السندالي	الحداد أو الصائغ
المكاني	الترزي
الدَّله	الجلد
أم كريمات	البرنوق
الشكنابه	القرعة الكبيرة
الدَّبله	نبات يؤدي وظيفة الكربونات للملاح
التفرك	التدليك
الطَّمِرْ	الطعن بالحربة
الجرديق	الغناء بالمدح أو الهجاء
الهداي	المغني
أم كي كي	آلة موسيقية ذات وتر واحد من السبب
النو غابه	الحرباء
الدفار	الحجاب الطويل للمرأة
الربق	مجموعة من الحجب تلبسها الفتاة على جانبيها
خنس	أي خز تفادياً للتصادم
أم مباط	عيش الريف
الفولة	مستنقع من الماء
اللضا	مستنقع من الماء

لاض	فعل ماضي بمعنى رجع
الشوافه	المرآة
الرقابة	المرآة
العلجه	نوع من البطيخ يستعمل حبه كتسالي
السرنه	لحم اللالوب يسلب ويوضع على أوعية ويؤكل
القاطر	السن أو الناب للإنسان
الدرمود	معسكر الصيادين في الغابة
البوشاني	الذي يمدح بغرض الكسب
عَرَدَ	فر من المعركة
الخنفر	الظفر أو المخلب
الدّواس	القتال
السيبه	الهمله
التجاض	المزرعة حول الدار
الكمكلى	وهو الخارج عن الانتساب لإحدى التجمعات البرامكة والترك
السباره	هم حكام الصراع
ابو خديج	المشاي بالنسيمه
ملباط	المدعي بغير حق
مُورَتْ	الموروث من مال ومتاع
كَوْ	لا
بَنَّا	تاني بمعنى العوده الى الشيء
الديناب	الحجرة المبنية من الطين
الخلقات	الثياب
القندر	سنابل الذره بعد الدق
الدقوني	المشكاب

الدالايه	الدرب
الخمال	خرز يربط على صلب المرأة
نَوَّه	الآن
الرهد	المستقع الكبير من الماء
الرهيد	تصغير رهد
مارن	لين الملمس
العطفه	مظلة تربط على ظهر البعير
الشقدف	أو الثور لوقاية النساء والأطفال
الشبريه	من المطر وحرارة الشمس أثناء سير القافلة
الدبلوك	الدردوم
الكدو	الغبار
العلاج	من فصيلة البطيخ ينمو على القيزان حبه يستعمل للتسالي

حواشي الفصل السادس

- (1) بالنسبة للجانب لا بد أن نشير الى كتابات البروفيسور Evans . Pritchard عن النوير وكتابات Howell عن الشلك ولمن يرغب في المزيد عليه بمكتبة السودان بجامعة الخرطوم.
- (2) حرف الكاف وهو في معظم لغات ولهجات النوبة أداة تعريف مثلاً مدنهم كادقلي ، كلكده ، كوارا ، وكالو . وجللهم : جبل كجول ، وجبل كاي وجبل كاكجو وجبل كرندي . وفي اسماء الرجال : كوه - كوندرفه - كوكو - كاجا - كاكوم - كبنقا . وفي اسماء النساء كاكاشا - كاشا - كالا - كالو .
- ولتاريخ ولغات النوبة يمكن الرجوع الى كتاب The Nuba / by Nadel وهو من مطبوعات جامعة اكسفورد ويعتبر من أهم المراجع الاساسية عن قبائل جبال النوبة .
- (3) في التراث الشعبي السوداني يرد التمساح كثيراً ومن أشهرها تمساح الشايقية بالشمالية ابان فترة الحكم التركي الذي فتك بالانسان والحيوان على طول نهر النيل بمنطقة الشايقية وتقول الرواية ذهبوا الى المادح المشهور حاج الماحي الذي دعا على التمساح في قصيدة طويلة تتألف من حوالي خمسين بيتاً استطاع فيها أن يستغيث ب 99 ولياً من أولياء الله الصالحين المشهورين في السودان - وتقول الرواية أن التمساح ظهرت جثته وطففت فوق النيل وبعد سحبها وجدوا عليها إثار ال 99 ختماً بعدد الاولياء الذين استعان بهم أو هكذا زعموا .
- والقصيدة تعتبر من فرائد أدب المديح الذي يقدم في اذاعة امدرمان من وقت الى آخر.
- (4) العسلية مشروب بلدي يصنع من الذرة المخمرة وكثيرة السكر .
- (5) انتقل العم عباس الحاج مهدي الى رحمة مولاه بعد اعداد هذا الكتاب وشيعة الأهل والحبان وزرّفوا عليه الدمع فقد كان رحمة الله عليه شخصاً محبوباً مع الصغار والكبار وله علاقات واسعة مع الجميع - الا رحم الله السيد عباس حاج مهدي .

المحتويات

	الفصل الأول
٥	- المقدمة
٦	- تمهيد
١٦	- البداية
١٨	- عود على بدء
٢٥	- صيد الطيور
٢٨	- التمساح
٣٤	- كلية غردون
٣٩	- الأستاذ أحمد عثمان القاضي
٤١	- الأستاذ القرضاوي
٤٢	- الحراسة ليلاً
٤٣	- نائب المأمور المغرور
٤٧	- سبب عدم مواصليتي للدراسة والقيام لملكال
٥٦	- ثورة دوال ديو
٥٩	- الصيد بالأنوار الباهرة
٦٠	- الإصابة الأولى : كسر الفخذ
٦٤	-الهوامش والتعقيبات
	الفصل الثاني
٧٣	-الشلك (١) الأصول والمعتقدات
٧٧	-الشلك (٢) المك فافيتي
٨٢	- الشلك (٣) العادات : الخطوبة والزواج
٨٥	- العادات : زواج امرأة من امرأة أخرى

٨٦	- رياضة الصبيان
٨٨	- العادات : دفن الموتى
٨٩	- الأب وكبر السن
٨٩	- العادات تسمية المولود عند الشلك
٩٠	- الشلك (٤) المسكن والمأكل
٩٢	- العناية بالثروة الحيوانية
٩٣	- الواك
٩٤	- هل تفهم البقر ما يقال لها
٩٨	- الزمبارة - الناي
١٠٠	- الإستهتار بحياة الانسان
١٠١	- صيد القرنتي (فرس النهر)
١٠٤	- إقتحام النار
١٠٥	- مركز تونجة
١٠٧	- القرن الشلكاوي
١١١	- المفتش البريطاني يتعرض للضرب
١١٤	- الحرب العالمية الثانية
١٢٠	- الصيد في الواكات حول نقطة بوليس واو
١٢١	- النمر جد القبيلة
١٢٢	- لقاء مع المفتش وندر
١٢٥	- لقاء مع قطيع أفيال
١٢٥	- بداية التمرد بملكال
١٢٩	- رحلات على الشروك
١٣٤	- ملكال ورحلات الدمورية
١٣٨	- رحلة مع الرضي في بلاد النوير

١٤٤	- أبقر الناصر (المجوك)
١٤٨	- اليد = رطلاً : من أساليب التجار
١٤٩	- تمباك (رزق الله - قمبيلا)
١٥١	- المحافظة على البيئة
١٥٦	- تبارك الله أحسن الخالقين
١٥٩	- التشاؤم و الطيرة
١٦١	- الحواشي
	الفصل الثالث
١٦٩	- الليري (١) : المجتمع والسكان
١٧٦	- الليري (٢) : الأشجار الحيوانات والطيور
١٨٠	- طريقة صيد الفيل عن طريق الخيل
١٨٢	- كرندي وأرض القنعان وأفران الحديد
١٨٤	- سر حريق الجبل
١٨٧	- صراع النوبة
١٨٩	- وجبة من لحم الزراف
١٩٠	- الخشب المضىء
١٩١	- تسلق جبل طنقرو
١٩٣	- رياضة الخيول وتعلم الفروسية
١٩٤	- تنصيب مك النوبة
١٩٦	- ثورة المك كوبونقو
١٩٩	- العيد بكادقلي
٢٠٤	- منظمات طوعية
٢٠٨	- غابة العرب وكيد المستعمر
٢٠٩	- رحلة للفيوض

٢١٢	- حسد الإنجليز وذهب تلودي
٢١٥	- عالم الجن
٢١٦	- خرافه هي أم حقيقة
٢١٨	- صنع البارود
٢١٩	- الخيل
٢٢٣	- داء الكلب (السعر)
	الفصل الرابع
٢٤١	- مواجهة مع مدير الإستوائية
٢٤٨	- رحلات صيد حول مدينة جوبا
٢٤٩	- طلب لمزرعة نموذجية
٢٥٤	- منشار كتري
٢٥٥	- استشهاد بعض أفراد الجيش
٢٥٧	- إغتيال أحد أفراد البوليس بتوريت
٢٦١	- النعام
٢٦٥	- جبل نقاشوط يدخل التاريخ
٢٦٧	- وحيد القرن يسكن الإستراحة
٢٦٨	- ضباط الجيش يشاركوننا النادي بمريدي
٢٧٠	- حواشي الفصل الرابع
	الفصل الخامس
٢٧٩	- مريدي
٢٨٤	- وصف الجاموس
٢٩٠	- الجاموس يشرب دمه
٢٩١	- قوة ملاحظة الخبير
٢٩٢	- أثر الجاموس على الصخر

٢٩٥	- أبولو مفتش الشفخانات
٢٩٨	- قصة قرد
٢٩٩	- جاموسان يتصارعان
٣٠١	- مقتل السلطان صالح مدرجي
٣٠٣	- تدمير الجيش بمريدي
٣٠٦	- مهيد ورخصة الفيل
٣٠٩	- رحلة الخطر مع أبوقو
٣١١	- رحلة على نهر مريدي
٣١٦	- السلطان على مدرجي يتعرض للاغتيال
٣١٩	- الصاعقة تهشم الشجرة التي نحن تحتها
٣٢٥	- نابانقا وحمامة السلام
٣٢٧	- المنجم والكهف المهجور
٣٣٣	- صالح وعزة
٣٤٠	- البيغاء السوداني
٣٤١	- بندلا واستدراجنا للوقوع في الفخ
٣٤٦	حواشي الفصل الخامس
	الفصل السادس
٣٤٩	- البابل
٣٥٠	- نساء يدخلن التاريخ
٣٥٣	- اقليم بحر الغزال
٣٥٦	- شجرة الهجليج
٣٦١	- البن
٣٦٧	- الأسد
٣٧١	- التمساح

٣٧٩	- الحنظل
٣٨٣	- نبات التيلبون
٣٨٥	- متنوعات
٣٨٧	- أبو شوك
٣٨٨	- البطيخ
٣٩٠	- حب العروس
٣٩١	- من هو الصياد
٣٩٥	- رخصة الصيد
٣٩٨	- فرصة لن تعود
٤٠٣	- الخاتمة
٤٠٨	- قصيدة شعرية
٤١٢	- الملاحق
٤١٩	- الحواشي

مركز قاسم للمعلومات و خدمات المكتبات

- تأسس هذا المركز من أجل المساهمة في تنمية و تطوير المكتبات بالسودان بكل أنواعها و مسمياتها .
- من أجل المساهمة في تنمية و تطوير الثقافة المكتبية بين كل قطاعات المجتمع السوداني.
- من أجل توفير خدمات لقطاعات عريضة من الباحثين و الدارسين في التوجيه و الإرشاد و الإشراف في مجالات البحوث العلمية .
- من أجل توفير و تدبير أدوات البحث العلمي و إعداد القوائم البيبلوغرافية العامة و المتخصصة.
- من أجل تقديم الخبرة و الإرشاد و التوجيه في مجال المكتبات و المعلومات للمستفيدين من الجمهور أو المؤسسات العاملة في المجال .
- من أجل طباعة و نشر الدراسات السودانية في مختلف المجالات .
- إعانة الباحثين و الدارسين في الحصول على المراجع و إتاحة الاطلاع و مدهم بالقوائم المتخصصة التي تعينهم في وضع خططهم و برامجهم و حصر مصادرهم و مراجعهم .
- إمداد المكتبات و مراكز المعلومات بالأدوات و الأجهزة و المعدات التي تعينهم على التنظيم و الفهرسة و التصنيف و الكشف لمجموعاتهم وفقا لأحدث التطورات في مجال المكتبات و المعلومات .
- إقامة المعارض و المشاركة فيها داخليا و خارجيا لنشر الثقافة و المعرفة ..

مركز قاسم للمعلومات و خدمات المكتبات
الخرطوم (2) شارع ابراهيم المفتي _ جنوب وزارة الثقافة
ص.ب 835 الخرطوم هاتف: 463380

قائمة الاصدارات :

- 1- دليل الصحف و المجلات السودانية / اعداد د.قاسم عثمان نور .
- 2- العولمة/ بقلم بروفيسور زكريا بشير امام
- 3- ذكريات ضياد/ بقلم الشيخ عثمان أحمد محمد نور
- 4- مصادر الدراسات السودانية (الكتاب الرابع) / اعداد د.قاسم عثمان نور
- 5- بيليوغرافيا الاسلام من السودان: ج 1/ اعداد د.قاسم عثمان نور
- 6- بيليوغرافيا اللغة العربية من السودان: ج 1/ اعداد د.قاسم عثمان نور
- 7- أضواء على الحركة الوطنية السودانية بقلم د.قاسم عثمان نور
- 8- الشاعر محمد المهدي المجذوب/ اعداد د.قاسم عثمان نور
- 9- المشكلات و الصعوبات التي تواجه تعليم اللغة العربية/ اعداد د.قاسم عثمان نور.
- 10- التجاني يوسف بشير و الروائي الطيب صالح / اعداد د.قاسم عثمان نور
- 11- كيف تكتب بحثا أو رسالة جامعة / اعداد د.قاسم عثمان نور
- 12- ديوان الفجر و النهضة/ جمع و تحقيق د.قاسم عثمان نور و الأستاذ محمد مهدي محمد شمه
- 13- الكوة التاريخ و الرجال / بقلم عثمان أحمد محمد نور و ابنه د.قاسم عثمان نور

أعمال تصدر قريباً :

- 1- قناة جونقلي و أثارها البيئية و الاقتصادية على المنطقة :ملاحظات ومشاهدات شاهد عيان
- 2- المكتبة المدرسية: الوظائف و الأهداف و التنظيم و الإدارة
- 3- البليوغرافية السودانية في قرن
- 4- بليوغرافيا البليوغرافيات السودانية
- 5- الامام عبد الرحمن المهدي: رجل القرن العشرين في السودان
- 6- بليوغرافيا التعليم في السودان (الكتاب الأول)
- 7- الكتاب و المكتبة في الحضارة الاسلامية : منظور تاريخي

كتب تحت الطبع :

- 1- المرجع في علوم المكتبات و المعلومات
- 2 - كتاب اليوم :عرض لمجموعة من المؤلفات السودانية
- 3 - البرفسور عبد الله الطيب من خلال مؤلفاته
- 4 - البرفسور محمد ابراهيم أبو سليم :من خلال مؤلفاته
- 5- شخصيات سودانية معاصرة
- 6- شخصيات و أحداث من تاريخ السودان الحديث
- 7- مؤلفات الشخصيات و الانساب و المدن السودانية
- 8- مؤلفات سودانية عرض و تلخيص
- 9- أوراق و أقلام :مجموعة مقالات
- 10- يوميات و نوافذ:مجموعة مقالات
- 11- المكتبة و البحث العلمي
- 12- ممالك و ملوك و سلاطين و شيوخ و حكام السودان من أقدم العصور وحتي عام ألفين ميلادي
- 13- التعليم عن بعد و مسار التعريب في الجامعات السودانية
- 14- المكتبات و المعلومات

- 15- تكنولوجيا المعلومات
- 16- قضايا التوثيق و الوثائق السودانية
- 17- المكتبة الوطنية في السودان :الوظائف و الأهداف
- 18- بيليوغرافيا جنوب السودان (باللغتين العربية و الانكليزية)
- 19- بيليوغرافيا المرأة السودانية (باللغة الانجليزية)
- 20- بيليوغرافيا العلاقات العربية الأفريقية
- 21- بيليوغرافيا الحركة الوطنية السودانية
- 22- مصادر و مراجع الحركة الوطنية السودانية :عرض و تلخيص
- 23- صحف و صحفيون
- 24- التكشيف و الاستخلاص : كتاب منهجي لطلاب أقسام المكتبات بالجامعات السودانية
- 25- اليهود: التاريخ و الأطماع

رقم الإيداع 162/2004

الطابع دار القلم العربي

حلب - سوريا

ص.ب : 78